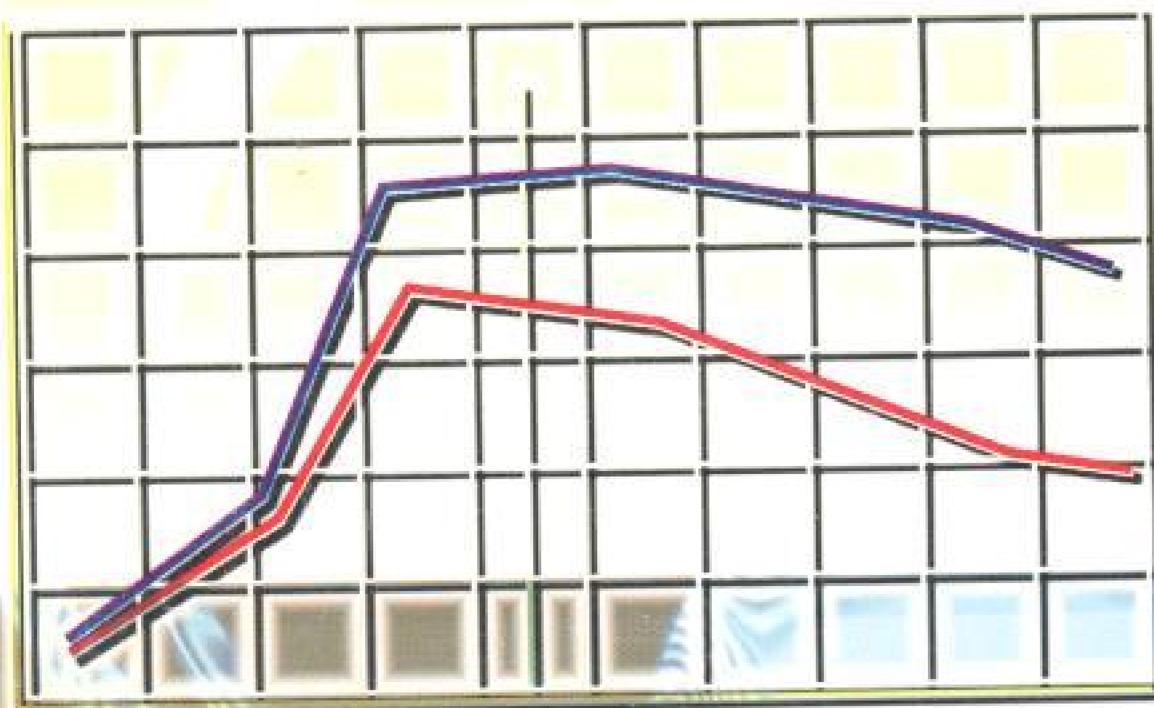
علم اللغة الاجتماعي للمجتمع

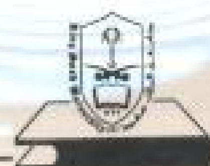
تأليف

رالف فاسولد



ترجمة

الدكتور إبراهيم بن صالح محمد الفلاي



جامعة الملك سعود

النشر العلمي و المطابع

علم اللغة الاجتماعي للمجتمع

تأليف

رالف فاسولد

أستاذ اللغويات

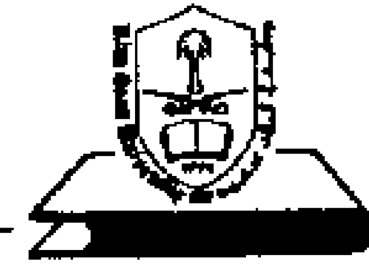
قسم اللغويات – جامعة جورج تاون – واشنطن دي سي – الولايات المتحدة الأمريكية

ترجمة

الدكتور إبراهيم بن صالح بن محمد الفلاي

أستاذ مشارك

قسم اللغة الإنجليزية – كلية الآداب – جامعة الملك سعود



النشر العلمي والمطابع - جامعة الملك سعود

ص.ب ٦٨٩٥٣ - الرياض ١١٥٣٧ - المملكة العربية السعودية

هذه الترجمة عربية مصرح بها لكتاب:

The Sociolinguistics of Society
By: Ralph W. Fasold
Published by: Blackwell Publisher Ltd. Oxford OX4 1JF. UK. 1st.ed. 1984, Reprented 1996.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فاسولد، رالف

علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة إبراهيم صالح محمد الفلاي – الرياض.

٦١٧ ص؛ ١٧سم X ٢٤ سم

ردمك: ٣-١٧٤-٣٧-٩٩٦٠

١- علم الاجتماع اللغوي أ- الفلاي، إبراهيم صالح محمد (مترجم)
ب- العنوان

ديوي ١٩، ٤٠٠ ٢١/٣٠٥٥

رقم الإيداع: ٢١/٣٠٥٥

حكّمت هذا الكتاب لجنة متخصصة شكلها المجلس العلمي بالجامعة، وقد وافق على نشره بعد اطلاعه على تقارير المحكمين في اجتماعه الرابع عشر للعام الدراسي ١٤٢٠/١٤٢١هـ المعقود في ٧/١١/١٤٢٠هـ الموافق ١٣/٢/٢٠٠٠م.

النشر العلمي والمطابع ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

الفصل السادس

المواقف اللغوية

المواقف اللغوية: ما هي أسبابها؟ وما هي ماهيتها؟

يركز هذا الكتاب في الجزء الأكبر من مقدمته على موضوع المجتمع بأسره. ولكن المجتمعات تتألف من أفراد، ويتجلى جل ما يفعله الناس باللغة في مجتمعهم عندما يتحدث فرد مع فرد آخر. سيتركز الحديث في هذا الفصل وكذلك في الفصل التالي (السابع) على الأفراد وما يفعلونه باللغة في مجتمعهم. وسنهتم بشكل خاص بطرق علم الاجتماع ونظرياته التي لم يسبق أن تطرقنا إليها، وبالتحديد سنتناول علم النفس الاجتماعي. من بين المواضيع التي وجدها علماء النفس الاجتماعي مفيدة للدراسة موضوع المواقف اللغوية.

وتبدأ دراسة المواقف بشكلٍ عام بقرار يتعلق بنظريتين متنافستين حول طبيعة المواقف اللغوية. ترتكز معظم الأبحاث المتعلقة بموضوع المواقف اللغوية على تصور ذهني للموقف كحالة مهيأة تعتبر متغيرا يتداخل بين منبه خارجي يؤثر على شخص ما، وبين استجابة الشخص لذلك المنبه (أغيس وفيشمن ١٩٧٠، ص ١٣٨ ؛ كوبر وفيشمن ١٩٧٤، ص ٧). وبناء على وجهة النظر هذه، يمكن القول إن موقف الشخص يجعله مستعدا (مهيأ) ليستجيب لمنبه ما بطريقة ما غير سواها. يقدم وليامز (١٩٧٤، ص ٢١) تعريفا فكريا نموذجيا حول معنى الموقف بقوله: "يعتبر الموقف حالة داخلية يثيرها منبه خارجي من نوع ما قد يؤدي إلى استجابة الكائن الحي اللاحقة". لكن وجهة النظر هذه تسبب بعض المشاكل للطريقة التجريبية، وذلك لأنه

إذا اعتبرنا أن الموقف هو حالة مهيأة داخلية بدلا من كونه استجابة ظاهرة للعيان، فعلينا إما أن نعتمد على تقارير الأشخاص حول ماهية مواقفهم وإما أن نستنتج هذه المواقف بشكل غير مباشر من نماذج التصرف. وكما نعلم فإن المعطيات المستقاة من التقارير الشخصية غالبا ما تكون ذا مصداقية مشكوك بصحتها، والاستنتاجات المستخلصة من سلوك الأشخاص غالبا ما تذهب بالباحث بعيدا بعض الشيء عن ما قد لاحظه بالفعل. وحدث فعلا أن جزءا كبيرا من الجهود التي بذلت في مجال بحث المواقف اللغوية جنحت لاستنباط تجارب بارعة صمِّمت أصلا لإظهار المواقف، دون علم الخاضعين للتجربة بهذه العملية.

أما الرؤية الأخرى للمواقف فهي *الرؤية السلوكية*. وطبقا لهذه النظرية، فإن المواقف تكمن ببساطة في الاستجابات التي تصدر عن الأفراد تجاه الحالات الاجتماعية. وهذه الرؤية تجعل من الأيسر إجراء البحوث حيث إنها لا تحتاج إلى تقارير ذاتية أو استنتاجات غير مباشرة. فمن الضروري فقط ملاحظة السلوك الظاهر للعيان وجدولته وتحليله. لكن المواقف من هذا النوع لن تكون جذابة تماما كما لو عرِّفت بناءً على أسس النظرية الذهنية؛ لأنه حسب رأي أجيسي وفيشمان(١٩٧٠، ص ١٣٨) لا يمكن استخدامها للتنبؤ بالسلوكيات الأخرى. ومع ذلك، لا يمكن بالتأكيد استبعاد المنهج السلوكي المباشر الذي تعتبر فيه المواقف نوعا واحدا من الاستجابة لمنبه خارجي.

وهناك مسألة أخرى تبرز عند دراسة المواقف، وهي فيما إذا كان لهذه المواقف مكونات فرعية يمكن التعرف إليها. وبشكلٍ عام، يمكن القول إن علماء النفس الاجتماعيين الذين يقبلون التعريف السلوكي ينظرون إلى المواقف على أنها وحدات مستقلة. وعادة ما يعتبر أنصار المذهب العقلاني أن للمواقف أجزاء فرعية مثل العنصر الإدراكي (المعرفة) والعنصر الوجداني (الإحساس) والعنصر النزوعي (الإرادي)

(أجيسي وفيشمن ١٩٧٠، ص ١٣٩، كوبر وفيشمن ١٩٧٤، ص ٧). وقد قام عدد من العلماء بصياغة نماذج معقدة نسبيا للعناصر المكونة للموقف، ولكننا لن ندخل في تفاصيل هذه الأمور هنا (راجع أغيسي وفيشمن ١٩٧٠، ص ١٤٠).

ويكمن اهتمامنا بالطبع بالمواقف اللغوية، وليس المواقف بشكل عام. فالمواقف اللغوية تختلف عن المواقف الأخرى في أنها تتعلق تحديدا باللغة. إن بعض دراسات المواقف اللغوية تقتصر بصورة صارمة على المواقف نحو اللغة ذاتها. ويسأل أفراد العينة (الراوية) عما إذا كانوا يعتبرون ضربا لغويا ما "غنيا" أم "ضعيفا"، "جميلا" أم "قبيحا"، أيبدو "ناعما" أم "فظا"، أو ما شابه ذلك. غير أنه في معظم الأحيان يتسع تعريف المواقف اللغوية ليشمل المواقف تجاه المتحدثين بلهجة أو لغة معينة. وهناك توسيع أكبر لتعريف المواقف يسمح بالتعامل مع كافة أنواع السلوك الخاص باللغة، بما في ذلك المواقف نحو الإبقاء على اللغة وجهود التخطيط لذلك. والبحث الذي سنلخصه في هذا الفصل يعالج المواقف اللغوية من وجهة نظر وسيطة، بما في ذلك المواقف تجاه متحدثي الضروب اللغوية المختلفة، وليس اللغة ذاتها فحسب.

وإذا ثبت أن *المفهوم الذهني* للمواقف اللغوية كان صحيحا، فإننا إذا عرفنا عندها مواقف الفرد سنكون قادرين على التنبؤ بسلوكه الخاص تجاه هذه المواقف بدرجة كبيرة من الدقة. وقد ذكر كوبر وفيشمان (١٩٧٤، ص ٥) عدة ظواهر تتأثر بالمواقف اللغوية. إن تغير الصوت أثناء الكلام يتأثر بما يفضله المجتمع اللغوي (الجماعة اللغوية) (بيلي ١٩٧٣) ويتوقف أحد تعاريف "المجتمع اللغوي" على المواقف اللغوية الجماعية (لابوف ١٩٦٦).[1] فالمواقف تجاه اللغة غالبا ما تكون انعكاسا للمواقف تجاه أفراد الجماعات العرقية المختلفة. هناك بعض الأدلة على أن المواقف اللغوية يمكن أن تؤثر على طريقة تعامل الأساتذة مع طلبتهم (فرنلر ولامبرت ١٩٧٣؛ سليفمان وتكر ولامبرت ١٩٧٢)، وعمل فريدريك وليامز ورفاقه (مثلا وليامز ١٩٧٤)

وخدمات الموظفين (ري ١٩٧٧). وأدلة أخرى تشير إلى أن المواقف تؤثر على تعلم اللغة الثانية (مثال على ذلك ما ذكر لامبرت وآخرون عام ١٩٦٨م). بل قد يبدو من المعتاد أن يكون للمواقف اللغوية أثر على مدى فهم ضرب لغوي ما (وولف ١٩٥٩). فإذا كان لدينا ضربان لغويان مرتبطان بشكلٍ وثيق، فإن متحدثي اللغة ذات المنزلة الأعلى قد لا يكونون قادرين على فهم اللغة الأخرى، ولكن يمكن أن يفهمهم متحدثو اللغة ذات المنزلة الأدنى. وإذا كانت هذه الارتباطات بين المواقف والظواهر الاجتماعية الأخرى حقيقية، فإن لدراسة المواقف اللغوية مكانا مهما في علم اللغويات الاجتماعية.

مناهج بحث المواقف اللغوية

المنهج المباشر وغير المباشر

قد تكون مناهج تحديد المواقف نحو اللغة مباشرة أو غير مباشرة. ويتطلب المنهج المباشر بشكل كامل من أفراد العينة أن يستجيبوا لاستبيان أو أسئلة مقابلة تسألهم ببساطة عن آرائهم حول لغة ما أو أخرى. أما منهج البحث غير المباشر بصورة كاملة فمصمم لترك (أفراد العينة) في جهل تام حول حقيقة أن مواقفهم اللغوية هي التي ستكون قيد البحث. وأحد الأمثلة على هذا النوع من المناهج وصفه كوبر وفيشمن (١٩٧٤م، ص ص ١٦-١٧). وكان كوبر وفيشمن مهتمين باختبار الفرضية القائلة بأن المواقف نحو اللغة العبرية في إسرائيل تجعلها أكثر فعالية كلغة للمناقشات العلمية، أما اللغة العربية من ناحية أخرى، فستكون أكثر فعالية في نقل الحوارات الإسلامية التقليدية. ولاختبار هذه الفرضية، طلب من مجموعة من البالغين المسلمين الذين يتحدثون لغتين، هما العربية والعبرية، أن يستمعوا إلى أربعة مقاطع مدة كل واحد منها دقيقة واحدة مسجلة بصوت متحدث طلق في كلتا اللغتين.

ويشجب أحد المقاطع مضار التبغ ويقدم دليلا علميا مؤيدا لهذا الموقف. وقد سجلت هذه الفقرة مرة واحدة بكل لغة. أما المقطع الثاني، وهو مسجل أيضا مرة واحدة في كل لغة، فقدم مناقشة ضد تعاطي المشروبات الكحولية، واستخدم حججا إسلامية لتأييد ذلك. وقسِّم المستجيبون إلى مجموعتين: إحداهما استمعت إلى مقطع التبغ باللغة العبرية ومقطع المشروبات الكحولية باللغة العربية، أما المجموعة الأخرى، فقد استمعت إلى مزيج معاكس، وطلب من المستمعين (أفراد العينة) أن يبدوا آراءهم فيما إذا كانوا يؤيدون فرض ضرائب إضافية على التبغ أو المشروبات الكحولية لتشجيع عدم استخدامها.

وكانت الاختلافات مذهلة حيث ذكر الأفراد الذين استمعوا إلى المقطع العلمي عن التبغ باللغة العبرية أنهم يؤيدون زيادة الضرائب على التبغ بنسبة ٢ إلى ١ أكثر من الذين سمعوا المناقشة نفسها، ولكن باللغة العربية. وقد حُصل على نتائج معاكسة في حالة الحوار التقليدي والحجج التي تناهض تعاطي المشروبات الكحولية حيث أجاب ضعف عدد أفراد العينة الذين استمعوا إلى الحجة باللغة العربية بأنهم يؤيدون فرض زيادة في الضرائب، وذلك أكثر من الذين استمعوا إلى هذه الحجة باللغة العبرية. وأيَّدت الفرضية، ولكن أفراد العينة لم يعلموا على الإطلاق أن مواقفهم اللغوية هي التي كانت قيد البحث، حيث كان تركيزهم موجها نحو مسائل مضار التبغ والكحوليات.

أسلوب الأداء المقارن

هناك منهج تجريبي أصبح بالفعل معترفا به كنموذج في بحوث المواقف اللغوية، سواء في صيغتها الأصلية أو المعدلة، وهو أسلوب الأداء المقارن الذي طوره واليس ولامبرت ومساعدوه (لامبرت وآخرون ١٩٦٠، لامبرت ١٩٦٧). ويهدف أسلوب

الأداء المقارن الخالص إلى سيطرة كاملة على كافة المتغيرات ما عدا اللغة. ولتحقيق ذلك جنِّد عدد من المتحدثين ثنائيي اللغة الذين يتكلمون اللغات المدروسة بطلاقة بالغة، ثم سجِّلت قراءاتهم لمقطع واحد مرتين، كل مرة بلغة مختلفة، ورتِّبت المقاطع المسجلة على شريط كاسيت بطريقة توحي بأن كل مقطع سجِّل بواسطة متحدث مختلف. فلو سجِّلت فقرات المتكلمين مرة باللغة الفرنسية، ومرة باللغة الإنجليزية مثلا، فإن التسجيل قد يبدأ بقراءة لمتحدث واحد باللغة الفرنسية، ثم يكون الصوت التالي لقراءة متحدث آخر باللغة الإنجليزية، أما الصوت الثالث فربما يكون متحدثا ثالثا يتكلم اللغة الإنجليزية، وربما كان الصوت الرابع للمتحدث الأول، ولكن بلغته الإنجليزية هذه المرة. وفي هذا الحين يفترض من المستمعين أن يكونوا قد نسوا نوعية صوت المتحدث الأول، وسيظنون أن المتحدث الرابع هو شخص آخر لم يستمعوا إليه من قبل. وبهذه الطريقة تُخلط عينتا التسجيل لمختلف المتحدثين؛ لكي يبدو للمستمع أن كل فقرة سمعها هي لمتحدث مختلف تماما. وفي النهاية سيفترضون أنهم سمعوا عددا مضاعفا من المتحدثين لما سمعوه في الواقع الفعلي.

ثم بعد ذلك يطلب من عينة من مستمعين ثنائيي اللغة من المجتمع اللغوي نفسه أن يستمعوا إلى الفقرات المسجلة ويقيموا المتحدثين حسب المزايا المختلفة، مثل الذكاء والطبقة الاجتماعية ودرجة محبتهم الصوت. وإذا كان نفس الفرد قد حصل على تقييم مختلف في تسجيله في لغات مختلفة، فإنه لا بد أن يكون الفارق الذي يفسر ذلك هو اللغة. وبما أن الشخص نفسه قد سجل العينتين فإنه لا يمكن أن تكون الاختلافات في نوعية الصوت هي التي يستجيب إليها المستمعون. واستُبعد المضمون كأحد المتغيرات، وذلك عن طريق ترجمة نسخ من المقطع نفسه المقروء في كل لغة.

وقد اتضح بالطبع أن هناك في بحوث المواقف اللغوية عدة درجات للمباشرة وغير المباشرة، ومع إخفاء (حجب) جوانب عديدة من التجربة عن أفراد العينة

فأسلوب الأداء المقارن يعد مباشرا، بمعنى أنه يُطلب من المستمعين بصورة واضحة أن يقدموا آراءهم في سمات المتكلم. وما هو غير مباشر أنه يطلب من المستمعين أن يتفاعلوا مع المتكلمين وليس مع اللغات، وهم لا يعلمون أنهم يستمعون إلى الشخص ذاته في كل مرة.

مقياس الفارق الدلالي

تشتمل صيغة استجابات المستمع شائعة الاستخدام مع أسلوب الأداء المقارن على مقاييس الفارق الدلالي (أوسجود، سوسي وتانينبوم ١٩٥٧). ومقاييس الفارق الدلالي هذه تخصص أطرافا متعاكسة لميزة أو سمة عند أحد الطرفين وتترك عددا من المسافات الفارغة بينهما، وتظهر في الشكل رقم (٦،١) عينة من أحد مقاييس الفارق الدلالي. فإذا بدا صوت المتكلم على الشريط غير ودي، فإن المستمع سيضع علامة عند أقرب خط لكلمة "غير ودي". وأما إذا بدا المتكلم ودودا للغاية فإن المستمع سيؤشر عند أقصى طرفي المقياس بجوار كلمة "ودود". أما إذا بدا المتكلم معتدلا في وده، فإن الفراغ الأوسط ينبغي أن يستخدم وهكذا. وقد أنشئت مقاييس مماثلة لقياس سمات أخرى. وبهذه الطريقة تتوافر لدى كل مستمع فرصة لبيان الموقع الذي يستحقه المتكلم من وجهة نظر إحدى سماته على المقياس.

ودود _ _ _ _ _ _ _ غير ودود

الشكل رقم (٦،١). مقياس فارق دلالي نموذجي مكون من سبع نقاط.

ويستخدم الإجراء التالي في حساب نتائج مقاييس الفارق الدلالي. فبعد جمع الاستجابات تحدَّد أرقام لكل من المساحات المخصصة على المقياس. ففي مقياس

مكون من سبع نقاط مثل المقياس المبين في الشكل رقم (٦،١) يخصَّص الرقم ٧ عند أقرب فراغ لكلمة ودود، والرقم ٦ نقاط عند الفراغ التالي وهكذا. وعندما تُجدوَل الاستجابات توضع علامة صح على الفراغات عند كل مساحة فارغة على الجدول لكل مستمع أعطى تقييمه لذلك المتكلم في ذلك الفراغ. فمثلا افترض أن متكلما في عينة معينة حصل على سبع نقاط في درجة الذكاء لدى خمسة مستمعين، وحصل على ست لدى ثلاثة عشر مستمعا، وخمس نقاط لدى استماع عشرين مستمعا، وأربع نقاط لدى أحد عشر مستمعا وثلاث نقاط لدى اثنين، ونقطتين لدى واحد. إن الجدولة المبدئية ستبدو كما في الشكل رقم (٦-٢).

ذكي ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ غير ذكي

الشكل رقم (٦،٢). الجدولة الأولية الافتراضية لمقياس الفارق الدلالي للذكاء.

وبعد ذلك يُضرب عدد العلامات في كل فراغ بقيمة الفراغ نفسه، ثم تُجمَّع النتائج. ففي المثال الذي بين أيدينا تكون الحسابات كالتالي:

(٢ X ١) + (٣ X ٢) + (٤ X ١١) + (٥ X ٢٠) + (٦ X ١٣) +(٥ X ٧)

= ٣٥+ ٧٨ + ١٠٠ + ٤٤ + ٦ + ٢ = ٢٦٥

تقسم هذه القيمة على العدد الإجمالي للمستمعين (وهو العدد الإجمالي نفسه لعلامات الصح التي بالشكل رقم (٦،٢)، وفي هذه الحالة يكون العدد هو ٥٢. والنتيجة هي ٥،١، وهي القيمة التي ستُسجل وتُخضع للتحليل الإحصائي. إن هذا الرقم هو متوسط التقييم لهذا المتكلم على مقياس الذكاء. وتفسيره يشير إلى أن المتحدث حسب المعدل يعتبر ذكيا في هذه العينة بدرجة تزيد قليلا عن ٥ على مقياس

مكون من سبع نقاط.[٢]

مناهج أخرى

رغم أن منهج البحث الذي يقوم على أسلوب الأداء المقارن مع بحث الفارق الدلالي هو منهج نموذجي في بحوث المواقف اللغوية، إلا أن هناك مناهج بحث مباشرة أخرى قد يستخدمها الباحث. ويذكر أغيسي وفيشمان (١٩٧٠، ص ١٤٧- ١٥٠) ثلاثة أساليب أخرى، هي: الاستبيانات والمقابلات والملاحظة.

الاستبيانات.

ويمكن أن تتم هذه الاستبيانات عن طريق نوع أو نوعين من الأسئلة مثل الأسئلة المفتوحة أو الأسئلة المغلقة. فالأسئلة المفتوحة تعطي المستجيب أقصى قدر من الحرية في تقديم آرائه، كما تسمح له أيضا بالخروج عن الموضوع ويصعب حساب نتائجها. ففي استبيان مكون من أسئلة مفتوحة، قد يسأل أفراد العينة السؤال التالي: "صف ردود فعلك تجاه المتحدث" بعد سماع عينة مسجلة من الحديث. أما في الاستبيانات المكونة من أسئلة مغلقة، فيعطى المستجيب صيغة معينة ليستخدمها في تسجيل إجاباته. وفيما عدا مقياس الفارق الدلالي، فإن صيغ استبيانات الأسئلة المغلقة تشتمل على إجابات نعم - لا، وأسئلة الاختيار من بين متعدد، أو أسئلة الترتيب. إن الأسئلة المغلقة أسهل كثيرا على أفراد العينة للتعامل معها، كما أنها سهلة التسجيل عند حساب النتائج، إلا أنها تجبر أفراد العينة على الإجابة حسب شروط الباحث، وليس حسب رغباتهم الشخصية. ربما كان الحل الأمثل هو إجراء بحث اختبار تجريبي على الأسئلة المفتوحة واستخدام هذه النتائج لتصميم استبيان مكون من أسئلة مغلقة. وسنرى فيما بعد كيف نفّذ هذا الإجراء بإتقان بالغ من قبل فريدريك وليامز.

المقابلات.

المقابلات تشبه الاستبيانات المكونة من أسئلة مفتوحة، ولكن دون استخدام الاستبيان ذاته. ويقوم باحث ميداني شخصيا بتوجيه أسئلة تتعلق بالمواقف ويدون إجابة أفراد العينة كتابة، أو يسجلها على شريط كما تخرج شفويا من لسان المستجيب. إن عبء تسجيل الأسئلة المفتوحة ينزاح من على عاتق أفراد العينة كما يسهل عليهم استنباط الإجابات المفتوحة، ويستطيع المسئول عن إجراء المقابلة توجيه النقاش إذا نوى المستجيب الخروج عن الموضوع. غير أن السيئة الرئيسية في عملية المقابلات هو أنها تستهلك وقتا كبيرا للغاية، كما أنها مكلفة. يستغرق الباحث الميداني فترة أطول لإجراء مقابلة واحدة من الفترة التي يحتاجها لإجراء نحو ٥٠ أو ١٠٠ استبيان في جلسة جماعية واحدة.

الملاحظة.

الملاحظة هي الطريقة الأقل تطفلا وفضولية، وهي مصممة لجمع البيانات بصورة أكثر طبيعية. وباعتبار أن الملاحظة هي منهج البحث المفضل لدى علماء الإنسان والأجناس، فإنها تميل إلى تسجيل أنشطة الأفراد عن طريق الباحث أثناء مراقبته لهم. وحيث إن الأفراد نادرا ما يتحدثون عن عملياتهم الذهنية ما لم يطلب منهم ذلك، فأسلوب الملاحظة هو الأسلوب الأمثل من وجهة نظر السلوكية لدراسة المواقف. إن الباحث الذي يؤمن بالرؤية الذهنية والذي يستخدم أسلوب الملاحظة يكون عليه أن يستنتج ما كانت عليه المواقف، على أساس ما لاحظه من السلوك. وبعبارة أخرى، فالمواقف إما أن تكون هي ذاتها المفترضة من السلوك الظاهر وإما أن تستنتج من السلوك الملحوظ. وانتقد أغيسي وفيشمن (١٩٧٠، ص ١٥٠) أسلوب الملاحظة بسبب ما يكتنفه من "الذاتية والخصوصية الشديدة"، ولكنهما يعتقدان أن

"مثل هذه البيانات يمكن أن تتعرض إلى القدر نفسه من معايير حساب النتائج والإحصاء والتقييم كما تتعرض البيانات التي جمعت عن طريق أساليب أكثر رسمية (شكلية).

الأداء المقارن: مشاكله وتعديلاته

على الرغم من استخدام أسلوب الأداء المقارن في كثير من تجارب مواقف اللغة والذي أثبت نجاحه، إلا أن هناك عددا من المشكلات التي تكتنفه. ولكي نضبط محتوى عينات اللغة بالطريقة المثلى لتطبيق أسلوب الأداء المقارن لا بد لكل متحدث أن يقرأ المقطع ذاته في كل لغة بصيغته المترجمة. ولكن ذلك يقدم متغيرا في الوقت الذي يضبط متغيرا آخر حيث إن المتكلمين قد يحكم عليهم بأنهم مؤدون لقراءات وليس على أساس الضرب اللغوي الذي يستخدمونه. وهناك تعديل استخدم في بعض البحوث (مثلا بحوث دانجلجان وتكر عام ١٩٧٣م، والداش وتكر عام ١٩٧٥م ، وفولك عام ١٩٧٣م، وشاي وباراتز وولفرام عام ١٩٦٩م)، وهذا التعديل هو أن يقوم المتكلمون بمناقشة الموضوع العام نفسه، ولكنهم لا يقولون الشيء نفسه بحذافيره. ثم يتكلم المتحدثون بوضوح ولا يقرؤون، ولكن بعض الضبط لموضوع المادة التي تُقرأ لا زال مطلوبا. إن الموضوعات المختارة في هذا التعديل ينبغي ألا تكون ذات طبيعة جدلية لكي لا تتدخل في عملية التقييم. فمثلا استخدم دانجلجان وتكر (١٩٧٣) متحدثين تكلموا عن عاصفة ثلجية شديدة في حين استخدم الداش وتكر (١٩٧٥) أهرامات الجيزة في مصر كموضوع لبحوث مواقف اللغة التي أجراها الباحثان في مصر.

إن محاولة ضبط المحتوى قد تؤدي إلى صعوبات أخرى ذات صلة، مثل التعارض (التنافر) المحتمل بين الضرب اللغوي والموضوع. فإذا تصادف أن كانت

العينتان المستخدمتان في مجتمع به ازدواجية لغوية تمثل إحداهما الصيغة العليا والأخرى الصيغة الدنيا فإنه من السهل معرفة أن الموضوع الذي يكون ملائما في ضرب لغوي ما قد يكون غير ملائم تماما للضرب اللغوي الآخر. ومن ثمّ قد يقدم أفراد العينة تقييمات ضعيفة لإحدى العينات ليس لأن آراءهم سلبية نحو تلك اللغة بالذات، ولكن لأنهم يعتقدون أن ذلك الشكل اللغوي يجب أن لا يستخدم في مناقشة مثل هذا الموضوع المطروح. وقد أورد أغيسي وفيشمن (١٩٧٠، ص ١٤٦-١٤٧) دراسة أجراها كامبل (١٩٦٨) استخدم فيها أسلوب "الصورة المقابلة (المطابقة)" لمعالجة هذه المشكلة. وبإيجاز، فإن البحث اشتمل على ردود أفعال تجاه محادثات مسجلة جرت بين أفراد ثنائيي اللغة. وفي أحد التسجيلات كانت إحدى اللغات المستخدمة لها علاقة بالدور، أما اللغة الأخرى فكان لها علاقة بمواقف أخرى. أما في التسجيل الثاني فقد استُخدمت الصورة المطابقة للتسجيل الأول، ولكن مع تبديل اللغات والأدوار التي استخدمت فيها. وطلب من مجموعات مختلفة من المحكمين أن يستمعوا إلى الحديثين ثم يجيبوا على استبيان أعد عنهم لقياس مواقفهم. وأظهرت النتائج أن الانطباعات التي قدمها المتكلمون لم تعتمد على اللغة التي كانوا يستخدمونها فقط، بل أيضا تعتمد على ما إذا كانوا يستخدمون اللغة المناسبة في الموقف المناسب.

وهناك صعوبة أخرى تتعلق بدراسات الموقف التي تستخدم طريقة الاستبيانات بما في ذلك طريقة الأداء المقارن والفارق الدلالي، ألا وهي مسألة الصحة (الصلاحية) (أغيسي وفيشمن ١٩٧٠، ص١٠٠). فكما نعلم يكون المقياس صحيحا (صالحا) عندما لا يقيس إلا ما يفترض قياسه فقط. وبيان الصحة في حالة المواقف الإدراكية والوجدانية أمر شبه مستحيل. يجب في هذه الحالة على المرء أن يقارن نتائج بيانات تجربة المواقف بما يفكر ويشعر به الناس في الواقع، كما اكتُشف بشكل مستقل إلى حد

ما. وتكون هذه المشكلة أسهل حلا في حالة المواقف النزوعية حيث إن هذه هي المواقف الأكثر ارتباطا بالسلوك. وإذا أظهر استبيان المواقف أن الأفراد لديهم ميل مسبق للتصرف بطريقة معينة فإن كل ما يمكن فعله هو أن نضعهم في موقف يكون من المتوقع فيه أن يسلكوا هذا السلوك، ونرى ماذا يفعلون. وقد استخدم فيشمن أسلوبا أسماه مقياس الالتزام لاختبار الصحة (الصلاحية) (فيشمن ١٩٦٨، كوبر وفيشمن ١٩٧٤، ص١٥). ففي بحثه عام ١٩٦٨، لم يسأل فيشمن أسئلة تتعلق بمواقف للجالية البورتوريكية في مدينة نيويورك حول عرقيتهم فحسب، وإنما دعاهم أيضا إلى أمسية ثقافية بورتوريكية مليئة بالأنشطة الثقافية مثل الرقص وخلافه. وكان بالإمكان بعد ذلك مقارنة استجابات أفراد العينة للاستبيان الذي يبين تلبية أو عدم تلبية الفرد للدعوة وتصريحه بأنه سيحضر، وهل حضر فعلا. فإذا أجاب الفرد على الاستبيان بطريقة تبين افتخاره بهويته البورتوريكية، ثم حضر فعاليات الأمسية الثقافية فإن حضوره يعد دليلا على أن إجاباته في الاستبيان كانت صحيحة.

وهناك تصميم أبسط ذكره غايلز وبورهيس (١٩٧٦). فقد استخدما في تجربتهما أخصائيين اثنين في علم النفس وأتيا بهما إلى فصل في إحدى المدارس الثانوية وقام أحدهما بإبلاغ الطلاب أن هناك مخاوف وقلقا بخصوص الأفكار الخاطئة لدى الناس عن علم النفس. وباستخدام إحدى لكنتين طلب من الطلاب أن يكتبوا أو أن يدونوا ما يعرفونه عن علم النفس حيث إن ذلك سيساعدهم على تصحيح المفاهيم الخاطئة التي قد تظهر لدى الناس. وبعد أن بدأ الطلاب في الكتابة غادر عالم النفس هذا ولم يعد. ثم أخبرت المرأة، التي هي العضو الآخر في الفريق، الطلاب أن هناك خطة قيد الدراسة لجلب إحدى الشخصيات لإلقاء محاضرة على الطلبة في المدارس الثانوية حول علم النفس كأسلوب لمحاربة المفاهيم الخاطئة والقضاء عليها. ثم أبلغتهم بأنه يُنظر في تعيين زميلها الذي رحل للتو بهذه الوظيفة. وعندما انتهى الطلاب من

الإجابة على السؤال المفتوح وزعت عليهم استبيانا للتقييم يحتوي على أسئلة مغلقة، وتكرر الإجراء نفسه مع مجموعة متطابقة أخرى من الطلاب، ولكن هذه المرة استخدم عالم النفس الأول لكنة أخرى. وبالطبع، فإن الاهتمام الأول كان منصبا على المواقف اللغوية تجاه كل من اللهجتين المستخدمتين وليس على مفاهيم الطلاب حول علم النفس. كما أُدْخِل معامل سلوكي بسيط على التجربة يُقارَن من خلاله بين الكمية التي كتبها الطلاب في إجاباتهم عن السؤال المفتوح المتعلق بمجال علم النفس وبين مؤهلات القائم على التجربة للتدريس في كل من اللكنتين المستخدمتين. واتضح أن الطلاب كتبوا عندما خوطبوا بإحدى اللكنتين أكثر مما كتبوا عندما خوطبوا باللكنة الأخرى. وأكدت هذه النتيجة النتائج السابقة المستخلصة من بحوث الأداء المقارن الأكثر تقليدية. بل إن مقدار ما كتب استجابة كان متسقا مع المواقف التي وردت في مقاييس التقييم للأسئلة المغلقة. وتنحو تجربة غايلز وبورهيس إلى الإشارة إلى أن المواقف النزوعية التي كشف عنها أسلوب الأداء المقارن يمكن أن تكون صحيحة (صالحة). غير أن أغيسي وفيشمن (١٩٧٠، ص١٥٠) يشيران إلى مشكلة مألوفة وهي انخفاض درجة التناسق بين مقاييس المواقف والسلوك الظاهر، وهي قضية عالجها كثير من علماء النفس الاجتماعيين لفترة من الزمن (على سبيل المثال، لين ١٩٦٥، فيشمن ١٩٦٥). ويبقى أن نحدد بالضبط أي أدوات لقياس المواقف هي الأكثر صحة (صلاحية) في الغالب.

وهناك صعوبة أخيرة تتعلق بأسلوب الأداء المقارن العادي، ألا وهي اصطناعيته (غايلز وبورهيس ١٩٧٦، بورهيس وغايلز ١٩٧٦). إن الطلب من مستمعين أن يحكموا على أفراد عن طريق صوتهم فقط، رغم تقديمه أقصى قدر من التحكم أكثر مما تقدمه المتغيرات الأخرى، يعتبر بعيدا بعض الشيء عن سياق الحياة الفعلية (الواقعية). وحيث إن إجراءات الأداء المقارن البحت تتطلب أن تكون كل

عينة مسجلة ذات محتوى واحد فإنه من الممكن بسهولة في هذه الحالة أن يبدأ المستمعون، بعد أن يسأموا من التكرار، في الانتباه بشكل أكثر من العادي إلى التغيرات الصوتية. وفي النهاية فإن المحكمين في تجربة الأداء المقارن يزودون بمجموعة تقييمية ويعطون ورقة تقييم معينة ويطلب منهم أن يصدروا أحكاما على الأفراد الذين سيسمعونهم. ونتيجة لذلك يُعدّون لاتخاذ أحكام تقييمية بطريقة لا تحدث غالبا في الحالات التفاعلية العادية. إن التجربة التي أجريت على الأخصائيين النفسيين وطلاب المدارس الثانوية كانت مصممة بحيث يُتغلب على هذه الاعتراضات إلى حد ما. وكان المتكلم موجودا وقت التجربة ولم يكن غائبا وصوته هو الحاضر فقط على شريط مسجل. ولم يكن هناك محتوى متكرر ولم تتدخل مجموعة تقييمية إلا بعد أن أتيحت لأفراد العينة الفرصة الكافية ليكتبوا ما يريدون قوله عن مجالات علم النفس.

وقد ابتكر بورهيس وغايلز (١٩٧٦م) تجربة أداء مقارن أكثر براعة وأقرب للواقع، وفي هذه التجربة لم يكن لدى أفراد العينة أي فكرة بأنهم قد شاركوا في بحث عن المواقف اللغوية، وكانت العينات المستخدمة في هذه التجربة هي أربعة ضروب لغوية تتعلق بموقف اجتماعي لغوي يمارس في ويلز، وكانت هذه الضروب اللغوية على النحو التالي:

١- نموذج التلفظ عالي المستوى للغة الإنجليزية البريطانية ويسمى (RP) (التلفظ النموذجي)

٢- اللغة الإنجليزية بلكنة معتدلة لجنوب ويلز.

٣- اللغة الإنجليزية بلكنة عريضة لجنوب ويلز.

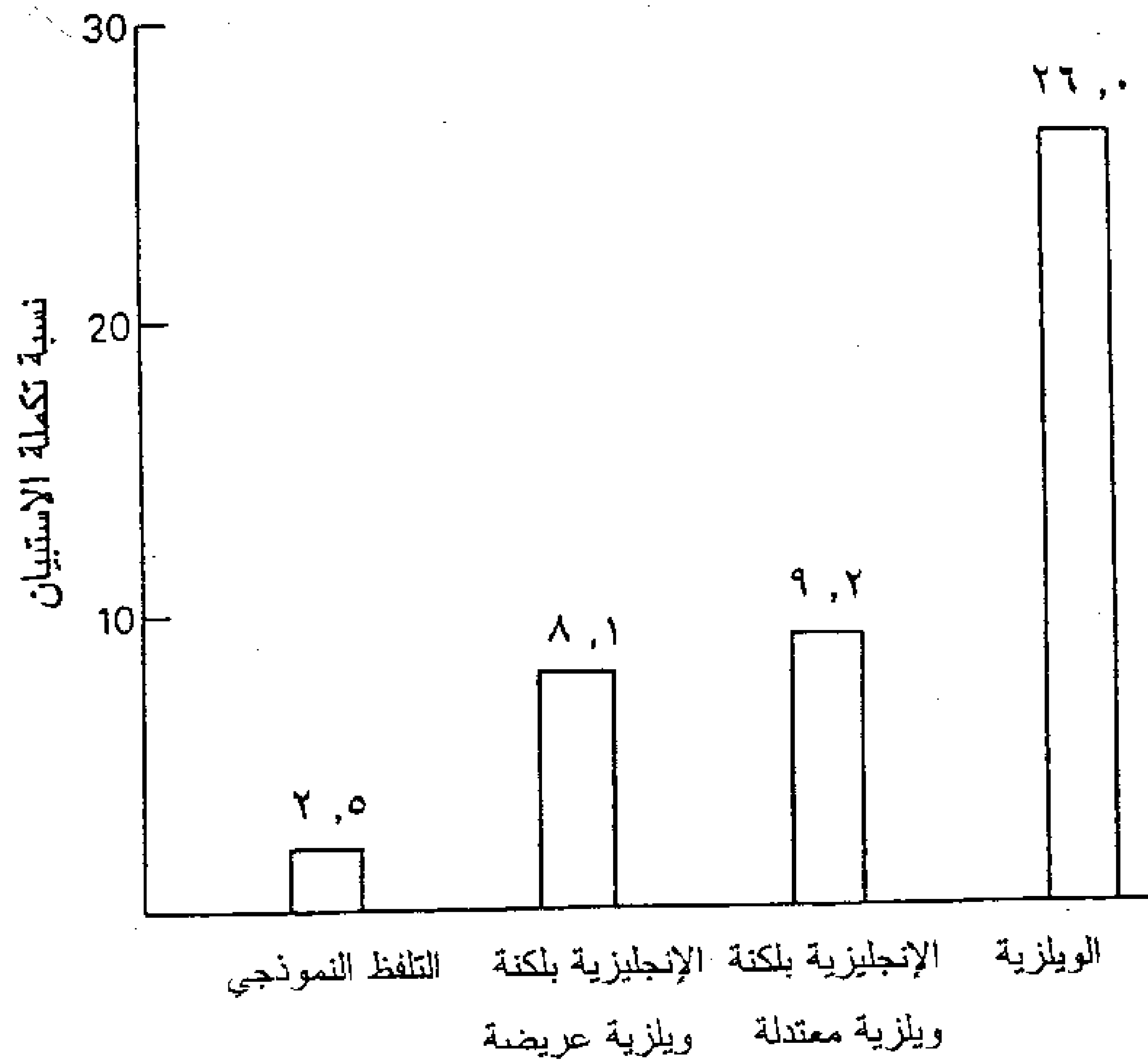
٤- اللغة النموذجية في ويلز.

وكان أفراد العينة من مرتادي المسارح. واتخذت التجربة شكل إعلان موجه للعامة أثناء فترة الراحة في أحد العروض المسرحية. ولربما كما ظننت، كان هناك أربعة

أشكال للرسالة نفسها، واحد لكل عينة. وكان المحتوى هو الطلب من الزبائن الحصول على نموذج استبيان متوافر في البهو لتعبئته يتعلق في تحسين البرامج المستقبلية للمسرح. وقد شارك في التجربة نوعان من المشاهدين. وتكوّن الجمهور الإنجليزي الويلزي من الأفراد الذين يحضرون المسرح طوال خمس أمسيات يُعرض فيها فلمان باللغة الإنجليزية، وكان من المفترض أن يكون معظم هؤلاء المشاهدين من الويلزيين الذين لا يتحدثون إلا اللغة الإنجليزية. وكان الجمهور الويلزي الذي يتحدث لغتين يتكون من الذين حضروا أربع أمسيات لمسرحية تعرض باللغة الويلزية. وقد سمع الجمهور الإنجليزي- الويلزي الإعلان بالأنواع الثلاثة للغة الإنجليزية، مع تقديم ضرب مختلف فقط في إحدى الأمسيات (حيث قدمت إنجليزية التلفظ النموذجي وإنجليزية اللكنة العريضة في أمسيتين لكل منهما). وقد استمع الجمهور أو المشاهدون الويلزيون الذين يتحدثون لغتين إلى العينات اللغوية الأربع، واحدة في كل أمسية. وكان السلوك الذي قيس هو عدد الاستبيانات التي قدمها أعضاء كل مجموعة من نوعي الجمهور عندما طلب منهم أن يقوموا بذلك في كل عينة من اللغات المختلفة.

وبما أن البيانات كانت اسمية (الاستبيانات كانت تقدم أو لا تقدم)، لذا استُخدم اختبار مربع كاي في هذا التحليل. ويبين الجدول رقم (٦،١)، والجدول رقم (٦،٢)، والشكل رقم (٦،٣) كافة النتائج. ويبين الجدول رقم (٦،١) بيانات اختبار مربع كاي الذي يسمح باحتمالية رفض فرضية الإبطال بأن من أكملوا تعبئة الاستبيانات، ومن لم يكملوا تعبئتها قد وزعوا بصورة عشوائية بين الجماهير الذين استمعوا إلى الضروب اللغوية الثلاثة. ويمكن القول تحديدا بأن هذا يسمح فقط بتأسيس نوع من فرضية بحث بسيطة، ألا وهي أن هناك "شيئا ما" في التوزيع لم يأت مجرد مصادفة، ومن السهل معرفة "هذا الشيء". وكان الجمهور الإنجليزي -الويلزي متجاوبا بشكل متساو لكلتا الرسالتين المنطوقة بالتلفظ الإنجليزي النموذجي وتلك

المنطوقة بإنجليزية لكنة ويلز المعتدلة، ولكنهم كانوا أقل استجابة مع الرسالة التي طرحت بإنجليزية ويلز ذات اللكنة العريضة. وكانت نتائج الجمهور الويلزي ثنائي اللغة مختلفة عن ذلك تماما. قُدِّمت ومُثِّلت بيانات الجمهور الويلزي ثنائيي اللغة في شكل بياني ذي أعمدة، كما هو في الشكل رقم (٦،٣). ويبدو أن الويلزيين ثنائيي اللغة كانوا أكثر استجابة للطلبات التي كانت باللغة الويلزية، وأقل استجابة للطلبات التي كانت بالتلفظ النموذجي للغة الإنجليزية، وكانت اللغة الإنجليزية باللكنة الويلزية بنوعيها المعتدل والعريض في المنتصف.



الشكل رقم (٦،٣). رسم بياني بالأعمدة للنتائج السلوكية لتجربة الأداء المقارن للجمهور الويلزي ثنائي اللغة.
المصدر: مأخوذ عن بورهيس وغايلز (١٩٧٦م، ص ١٥، شكل ٢)

الجدول (٦.١). النتائج السلوكية لتجربة الأداء المقارن للجمهور الإنجليزي الويلزي

استبيان كامل	العينة		
	التلفظ النموذجي	الإنجليزية بلكنة ويلزية عريضة	الإنجليزية بلكنة ويلزية معتدلة
نعم	١١٨	٥٣	٦٦٪
	٢٢,٥٪	٨,٢٥٪	٢٢٪
لا	٤٠٦	٥٩٩	١٩٨
	٧٧,٥٪	٩١,٨٪	٧٥٪

المصدر: البيانات من بورهيس وغايلز (١٩٧٦م، ص ١٤)

الجدول (٦.٢). النتائج السلوكية لتجربة الأداء المقارن بالنسبة للجمهور الويلزي ثنائي اللغة.

استبيان كامل	العينة	
	الإنجليزية بلكنة ويلزية معتدلة	الويلزية
نعم	٩,٢٪	٢٦,٥٪
لا	١٠٩	٤٨

المصدر: البيانات من بورهيس وغايلز (١٩٧٦، ص ١٥)

وقد استخدم بورهيس وغايلز مربع كاي لاختبار الفرق في التوزيع بين اللغة الويلزية واللغة الإنجليزية بلكنة ويلزية معتدلة والفرق بين التلفظ النموذجي للإنجليزية والإنجليزية بلكنة ويلز العريضة (أما الفرق بين نوعي اللغة الإنجليزية باللكنة الويلزية المعتدلة والعريضة فليس مهما). إن الفرق في الاستجابة بين الرسالة التي كانت باللغة الإنجليزية للتلفظ النموذجي والرسالة التي كانت باللغة الإنجليزية بلكنة ويلزية لم يكن ذا قيمة إحصائية.[٣] أما اختبار مربع كاي للفرق بين استجابات اللغة الإنجليزية ذات اللكنة الويلزية المعتدلة واللغة الويلزية فهو معروض في الجدول رقم (٦.٢). إن

فرضية الإبطال التي يعرض لها الجدول رقم (٦,٢) بيانات موزعة عشوائيا يمكن رفضها. ومن الواضح أن هناك مزيدا واضحا من الأعضاء من الجمهور الويلزي ثنائيي اللغة سوف يكمل تعبئة الاستبيان عندما يطلب منه ذلك باللغة الويلزية أكثر مما هو الحال عندما يطلب منه ذلك باللغة الإنجليزية حتى ولو كانت بلكنة ويلزية.

بغض النظر عن النتائج فإن تجربة بورهيس وغايلز تبين كيف يمكن التغلب على الاعتراضات العادية على أسلوب الأداء المقارن القائمة على موضوع الاصطناعية والتكلّف. ورغم أنه لم يكن لأي متحدث وجود فعلي إلا أن السياق كان طبيعيا للغاية، ولا شك في أن أفراد العينة لم تكن لديهم أي فكرة أنه تُفحص مواقفهم اللغوية الخاصة. ولم يكن على أي فرد من الجمهور أن يستمع إلى المحتوى نفسه أكثر من مرة، ولم تستخدم أيضا المجموعة التقيمية. وكان هذا المقياس للسلوك غير المُرَاقَب وليس لتقييمات المتكلمين بدرجات أو مقاييس معينة. ومن ناحية أخرى، ضاع بعض الضبط (التحكم) بسبب عدم جعل أفراد العينة أنفسهم يستجيبون لكافة العينات اللغوية (حيث استمع جمهور المسرح إلى الطلب بعينات مختلفة). وينطبق الأمر نفسه على التجربة التي أجريت على طلاب المدارس الثانوية. يفترض أن كلا من أفراد العينة معادل لكل مجموعة من نوعها، وذلك لأغراض المواقف التي تُقاس. فمثلا كل جمهور إنجليزي ويلزي في كل أمسية يعتبر أن له الميول نفسها للاستجابة إلى العينات اللغوية المختلفة كأي جمهور إنجليزي ويلزي آخر في أمسية أخرى. ويبدو أنه ليس هناك ما يدعو للشك في أن ذلك هو افتراض مضمون في التجارب التي ذكرناها حتى الآن. ولكن إذا تناقصت الاصطناعية على حساب استخدام أكثر من عينة من الجمهور فإن على الشخص الذي يجرى التجربة أن يكون حذرا من أن كافة العينات متعادلة وممثلة للفئات التي تُقاس، وإلا فإن المتغيرات غير المضبوطة قد تتدخل في التجربة بشكل غير مقصود.

التطبيقات

البناء الاجتماعي

تعد دراسة المواقف اللغوية مفيدة في حد ذاتها، ولكنها أكثر قيمة عندما تصبح أداة تسلط الضوء على الأهمية الاجتماعية للغة. وفي هذا الجزء سنفحص المواقف اللغوية كأسلوب لفهم كيفية استخدام اللغة كرمز لعضوية الجماعة. سنرى أيضا كيف تخدم المواقف اللغوية كمفتاح لتحديد علاقات ازدواجية اللغة.

هوية الجماعة.

رأينا في الفصل الأول أن اللغة بالنسبة للجماعات الثقافية الاجتماعية تستخدم كأداة لوظائف التوحيد والتفريق. وقد يعتقد المرء أن دراسات المواقف اللغوية تبين أن أي لغة تخدم هاتين الوظيفتين سوف تحظى بتقدير كبير من متكلميها. واتضح أن ذلك شديد التبسيط. إن الموقف المعتاد هو أن اللغة العليا تعتبر أنقى وأفضل من اللغة الدنيا في المجتمع الذي يحتوي ضروباً لغوية مختلفة تدخل في علاقة ازدواجية اللغة. وبالطبع، فإن تحقيق وظائف التوحيد والتفريق يتم على الأغلب عن طريق اللغة الدنيا، فقد تتوصل إلى النتيجة المعاكسة، وهي أن الرمز اللغوي لتحديد الهوية الذاتية التقابلية غالبا ما يُقيم بصورة سيئة من جانب المتكلمين.

وربما كانت هناك بعض أنواع من الأسئلة التي يمكن أن تستنبط تقييمات عليا للضروب اللغوية الدنيا. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يمكن إدخالها فى تجربة الأداء المقارن. وإذا كانت مقاييس الفارق الدلالي المرافقة لها تشتمل على كل من العناصر الوجدانية والمكانة الاجتماعية فإنه يمكن التنبؤ بأن المتكلمين الذين يستخدمون عينة اللغة العليا سيتربعون على درجة عليا في مقاييس المنزلة الاجتماعية، ولكن المتكلمين أنفسهم سيحصلون على مرتبة أعلى في مقاييس العناصر الوجدانية في عينة اللغة

الدنيا. أما المتكلم الذي يستخدم عينة المنزلة الاجتماعية العليا فقد يحصل على مرتبة عليا في مقياس الذكاء، ولنقل: إنه ينتمي إلى أصحاب المهن المحترمة، ولكنه سيحصل على تقديرات أعلى في سمات الود والاعتمادية في العينة اللغوية ذات المنزلة الدنيا. غير أن الباحثين الذين اختبروا هذه الفرضية حصلوا على نتائج غير متوقعة. فمثلا وجد دانجليجان وتكر في بحثهما للموقف الذي أجروه على الفرنسية الأوروبية وضربين لغويين من الفرنسية الكندية في كويبك أن متحدث الفرنسية الأوروبية ليس أكثر ذكاءً وأفضل تعليما فحسب، ولكنه محبوب (مرغوب) أكثر من متحدث اللغة الفرنسية الكندية، أما النتيجة التي تعتمد على أن متحدث اللغة الفرنسية الأوروبية محبوب (مرغوب) أكثر فلم تكن متوقعة (دانجليجان وتكر ١٩٧٣، ص٢٢). وبالمثل، فإن نتائج بحوث المواقف التي أجراها على الأمريكيين المكسيكيين كارانزا ورايـن (١٩٧٥، ص ٩٩)، فقد دلت على أن اللغة الإنجليزية بالنسبة لكل من الأمريكان الإنجليز والمكسيكيين ذات مكانة أعلى من اللغة الإسبانية على مقياس المكانة الاجتماعية كما كان متوقعا، ولكن على مقاييس التضامن كانت هناك نتيجة غير متوقعة بالنسبة للأمريكيين المكسيكيين. أما مواقف الأمريكيين السود نحو اللغة الإنجليزية النموذجية والإنجليزية العامية بين السود فلا بد وأن تحلل بشكل أعمق لاكتشاف دلائل المواقف الإيجابية نحو اللغة الدارجة (هوفر ١٩٧٨). وقد ذكر الداش وتكر (١٩٧٥، ص ٤٦) ثلاث دراسات بما فيها دراستهما الخاصة التي فضلت فيها ثلاثة ضروب لغوية متطابقة على اللغات الأم طبقا لنتائج دراسات المواقف.

ومن ناحية أخرى، أثبت بحث المواقف أنه أداة قيمة في تحليل اللغة الألبانية كلغة محتملة للهوية الجماعية بين الجماعة الاجتماعية الثقافية في اليونان والتي تسمى جماعة الأرفنيتيس. وقد استطاع تروغل وتسافاراس باستخدام استبيان لأسئلة مغلقة بدلا من أسلوب الأداء المقارن أن يتبعا الوضع المتدهور للهجة أرفانتيكا (وهي اللهجة

الألبانية) كلغة لهوية الجماعة. وكشفت الاستجابات التي حصلوا عليها عن نمط واضح طبقا للسن كما يبين الجدول رقم (٦،٣) التالي:

بدت الإجابات على السؤال: هل من الضروري أن نتحدث اللهجة الأرفانيتيكية لنكون أرفانيتسيين؟ بدت للوهلة الأولى غير متسقة مع النمط العام الذي يتضح في الجدول رقم (٦،٣). وقد جُدولت الإجابات على هذا السؤال في الجدول رقم (٦،٤)، وتبين أن الأغلبية في كل مجموعة عمرية تعتقد أنه ليس من الضروري تحدث الأرفانتيكية ليكونوا أرفانتيسيين، فيما عدا الفئة العمرية الخاصة بصغار السن.

الجدول رقم (٦،٣). النسبة المئوية للاستجابات على الأسئلة التالية حسب الفئة العمرية: هل تحب التحدث باللغة الأرفانتيكية؟ هل تعتقد أن التحدث باللغة الأرفانتيكية شيء جيد؟ هل التكلم باللغة الأرفانتيكية يعد ميزة؟

العمر	نعم			غير مهم			لا		
	يجب التكلم	شيء طيب	ميزة	يجب التكلم	شيء طيب	ميزة	يجب التكلم	شيء طيب	ميزة
٥-٩	١	١	١	١٠	١٠	١٧	٨٩	٨٩	٩٢
١٠-١٤	١٦	١٧	١٢	١٧	٧٣	٣٨	٦٧	١٠	٥٠
١٥-٢٤	١٧	١٨	٣٤	٤١	٤٨	٥٠	٤٢	٣٥	١٦
٢٥-٣٤	٣٠	٣٢	٤٠	٦٧	٦٦	٤٩	٣	٣	١١
٣٥-٤٩	٣٦	٦٤	٥٦	٥٣	٣٥	٣٦	٢	١	٨
٥٠-٥٩	٦٧	٩٥	٦٧	٣١	٤	٣٣	١	١	صفر
+٦٠	٧٩	٨٦	٩٧	٢١	١٤	٣	صفر	صفر	صفر

المصدر: البيانات من تردغل وتساقاراس (١٩٧٧م)

الجدول (٦.٤). النسبة المئوية للإجابات على السؤال الاستفهامي (نعم أو لا) الآتي:
هل من الضروري أن تتكلم اللغة الأرفانتيكية لكي تكون أرفنتيسيا؟

العمر	نعم	لا
١٠-١٤	٦٧	٣٣
١٥-٢٤	٤٢	٥٨
٢٥-٣٤	٢٤	٧٦
٣٥-٤٩	٢٨	٧٢
٥٠-٥٩	٣٣	٦٧
٦٠+	١٧	٨٣

المصدر: البيانات من تردغل وتسافاراس (١٩٧٧م).

وكما فسر تردغل وتسافاراس (١٩٧٧، ص١٨٠-١٨١) هذه النتيجة، فإن معظم أفراد المجموعات الأكبر سنا تدرك أن اللهجة الأرفانتيكية آخذة في الانقراض، ولكنها رغم ذلك تأمل في الحفاظ على هويتها العرقية.[٤] ونتيجة لذلك فهم مجبرون على فتح المجال لكافة أفراد الجماعة الأرفانتيسية الذين لا يتكلمون اللهجة الأرفانتيكية للانضمام إليهم. أما المتحدثون الأصغر سنا والذين لا يأملون كثيرا بمستقبل للغة الأرفاتيكية فيبدو أنهم يتنبؤون بزوال (بموت) كل من اللغة والتميز العرقي. ويبدو أن موقفهم يتجسد في أنه من الضروري أن يتحدثوا اللهجة الأرفانتيكية لكي يبينوا انتسابهم إلى الفئة الأرفانتيسية، غير أن هناك قليلا من المتكلمين الذين يتحدثون باللهجة الأرفانتيكية بالمقارنة مع السابق، وبالتالي، يقل عدد الأرفانتيسين، بيد أن تلك ليست قضية تستدعي القلق. وكما ذكر تردغل وتسافاراس (١٩٧٧: ١٨١):

أنهم مستعدون للاعتراف بأنه من الضروري أن يتحدثوا اللهجة الأرفانتيكية

لكي ينتسبوا إلى جماعتهم ؛ لأنهم رغم وعيهم بأن الأرفانتيكية تنقرض إلا أنهم لا يعتبرون خسارة اللغة أو الهوية العرقية أمرا غير مرغوب فيه ، أي أنه يبدو أن صراعات الصغار من هذا النوع تُحسم لصالح الهوية اليونانية واللغة اليونانية.

ويبدو أن استبيان تردغل وتسافاراس لقياس المواقف المكون من أسئلة مفتوحة مباشرة ، يعطي صورة أكثر دقة لوظيفة اللغة كمؤشر على هوية الجماعة أكثر مما تعطيه بحوث أسلوب الأداء المقارن الأكثر تعقيدا. ولعله يكون من التهور تأمل السبب المحتمل وراء ذلك خاصة إذا وضعنا في الاعتبار عظم الفروق بين الدراسة اليونانية والدراسات الأخرى. غير أن هناك بعض العوامل التي قد تحتاج إلى إيضاح ، أولها ، أن بحث تردغل وتسافاراس نفِّذ باتباع أسلوب المقابلة الشفهية والمعروف من خلالها أن الشخص الذي يجري المقابلة هو أرفانتيسي. ويشتمل بحث أسلوب الأداء المقارن أولاً على استجابات مكتوبة على نماذج مطبوعة ، وثانيا ، أنه بسبب حقيقة سهولة استقطاب المدرسين والطلاب للمشاركة في هذه التجربة ، فإنه عادة ما كان ينتهي الأمر باستخدام أفراد العينة في بحث الأداء المقارن. ويعتبر المدرسون مسئولين عن نقل القيم الثقافية السائدة عن اللغة ، ولذلك قد يكون لديهم ميل أكبر من السكان بصفة عامة للتصريح بالمواقف "الرسمية". أما الطلاب الذين كانوا في موقف يشبه موقف الاختبار هذا (هو غالبا ما كان في أبنية مدرسية) فقد قادهم الوضع بشكل لا شعوري إلى الإقرار بوجهة النظر "الرسمية". أما بحث تردغل وتسافاراس فلم يتم في مبنى مدرسي. ورغم أن بعض استجابات الصغار قد تكون كإجابات الطلاب ، إلا أنها لم تكن في ضوء دور الطلاب عندما قوبلوا. وختاماً ، فإن طبيعة أسلوب الأداء المقارن تحتاج إلى مقارنة ضربين لغويين أو أكثر. ولكن لم يطلب استبيان تردغل وتسافاراس المقارنة بين اللهجة الأرفانتيكية واللغة اليونانية وإنما طلب فقط إظهار المواقف تجاه اللهجة الأرفانتيكية.

هناك دليل على أن بحوث الأداء المقارن يمكن أن تقدم لنا مفاتيح يمكن الاعتماد عليها في دراسة اللغة كمؤشر لهوية الجماعة، ولكن ذلك يجب أن يتم بطريقة دقيقة إلى حد ما. ولكي نفهم أبعاد الموقف فمن المفيد استخدام فكرتين هما: *التماثل والتخالف*، وهما مصطلحان يستخدمهما علماء النفس الاجتماعيون على سبيل المثال هاورد غايلز (في غايلز ١٩٧٣، وغايلز وبورهيس ١٩٧٦، وغايلز وبورهيس وتيلر ١٩٧٧). فبالنسبة لنظرية غايلز التي سندرس تفاصيلها في الفصل القادم فإن سلوك الفرد اللغوي قد يتماثل أو يتخالف مع كلام الشخص الذي يتحدث معه كائنا من كان. فالتماثل في أحد أوجهه يعد تعبيرا عن شعور بالوحدة بين الأشخاص المشتركين في المحادثة. أما التخالف فيعد تعبيرا عن *الانفصال أو الانسحاب* بعيدا عن الشخص الذي نتحدث إليه، وهو انسحاب إلى داخل المجموعة التي ينتمي إليها الفرد. وعند جارفن وماثيو (١٩٥٦) يرتبط التماثل بوظيفة التوحيد، أما التخالف فيرتبط بوظيفة الفصل، بيد أن هناك فروقا مهمة. فوظائف كارفن وماثيو هي دائمة تقريبا ويجب النظر إليها على أنها ظواهر اجتماعية، أما ظواهر التماثل والتخالف فهي ظواهر لا توجد إلا أثناء المحادثات، كما أنها ظواهر فردية. فمثلاً الشخص الباراجوي قد تكون لديه مشاعر قوية نحو القيمة الوطنية الرمزية للغة قوارني كقوة توحده مع بني وطنه وتفصله عن مواطني أمريكا اللاتينية الآخرين، بيد أنه قد يستوعب مواطنا من دولة مجاورة عن طريق استخدام اللغة الإسبانية في موقف خطابي معين أو في محادثة معينة.

وإحدى الطرق التي يمكن من خلالها اكتشاف إحساس الفرد بالانتماء إلى الجماعة، من خلال اللغة، هي ما يتم عن طريق بحث التماثل طويل المدى بالجماعة. فإذا عدل الفرد كلامه ليلائم الأنماط اللغوية لمجموعة جديدة، بحيث تصبح هذه الأنماط وسائله الطبيعية للتعبير اللغوي، فإن ذلك يدل على توجه عميق نحو الانتماء

إلى عضوية هذه الجماعة. ومثال على ذلك يكمن في دراسة المهاجرين الهنود الغربيين إلى بريطانيا (أطروحة غايلز وبورهيس، بورهيس وغايلز ١٩٧٧). وفي دراسة سابقة طلب من ٢٤ مراهقا من البيض أن يحكموا على حديث مسجل لمجموعة من العمال الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة، وهم في سن الحادية والعشرين. ومن ضمن أشياء أخرى طلب من أفراد العينة أن يحددوا عرق المتكلمين. وكانت غالبية التسجيلات لمهاجرين من جزر الهند الغربية قدموا إلى كارديف وويلز، وهم من الجيل الثالث الذي يعاصر أفراد العينة المراهقين. ورغم ذلك اعتبر أن ٨٠٪ من المتحدثين الهنود الغربيين بيضا، بناءً على ما استُمع إليه من حديثهم.

وقد استخدمت الدراسة الثانية ٣٢ صبيا في سن الحادية عشرة، وكانوا جميعا فيما عدا ٩ (تسعة) منهم من الجيل الثالث من المهاجرين من جزر الهند الغربية (وكان هؤلاء التسعة الاستثناء من البيض). وطلب من فئة أخرى من الصغار البيض في المدارس الثانوية في كارديف، أن يستمعوا ويحكموا على هؤلاء المتحدثين. وقد تجنب بورهيس وغايلز إعطاء أفراد العينة "مجموعة أسئلة عرقية" وذلك بأن جعلوا العرق أحد أنواع الأحكام المتعددة التي طلب من أفراد العينة إصدارها. كما طلب من أفراد العينة إعادة سبك مضمون الكلام الذي سمعوه بأسلوبهم الخاص وأن يحكموا على مدى اتساع لكنة المتحدث الكارديفية، وأن يضعوا تقديرات للمتكلمين على بعض مقاييس الفارق الدلالي وتقدير أعمارهم ومنزلتهم الاجتماعية والدين بالإضافة إلى العرق. وكان السبب وراء الطلب من أفراد العينة إعادة سبك (صياغة) محتوى عينة الخطاب، هو توجيه اهتمام المستمعين إلى مضمون عينات الخطاب بالإضافة إلى الشكل، وذلك لتقريب الاستخدام الطبيعي للغة ليكون أكثر ارتباطا بالمحتوى. وكانت نتائج تحديد العرق متطابقة تقريبا مع نتائج المتكلمين الأكبر سنا، وحدِّدت هوية المتكلمين الهنود الغربيين على أنهم من البيض في ٧٨٪ من الأحكام.(٥) وقرر

جميع الحكام تحديد اثنين منهم على أنهما ينتميان إلى البيض وحكم على الجميع فيما عدا خمسة بأنهم ينتمون إلى البيض بدرجة كبيرة أكثر من انتمائهم لأي فئة أخرى إذا كان المستمعون يعتمدون فقط على التخمين (درجة احتمال < ٠,٠٠١ لأغلب المتكلمين).(٦) ويبدو واضحا أن المهاجرين من جزر الهند الغربية في كارديف يحددون هويتهم بالارتباط بالمجتمع المحلي وذلك على الأقل فيما يتعلق باستخدام اللغة كمميز عرقي. وكما أوضح بورهيس وغايلز (١٩٧٧، ص ٩٠) فإن تماثلهم اللغوي الواضح هو عكس ما يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية. فالأمريكان السود وخاصة الذين ينتمون إلى الطبقات العاملة أو الدنيا يستخدمون اللغة الإنجليزية الدارجة بين السود كرمز لتحديد هويتهم الاجتماعية والثقافية.(٧)

وفي دراسة أخرى فإن الباحثين أنفسهم بالتعاون مع والاس لامبرت (بورهيس وغايلز ولامبرت ١٩٧٥) ابتكروا تجربة أكثر دقة تتضمن أفكار التماثل والتخالف، وفي هذا البحث استمع أفراد العينة إلى أمثلة أو نماذج لشخص يمارس فعليا عملية التماثل أو التخالف أو غير ذلك وطلب منهم أن يضعوا تقديرات لذلك الشخص على مجموعة نموذجية لمقاييس الفارق الدلالي مكونة من سبع نقاط. وبالإضافة إلى ذلك سئلوا ما إذا كانوا هم أنفسهم سيستخدمون التماثل نفسه أو التخالف في مثل هذه الحالة.

وقد اتخذت عملية التسجيل (التي ستستخدم كمنبه) الشكل التالي وطلب من المستمعين ، وهم مجموعة من طلاب الثانوية العامة بالصف الثالث الثانوي وأعمارهم نحو الـ ١٨ في مدارس مونتريال التي تستخدم اللغة الفرنسية في التعليم، أن يستمعوا لتسجيلات لمقابلتين إذاعيتين مع بطلة رياضية فرنسية -كندية والتي جاءت في المركز السابع في مسابقة الغطس عبر القارة الأمريكية. وفي إحدى المقابلتين أجرى معلق رياضي فرنسي المقابلة وكان هناك معلقة من مقاطعة كوبيك الكندية تجرى الحوار

الآخر. وكانت كلتا المقابلتين زائفة فقد اختيرت "الرياضية" بناءً على مقدرتها على التحكم في لغتها الفرنسية الأوروبية بالإضافة إلى اللغة الفرنسية الكندية الرسمية وغير الرسمية، وكانت نصوص الحوار أو المقابلة قد أعدت بعناية لضبط المحتوى والمدى الزمني وكذلك القواعد. وأما المرأة التي قامت بدور البطلة الرياضية فكانت دائما تتحدث باللهجة الكندية الرسمية مع المتحدثة التي تلعب دور المعلقة الرياضية من كويبك، ولكن عند الحديث إلى المعلق الفرنسي فإنها كانت تستخدم أحد الضروب اللغوية الثلاثة. فهي إما أنها تكلمت معه دون تغيير في لغتها واستخدمت أيضا الفرنسية الكندية الرسمية وإما أنها ماثلت اللغة الفرنسية أو اختلفت وحولت لغتها إلى الفرنسية الكندية غير الرسمية.

وهكذا فإن مجموعة معينة من أفراد العينة ستكون قد استمعت إلى ثلاثة أزواج من المقابلات:

١- استمعوا إلى البطلة الرياضية تتحدث باللغة الفرنسية الكندية الرسمية مع المعلقة الكندية، وإلى النوع نفسه من اللغة الفرنسية مع المعلق الفرنسي.
٢- استمعوا إلى البطلة الرياضية تتحدث باللغة الفرنسية الكندية الرسمية مع المعلقة الكندية ، وتتحدث الفرنسية الأوروبية مع المعلق الفرنسي.
٣- استمعوا إلى البطلة الرياضية وهي تتحدث باللغة الفرنسية الكندية الرسمية مع المعلقة الكندية، واللغة الفرنسية الكندية غير الرسمية مع المعلق الفرنسي.(٨) ولم تستمع أي مجموعة من طلاب المدرسة الثانوية لأكثر من واحدة من هذه المقابلات أو الحوارات.(٩)

وقد استخدم تحليل التباين لاختبار أهمية تقديرات مقاييس الفارق الدلالي، التي قام الطلاب بإعدادها، وهم الطلاب أنفسهم الذين استمعوا إلى واحد من هذه الأزواج الثلاثة من المقابلات. وكان المقياسان الوحيدان اللذان اختلفا بدرجة دالة هما

مقياسا الذكاء والتعليم. ويبين الجدول رقم (٦،٥) النتائج وذلك باستخدام شكل غالبا ما يستخدم في هذا النوع من البحوث. وكما نعلم فإن قيم F المهمة تعني أن التباين بين مجموعات المحكمين الذين استمعوا إلى المقابلات يمثل حالات تحول مختلفة كانت أكبر بشكل ملحوظ من التباين داخل كل مجموعة من المحكمين. وبصفة خاصة فإن ذلك يعني أن البطلة الرياضية حصلت بالفعل على تقديرات دلت على أنها أكثر ذكاء تعليما، وذلك عندما تحولت إلى اللغة الفرنسية الأوروبية، وحصلت على تقديرات أقل في هذا الصدد عندما كانت لا تميل نحو هذا التحول، كما حصلت على أقل درجات في الذكاء والتعليم عندما تحولت إلى اللغة الفرنسية الكندية غير الرسمية، ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى التقدير العشوائي للمقاييس المختلفة.

الجدول رقم (٦،٥). قيم F ومتوسط تقديرات السمتين.

	متوسط التقديرات	
التحول	الذكاء	التعليم
إلى اللغة الفرنسية الأوروبية	٥,١٤	٥,٢٦
لا شيء	٤,٦٤	٤,٩٥
إلى اللغة الفرنسية الكندية غير الرسمية	٤,٣٥	٣,٧٥
قيم F	* ٣,٨٩	** ٨,٥٨ +

* درجة احتمال < ٢. ,

** درجة احتمال <+ ١٠٠٠, .

المصدر: مأخوذ من بورهيس وغايلز ولامبرت (١٩٧٥م، صفحة ٦٢، جدول ١)

ولا عجب في أن أنواع اللغة الفرنسية ذات المنزلة العالية سوف تحسن من تقدير المتكلم على مقاييس مثل الذكاء والتعليم. أما إذا كانت اللغة الفرنسية الكندية تعد دليلا قويا على الهوية العرقية، فمن المتوقع أن يعطي الطلبة تقديرات أعلى للمتحدثة

على بعض مقاييس الوجدانية، إذا استخدمت أحد أساليب اللغة الفرنسية الكندية عند إجراء المقابلة معها من قبل المحاور الفرنسي. أي أنه لن يدهشنا إذا اعتبرت البطلة الرياضية أكثر صدقا أو محبوبة أكثر عند رفضها التحول عن اللغة الفرنسية الكندية، ولكنها بدلا من ذلك حافظت على الأسلوب الكندي الرسمي الذي استخدمته في الحوار الأول، أو تحولت إلى اللغة الفرنسية الكندية غير الرسمية. ولم تحدث مثل تلك النتائج فالتقديرات على مقاييس الوجدانية لم تختلف بشكل ملحوظ، بغض النظر عن حالات التحول.

وكما اتضح فإن بعض المستمعين من الطلاب لم يلحظوا التحولات عندما حدثت رغم أن ٦٥٪ منهم لاحظوا ذلك. وطلب من جميع المستمعين أن يحددوا فيما إذا كانوا سيتحولون أنفسهم كما تحول المتكلم بالشريط، وقد جُدولت إجابات الذين تمكنوا من سماع التحولات بدقة. وبالنسبة للذين استمعوا إلى الحوارات التي اشتملت على التحول إلى اللغة الفرنسية الأوروبية والذين تعرفوا على ما حدث نجد أن ٨٦٪ منهم ذكروا بأنه لم يكن باستطاعتهم التحول بهذه الطريقة في مثل هذه الظروف. ومن بين المستمعين الذين ذكروا بأنهم لن يتحولوا نجد أن ٩٠٪ قالوا بأنهم لم يكن باستطاعتهم التحول، لأنهم سيفقدون بذلك هويتهم كمواطنين من مقاطعة كويبك. ومن بين الذين استمعوا إلى الحوارات التي لم يكن فيها تحول بدقة، فإن ٦٣٪ منهم ذكروا بأنه لم يكن باستطاعتهم التحول من أجل استيعاب المحاور الفرنسي، أي كانوا سيتصرفون كما فعلت البطلة الرياضية بالشريط. ومن المهم تذكر أن هؤلاء هم الصغار أنفسهم الذين أعطوا تقديرات للبطلة على أنها أكثر تعليما وذكاءً عند تحولها أكثر من عدم تحولها.

ومن بين الذين استمعوا ولاحظوا التحولات إلى اللغة الفرنسية الكندية غير الرسمية نجد أن ٦٧٪ منهم قالوا بأنهم لا يقومون بمثل هذه التحولات. وأغلبية الآراء

التي ظهرت في ظل الاستجواب المباشر تشير إلى أنه ينبغي على المرء أن يؤكد هويته كمواطن من كويبك، وذلك بمقاومته لأي ميل إلى التحول إلى اللغة الفرنسية الأوروبية لاستيعاب المتكلم الأوروبي، ولكن دون اللجوء إلى المبالغة في ذلك والتحول إلى استخدام الأسلوب غير الرسمي. ولكن لم تظهر أبدا أدلة غير مباشرة على هذا الشيء في شكل تقديرات عليا بالنسبة لمقاييس الوجدانية لشخص قد تصرف فعلا بهذه الطريقة. ولو كان صحيحا أن بحث الأداء المقارن (وهذه التجربة هي نوع من طرق بحث الأداء المقارن) سينتج مواقف خفية أكثر مما يفعله الاستجواب المباشر، فمن الممكن أن يكون هناك تباطؤ بين المواقف الخفية والظاهرة. أي أنه على مستوى أكثر سطحية، سنجد أن حركة الاستقلال المتزايدة في كويبك بينت مدى التركيز على اللغة كرمز لهوية الجماعة، ولكن الأفكار القديمة عن اللغة الفرنسية الأوروبية باعتبارها لهجة "أفضل" ما تزال مستمرة على مستوى أعمق.

وقد أجرى فريق البحث نفسه تجربة مشابهة في ويلز، وكانت اللغة الإنجليزية البريطانية للتلفظ النموذجي قد حلت في التجربة محل اللغة الفرنسية الأوروبية وحلت اللغة الإنجليزية بلكنة ويلزية معتدلة محل اللغة الفرنسية الكندية الرسمية. بينما جاءت الإنجليزية بلكنة ويلزية عريضة محل الفرنسية الكندية غير الرسمية. وكان أفراد العينة طلابا في إحدى المدارس الثانوية في جنوب ويلز. وقد استُخدم الشكل نفسه للتجربة، والذي اشتمل على بطلة رياضية مفترضة ومعلقين رياضيين اثنين، أحدهما يسأل بالتلفظ النموذجي للغة الإنجليزية والآخر يتكلم بلغة إنجليزية بلكنة ويلزية معتدلة. وكما كان في تجربة كويبك، حصل المتكلم على تقديرات عالية بصورة ملحوظة في سمات الذكاء عندما تحول إلى اللغة الإنجليزية بالتلفظ النموذجي أثناء المقابلة مع المحاور أو المذيع الذي يتكلم الإنجليزية بالتلفظ النموذجي. وبعكس النتائج التي توصلت إليها الدراسة الكويبكية فقد كان هناك تأثيرات رئيسة مهمة على مقياسين من

مقاييس الوجدانية. وقد اعتبر المتكلم أكثر جدارة ولطفا عندما حافظ على لغته الإنجليزية بلكنة ويلزية معتدلة عند التحدث مع المعلق الذي يتكلم الإنجليزية بالتلفظ النموذجي أكثر مما كان عندما تحول إلى الإنجليزية بالتلفظ النموذجي. بل وحصل على تقديرات أعلى في كل من المقاياسين عندما تحول إلى استخدام لكنة ويلزية عريضة. ويبدو أن الإنجليزية بلكنة ويلزية قد أصابها تطور كرمز لهوية الجماعة في ويلز أكثر مما هو الحال بالنسبة للغة الفرنسية الكندية في كويبك، حيث أن ردود الأفعال المتوقعة في تجربة الأداء المقارن توضح ذلك بدرجة ما.[١٠]

لقد ألقت بحوث الموقف الضوء على منزلة الضروب اللغوية كمؤشرات على الانتماء إلى جماعة معينة، ولكن لم تكن دوما بطريقة مباشرة. وبالتحديد فإن تجربة الأداء المقارن التقليدية والتي يطلب فيها من المستمعين أن يصدروا أحكاما على متكلمين واحد بعد الآخر على أساس حديث مسجل لهم لا يؤدي غالبا إلى نتائج متوقعة. ومن ناحية أخرى، فإن نتائج تردغل وتسافاراس والجزء الخاص بالأسئلة المباشرة في بحث بورهيس وغايلز ولامبرت في كويبك دلت على نتائج أسهل في التفسير، ولكنها قد تؤدي إلى ردود أفعال سطحية فقط. أما التطبيقات الأكثر تطورا وتعقيدا لأسلوب الأداء المقارن (مثل ذلك الذي استخدمه بورهيس ومساعدوه في كويبك وويلز) فإنها تبين وضعا أفضل لاختبار المواقف الخفية بدقة مما لو كانت قد استخدمت التطبيقات الأكثر بساطة.[١١]

ازدواجية اللغة:

شكلت مواقف المجتمع نحو ضروب اللغتين العليا والدنيا جزءا هاما من وصف فرجسون الأصلي لازدواجية اللغة. فالضروب العليا كان لها مكانة أكبر، أما الضروب الدنيا فإنها لا تحظى غالبا باحترام كبير. وينبغي أن تقع نتائج دراسة المواقف

في أنماط يمكن التنبؤ بها في المجتمعات التي توجد بها ازدواجية لغة. ويتضح أنها تفعل ذلك إلى حد كبير للغاية. وكمثال على ذلك سننظر في دراستين للمواقف أجريتا في مجتمعات يوجد فيها ازدواجية لغوية. وقد أجريت إحداهما في مصر، وهي دراسة إلداش وتكر ١٩٧٥م، وشملت استخدام اللغتين العربية الكلاسيكية والدارجة (وهي مثال على حالة من الحالات الأربعة التي استخدمها فرجسون). ورغم أن الازدواجية اللغوية لم تكن موضع اهتمام وتركيز إلداش وتكر في عملهما إلا أن نتيجة بحثهما تعكس الازدواجية اللغوية بصورة واضحة تماما. وأما الدراسة الثانية فتشمل اللغتين الإسبانية والإنجليزية المارستين في جالية أمريكية مكسيكية، وهي الدراسة التي أجراها كارنزا وريان ١٩٧٥م. ولدينا هنا مثال عن ازدواجية اللغة الواسعة؛ لأنها تشمل لغتين متميزتين. وبعكس دراسة إلداش وتكر فإن كارنزا وريان بدءا دراستهما بهدف واضح، وهو إيجاد أنماط مواقف نموذجية في ازدواجية اللغة.

وقد استخدم إلداش وتكر نموذجا تقليديا لأسلوب الأداء المقارن حيث ضبطا المحتوى عن طريق جعل متكلمين يناقشون الموضوع نفسه (وكانت أهرامات الجيزة في مصر هي موضوع النقاش، وهو موضوع محايد عاطفيا) ولم يطلبا منهم أن يقرأوا مقطعا نموذجيا. وقد اختارا متحدثين مصريين اثنين يتكلمان كلا من اللغتين العربية الكلاسيكية والدارجة وكذلك اللغة الإنجليزية. وكان من الطبيعي تماما أن يتحدثا اللغة الإنجليزية بلكنة مصرية[١٢]. ولم يكن من السهل إيجاد متحدثين يفترض أنهم يتكلمون اللهجتين العربية الكلاسيكية والدارجة. الأسباب التي يقدمها إلداش وتكر على ذلك لن تدهش المرء الذي يعرف ازدواجية اللغة:

إن الفرق بين اللغتين العربية الكلاسيكية والدارجة ليس فرقا واضحا تماما، وذلك نظرا لوجود عدة درجات بين اللغة العربية المستخدمة في القرآن ولغة الكلام التي يستخدمها رجل الشارع لمناقشة الشؤون العامة. علاوة على ذلك فإن اللغة

العربية الكلاسيكية ليست لغة محكية، ولكنها لغة كتابية تستخدم في جميع أنحاء العالم العربي. وهذه اللغة الكتابية قد تقرأ شفويا، ولكن قلّ ما نجد من يتكلمها بصورة ارتجالية. ويذكر أن من يستطيعون التحدث باللغة العربية الكلاسيكية بطلاقة هم قلائل جدا (الداش وتكر ١٩٧٥، ص ٣٥).

وكان المتكلمون الذين استخدموا في الدراسة واعين لذاتهم بأنهم يحاولون تكلم اللغة العربية الكلاسيكية بصورة عفوية. وكان لمهمة التسجيل على أشرطة تأثير على أدائهم باللغة العربية الدارجة أيضا حيث بدوا وكأنهم يستخدمون أسلوبا أرقى بعض الشيء من اللهجة الدارجة (الداش وتكر ١٩٧٥، ص ٥٣). وعلى الرغم من هذه المشكلات إلا أن نتائج البحث قدمت صورة واضحة عن وجود حالة من ثلاثية اللغة حيث تحتل اللغة الإنجليزية باللكنة المصرية مكانا بين اللغة العربية الكلاسيكية والعامية. وقد طلب من المستمعين أن يقيموا المتكلمين في كافة العينات اللغوية على أربعة مقاييس للفارق الدلالي، وهي: الذكاء والقيادة والتدين ومدى كون المرء محبوبا.[١٣] وخضعت النتائج لتحليل تباين. وتبين وجود أثر كبير بصورة واضحة لتنوع اللغة على كافة السمات الأربعة.

ولسوء الحظ فإن اكتشاف الأثر الرئيسي للغة لم يكن معيناً للغاية. ولتبين السبب في ذلك انظر بكل بساطة إلى الجدول رقم (٦.٦) وهو إعادة مبسطة قليلا لخط واحد من جدول (٢) الذي قدمه إلداش وتكر (١٩٧٥، ص٤٢) وكانت نسبة F الملحوظة تدل على أنه في مكان ما بين العينات اللغوية الست كان متحدثو بعض العينات اللغوية يعتبرون أكثر ذكاءً بصورة ملحوظة من المتحدثين في العينات اللغوية الأخرى. ولا يوضح الجدول لنا في أي العينات اللغوية تكون الفروق فيها ذات أهمية. ولحسن الحظ فهناك اختبار إحصائي آخر يسمى اختبار ذات المقارنة المتعددة لنيومن كيولس، وقد صمم لتحديد مصدر التباين في حالات مثل هذه. وقد طبق الداش

وتكر هذا الاختبار وتلخص النتائج في الجدول رقم (٦،٧).

وبدراسة الجدول رقم (٦،٧) يتبين أن المتحدثين باللغة العربية الكلاسيكية واللغة الإنجليزية باللكنة المصرية يعتبرون أكثر ذكاء ويمتلكون قدرة قيادية أكثر من المتكلمين باللغة العربية الدارجة. ويتلازم هذا مع نمط الازدواجية اللغوية، حيث إن الفرد العادي في المجتمع يعتقد أن المتحدثين باللهجة العليا تكون لديهم هذه السمات بدرجة أكبر من المتحدثين باللهجة الدنيا. ورغم أن العربية الكلاسيكية حظيت بتقديرات أعلى في كلتا السمتين بدرجة أكثر من الإنجليزية باللكنة المصرية إلا أن الفرق لم يكن كبيرا في أي من الحالتين. وأما بالنسبة لسمة التدين، فإن المتكلمين باللغة العربية الكلاسيكية اعتبروا أكثر تدينا من المتحدثين بالعينتين اللغويتين، وذلك لأن الاستخدام الديني هو عموما من وظائف ضرب اللغة العليا. غير أن حقيقة كون اللغة الإنجليزية دخيلة على الثقافة العربية يعد عنصرا مهما هنا. ورغم أن اللغة الإنجليزية بصفة عامة ظهرت كلغة عليا إلا أن ذلك ليس مهما بالنسبة لموضوع الدين. وقد اعتبر المتحدثون باللغة العربية الدارجة أكثر تدينا قليلا من الذين يتحدثون باللغة الإنجليزية باللهجة المصرية، ولكن هذا الفرق لم يكن كبيرا.[١٤] أما المقياس الوجداني الوحيد، وهو كون المرء محبوبا، فقد فشل في بيان أي ميزة للغة الدنيا أو اللغة العربية الدارجة. وعلى العكس وجد المحكمون أن الذين يتكلمون اللغة العربية الكلاسيكية محبوبون أكثر من الذين يتكلمون أيا من الضربين اللغويين الآخرين. إن توقع أن اللغة الأكثر ارتباطا بالمواطنين لغة أعلى على المقياس الوجداني هو احتمال لم يتحقق أيضا.

الجدول رقم (٦، ٦). متوسط تقديرات الذكاء طبقا لكل عينة لغوية.

السمة	العربية الكلاسيكية	العربية الدارجة	الإنجليزية المصرية	الإنجليزية الأمريكية	الإنجليزية البريطانية	نسبة العوامل F	الدلالة
الذكاء	١٠،٢٥	٨،٤٩	٩،٥٩	٩،١٣	٨،٤٥	٢٠،٣٣	P > ٠،١

المصدر: بيانات مأخوذة من إلداش وتكر (١٩٧٥، ص ٤٢، جدول ٢)

وقد طرح إلداش وتكر أيضا عددا من الأسئلة عن مدى ملائمة الضروب اللغوية المختلفة للاستخدام في حالات مختلفة. وسجلت النتائج على مقياس فارق دلالي يتراوح ما بين تلاؤم مرتفع وتلاؤم منخفض. وتراوحت الدرجات المتوقعة كما في الجزء الخاص بأسلوب الأداء المقارن من التجربة، ما بين ٢ إلى ١٢ (بين ٢و ١٢). وقد طلب من أفراد العينة أن يحكموا على مدى تلاؤم (مناسبة) عينة لغوية حسب ما سمعوها للاستخدام: ١-في البيت، ٢-في المدرسة، ٣-في العمل، ٤-في برامج الراديو والتلفزيون، ٥-في الأحاديث الرسمية والخطب الدينية. ولم تكن هناك فروق كبيرة بين العينات اللغوية الثلاث بالنسبة لحالة العمل، ولكن في المواقف الأربعة الأخرى أعطت النتائج نفسها التي قد يتنبأ المرء بها إذا كان لديه معرفة بازدواجية اللغة. وجاءت نتائج هذه الحالات الأربع كما هي مقدمة في الجدول رقم (٦،٨) وباستخدام النموذج نفسه كما في الجدول رقم (٦،٧).

الجدول رقم (٦،٧). مقارنة لمتوسط التقديرات لأربع سمات لدى متكلمي ثلاث عينات لغوية، وفي حالة عدم وجود رموز بين عينات اللغات (الذكاء مثلا بين العربية الكلاسيكية والإنجليزية) فإن الفروق بين النتائج غير مهمة.

السمة	العربية الكلاسيكية		الإنجليزية المصرية		العربية الدارجة
الذكاء	١٠,٢٥		*		٨,٤٩
	١٠,٢٥		٩,٥٩	+	٨,٤٩
القيادة	٨,٧٤		*		٧,٢٠
	٨,٧٤		٨,٥٦	*	٧,٢٠
التدين	٩,٣٨		*		٧,٧٥
	٩,٣٨	*	٧,١١		٧,٧٥
المحبة	٩,٤٨		*		٨,٥١
	٩,٤٨	*	٨,٧١		٨,٥١

* تبين أن الفروق بين النتائج تكون دالة (مهمة) عندما تكون درجة الاحتمال <٠,٠١

+ تبين أن الفروق بين النتائج تكون دالة (مهمة) عندما تكون درجة الاحتمال < ٠,٠٥

المصدر: الداش وتكر (١٩٧٥)

الجدول رقم (٦،٨): مقارنة متوسط تقديرات ثلاث عينات لغوية لسمة الملائمة في أربع حالات

الحالة	العربية الكلاسيكية		الإنجليزية المصرية		العربية الدارجة
في البيت	٦,٣٦		*		٨,٧٠
	٦,٣٦	+	٦,٦٩	*	٨,٧٠
في المدرسة	٩,١١		*		٨,١٩
	٩,١١	*	٨,١٦		٨,١٩
في الراديو والتلفزيون	٩,٧٩		*		٧,٧٨
	٩,٧٩	*	٨,٨٤	*	٧,٧٨
الخطب الرسمية	٩,١٣		*		٥,٣٩
	٩,١٣	*	٦,٦٠	*	٥,٣٩

* تبين أن الفروق بين النتائج تكون دالة (مهمة) عندما تكون درجة الاحتمال < ٠,٠٠١

+ تبين أن الفروق بين النتائج تكون دالة (مهمة) عندما تكون درجة الاحتمال < ٠,٠٥

وفي حالة عدم وجود رموز بين عينات اللغة (مثلا في المدرسة بين الإنجليزية المصرية العربية الكلاسيكية) فإن الفروق بين النتائج غير دالة (غير مهمة).

المصدر: البيانات من إلداش وتكر (١٩٧٥)

إن اللغة العربية الدارجة هي إلى حد كبير الشكل الأكثر ملاءمة للاستخدام في البيت، أما العربية الكلاسيكية فهي الأقل ملاءمة وتعد في هذا السياق أقل من اللغة الإنجليزية المصرية بدرجة ملحوظة (درجة احتمال < ٠,٠٥). ومن ناحية أخرى فإن اللغة العربية الكلاسيكية في المدرسة قد تكون هي الأكثر ملاءمة، ولا فرق بين اللغة الإنجليزية المصرية والعربية الدارجة. أما بالنسبة للاستخدام في الراديو والتليفزيون وفي الخطب الرسمية فهناك فرق من ثلاثة جوانب. إن اللغة العربية الكلاسيكية تعتبر وبشكل واضح أكثر ملاءمة من كل من الإنجليزية المصرية والعربية الدارجة وتعد الإنجليزية المصرية أكثر ملاءمة من العربية الدارجة في هذا الصدد .

وينضم جزءا تصميم بحث إلداش وتكر ليرسما لنا صورة واضحة نوعا ما عن ازدواجية اللغة كما تعكسها المواقف اللغوية للمجتمع. فالمتحدثون باللغة العربية الكلاسيكية والإنجليزية المصرية يرون أنهم يمتلكون مقدرة قيادية عالية وذكاءً أشد من متحدثي اللغة بالعربية العامية، وتعتبر طريقة كلامهم الأكثر ملاءمة للاستخدام في الراديو والتلفزيون وفي الخطب الرسمية والدينية. إن اللغة العربية الكلاسيكية هي أكثر ملاءمة للاستخدام في الحالتين عما هو الحال بالنسبة للغة الإنجليزية المصرية، ولكن ليس هناك فرق دلالي بين اللغتين بالنسبة للذكاء والقدرة القيادية. ويعتبر الذين يتكلمون العربية الكلاسيكية أكثر تدينا من الذين يتكلمون أحد الضربين اللغويين الآخرين، وتعتبر العربية الكلاسيكية أكثر ملاءمة للاستخدام في المدرسة. أما بالنسبة للبيت فإن العربية الدارجة هي الأكثر ملاءمة إلى حد كبير، واعتبرت العربية الكلاسيكية هي الأقل ملاءمة لهذا المجال.

النتيجة الوحيدة التي لا تبدو متفقة مع توقعاتنا هي الأحكام التي أصدرها أفراد العينة على سمة المحبة. فقد اعتُبر المتحدثون باللهجة العليا، وهي العربية الكلاسيكية، محبوبين أكثر في الوقت الذي توقعنا فيه أن يحصل متكلمو اللغة العربية الدارجة على هذا التقييم. غير أن دراسة إلداش وتكر ليست دراسة غير طبيعية في هذا المجال، حيث إن ارتفاع تقديرات اللغات ذات المكانة على المقاييس الوجدانية تعد نتيجة شائعة نسبيا في دراسات المواقف.

وقد صممت دراسة المواقف عن اللغة الإنجليزية والإسبانية في الجالية الأمريكية المكسيكية في شيكاغو (كارنزا وريان ١٩٧٥) آخذة في عين الاعتبار ازدواجية اللغة بشكل واضح. وقد طوِّرت خصيصا تطوير مجموعتان من مقاييس الفارق الدلالي لاستخدامها في هذه الدراسة وهما مجموعة "التأكيد على المكانة" ومجموعة "التأكيد على التضامن". وقد شمل تصميم الدراسة أيضا استخدام سمة

الصورة المطابقة في الأشرطة التي ستستخدم كمحرض في التجربة (نذكر هنا أن تصميم الصورة المطابقة يعني أن كل عينة لغوية في التجربة ستظهر في كل المواقف سواء كان ذلك في موقفين أو أكثر). وتضمن تطبيق كارنزا وريان أربعة مقاطع :

١ - حكاية سردية عن أمٍّ تقوم بإعداد الإفطار بالمطبخ، وهي باللغة الإسبانية، ٢- مقطعا حول الموضوع نفسه، ولكن بأسلوب مناسب في اللغة الإنجليزية، ٣- مقطعا حول مدرس يشرح درسا في التاريخ في إحدى المدارس باللغة الإنجليزية، و٤- مقطعا مطابقا لذلك باللغة الإسبانية. ويعني ذلك أنه كان هناك أربعة مقاطع، أحدها بالإنجليزية في البيت، والإسبانية في البيت، والإنجليزية في المدرسة، والإسبانية في المدرسة. وكانت مقاييس تأكيد المكانة هي مقاييس التعليم والذكاء والنجاح والثروة. أما مقاييس تأكيد التضامن الأربعة فكانت الود والطيبة واللطافة والجدارة بالثقة. وقد احتوى الشريط الذي سيستخدم كمحرض على أربع قراءات لكل من هذه المقاطع بصوت طالب مختلف في كل مرة من جامعة نوتردام. وكان كل قارئ متحدثا أصليا باللغة التي كان يقرؤها. ونتيجة لذلك احتوى الشريط على ست عشرة قراءة بصوت ستة عشر متحدثا مختلفا.[١٥]

وكان أفراد العينة طلابا في المدرسة الثانوية من الإنجليز والأمريكيين المكسيكيين في مدرسة ثانوية كاثوليكية في شيكاغو. وكان الطلاب الأمريكيون المكسيكيون متحدثين أصليين للغة الإسبانية ودرسوا واستخدموا اللغة الإنجليزية في المدرسة. أما الطلاب الإنجليز فكانوا متحدثين أصليين للغة الإنجليزية، ولكنهم كانوا قد درسوا الإسبانية في المدرسة الثانوية.[١٦] وبالطبع كان الطلاب الأمريكيون المكسيكيون هم الوحيدين الذين كانوا أعضاء في مجتمع ازدواجي اللغة حيث استخدموا فيه اللغة الإنجليزية والإسبانية، وكانت مجموعة الطلاب الإنجليز عبارة عن "مجموعة تحكم". ويدأ كارنزا وريان بحثهما واضعين في الاعتبار الفرضيات الأربعة التالية (كارنزا وريان

١٩٧٥، ص٨٩):

١- إن تقديرات الأمريكيين المكسيكيين ستكون أعلى بالنسبة للغة الإسبانية في مجال البيت، ولكنها ستكون أعلى بالنسبة للغة الإنجليزية في مجال المدرسة.

٢- تقديرات الإنجليز ستكون لصالح اللغة الإنجليزية أكثر مما هو الحال بالنسبة للغة الإسبانية في كلا المجالين.

٣- إن تقديرات الأمريكيين المكسيكيين ستكون أعلى بالنسبة للغة الإسبانية في مقاييس التضامن، ولكنها ستكون أعلى بالنسبة للغة الإنجليزية في مقاييس المكانة.

٤- إن تقديرات أفراد العينة الإنجليز لن تختلف بالنسبة لنوعي المقاييس.

وحلّلت النتائج باستخدام تحليل تباين مكون من أربعة عوامل: المجموعة (الإنجليز أو الأمريكيون المكسيكيون) X نوع المقياس (مقاييس المكانة أو مقاييس التضامن) X السياق (البيت أو المدرسة) X اللغة (الإنجليزية أو الإسبانية). ولم تكن هناك تأثيرات للمجموعة على الإطلاق سواء أكانت تأثيرات أساسية أم تفاعلات، وهو ما يعني ببساطة أن الإنجليز كمجموعة كانوا يضعون تقديرات للمقاييس بصورة لا تختلف عما كان يفعله الأمريكيون المكسيكيون. وهذه نتيجة مفاجئة، ولكن يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن المتحدثين الإنجليز كانوا يتخذون وجهة نظر المتحدثين الإسبان. ويعد ذلك معقولا إذا وضعنا في الاعتبار عدة حقائق.

أولا: أن البحث أجري في قاعات دراسية مختلطة حيث كان الطلاب الإنجليز والأمريكيون المكسيكيون يستمعون إلى الأشرطة ويضعون التقديرات في الوقت نفسه، وثانيا: أن الطلاب الإنجليز كانوا جميعا دارسين للغة الإسبانية وكانوا يتعلمون شيئا عن لغة وثقافة المتحدثين الإسبان. وربما كان الأهم من ذلك أن معظم الإنجليز أدركوا بلا شك أن مقارنة الإسبانية بالإنجليزية في ذلك السياق لم تكن ذات أهمية

بالنسبة لهم. فلا مجال على الإطلاق لأن تكون اللغة الإسبانية هي اللغة الملائمة في بيوتهم. أما الطريقة الوحيدة لفهم هذا الإجراء فهي تبني وجهة نظر زملائهم الأمريكيين المكسيكيين، وهذا ما يبدو أنهم قد فعلوه بنجاح تام.

ومن ناحية أخرى، كانت هناك آثار أخرى مهمة. كان هناك تأثير كبير ذو دلالة لغوية (نسبة F = ١٠, ٩، درجة احتمال < ٠,٠١) حيث حصلت اللغة الإنجليزية على متوسط تقديرات في كل المقاييس بلغ ٧٧, ٤ ، وحصلت الإسبانية على ٦٢, ٤ (وذلك على مقاييس مكونة من سبع نقاط وقد أعطيت الصفات المفضلة القيمة ٧). وإجمالا، فإن كلا من الأمريكيين المكسيكيين والإنجليز، الذين تبنوا على الأرجح وجهة النظر الأمريكية المكسيكية، قيموا اللغة الإنجليزية على أنها أعلى من الإسبانية، وهي نتيجة نموذجية بالنسبة للغات العليا في حالة وجود ازدواجية لغوية. وما يجعل الأمر ممتعا أكثر أن هناك تأثيرين مهمين للتفاعل بالنسبة للسياق حسب اللغة (نسبة F = ٤٦, ١٤، درجة احتمال < ٠,٠٠١) ونوع المقياس لكل لغة (نسبة F = ٨٠, ٦، درجة احتمال < ٠,٥٠). وهذا يعني أنه بالنسبة لسياق التفاعل باللغة فإن الإنجليزية والإسبانية حصلتا على تقديرات مختلفة إلى حد كبير، بناء على ما إذا استمع إليهما في سياق البيت أو في سياق المدرسة. وبالمثل، فإن تقديرات اللغتين اختلفتا إلى حد كبير بناءً على ما إذا كان القياس يتم على مجموعة تأكيد التضامن أو مجموعة تأكيد المكانة.

ويبين الجدول رقم (٦.٩) متوسط التقديرات لهذه التفاعلات. ومن خلال السياق نستطيع أن نرى أن الإسبانية اعتبرت أعلى من الإنجليزية في المتوسط بالنسبة لسياق المنزل، أما الإنجليزية فكانت أعلى في سياق المدرسة. وهذا بالتحديد نوع النتائج التي يتوقعها المرء في مجتمع فيه ازدواجية لغة. وكما أوضح كارنزا وريان (١٩٧٥، ص ٩٩) "فإن النتائج تؤكد أهمية دور السياق. ولو تُجوهل السياق لكانت

النتائج قد أكدت وجود تفضيل إجمالي للغة الإنجليزية". أما نتائج نموذج المقاييس فلم تكن واضحة تماما بهذا الشكل، بمعنى أن الإنجليزية تعتبر أعلى في كلا المقاييسين. غير أن الفرق في مقاييس التضامن يعتبر صغيرا للغاية، وهو فرق أكثر قدرا في مقاييس المكانة. أما حقيقة أن هناك تفاعلا مهما فتعني أن هذا النمط له مغزاه. وبعبارة أخرى يبدو أن أفراد العينة تعرفوا على الفرق بين اللغتين فيما يتعلق بمفاهيم المكانة والتضامن. وكان من الممكن التنبؤ بهذا الفرق من خلال فهم ظاهرة ازدواجية اللغة.

الجدول رقم (٦،٩). متوسط تقديرات الإسبانية والإنجليزية حسب السياق ونوع المقياس.

	السياق		نوع المقياس	
	البيت	المدرسة	التضامن	المكانة
الإنجليزية	٤,٦٠	٤,٩٤	٤,٨٢	٤,٧٢
الإسبانية	٤,٧٣	٤,٥١	٤,٧٧	٤,٤٧
الفرق	-٠,١٣	٠,٤٣	٠,٠٥	٠,٢٥

الفرق بالسالب يبين أن الفرق في صالح اللغة الإسبانية

المصدر: كارانزا وريان (١٩٧٥م).

وتبين النتائج التي حصلنا عليها في مصر وفي الجالية الأمريكية المكسيكية في الولايات المتحدة أن ازدواجية اللغة شفافة على نحو يمكن تأكيدها عن طريق بحوث المواقف اللغوية وخاصة استخدام أسلوب الأداء المقارن.

التعليم

ربما كان التعليم هو أهم تطبيق لبحوث المواقف اللغوية خارج نطاق فهم البنية الاجتماعية. لقد كانت دراسات المواقف التي أجريت في مجال التعليم من نوعين: ١- المواقف اللغوية للمدرسين، ٢- المواقف اللغوية لدى متعلمي اللغة الثانية. وأما النوع الثاني من الدراسات فيعد عادة لاكتشاف ما إذا كانت مواقف المتعلمين نحو اللغة التي يتعلمونها تؤثر على تقدمهم في تعلم هذه اللغة. لن نناقش هذا الموضوع من البحوث هنا، ولكن هناك بعض المراجع لذلك مقدمة في الهوامش البيليوغرافية لهذا الفصل، وفي الكتاب الثاني سنناقش أهم مواقف المدارس في التعليم العام. وهنا سنفحص كيفية قياس مواقف المدرسين والنتائج التي تنبثق عن هذه الأقيسة.

يعتبر فردريك ويليامز من أفضل من أجروا بحوثا على المواقف اللغوية في التعليم من بين علماء النفس الاجتماعيين والمربين وعلماء اللغويات النفسية. وبناء على عدد من المشروعات البحثية التي جرت في منتصف السبعينيات (وليامز، وايتهيد وميلر ١٩٧١، ١٩٧٢، وليامز ١٩٧٣، مشاي ووليامز ١٩٧٣، وليامز ١٩٧٤، وليامز ورفاقه ١٩٧٦) فإن تصميم بحث وليامز المتقن والدقيق وإجراءاته الإحصائية قد أثمر وحصل على نتائج واضحة بصفة خاصة، ويمكن إيرادها هنا. ومن المفيد جدا أن نستعرض منهجه البحثي والنتائج التي توصل إليها ببعض من التفصيل.

مخطط البحث لدى وليامز.

إن منهج وليامز الأساسي هو أن يجعل أفراد العينة يقيمون عينات من حديث مسجل (على الفيديو أو سماعيا) طبقا للصيغة المألوفة من مقاييس الفارق الدلالي. ولم يستخدم في تسجيلاته التي ستستخدم كمحرض أسلوب الأداء المقارن فيما عدا استخدامها بالمعنى الواسع جدا. ولم تكن هناك محاولة لجعل نفس المتحدث يتحدث

بأكثر من عينة لغوية واحدة، ولكن هناك عينات لأطفال مختلفين من السن نفسه يشتركون في العرق والوضع الاجتماعي أو المكانة الاجتماعية، وهما المتغيران المستقلان اللذان اهتم بهما وليامز. وتشمل التسجيلات محادثات حرة نسبيا، ولم تكن هناك محاولة للتحكم بالمحتوى. ورغم أن بعض الباحثين يعتبرون فقدان التحكم أمرا مزعجا إلا أن نوع الفقرات المسجلة التي استخدمها وليامز تجنبت التكرار وفقدان العفوية التي أحيانا ما تكون أحيانا الطابع الغالب للبحوث التي هي أكثر تحكما.

وفي بحث وليامز، أُوليَت عناية خاصة لعملية تطوير الفارق الدلالي ذاتها. وفي حين أن كثيرا من مخططات بحوث المواقف تستخدم ببساطة صفات لتحديد القياس تبدو مقبولة للباحث، إلا أن وليامز (١٩٧٤، ص٢٣) استخدم إجراء من أربع خطوات قاده إلى فحوى البحث الأساسي. أولا، أُجريت دراسة استرشادية استمع فيها مجموعة من المدرسين إلى عينات من الأحاديث وقيموا المتكلمين بطريقة السؤال المفتوح والذي طلب منهم من خلاله أن يصفوا المتكلمين بأسلوبهم الخاص. ثانيا، أُخذت مجموعة مختلفة من الصفات التي جاءت في إجابات الأسئلة المفتوحة ووضعت في مجموعة من المقاييس التي تعتبر في حد ذاتها نماذج أصلية. وقد أعطاه هذا الإجراء نوعا من تأكيد أن صفات تحديد المقياس كانت ملائمة للمدرسين حيث إن المدرسين استخدموها بعفوية في وصف كيفية تحدث الأطفال. ثالثا، استخدمت هذه المقاييس الأصلية من قبل مجموعة أخرى من العينة لتقييم عينات لغوية. رابعا، استُخدم أسلوب إحصائي يسمى التحليل العاملي، أي تحليل العوامل؛ لإيجاد ما إذا كانت المقاييس المختلفة تكشف عن أبعاد إجابات أساسية بقدر أكبر.

وتحتاج الخطوة الأخيرة إلى بعض الشرح والتفسير للتحليل العاملي. فالتحليل العاملي إجراء معقد، ولذلك لن أحاول تفسير كيفية عمله، وبدلا من ذلك سننظر فقط في نوع النتائج التي تنبثق عنه. إن الفكرة الرئيسية في ذلك هو أنه أحيانا يقوم

مقياسان بقياس الشيء نفسه تقريبا. يمكن تخيل وجود استبيان للفارق الدلالي بالمقياسين التاليين:

يكون المتحدث:

١- ذكي _ _ _ _ _ _ _ غير ذكي

٢- متقد الذهن _ _ _ _ _ _ _ بليد

ولعل المتحدثين أنفسهم الذين سيحصلون على تقديرات عليا في مقياس الذكاء سيحصلون أيضا على درجات عليا في مقياس "الاتقاد الذهني"، والعكس صحيح. ويعني ذلك أنك ستتوقع أن المتكلم الذي يحصل على ٦ في مقياس الذكاء سيحصل أيضا على ٦ في مقياس الاتقاد الذهني، أو في أي من الأحوال ٧ أو ٥. إن تحليل العوامل إجراء يحدد للباحث المدى الذي يمكن فيه أن يكون التوقع صحيحا. وإذا استخدمنا الاستبيان الذي يحتوي على المقياسين الآنفين، فإن تخميننا يكون صحيحا حيث سيحصل كلا العنصرين على تقدير عال إلى حد كبير في تحليل العوامل.

إن المثال الذي استخدمناه هنا مصطنع بشكل متعمد وذلك لإيضاح القصد. ولعله لن يستخدم أحد مثل هاتين الصفتين المترابطتين إلى حد بعيد إن لم يكن الباحث قد أراد استخدام كل واحدة منهما لاختبار صدق الأخرى[١٨]. وأكثر من ذلك فإن تحليل العوامل قد يكشف عن القرابة بين مجموعة من العناصر، وليس مجموعة فيها عنصران فقط، ومثال على ذلك في بحث وليامز المجموعة التالية من المقاييس التي تشكل تكتلا عنقوديا طبقا لنتائج تحليل العوامل: غير متأكد - واثق، إيجابي - سلبي، متردد -متلهف، يحب الكلام- يكره الكلام. وبعبارة أخرى، كان في أذهان المدرسين الصفات نفسها عندما حددوا تقدير كل واحد من هذه المقاييس.

وكان التكتل العنقودي للمقاييس التي ذكرناها آنفا واحدا من اثنين اكتشفهما وليامز. وقد استخدمت هذه المقاييس التي سميت مقاييس الثقة- التلهف لقياس

مواقف المدرسين الشاملة بناءً على طلاقة الطفل وحماسته. أما التكتل العنقودي الثاني فكان يدعى: العرقية- اللانموذجية. ويبدو أن هذه المقاييس مصممة لإظهار مواقف المدرسين تجاه سمات الكلام المرتبطة بالوضع الاجتماعي الأدنى مقابل الوضع الاجتماعي الأعلى، والعرق الأبيض مقابل العرقيات اللابيضاء. واعتبرت المقاييس المرتبطة بهذه الأبعاد هي الأكثر ملاءمة للاستخدام.

وقد يبدو هذان البعدان غير كافيين لبيان السلسلة الكاملة لمواقف المدرسين، إذن فكيف نثق من أنهما مناسبان؟ أوضح وليامز (١٩٧٤، ص ٢٤) عددا من المؤشرات على أن كلا البعدين صحيحان ويمكن الاعتماد عليهما. أما الصحة فمثبتة بطريقتين: الأولى، أن السمات التي وجدت في عينات الكلام الفعلية يمكن استخدامها "للتنبؤ" بنتائج نوعي المقاييس من وجهة نظر إحصائية. وباستخدام الإجراء المعروف باسم تحليل الارتداد الخطي، اكتشف وليامز أن تكرار مختلف السمات الصوتية والنحوية غير النموذجية المتعدده: مثل حرف d الذي ينطق وكأنه صوت th المجهور أو العبارات الصغرى يمكن أن تتنبأ بتقديرات على مقاييس العرقية واللانموذجية إلى حد كبير. وبعبارة أخرى فإن الطفل الذي يستخدم قدرا كبيرا من الألفاظ من نوع dem و dose وقدرا كبيرا من العبارات الصغرى من المحتمل أن يحصل على علامات عالية تدل على أنه "عرقي" (يعني ذلك، في سياق بحث وليامز، أسود أو أمريكي مكسيكي) وغير نموذجي. وبالمثل فإن عملية تكرار "ظاهرة التردد" مثل أصوات " إه uhm، إحم uh " نجحت في التنبؤ بنتائج قياس الثقة -التلهف. والسبب الثاني في قبول صحة (صلاحية) النموذج المكون من بعدين يمكن تفسيره بشكل أفضل بكلمات وليامز نفسه (١٩٧٤، ص ٢٤): "لقد وجد النموذج المكون من عاملين بشكل متطابق تقريبا في الأبعاد نفسها المفسرة في دراسات منفصلة في شيكاغو وتكساس، حيث كان تطوير القياس في كلتا الدراستين قد بدأ بمجموعة من

الصفات منتقاة من مناقشات المدرسين". وبعبارة أخرى، فإن دراستين استرشاديتين في مجتمعين منفصلين اشتملتا على مدرسين لا يعرفون بعضهم، وكان لهما النتيجة نفسها ذات العاملين. أما المصداقية فقد أظهرت بطريقة إحصائية فنية عن طريق حساب "المعاملات المشتركة للمصداقية"(وليامز ١٩٧٤، ص ٢٤). وبالإضافة إلى ذلك ظهر أحد مؤشرات المصداقية من تلك التجارب التي اشتملت على تقييمات أو تقديرات متكررة لعينات الكلام نفسها أعدت من قبل المدرسين أنفسهم. بل كانت النتائج متطابقة أساسا حتى عندما أجريت التقديرات بعد فاصل زمني مدته ثلاثة أسابيع.

وبتعبير أقل تقنية، فإن البعدين كان لهما درجة قبول كبيرة عندما حاولنا اكتشاف معناهما في واقع الحياة. ويبدو أن المدرسين استجابوا إلى الشكل الذي عبر به الأولاد عن أنفسهم (العرقية -اللانموذجية) والطريقة التي قدموا بها حديثهم (الثقة - التلهف). كما حصل الصغار على تقديرات عالية وأخرى منخفضة في المقاييس، وذلك بنمط يمكن تفسيره بسهولة كما يوضح الشكل رقم (٦,٤). ويلاحظ أن الأولاد ذوي المكانة العالية غالبا ما حصلوا على تقدير "غير عرقي ونموذجي" (وأيضا "واثق ومتلهف")، في حين أن الأولاد الذين ينتمون إلى المكانة الأدنى حصلوا على تقديرات معاكسة. وبالنسبة لموضوع العرقية فهناك اختلاف بسيط في كلا المقياسين بين منزلة الأولاد من البيض والسود على الرغم من أن الصغار البيض جاءوا في مرتبة "أقل ثقة وأقل لهفة وأكثر عرقية ونموذجية بقليل من الصغار السود. أما الأولاد السود من ذوي المكانة الأدنى فقد حصلوا على تقديرات "عرقي وغير نموذجي" أكثر من الأطفال البيض ذوي المكانة الأدنى"، كما حصلوا على تقديرات "أقل ثقة ولهفة إلى حد ما".

نتائج وليامز.

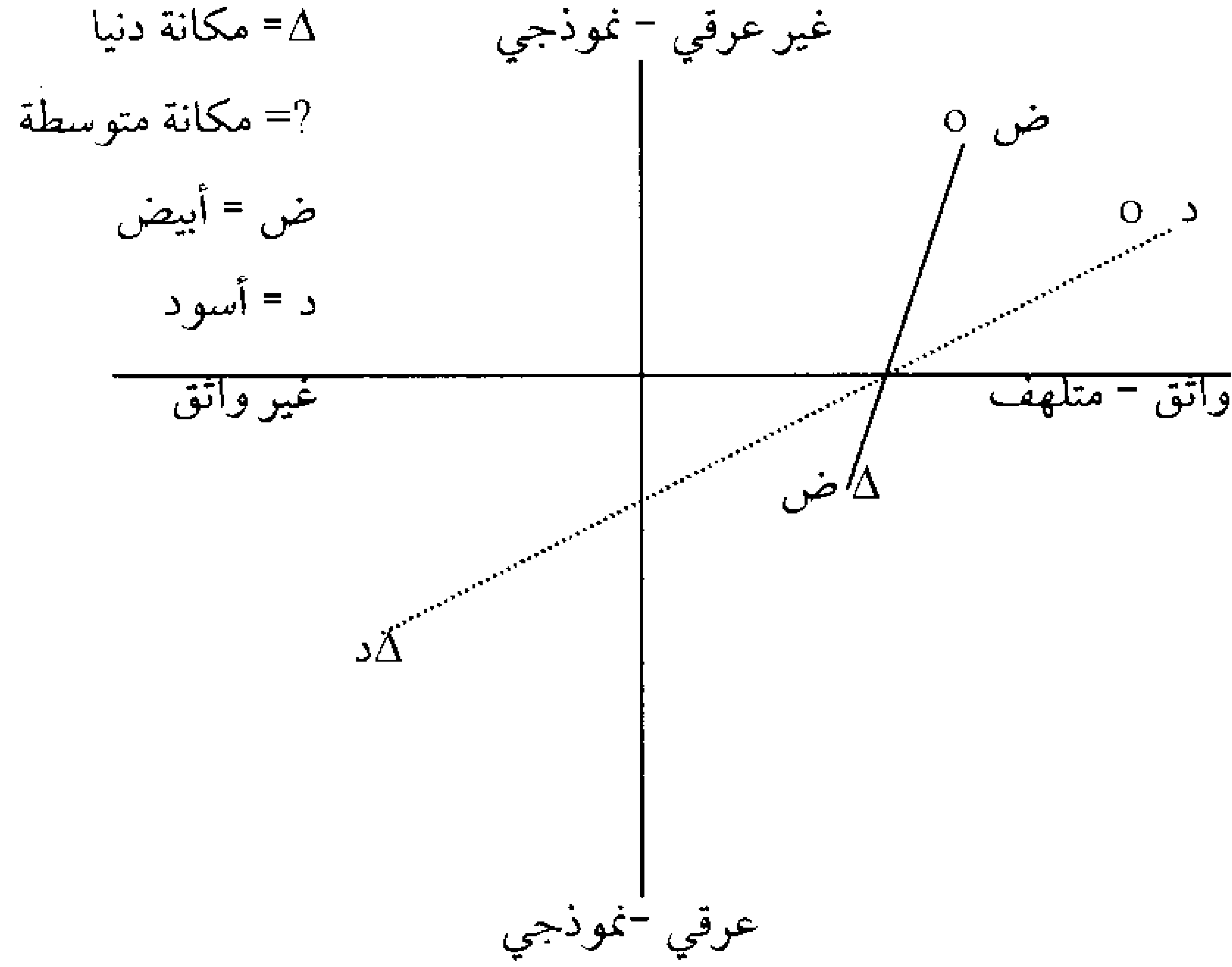
لعل أهم نتيجة توصل إليها ويليامز في بحوثه هو وزملاؤه هي اكتشاف "نموذج

العاملين" الذي يضمن بمصداقية وصدق الحصول على بعدين رئيسين على الأقل من مواقف المدرسين. وأكثر من ذلك، هناك نتائج أخرى مهمة. فمثلا، عند مقارنة تقديرات الأولاد البيض بالأولاد السود من جانب المدرسين البيض والسود، تبين أن المدرسين السود قدروا الأولاد السود على أنهم إلى حد كبير"غير عرقيين" ونموذجين" أكثر مما قدرهم به المدرسون البيض (وليامز ١٩٧٣، ص ١٢٢-١٢٣). وفي تقديرات الأولاد البيض، جاءت تقديرات المدرسين البيض وكذلك السود للأولاد البيض ذوي المنزلة العالية هي نفسها بالنسبة للعرقية واللانموذجية، غير أن المدرسين السود وجدوا الأولاد البيض ذوي المكانة الأدنى أكثر "عرقية " و"لا نموذجية" عما قدره به المدرسون البيض. وبعبارة أخرى، عندما يكون هناك فروق بين المجموعتين، غالبا ما كان المدرسون يقدرونهم حسب عرقيتهم الخاصة، وذلك بإعطائهم تقديرات "غير عرقي" و "معياري" بدرجة أكثر مما كان الحال مع المدرسين الذين كانوا من غير عرق الطلاب. وكانت تقديرات بعد "الثقة - التلهف" متشابهة تماما بين المدرسين السود والبيض.

وهناك نتيجة مهمة أخرى وجدها ويليامز، ألا هي دور الصور النموذجية المشتركة (stereotypes) في تقييم الكلام (وليامز ١٩٧٣، ص ١١٧-١٢٣). وقد وجد وليامز أنه من السهل استنباط تقييمات الكلام باستخدام مقاييس الفارق الدلالي نفسها عندما لا تسجَّل أي عينات للكلام، ولكن يقدَّم ببساطة أفراد العينة وصفاتهم العرقية. ومثال على ذلك يبلَّغ المدرس بأن يقيم صفات الكلام عند الولد "الإنجليزي" أو "الأسود" أو "الأمريكي المكسيكي" بناءً على خبراته سواء كانت حقيقية أو متوقعة مع هؤلاء الأولاد.

وقد ميِّزت الصور النموذجية المشتركة التي استُنبطت بهذه الطريقة عن طريق عرقية الولد. وكانت الصورة النموذجية المشتركة للأولاد الإنجليز هي أنهم أكثر ثقة

ولهفة وأقل عرقية ونموذجية من الأولاد في أي من المجموعتين الأخريين. أما الأولاد السود والأمريكيون المكسيكيون فقد اعتبروا أقرب إلى بعضهم فيما يتعلق بمقاييس العرقية واللانموذجية.



الشكل رقم (٦،٤). عرض بياني للنموذج ذي العاملين.
المصدر: مأخوذ من وليامز (١٩٧٤م، صفحة ٢٥، الشكل رقم ١).

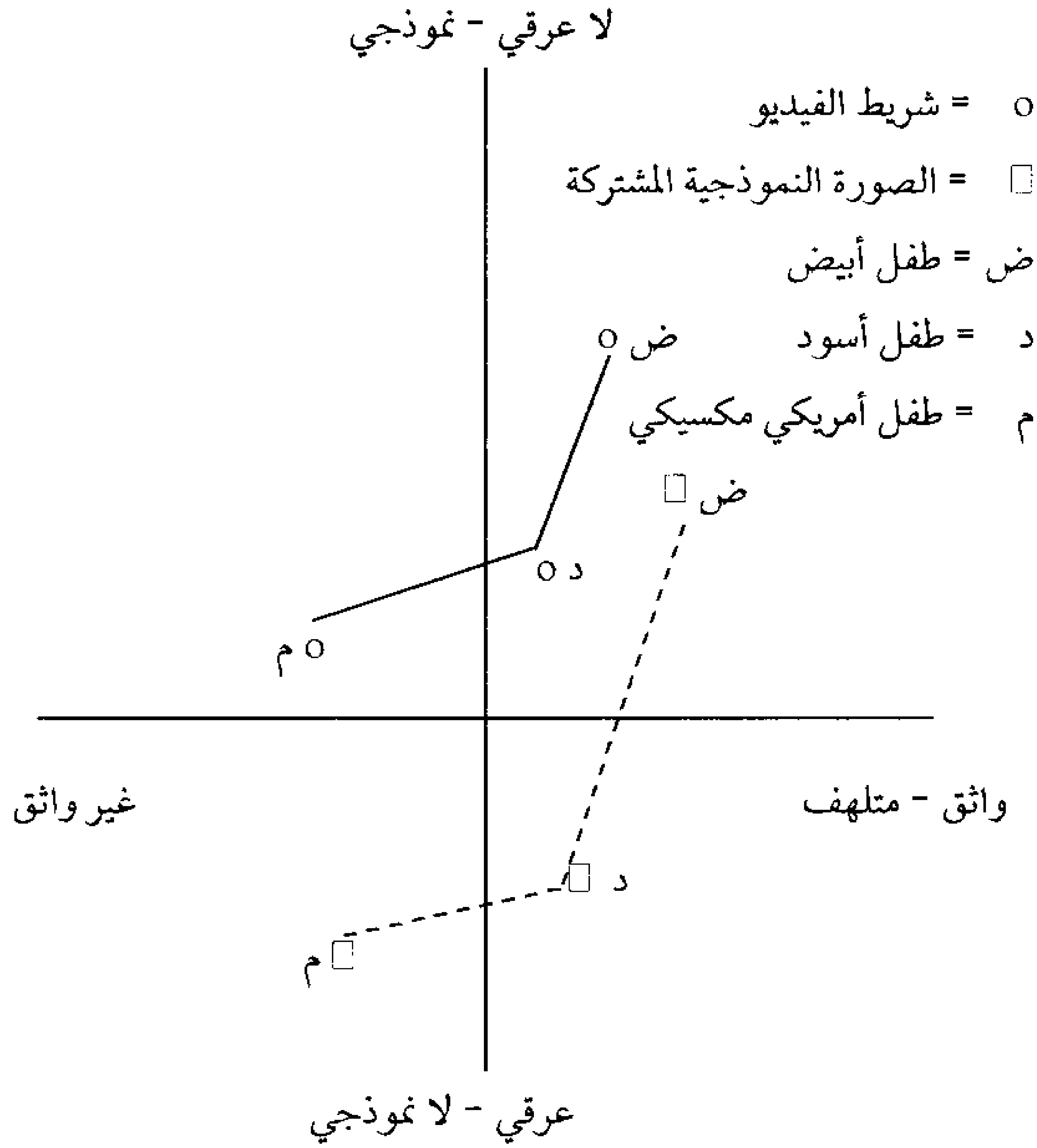
غير أنهم ميِّزوا في مقياس الثقة اللهفة حيث قدَّر الأولاد السود بصورة نموذجية على أنهم أكثر ثقة ولهفة من الأولاد الأمريكيين المكسيكيين (بيد أنهم ليسوا بالثقة واللهفة نفسها التي عند الأولاد الإنجليز). وبذلك كان من الممكن استنباط الصورة

النموذجية المشتركة بالإضافة إلى وجود دليل على مصداقية هـذه النتائج إلى حد كبير (وليامز ١٩٧٣ ، ص ١١٨-١٢٠).

وقد خطر ببال الباحثين سؤال مهم حول الدور الذي تلعبه مواقف الصورة النموذجية في تقييمات المدرسين لعينات الكلام الحقيقية؟ فهل يقيِّم الأولاد إلى حد كبير بناءً على الصور النموذجية عنهم بغض النظر عما يبدو عليه كلام هذا الولـد؟ أو هل تلعب الصور النموذجية المشتركة دورا فقط في غياب عينات الكلام؟ وهل لا يستجيب المدرسون إلا لخصائص عينة الكلام بغض النظر عن عرقية الولد الذي يتكلم؟ أم هل هناك نوع من التداخل بين الصور النموذجية المشتركة وخصائص عينة الكلام؟ لقد طور وليامز ومساعدوه منهجا أصيلا للإجابة على هذا السؤال (وليامز، وايتهيد وميلر ١٩٧١ ، وليامز ١٩٧٣). فقد أعدِّت تسجيلات خاصة بالفيديو بشكل متقن تضمنت الصورة المرئية للأولاد من العرقيات الثلاث وهم يتكلمون. وفي كل مثال صوِّر الأطفال بمظهر جانبي كي لا تقرأ شفاههم. وقد كان ذلك مهما ؛ لأنه أعيد تسجيل الأسطوانة الصوتية نفسها على كافة أشرطة الفيديو. وعلاوة على ذلك فقط احتوت هذه الاسطوانة الصوتية على مقطع باللغة الإنجليزية النموذجية. وكانت النتيجة أن أفراد العينة (وهم هذه المرة مدرسون بيض تحت التدريب) اعتبروا أن الأولاد السود الإنجليز والأمريكيين المكسيكيين يتحدثون الإنجليزية النموذجية[١٩]. تعرض هذه النتائج في الشكل (٦,٥).

لاحظ أولا أن تقديرات الفيديو والصورة النموذجية المشتركة للولد الإنجليزي كانت متقاربة للغاية. أما تقديرات الأولاد السود والأمريكيين المكسيكيين فكانت في أوضاع مختلفة بدرجة ملحوظة رغم أن الحديث الفعلي كان واحدا، كما استُمع إليه في شريط الفيديو من الولد الإنجليزي. ولو كانت خصائص الكلام هي الشيء الوحيد الذي يستجيب إليه أفراد العينة لكانت كافة الدوائر الثلاث في المكان نفسه، أي في

المكان نفسه لدائرة الولد الإنجليزي.



الشكل (٦,٥). تقديرات العينات السمعية نفسها للغة الإنجليزية النموذجية مع صور بالفيديو للأولاد الإنجليز والسود والأمريكيين المكسيكيين.

المصدر: وليامز (١٩٧٣م، صفحة ١٢٦، شكل رقم ٧)

ومن ناحية أخرى، لو كانت الصور النموذجية المشتركة وحدها ذات صلة،

فينبغي أن تكون دوائـر الأولاد السود والأمريكيـين المكسيكيين متقاربـة مـن تقديرات صورتهم النموذجية، كما كان تقدير الولد الإنجليزي بالفيديو قريبا من تقديـر صورتـه النموذجية. والظاهر أن ما يحدث هو أن الصور النموذجية كانت نوعا مـن "نقـاط التثبيت" التي يستخدمها المقيمون عند تقييم عينة من الحديث أو الكلام. وتؤدي نقاط التثبيت هذه إلى منع تقدير عينة من الكـلام الفعلي، مهما كـانت درجة نموذجيتها في الواقع، بتقدير أبعد كثيرا من صورتـها النموذجية المعروفة. غير أن خصائص الكلام تدخل في الاعتبار، فتبتعد تقديـرات الأولاد السـود والأمريكيـين المكسـيكيين للغـة الإنجليزية النموذجية عن "مثبتات" الصور النموذجية مجتمعة نحو الطرف النموذجي اللاعرقي لمقياس العرقية اللانموذجية. وبما أن الولد الإنجليزي تكلم على النحو الذي توقعه أفراد العينة، لذا جاءت تقديـرات الفيديو والصورة النموذجية متطابقـة تقريبـا. وبـالرغم مـن أن وليـامز (١٩٧٣م، ص ١٢٦) قد حذّر من أن هـذه النتـائج ليسـت بالضرورة حاسمة لأن التجربة شملت مجموعة صغيرة نسبيا من الأفراد وعددا محدودا من المثيرات، وإذا ثبت أنها نموذجية فإن أهميتها عظيمة. ويظهر أن التوقعات قد تقـود المعلمـين لسـماع حديث ولد ليس مـن أصـل أبيض على أنه عرقـي نوعـا مـا وغـير نموذجي، بغض النظر عن مدى نموذجية حديثه في الواقع.[٢٠] ولم يتخذ وليامز ورفاقه الخطوة التالية بعد، ولكنـهم حـاولوا بيان أن المواقـف الـتي يظهرها بحثهم تؤثـر على كيفيـة تعـامل (تصـرف) المعلمـين مـع الطـلاب. وقـد قـام بـاحثون آخـرون بمحـاولات لتقصي أسباب المشكلة، ووجد سـليقمان وتكـر ولامبرت Seligman, Tucker & Lambert (١٩٧٢م) أن "للصوت" دلالة تساوي دلالة كتابة موضوع تعبـير، أو رسـم صورة كأساس للحكـم على مستوى ذكـاء طالب المدرسـة بأنه طالب جيد وواثـق بنفسه. ووجد فرندر ولامبرت Frender & Lambert (١٩٧٣م) بعـض الأدلـة على أن لخصائص الكلام تأثيراً على الدرجات التي يحصل عليها الطلابِ بالمدارس . ولكن

كان هناك مشاكل في كل من التجربتين ولا يمكن القول أنه يمكننا إثبات أن المواقف اللغوية للمعلمين لها تأثير على سلوك المعلم، بالرغم من أنه يبدو منطقيا أن نتوقع ذلك التأثير.

خلاصة

هناك منظوران رئيسان لطبيعة المواقف. فالموقف طبقا للمنظور العقلي هو متغير يتداخل بين مؤثر واستجابة، بينما يعتبر السلوكيون أن المواقف هي استجابات سلوكية بحد ذاتها. وأغلب الأبحاث حول المواقف اللغوية تعتنق وجهة نظر المنظور العقلي. وهناك طرق تجريبية متنوعة لدراسة المواقف اللغوية، بعضها مباشر بعض الشيء والآخر يغلب عليه الطابع غير المباشر. وأحد الأساليب الذي أصبح تقريبا نموذجا في هذا المجال هو إجراء الأداء المقارن مع نماذج الاستجابة لمقاييس الفارق الدلالي. وتظهر هذه الطريقة في عدد من المشاريع البحثية مع تعديلات مختلفة. ورأينا كيف أن البحث في المواقف قد أبرز لنا دراسة البناء الاجتماعي، متضمنا اللغة كمؤشر للعرقية ولازدواجية اللغة، ودور اللغة في المساهمة في مواقف المدرسين نحو الطلبة. وهناك تطبيقات عديدة لبحث المواقف اللغوية تشمل دور المواقف في اكتساب اللغة الثانية، والمواقف اللغوية في ممارسة القانون والطب، ودراسة المواقف حيال اللكنة الأجنبية، ودراسة المواقف حيال الحديث الذي يشتمل بعض المقاييس السمعية. والمراجع لهذه الأعمال موجودة في هوامش المراجع الإضافية في هذا الفصل.

هوامش لمراجع إضافية

كتاب ريان وغايلز Ryan & Giles (١٩٨٢م) استعراض شامل للمواقف اللغوية يحوي العديد من الحالات الدراسية المأخوذة من أمريكا الشمالية. وبالإضافة

إلى الأعمال التي استشهد بها في هذا الفصل هناك دراسات أخرى عن المواقف اللغوية تتعلق بالهوية العرقية، ومن بينها كوهين Cohen (١٩٧٤م)، ولامبرت وغايلز وبيكارد (١٩٧٥م)، ولويس جيمس James (١٩٧٦م)، وريان وكارنزا (١٩٧٧م). ومن بين الدراسات التي تناولت المواقف اللغوية فيما يتعلق بتعلم اللغة الثانية، دراسة لامبرت وآخرين (١٩٦٨م)، وقولد Gould (١٩٧٧م). وقاردنز (١٩٧٩م)، وتيلور ومينارد وريلوت (١٩٧٧م). ودرس لند وأوبر Lind & O'Barr (١٩٧٩م)، وشيرر Scherer (١٩٧٩م) علاقة المواقف اللغوية بممارسة القانون، كما بحث شاي Shuy (١٩٧٩م) أهمية اللغة في المقابلات الطبية. وهناك العديد من المقتطفات لمقالات عن المواقف اللغوية، ومن بينها مقالات شاي وفاسولد (١٩٧٩م) وكوبر (١٩٧٤، ١٩٧٥) وغايلز وباوزلاند (١٩٧٥)، وغايلز (١٩٧٧) وغايلز وسانت كلير (١٩٧٩) ووليامز وزملائه (١٩٧٦م).

هوامش

(١) نوقش هذان الأمران بتفصيل أكثر في الجزء الثاني من الكتاب (اللسانيات الاجتماعية للغة).

(٢) بالعودة إلى نقاشنا حول أنواع المقاييس في الفصل الرابع فليس من الواضح بالضبط ما هو نوع المقياس الذي يقوم عليه مقياس الفارق الدلالي. فهو على الأقل مقياس ترتيبي، ولكن هل من الممكن اعتباره مقياسا فاصليا؟ وإذا كان الأمر كذلك فسنفترض مثلا أن الفرق بين الدرجة ٧ والدرجة ٦ على مقياس الذكاء هو نفسه في ذهن المستمع للفرق بين الدرجة ٥ والدرجة ٤. ولكن افترض أن المستمع أعطى الدرجة ٧ لشخص يبدو أنه عبقري، بينما قد يعطي الدرجة ٥ لشخص مستوى

ذكائه أعلى بقليل من المعدل العادي. ولهذا المستجيب فقد يكون الفرق بين الدرجة ٧ والدرجة ٦ أكبر بكثير من الفرق بين الدرجتين ٥ و ٤. وبهذا يفقد المقياس خاصيته الفاصلية. وتقرير ما إذا كان مقياس الفارق الدلالي فاصليا أو ترتيبيا مهم وحاسم بالنسبة للباحث الذي يجب أن يحدد أيا من الاختبارات المعيارية هو المناسب. وهناك تعقيدات أخرى بالطبع؛ لأن قيم المقياس ذاتها لم تحل إحصائيا، ولكن المتوسطات الحسابية المشتقة منها. وهذه المتوسطات الحسابية هي نقاط على مقياس فاصلي، وهي مشتقة من مقياس هو نفسه غير واضح. ويستخدم الإحصاء المعياري أكثر في الممارسة الفعلية لتحليل نتائج مقياس الفارق الدلالي، وعادة ما يكون تحليل التباين.

(٣) ذكر بورهيس وغايلز مستوى دلالة بدرجة احتمال < ٠,٠١، وهو مستوى يعتبر عادة غير كافٍ لرفض فرضية الإبطال.

(٤) يعتقد تردغل وتسافاراس أن هذه الرؤية غير واقعية.

(٥) أجريت التجربة على الأولاد لاختبار فرضية ما إذا كان الأولاد الأصغر عمرا أقل اهتماما من البالغين بقبولهم من قبل المجتمع المضيف لهم، وبناءً عليه فمن السهل التعرف على أنهم من الهند الغربية بدلائل أصواتهم. ويظن بورهيرس وغايلز (١٩٧٧م، ص ٩٠) بأن هذه الفرضية لم تتأكد لأحد السببين التاليين أو كليهما معا: ١- كان الأولاد يكتسبون أنماط الحديث السائدة في المجتمع قبل سن ١١، و٢- قد سبقهم آباؤهم (وهم الجيل الثاني من المهاجرين) لاكتساب أنماط لغوية لمجتمع كارديف. ومن المحتمل أن كلا السببين، وبالأخص الأول، يشرح نتائج الدراسة الثانية.

(٦) الاختبار الإحصائي الذي استخدم لمعرفة الدلالة (الأهمية) هو اختبار ذو

حدين ولم يشرح في الفصل الرابع، ولكن أنشن Anshen (١٩٧٨م) قد شرحه بوضوح.

(٧) أقصد هنا اللغة الإنجليزية النموذجية للسود في أمريكا، وكذلك الإنجليزية العامية للسود.

(٨) يمكن مقارنة تأثير هذا الزوج الأخير من المقابلات تقريبا مع التأثير في الولايات المتحدة إذا تحدث الأمريكي الأسود باللهجة الأمريكية النموذجية إلى الشخص الذي يقابله وغيّر حديثه إلى العامية الأمريكية للسود عندما يكون الشخص الذي يجري المقابلة معه إنجليزيا يتحدث بلهجة بريطانية ذات تلفظ نموذجي.

(٩) كان هناك توازن في الأصل في ترتيب تقديم هذه المقابلات، أي جرت المقابلة مع المعلق "الفرنسي" أولا في كل زوج لمجموعة من المستمعين، بينما جاءت المجموعة الأخرى أولا للمعلق من "كويبك". وعندما ثبت أنه لم ينتج أي اختلاف بسبب الترتيب، جمعت النتائج مع بعضها لتعطي ثلاث حالات فقط.

(١٠) من الواضح أن الاستجواب المباشر لم يستخدم في التجربة الويليزية. ومن الممكن أن الفرنسية الكندية قد تطورت لتصبح مؤشرا على هوية الجماعة منذ منتصف ١٩٧٠م عندما أجريت هذه التجارب. وإذا كان الأمر كذلك فقد تشبه نتائج الأداء المقارن كثيرا نتائج التجربة في ويلز، مع علامات عالية على مقاييس الوجدانية عندما لا يتحول المتحدث إلى الشكل ذي المنزلة العليا. وقد تكون نتائج الاستجواب المباشر في التجربة الكندية مؤشرات مبدئية على مثل هذا التطوير.

(١١) ارجع إلى لامبرت (١٩٧٩م) للاطلاع على نقاش عام أعمق حول العلاقة

بين المواقف اللغوية وهوية الجماعة.

(١٢) وقد اشتمل أيضا على متحدثين أمريكيين وبريطانيين حتى يمكن قياس رد الفعل على هاتين اللهجتين الأصليتين للغة الإنجليزية، ويجب تعديل أسلوب الأداء المقارن المحدود حتى يسمح للمتحدثين المختلفين بإعطاء هاتين العينتين.

(١٣) على كل مقياس فارق دلالي هناك ٦ درجات، وهناك متحدثان لكل عينة، ولذا فتتراوح درجة كل عينة ما بين ٢ و ١٢ بعد أن جمعت علامات المتحدثين مع بعضها.

(١٤) بالرغم من أنه ابتعاد قليل عن الفكرة التي أقدمها هنا، فمن الممتع ملاحظة أن جميع العينات المصرية الثلاث، وهما نوعا اللغتين العربية والإنجليزية المصرية، قد قيّمت إلى حد كبير سمة التدين وبشكل أفضل من تقييم الإنجليزية البريطانية أو الأمريكية. ويظن إلداش وتكر أن المصريين قد يرون أنفسهم في الغالب أكثر تدينا من الأجانب متحدثي الإنجليزية، أو أنهم فهموا كلمة "متدين" لتعني "مسلما"، وهو ما يعتقدون أنه لا ينطبق على الأمريكيين أو البريطانيين.

(١٥) بالطبع وحصرا، فإن هذا ليس مخططا للأداء المقارن على الإطلاق، طالما لا يوجد لدينا المتحدثون أنفسهم يتحدثون في كل من العينتين. ولكن من الواضح تأثره بالدراسات البحثية للمواقف باستخدام الأداء المقارن، والتصميم مع ذلك هو من النوع العام نفسه.

(١٦) كان هناك ثلاثة طلاب في مجموعة الإنجليز يتحدثون الإنجليزية، ولكن لغاتهم الأم كانت غير الإنجليزية والإسبانية.

(١٧) وليامز هو أيضا مؤلف أحد المصادر التي بني عليها النقاش عن الإحصاء

في الفصل الرابع.

(١٨) نوقش مصطلح "الصحة" (الصلاحية) في الفصل الرابع.

(١٩) لاحظ أن هذه التجربة هي من نوع معاكس لأسلوب الأداء المقارن. فبدلا من جعل المتحدث نفسه يستخدم ضروبا لغوية مختلفة، يبدو أن أنواعا مختلفة من المتحدثين يستخدمون الضرب اللغوي نفسه.

(٢٠) من المهم ملاحظة أن الأفراد كانوا : ١- معلمين تحت التدريب (أي أن خبرتهم الواقعية في القاعة الدراسية قليلة)، و٢- أنهم من البيض، وإذا كان لدينا دليل على وجود اختلافات بين الصور النموذجية للمعلمين البيض والسود، فإننا نتوقع اختلافات مهمة إذا ما أعيدت التجربة باستخدام معلمين من الأمريكيين السود أو المكسيكيين.

الأهداف

١ - أن يكون قادرا على التمييز بين النظريتين العقلية والسلوكية للمواقف اللغوية، ومعرفة أيها يشكل أساسا لمعظم الأعمال عن المواقف اللغوية.

٢ - أن يكون قادرا على ذكر المواضيع الثلاثة العريضة الممكن دراستها "كمواقف" لغوية.

٣ - أن يحدد، وبناءً على أوصاف أبحاث المواقف اللغوية، ما إذا كانت قد أجريت "بطريقة مباشرة، أو "غير مباشرة" .

٤ - أن يستطيع معرفة وصف تجربة الأداء المقارن.

٥- أن يستطيع إظهار كيفية الإشارة إلى موقف ما على مقياس فارق دلالي إذا ما أعطي ذلك المقياس.

٦- أن يستطيع ذكر الأساليب الثلاثة العامة لدراسة المواقف اللغوية التي ذكرها

أغيسي وفيشمن، إذا ما أعطى أوصافها.

٧ - في بحث الأداء المقارن الذي يقرأ فيه كل متحدث المقطع نفسه (بشكل مترجم) في كلتا العينتين قد يحكم على المتحدثين بأنهم قراء شفهيون وليسوا متحدثين لضرب لغوي معين. وأن يكون قادرا على تحديد كيف حاول بعض الباحثين تجنب هذه المشكلة.

٨ - أن يستطيع القول إذا كانت طريقة بحث افتراضي معطاة هي مثال صحيح على مقياس الالتزام أو لا.

٩- أن يستطيع معرفة تعريف المصطلح "مجموعة تقييمية".

١٠- أن يستطيع القول إذا ما كان بحث الأداء المقارن قد أظهر بشكل عام أن اللغات ذات المنزلة الدنيا تقيم عاليا في مثل هذه الخصائص "كالود" و "الجدارة بالثقة" أكثر من الضروب اللغوية المركبة.

١١- أن يستطيع ملاحظة نمط العمر للمواقف تجاه أرفنتيكا (جدول ٦٫٣)، وتفسير تردغل وتسافاراس له.

١٢- أن يكون قادرا على الاستشهاد بالدليل على أن مهاجري الهند الغربية إلى كارديف قد دخلوا في المجتمع المحلي.

١٣- أن يستطيع التعرف على عبارة التناقض الضمني في نتائج "المقابلات الشخصية" مع الرياضية الفرنسية الكندية.

١٤- أن يستطيع التعرف على الفرق بين العينة الكويبكية والويليزية لتجربة "الرياضية"، والتي تبين أن الإنجليزية المتحدثة بلكنة ويلز قد تطورت بشكل أفضل كرمز لهوية المجموعة من الفرنسية الكندية.

١٥- أن يعرف المشكلتين اللتين واجهتا إلداش وتكر في استنباط عينات للحديث.

١٦- من بين متحدثي العربية الكلاسيكية والعامية العربية والإنجليزية باللكنة المصرية قُيِّم متحدثا ضربين لغويين من هذه الضروب اللغوية على أنهم أكثر ذكاءً، وأن لهم قدرات قيادية أكبر من الضرب الثالث. والهدف هو أن يكون قادرا على معرفة هذين الشكلين من بين الأشكال الثلاثة.

١٧- أن يستطيع ذكر أي شكلين من الأشكال اللغوية المصرية الثلاثة الواردة في الهدف (١٦) السابق جعلا متحدثيهما يبدون أكثر تدينا.

١٨- أن يتعرف على أي من الأشكال اللغوية المصرية جعلت متحدثيها يبدون محبوبين أكثر.

١٩- أن يستطيع تسمية الشكل اللغوي في مصر الذي قُيِّم على أنه الأنسب للاستخدام في المنزل والمدرسة، والأقل مناسبة للاستخدام في المنزل.

٢٠- أن يستطيع التعرف على الفرق بين تقييمات الإسبانية والإنجليزية بواسطة السياق في بحث كارنزا وريان.

٢١ - أن يلاحظ الاختلاف في تقييمات الإسبانية والإنجليزية بواسطة نوع المقياس.

٢٢ - أن يلاحظ الدليل الخاص على أن أبعاد وليامز ذات المقاسين "صحيحة" وأن وليامز نفسه هو أفضل من بيَّن ذلك" .

٢٣ - أن يستطيع معرفة ما تمكّن وليامز من استنباطه عندما سأل المعلمين أن يقيّموا الحديث عندما أعطوا فقط مسميات عرقية ولم يستمعوا إلى الأولاد وهم يتحدثون.

٢٥ - أن يلاحظ اكتشاف وليامز حول دور الصور النموذجية المشتركة في تقييم المعلمين لحديث الأولاد.

الفصل السابع

الاختيار اللغوي

لو فكرنا برهة لاتضح لنا أن اللغويات الاجتماعية لا تقوم لها قائمة كمجال للدراسة إلا إذا تواجدت الخيارات في استخدام اللغة. إن عنوان الفصل الأول، وهو "التعددية اللغوية في المجتمع"، يشير إلى حقيقة إمكانية وجود عدة لغات في مجتمع ما. ولا يمكن لنا أن نكتب فصلا ثانيا عن ازدواجية اللغة ما لم يكن هناك ضربان لغويان، وهما اللغة العليا واللغة الدنيا. وإذا فكرنا بموضوع كل فصل مررنا به في هذا الكتاب حتى الآن أدركنا أن كلا منها يتركز على إمكانية وجود خيارات لغوية يختار منها الناس في المجتمع، ويكون ذلك الاختيار من بين ضروب لغوية مختلفة. إن الإحصاءات لن تكون ذات ضرورة ما لم يكن هناك تنوع في استخدام اللغة وخيارات بين هذه الضروب اللغوية المختلفة.

وفي هذا الفصل نبحث في أسباب اختيار الناس، في مجتمع ما، استخدام لغة دون غيرها في مواقف معينة. وسنميز بين ثلاثة أنواع من الاختيارات اللغوية، ثم نناقش تناول علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعيين وعلماء الإنسان مسألة اختيار اللغة.[1] وختاما سنحاول ربط نتائج المناهج الثلاثة مع بعضها ونرى مدى إسهامها في تحقيق فهم أفضل لكيفية اختيار الناس اللغة التي يتكلمونها.

أنواع الاختيار

عندما نفكر في الاختيار اللغوي فإن أول ما يرد إلى خاطرنا هو اختيار

"اللغات بكاملها". ونتخيل شخصا ما يتكلم لغتين أو أكثر وعليه اختيار واحدة منها للاستخدام. والواقع أن ذلك أحد الأنواع الرئيسية للاختيار التي يجب علينا تناولها، وهو ما يسمى أحيانا "تبديل الشفرة" (لاووسا ١٩٧٥، غرينفيليد ١٩٧٢، هيرمان ١٩٦٨، روبن ١٩٦٨ ب، وسانكوف ١٩٨٠). وأدق من ذلك ما يسمى "مزج الشفرة" حيث تستخدم أجزاء أو "قطع" من اللغة الأولى أثناء استخدام المتكلم أساسا للغة الثانية. وغالبا ما تكون "القطع" اللغوية المأخوذة من لغة أخرى عبارة عن كلمات، وقد تكون أيضا عبارات أو تراكيب لغوية أكبر (قمبرز ١٩٧٧، بارشار ١٩٨٠، وهيل وهيل ١٩٨٠). وعندما تكون الخيارات كلمات فتسمى هذه الظاهرة بالاقتراض، وختاما هناك "التنوع داخل اللغة نفسها" (بلوم وقمبرز ١٩٧٢، ثيلاندر ١٩٧٦، وكوبلاند ١٩٨٠). وهذا النوع من الاختيار اللغوي غالبا ما يصبح محور اهتمام دراسات المواقف اللغوية مثل دراسات التنوع بين من ينطقون اللغة الإنجليزية حسب التلفظ النموذجي ومن يتحدثونها بلكنة ويلزية (ثقيلة أو معتدلة) أو من يتحدثون اللغة الفرنسية الأوروبية أو الفرنسية الرسمية وغير الرسمية في إقليم كويبك الكندي كما جاء في الفصل السادس. وفي هذه الحالات لا بد للمتحدث أن يختار أي مجموعة من البدائل التي سيستخدمها في لغة واحدة في موقف معين. وعندما ننظر للتنوع داخل نفس اللغة على أنه نوع من مشكلات الاختيار اللغوي، فإن اختيار اللغة يظل متاحا بالنسبة لمن يتحدثون لغة واحدة وأيضا لمن يتحدثون لغتين.(٢)

وبالطبع غالبا ما يكون من العسير فصل هذه الأنواع الثلاثة من الاختيارات اللغوية عن بعضها. وكما نرى في كثير من دراسات اللغويات الاجتماعية (علم اللغة الاجتماعي)، فإن ما يفيدنا هنا هو مفهوم المتصل. وتعتبر الاختيارات اللغوية الثلاثة نقاطا ثلاثا على متصل تبدأ بالاختيار واسع النطاق نسبيا وتنتهي بالاختيار صغير النطاق نسبيا . أما الفئة الوسطى وهي مزج الشفرة، فمن العسير تمييزها عن الفئتين

الأخريين. وقد وجد هيل وهيل (١٩٨٠ صفحة ١٢٢) في دراستهما الاختيار اللغوي بين الإسبانيين والنهواتلية في مجموعة من الهنود الحمر المكسيكيين، أنه لا أمل في التمييز بين مزج الشفرة وتبديلها: "يحسب هذا المؤشر الحدوث الأول لكل كلمة إسبانية بالنسبة للمتحدث، بغض النظر عما إذا كانت تغلغلا للإسبانية في سياق نهوتلي بحت أم كانت مفردة إسبانية يمكن اعتبارها تحولا من اللغة النهوتلية إلى الإسبانية، ولم نجد وسيلة مرضية لرسم حد فاصل بين هاتين الظاهرتين." ومن ناحية أخرى فإن مزج الشفرة أو تبديلها غالبا ما يصعب تمييزه عن التنوع داخل اللغة نفسها. استنتج ثيلاندر (١٩٧٦ - صفحة ١٠٣) بعد وصف الفرق بين تبديل الشفرة والتنوع اللغوي ضمن اللغة الواحدة "أن المواقف اللغوية تظهر بالتدريج وعلى نحو يثبت أن أيا من هذين النموذجين للوصف لا يمكن قبوله تلقائيا."

ولرؤية كيفية حدوث ذلك، دعنا ننظر في ظاهرة اقتراض المفردات. فإذا استخدم متحدث بالإنجليزية على سبيل المثال كلمة أو عبارة أجنبية في سياق جملة إنجليزية، فيمكن أن يقال: إنه مزج كلمة من اللغة الأخرى مع لغته الإنجليزية، غير أن الكلمات التي تنتمي إلى لغة ما وتستخدم بصورة متكررة في لغة أخرى تصبح في النهاية جزءا لا يمكن تمييزه أو فصله عن مفردات اللغة الأم. إن كثيرا من الناطقين بالإنجليزية الأمريكية قد لا يدركون أن لفظة thug مقترضة من اللغة الهندية، وكذلك لفظة stucco مقترضة من الإيطالية و patio من الإسبانية وقد أصبحت جميعا كلمات إنجليزية بحكم الواقع العملي. وثمة كلمات أخرى تستخدم دون معرفة أنها قد أتت من لغات أخرى، ولكن بقليل من التفكير والتأمل من الممكن معرفة أنها غريبة عن اللغة الأم. ومثال ذلك كلمة bouquet المقترضة من اللغة الفرنسية. غير أن هناك كلمات أخذت بوعي من لغات أخرى، وعندما تكتب يوضع تحتها خط أو تكتب بحروف مائلة وتبقى محتفظة بعلاماتها المميزة التي تظهر في كتابتها في اللغة المقترضة.

ومن أمثلة ذلك العبارة الفرنسية raison d'etre والكلمة الألمانية gemutlickkeit. وعند استخدام ألفاظ مقترضة من هذا النوع في اللغة المحكية، يحاول المتحدث عادة محاكاة لفظها باللغة الأصلية. وقد تستخدم هذه التقاليد الكتابية والتلفظية كمعايير لفصل هذه الفئة الأخيرة من الألفاظ المقترضة عن بقية الألفاظ المقترضة الأخرى وتسميتها بالأمثلة الحقيقية الشاهدة على تبديل الشفرة. وما العمل إذن مع الحالات التي تنطق فيها بعض الأصوات كما لو كانت في لغة أجنبية ولكن غيرها من الأصوات ليس كذلك؟ قد يكون المثال على ذلك نطق اسم الموسيقار الألماني الشهير موزارت mozart الذي تنطق فيه ts الألمانية كـ z بالإنجليزية وتظهر كذلك في الطباعة رغم أن الإنجليزية الأمريكية تستخدم صوت r في المقطع الثاني من الكلمة بشكل مهموز.

وتنشأ مشكلات متشابهة في الامتدادات الأطول من اللغة المزيج ولندرس مقطعاً من المثال الذي قدمه لابوف (١٩٧١ صفحة ٤٥٧) على امتزاج الإسبانية بالإنجليزية :

Y cuando estoy con gente yo me ... borracha porque me siento
and when I am with people I get drunk because I feel

mas happy, mas free, you know, pero si yo estoy conmucha
more happy, more free, you know, but if I am with alot of

gente yo no estoy, you know, high, more or less, I couldn't get
along people I'm not
with anybody.

ثمة معيار واحد يستخدم أحيانا للتمييز بين التبديل والمزج، وهو أن قواعد

العبارة تحدد اللغة . وطبقا لهذا المعيار يمكن القول إنه إذا استخدم شخص ما كلمة أو عبارة من لغة أخرى فإنه يكون قد مزج الشفرة ولم يبدلها. ولكن إذا كانت العبارة لها تركيب نحوي يتفق مع لغة ما ، والعبارة التالية لها تتفق مع التركيب النحوي في لغة أخرى ، فإنه يكون قد حدث تبديل في الشفرة. وبموجب هذا المعيار فإن كافة الكلمات من بداية المقطع حتى لفظة "Pero" في المقطع أعلاه تعد إسبانية ، أما كلمات You know, free, happy فإنها جميعا مقترضة من اللغة الإنجليزية. أما الجملة الشرطية التي تلت ذلك فهي أساسا إسبانية رغم أن التعبيرين more or less, high إنجليزيان . أما العبارة التالية فهي إنجليزية تماما في القواعد والمفردات. إن الالتزام بهذا المعيار يعني حتمية قولنا بأن العبارة الشرطية السابقة هي إسبانية امتزجت بالإنجليزية إلى حد استخدام عبارة "more or less" ولم يبدأ التبديل إلى الإنجليزية حتى ورود لفظ I الذي تلاها على الرغم من وجود أربع كلمات إنجليزية قبله.

ويقدم فيرما (١٩٧٦ صفحة ١٥٨) مثالا آخر يشمل الاحتكاك (التماس) بين الهندية والإنجليزية :

Vinod: mai to kahuugaa ki yah one of the best novels of the year hai,
I would say that it is.
Mira: That's right. It is decidedly one of the best novels of the year.

إن لفظ فينود بما سبق يشتمل على عبارتين ، إحداهما تعني (يمكن أن أقول) والأخرى تعني "إنها واحدة من أفضل روايات العام". وبرغم أن معظم الكلمات في العبارة الثانية إنجليزية إلا أن العبارة هندية قواعديا ؛ لأنها بدأت بالضمير الهندي "yah" وبها الكلمة الهندية "hai" (is) في آخر العبارة كما تتطلب قواعد لغة الهندي. ورغم أن الجملة تحتوي على عبارة طويلة بالإنجليزية ، فلو قلنا إن التحولات أو

التغيرات في الشفرة لا تحدث إلا عند تبديل عبارات كاملة، فإن علينا أن نقول: إن جملة Vinod هي هندية بأكملها، ولكنها تضم عبارة مقترضة من الإنجليزية. وبالطبع إن إسهام ميرا في رده يمثل تبديلا في المخاطبة إلى الإنجليزية رغم أنه صادر من جانب متحدث آخر. إن هذا الأسلوب في التبديل والمزج اللغويين قد يكون مقبولاً من ناحية تقنية، ولكني أرى أنه ينتهك الذوق العام في هذين المثالين. ولعله من الأفضل أن نقول: إن الظاهرتين تمثلان نقطتين على متصل حسب وجهة نظر علم اللغة الاجتماعي.[٣]

ثلاثة مبادئ وثلاثة مناهج

علم الاجتماع: تحليل المجال

أدخل يوشيع فيشمان (١٩٦٤، ١٩٦٥، ١٩٦٨ ج) إحدى طرائق فحص الاختيار اللغوي من وجهة نظر علم الاجتماع، وافترض أن هناك سياقات استجابية معينة أسماها "المجالات"، والتي تناسب أحد أشكال اللغة أكثر من غيرها. والمجالات عبارة عن مجموعة من العوامل مثل الموقع والموضوع والمشاركين في الحديث. والمجال النموذجي مثلا قد يكون مجال *الأسرة*، فلو كان متحدث ما في بيته يتحدث مع عضو آخر بالأسرة عن موضوع خاص بالحياة اليومية، فيقال: إن المتحدث في مجال الأسرة. ويرتبط تحليل المجال بازدواجية اللغة حيث إن بعض المجالات أكثر رسمية من غيرها. وفي المجتمعات التي توجد فيها ازدواجية لغوية، تكون اللغة الدنيا هي اللغة المختارة في المجال الأسري، بينما يكثر استخدام اللغة العليا في المجالات ذات الصبغة الرسمية الأكثر مثل التعليم.

ومن دراسات اختيار اللغة التي استخدمت "تحليل المجال" بحث قام به جرينفيلد (١٩٧٢) عن الاختيار بين الإسبانية وثلاثة مكونات متجانسة، هي الأفراد والأماكن والموضوعات. وقد وزع جرينفيلد استبيانا يحتوي على عاملين متجانسين

وطلب من أفراد العينة اختيار العامل الثالث وكذلك اللغة التي قد يستخدمونها في اجتماع مثل هذه الظروف. وكان هدف جرينفيلد من وراء ذلك اختبار ما إذا كانت هذه الظروف الثلاثة ترتبط فعليا في ذهن أفراد المجتمع. وقد طلب مثلا من أفراد العينة أن يفكروا في محادثة مع أحد والديهم عن موضوع أسري وطلب منهم أن يختاروا المكان من بين عدة أماكن مثل "المنزل والشاطئ والكنيسة والمدرسة ومكان العمل". وفي هذه الحالة بالذات اختار ١٠٠٪ من أفراد العينة الموقع المتوقع وهو "المنزل"، باستثناء واحد فقط، وقع اختياره على الشاطىء على أنه مكان ملائم لمجال الصداقة. كان العامل الثالث والمتجانس المتوقع هو اختيار ٨١٪ على الأقل من أفراد العينة. وتميل هذه النتيجة إلى التأكيد على صلاحية المجالات الخمسة وصحتها باعتبارها حقيقية في أذهان أفراد العينة.

وبعد أن اختار أفراد العينة العامل الثالث الملائم، طلب منهم أن يبينوا اللغة التي تتفق مع هذا المجال وفق مقياس مكون من خمس نقاط يشبه تماما مقاييس الفارق الدلالي المستخدمة في بحوث المواقف اللغوية. ويمثل الرقم ١ على المقاييس استخدام اللغة الإسبانية بشكل تام، ويمثل الرقم ٢ استخدام اللغة الإسبانية أكثر من الإنجليزية، أما ٣ فتعني استخدام قدر متساو من الإسبانية والإنجليزية، أما ٤ فتعني أن الإنجليزية أكثر من الإسبانية، وأخيرا ٥ فتعني استخدام الإنجليزية فقط. وقد حُسب متوسط النتائج بالطريقة نفسها المستخدمة في حساب نتائج مقاييس الفارق الدلالي. ويعني ذلك أن المتوسط المنخفض يشير إلى استخدام أكثر للإسبانية، وارتفاع المتوسط يعني تفضيل استخدام الإنجليزية. ويبين جدول رقم (٧,١)، النتائج التي توصل إليها جرينفيلد، والتي تدل على أن هناك فرقا واختلافا واضحا في صالح الإسبانية في المجالات "الحميمية". وقد أظهر تحليل التباين الذي يعتبر اختيار اللغة كمتغير تابع أنّ الفرق والاختلاف وفقا لفئة المجال المبين في الجدول رقم (٧,١) كان

مهما بدرجة احتمال < ٠,٠١. والتفسير المعقول لذلك هو أن الإسبانية تستخدم بشكل واسع في المواقف الحميمة في حين تستخدم الإنجليزية في المواقف التي تنطوي على اختلاف في المنزلة الاجتماعية. وبإيجاز هناك دليل على إن الجالية البورتوريكية في نيويورك تميل إلى استخدام لغتين، هما الإسبانية كلغة دنيا والإنجليزية كلغة عليا.

الجدول رقم (٧.١). متوسطات قياس اختيار اللغة في فئتين مجاليتين لدى عينة بورتوريكية في مدينة نيويورك.

العوامل المعطاة	المجالات	
	الحميمية (الأسرة والصداقة)	المنزلة (الدين، والتعليم، والعمل)
المكان، الموضوع	٣،٢٧	٤،٨١
الشخص، الموضوع	٢،٦٠	٤،٢٧
المكان، الشخص	٢،٦٤	٤،٣٨

المصدر: بيانات من جرينفيلد (١٩٧٢، صفحة ٢٥).

وجد براشر (١٩٨٠) نمطا مشابها بين ٣٥٠ فردا متعلما في مدينتين بالهند. وكما فعل جرينفيلد استخدم برشر بيانات جمعت باستبيان يعتمد على الإقرار الذاتي، وحاول أن يحدد الاستخدام اللغوي للناس في كافة المجالات كما عرفها فيشمان. وسأل عن استخدام اللغة في سبعة مجالات: (١) الأسرة، (٢) الصداقة، (٣) الجيران، (٤) المعاملات التجارية، (٥) التعليم، (٦) الحكومة، (٧) التوظيف. وبدلا من تكوين مجالاته بوضوح من أشخاص وأماكن وموضوعات كما فعل جرينفيلد، نجد أن براشر استخدم المجالات التي تشكل مجموعة كاملة من "الحالات" المتشابهة. ويتكون مجال الصداقة مثلا من الحالات الخمسة التالية:

- التحدث مع الأصدقاء والمعارف.
- التحدث مع الناس في النوادي والمناسبات الاجتماعية .
- تقديم الأصدقاء إلى الآخرين وتعريفهم بهم .
- مناقشة مشكلات شخصية مع الأصدقاء / الزملاء .
- مجادلة الأصدقاء / الزملاء في المناقشات الحامية.

فكما ترى تتباين مواقف براشر فيما يتعلق بالأشخاص والأماكن والموضوعات، ولكنها لا تتباين بصورة منتظمة تماما كما هو الحال مع نظام جرينفيلد.

وقد طلب من أفراد العينة الذين أجابوا على استبيان براشر أن يذكروا أيا من اللغات الخمس أو النماذج اللغوية يستخدمونها في كل موقف. وكانت هذه النماذج الخمسة هي: (١) الإنجليزية، (٢) اللغة الأم أو اللغة الأولى، (٣) اللغة الإقليمية، (٤) الهندية، أو (٥) لغة أخرى. وقد طلب منهم بالنسبة لكل لغة أن يحددوا (على معيار من خمس نقاط) اللغة التي يستخدمونها في هذا الموقف بشكل دائم، أو اعتيادي، أو على الأغلب، أو أحيانا، أو أنهم لا يستخدمونها مطلقا. وقد أُعطيت النقاط الخمس القيم التالية: دائماً = ٤٠، اعتيادي =٣٠، غالبا = ٢٠، أحيانا = ١٠، ولا تستخدم مطلقا = ٠. وإذا أجاب أحد أفراد العينة أنه يستخدم لغته الأم بشكل اعتيادي عند تقديم الأصدقاء للآخرين، ولكنه يستخدم الإنجليزية أحيانا فإن ذلك يعني أن اللغة الأم تحصل على ٣٠ نقطة في ذلك الموقف بينما تحصل الإنجليزية على ١٠ نقاط. وبغرض المقارنة، استخدم براشر إجمالي إجابات كافة أفراد العينة لكل لغة في كل موقف. ولخص النتائج التي توصل إليها في مجال الأسرة على الشكل التالي (حيث تمثل النقاط متوسط "مواقف" مجال الأسرة):

الإنجليزية	اللغة الأم	اللغة الإقليمية	اللغة الهندية	اللغة الأخرى
٣,٠٠٧	٩,٨٥٥**	١١٥	١٣٤	٨٨

ليس من المدهش أن اللغات الأم قد حصلت على أعلى درجة، إذ إن اللغات الأم في الواقع حصلت على نقاط أكثر في هذا المجال من اللغات الأخرى مجتمعة. وعندما يحدث ذلك، يقول براشر إن اللغة أو النموذج اللغوي هو "المسيطر" في هذا المجال، ويشير إلى هذه السيطرة في المجال بعلامتين نجميتين (براشر ١٩٨٠ صفحة ١٥٣).

ويبدو من المجالات السبعة التي استخدمها براشر أن الأسرة والصداقة والجيران قد تكون هي المجالات الدنيا، وأن التعليم والحكومة و(على الأقل بالنسبة للأفراد الذين تلقوا تعليما عاليا) العمل هي المجالات العليا. أما مجال التعاملات التجارية فقد تكون عليا أو دنيا حسب نوعها. وهكذا قد نتوقع أن تكون اللغة الأم مسيطرة في المجالات الثلاثة الدنيا بينما تسيطر الإنجليزية أو الهندية أو اللغة الإقليمية في المجالات العليا. وقد اتضح في المقام الأول قلة استخدام اللغة الهندية وكذلك اللغات الإقليمية أو اللغات الأخرى.[٤] والأهم من ذلك أن مجال الأسرة كان المجال الوحيد الذي سيطرت فيه اللغة الأم أو أي لغة أخرى غير الإنجليزية. أما الإنجليزية فقد سيطرت في مجال الصداقة وحصلت على أعلى تقدير في مجال الجيران رغم أنها لم تسيطر عليه. وهكذا ليس من المدهش أن تحوز الإنجليزية على درجات عالية في مجالات التعليم والحكومة والعمل خاصة بين الهنود الذين حصلوا على تعليم عال. وربما كان ذلك في الجزء الجنوبي من البلاد خاصة الذي أجري فيه البحث والذي تحظى فيه الإنجليزية بالأفضلية . غير أنه من المدهش أن الإنجليزية تظهر قوية جدا في مجالي الصداقة والجيران. والرد على ذلك بسيط جدا، وهو أن معظم المتعلمين ثنائيي اللغة في العينة لم يشتركوا مع أصدقائهم في اللغة الأم. أما في المقام الثاني، فإن أي مناقشة مع

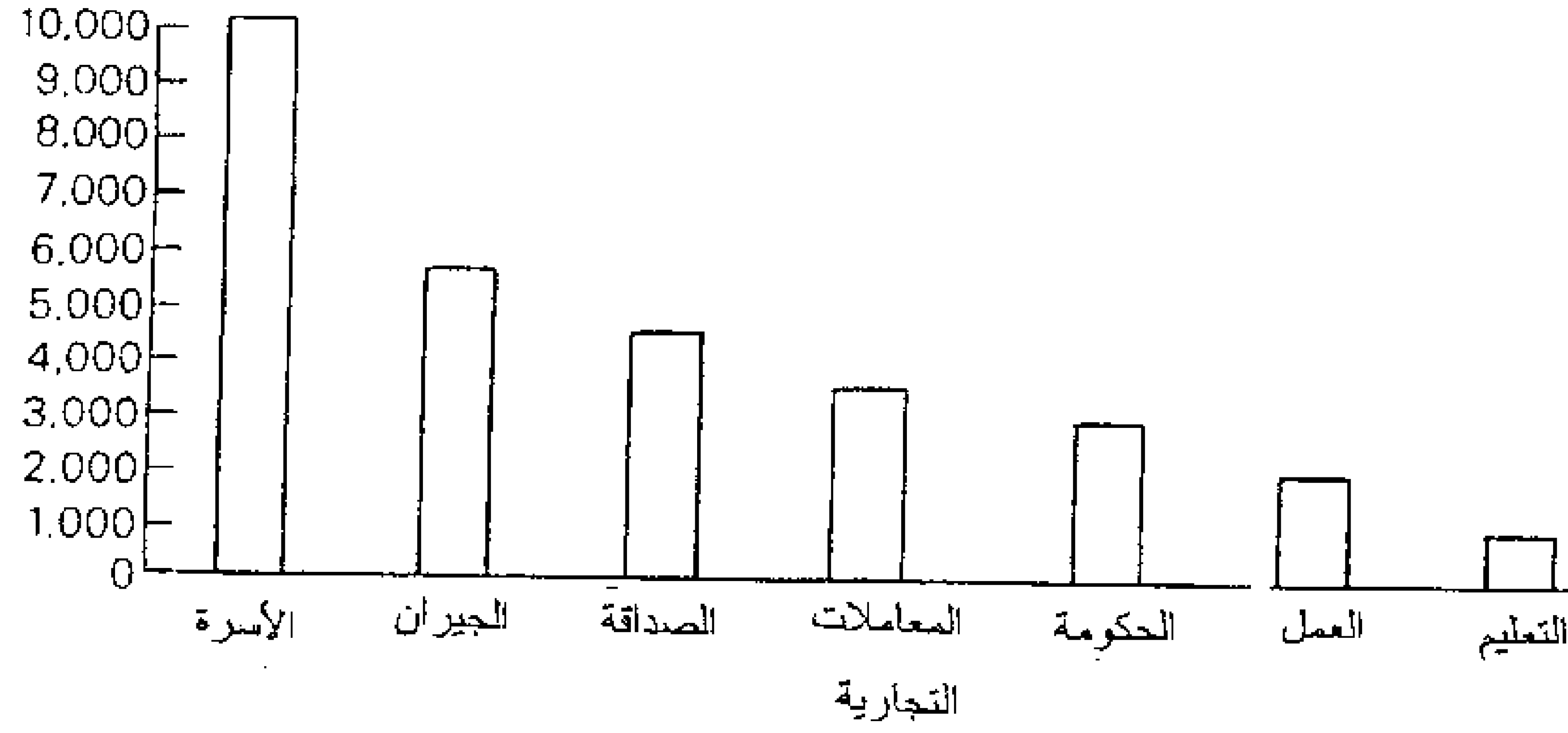
الأصدقاء تخص موضوعا من المجال الأكثر رسمية، مثل التعليم والعلوم أو التقنية، فإنها على الأرجح تميل إلى اختيار الإنجليزية بغض النظر عن الموقع أو درجة حميمية المتحدث مع الأفراد الذين يتحدث إليهم. وقد جعل هذان العاملان اللغة الإنجليزية هي اللغة المستخدمة في مجال اللغة الدنيا. إن قوة الإنجليزية في مجال الجيران يفسرها براشر (١٩٨٠، ص ١٥٧) على هذا النحو:

عندما لا يشترك الجيران في اللغة الأم، مثلا، فإن الذين يعيشون في المباني التابعة للمؤسسات أو المنظمات التي يعملون فيها يفضلون استخدام اللغة الإنجليزية. وقد ورد أيضا استخدام اللغة الهندية أو اللغة المحلية خاصة عندما لا يشترك الجيران في اللغة الأم، أو لا يفهم أحد المخاطبين أو كلاهما اللغة الإنجليزية. ويقودنا هذا الدليل إلى تعميم مفاده أن ثمة عاملا مهما يحكم اختيار أفراد العينة للغة في هذا المجال، سواء اشترك أو لم يشترك المتخاطبان في اللغة الأم. إن اللغة التي يفهمها المتخاطبان تعد عاملا مهما في اختيار اللغة ولا غرابة في ذلك.

ويبين الشكل رقم (٧,١) تقديرات اللغة الأم / اللغة الأولى في ترتيب تنازلي حسب المجالات. وتستخدم اللغات الأم أكثر كما هو متوقع في المجالات الدنيا، وأقل في المجالات العليا بطبيعة الحال. ويفسر حصول الإنجليزية على تقدير أعلى من اللغات الأم في كافة المجالات ما عدا المجال الأسري بأن أفراد العينة كانوا من الشريحة التي حصلت على أفضل تعليم بين السكان الهنود، كما يفسر ذلك بأن المكان الذي أجرى فيه البحث كان في الجزء الجنوبي من البلاد.

وهناك دراسة أخرى للاختيار اللغوي تظهر نمطا شبيها بازدواجية اللغة، أجراها لاوسا (١٩٧٥). وباستخدام تصميم بحث ممتاز لهذا النوع من الاستقصاء، قام بفحص اللغة التي يستخدمها أطفال المدرسة الابتدائية المنحدرون من ثلاث جاليات ناطقة بالإسبانية في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي الأمريكيون الكوبيون

في ميامي والأمريكيون المكسيكيون في أوستن وتكساس، وكما فعل غرينفيلد، والبورتوريكيون في مدينة نيويورك. وقد فحص اختيار اللغة بين الإسبانية والإنجليزية في ثلاثة سياقات: في الأسرة، وفي غرفة التدريس، وفي الأنشطة الترفيهية بالمدرسة. ووجد أن استخدام الإسبانية كان هو الأغلب في سياق الأسرة، وبدرجة أقل في سياق الأنشطة الترفيهية، وكان أقل ما يكون في غرفة التدريس، وذلك على مستوى أطفال الجاليات الثلاث. إن الفرق بين سياق الأسرة وسياقي المدرسة الآخرين كان أكبر من الفرق بين سياق غرفة التدريس وسياق أنشطة الترفيه في المدرسة. ووجدت فروق مهمة بين الجاليات الثلاث في أنماط اختيار اللغة، بيد أن الجاليات الثلاث أظهرت الميل نفسه نحو ازدواجية اللغة الذي اكتشفه جرينفيلد وبراشر.(٥)



الشكل رقم (٧,١). تقديرات استخدام اللغات الأم في سبعة مجالات لدى الهنود المتعلمين.

المصدر: البيانات في براشر (١٩٨٠م).

علم النفس الاجتماعي

يتناول علماء الاجتماع عادة مشكلة اختيار اللغة فيكون ذلك عن طريق

البحث عن تركيب اجتماعي مثل المجالات، وإجراء مسح على عينة من السكان المستهدفين الذين يرتبطون بالتركيب الاجتماعي المفترض، وإجراء تحليل إحصائي للنتائج. أما علماء النفس الاجتماعيون فإنهم كما هو متوقع يهتمّون أكثر بالعمليات النفسية لدى الناس بدلاً من الفئات المجتمعية الكبرى. وغالبا ما يستخدمون أيضا المسح والعينات والإحصاءات، ولكنهم يبحثون عن الدوافع الفردية وليس التراكيب الاجتماعية. وبعبارة أخرى، فإن البحوث النفسية الاجتماعية في اختيار اللغة تركز على الفرد أكثر مما تركز على المجتمع. أما أهم بحوث أجريت على اختيار اللغة في مجال علم النفس الاجتماعي فكانت البحوث التي أجراها سيمون هيرمان (١٩٦٨) وهاورد غايلز ومساعدوه (غايلز ١٩٧٣، غايلز وبورهيس وتيلور ١٩٧٧).

سيمون هيرمان – المواقف المتداخلة.

يرى هيرمان أن مشكلة اختيار اللغة حالة يجد فيها متحدث ثنائي اللغة نفسه في أكثر من موقف نفسي في آن واحد. وقد تحدث هيرمان عن ثلاثة أنواع من المواقف، أحدها يخص حاجات المتكلم الشخصية ويخص الآخران التجمعات الاجتماعية. ومن ثمّ فإنه في موقف ما قد تشعر المتحدثة أو المتحدث أنه منجذب في اتجاهات مختلفة بسبب رغبته الذاتية في التحدث باللغة التي يعرفها بشكل أفضل، واللغة التي تتوقع منه الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها أن يتحدثها. وقد تكون الفئة أو الجماعة مباشرة، أي أن الأفراد متواجدون فعليا في ذلك الوقت. وقد تكون الجماعة "خلفية"، وهي التي يصفها هيرمان بأنها "الجماعات التي تعيش في الوسط الاجتماعي الأكبر والتي لا تشترك بصورة مباشرة في المواقف الحالية، ولكنها قد تؤثر على السلوك، وهي ما يطلق عليها "اللجان الخفية" (هيرمان ١٩٦٨، ص ص ٤٩٤-٤٩٥). أي أن المتكلم قد يرغب في أن ينظر إليه على أنه عضو في جماعة اجتماعية ما ليست

موجودة، أو قد يرغب في إظهار عدم ارتباطه بتلك الجماعة. ومثال ذلك أن الأمريكي الأسود بين جماعة من الأمريكيين البيض سيكون متميزا بلونه الأسود بشكل واضح، ولكنه يستطيع لغويا أن يكشف عن توجهه العرقي في الحال عن طريق تحويل كلامه إلى الإنجليزية الدارجة لدى السود أو نحو الإنجليزية الأمريكية النموذجية. وفي إحدى الحالتين يؤكد عضويته في المجموعة الغائبة، وفي الأخرى يقلل من هذه العلاقة.[٦] أما المواقف النفسية الثلاثة التي تحدث عنها سيمون هيرمان فهي الحاجات الشخصية وموقف الخلفية والموقف المباشر.

وحيث إن هذه المواقف تتداخل، وحيث إن كلا منها قد يميل بالفرد نحو اختيار لغة مختلفة، فإن هذا قاد سيمون هيرمان إلى دراسة الظروف التي تجعل أحد هذه المواقف الثلاثة أكثر بروزا على حساب الموقفين الآخرين. ويكون الموقف البارز هو الأوضح في وقت معين، وهو الموقف الذي يستجيب له المتكلم.

اعتمادا إلى حد كبير على بيانات تجريبية عن الاختيار اللغوي في إسرائيل، يقترح سيمون هيرمان أن هناك ظروفا معينة تزيد من بروز موقف ما من بين الثلاثة. ويتضمن الجدول رقم (٧,٢) الظروف والمواقف التي تعمل على بروزه. ومثل ذلك أن بعض المهاجرين الإسرائيليين ذكروا أنهم يستخدمون لغتهم الأم في المنزل (محيط خاص)، ولكنهم يستخدمون العبرية في الحافلة (محيط عام). هناك وظيفة وسيلية بحتة، مثل أن يطلب عامل من عامل آخر أن يناوله أداة ما، قد تؤدي إلى بروز الموقف المباشر. وفي هذه الحالة يستخدم المتكلم اللغة التي يستخدمها عادة في مثل هذا الموقف، دون أن يفكر بارتباطات هذه اللغة نحو الجماعات أو اللغة التي يشعر شخصيا أنها أكثر ملاءمة مع (توجه المهمة المطلوبة). ولو كان هناك فردان يستخدمان بشكل دائم لغة معينة بينهما، لكانت هذه اللغة هي اختيارهما كلما تحدثا مع بعضهما؛ ذلك لأن الموقف المباشر له الأولوية على الخلفية والاعتبارات الشخصية

(العلاقات الثابتة). غير أن فكرة سيمون هيرمان المركزية تبدو هي الصراع المحتمل بين اختيار لغة يرتاح إليها المتحدث أكثر من غيرها، ويجد نفسه فيها، وبين اختيار لغة تربط هويته بإحدى الفئات الاجتماعية الثقافية في المجتمع.

جدول رقم (٧,٢). الظروف التي تؤدي إلى زيادة بروز أحد المواقف النفسية الثلاثة.

الموقف	الظروف
الحاجات الشخصية	١. المحيط خاص وليس عاما.
	٢ - الموقف يثير الإحساس بعدم الأمان والتوتر الشديد أو الإحباط.
	٣- الموقف يمس الطبقات المركزية في الشخصية وليس الطبقات السطحية (الخارجية).
موقف الخلفية	١- يحدث الموقف في محيط عام وليس خاصا.
	٢ - قد يفسر السلوك في الموقف بأنه يقدم دلائل لتحديد هوية الجماعة التي ينتمي إليها المتكلم.
	٣ - يرغب الشخص المشترك في النشاط أن يبين ارتباط هويته أو عدم ارتباطها بفئة معينة.
الموقف المباشر	١- لا يهتم الشخص بالانتساب إلى الجماعة.
	٢- يهتم السلوك بتحقيق المهمة المطلوبة.
	٣ - تتصف العلاقة بأنماط سلوكية راسخة.

المصدر: سيمون هيرمان (١٩٦٨، ص ٤٩٥، ٤٩٦).

نظرية المماثلة عند غايلز.

طور غايلز فكرة المماثلة في السلوك اللغوي بدءا بالمفهوم الأساسي نفسه. وتأخذ المماثلة بطبيعة الحال شكل التماثل، وهو الموقف الذي يختار فيه المتكلم لغة أو مستوى لغويا يلائم حاجات الشخص الذي يتحدث إليه.[٧] غير أنه في بعض الظروف

قد يفشل المتكلم في محاولة التماثل وربما يقوم بالتخالف. وبعبارة أخرى، قد لا يبذل المرء جهدا على الإطلاق في توفيق كلامه لمصلحة الطرف الآخر، بل قد يجعل كلامه بشكل مقصود ومتعمّد مغايرا إلى أقصى حد لكلام الطرف الآخر. يحدث ذلك عندما يحاول المتكلم إثبات ولائه لفئته وعدم ربط نفسه مع الفئة التي ينتمي إليها محدثه. تعتبر هذه الظاهرة أساس أحد المشروعات البحثية الخاصة بالمواقف اللغوية التي نوقشت في الفصل السابق، وهو السلوك الافتراضي لدى الأمريكيين السود الذين قد يستخدمون عن عمد سمات الإنجليزية التي يستخدمها السود عند التحدث مع البيض. ويقدم لنا غايلز وبورهيس وتيلور (١٩٧٧، ص ٣٢٣) مثالا آخر، وهو: المرة الأولى التي تصدر فيها الدول العربية بيانا بشأن البترول باللغة العربية بدلا من الإنجليزية في منتصف السبعينيات.

ولا يحتاج التماثل والتخالف إلى انتقاء أحد الخيارات (أي التماثل أو عدم التماثل أو التخالف). ومن الممكن إقامة مجموعات توافقية عديدة من بين البدائل الموجودة ضمن اللغة، فضلا عن استخدام استراتيجيات مثل ترجمة أجزاء من كلام المرء عند التحدث أو تبطئ سرعة الكلام. ويبين الجدول رقم (٧,٣) بعض الدرجات المحتملة للمماثلة فيما يتعلق بتفاعل المتحدث مع عضو من خارج الجماعة (شخص ينتمي إلى فئة اجتماعية وثقافية مختلفة). ويعد أكثر أنواع التصرف تماثلا هو استخدام لغة الآخر وبذل الجهود لنقلها بالطريقة التي يتحدث بها أهلها الأصليون. أما المتحدث الأقل تماثلا فسيستخدم اللغة الأخرى، ولكن بلكنة ثقيلة نسبيا (كما يتحدث الكندي الناطق بالإنجليزية مع كندي ناطق بالفرنسية باللغة الفرنسية، ولكن بلكنة إنجليزية ثقيلة). أما في الخطوة التالية فيستخدم المتكلم لغته الخاصة، ولكنه يتحدث ببطء ليفهمه الطرف الآخر الذي قد لا يفهم لغة المتحدث جيدا. إن أكثر الاستراتيجيات الأربع تخالفا هي عندما يقوم متحدث ما بالتكلم بلغته الخاصة وبالسرعة الطبيعية

للكلام تاركا الشخص الآخر يحاول بمفرده فهم ما باستطاعته.

الجدول رقم (٧,٣). بعض البدائل المتزايدة للتماثل والتخالف.

الأبعاد اللغوية	تزايد التماثل	تزايد التخالف
١ - لغة جماعة أخرى يشبه نطق أهلها الأصلي	↑	↓
٢ - لغة جماعة أخرى بملامح نطق أهلها		
٣ - لغة الجماعة بمعدل سرعة كلام بطئ		
٤ - لغة الجماعة بمعدل سرعة كلام طبيعي		

المصدر: غايلز وبورهيس وتيلور (١٩٧٧، صفحة ٣٢٤، جدول ٢).

ويستطيع المتكلم أن يوفق سلوكه اللغوي ليناسب الشخص الذي يتحدث إليه عن طريق التحول أو عدم التحول إلى لغة مختلفة، واستخدام كلمات أو وحدات من لغة أخرى (أو تجنب ذلك) وكذلك انتقاء أحد البدائل اللغوية في أحد الاتجاهات أو غيره، واستخدام طرائق مثل ترجمة فقرات قصيرة، وتعديل معدل سرعة الكلام، وتفخيم اللكنة أو ترقيقها. ولكن هل من الممكن تحديد متى يحتمل أن يقوم المتحدث باستخدام استراتيجيات مماثلة ومتى يقع اختياره على عدم المماثلة أو استراتيجيات التخالف؟ حاول غايلز وبورهيس وتيلور (١٩٧٧، ص ٣٣٢-٥) الإجابة على هذا السؤال على أساس ما إذا كان المتكلم عضوا في فئة اجتماعية ثقافية مسيطرة أو تابعة في المجتمع أو في حال كونه يعتقد أن التغيير الاجتماعي ممكن (فيما يتعلق بتحسين وضع الفئات التابعة).[٨] ويلخص الجدول رقم (٧,٤) تحليلهم لهذه المسألة.

الجدول رقم (٧.٤). سلوك المماثلة اللغوية المتوقعة لدى الجماعات المسيطرة والتابعة في ظل مختلف أشكال الإدراك للتغير الاجتماعي

إدراك التغيير الاجتماعي	الاستجابة	
	الجماعة المسيطرة	الجماعة التابعة
لا توجد إمكانية لإدراك التغيير الاجتماعي	عدم التماثل	تماثل
إمكانية إدراك التغير الاجتماعي (بشكل مفضل)	تماثل تنازلي	تخالف
إمكانية إدراك التغير الاجتماعي (بشكل غير مفضل)	تخالف	--

المصدر: غايلز وبروهيس وتيلور (١٩٧٧).

وإذا كانت المجموعة المسيطرة تتوقع أن تبقى كذلك فإن أعضاءها سيفترضون، وحتى دون التفكير في ذلك، أن أعضاء المجموعة التابعة سيقومون بالتعديلات التوافقية اللغوية الضرورية. ونتيجة لذلك سيتكلمون لغتهم أو لهجتهم الخاصة المفضلة بالطريقة الطبيعية دون محاولة إحداث أي نوع من التماثل مع لغة المخاطب. إن طريقة وصفي لهذا الموقف تظهر المجموعة المسيطرة وكأنها تطالب منهجيا بحقها في السيطرة، ولكن من النادر حدوث تماثل "تنازلي" في ظل نظام اجتماعي ثابت. ومن الظواهر المعروفة أن المواقف تجاه اللغة (الصحيحة) أو (الجيدة) غالبا ما تكون أكثر انتشارا داخل مجتمع لغوي مما هو الحال عند استخدامها. وقد رأينا ذلك سابقا فيما

يتعلق بازدواجية اللغة حيث كانت اللغات الدنيا عادة لا تحظى بالاحترام بينما تحظى به اللغات العليا رغم أن الجميع يعرف اللغة الدنيا وقلة منهم يتكلمون اللغة العليا. ونتيجة لذلك إذا تعمد متحدث أصلي لضرب لغوي "صحيح" أو لغة "جيدة"، التخلي عن ممارساته اللغوية الطبيعية في صالح استخدام لغة أقل منزلة عندما يتحدث إلى أناس من المجموعات التابعة فذلك قد يؤدي فعلا إلى الإساءة إلى المخاطب من المجموعة التابعة، وقد يبدو أنه كان يسخر منه. تخيل مثلا الأثر الذي يمكن أن يحدثه تصرف طبيب أمريكي أبيض عندما يستخدم الإنجليزية العامية للسود أثناء حديثه مع مريض أسود ينتمي إلى الطبقة العاملة، أو يحاول التحدث بلكنة إسبانية مع مريض من شيكاغو، أو محاولة التشبه بالعمال عند التحدث مع مريض يعمل في مصنع الحديد والصلب.

ومن ناحية أخرى إذا لم تر الفئة التابعة إمكانية وقوع تغيير اجتماعي، فإن الفرصة الوحيدة للتحسين الاجتماعي في المجتمع خارج جماعته الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها تكمن في مدى قبول الفئة المسيطرة لها. ويُحصل على هذا القبول عن طريق أي وسيلة ممكنة بما في ذلك التماثل اللغوي. وقد يتوقع من أفراد المجموعة التابعة أن يماثلوا لغتهم عند التعامل مع المجموعة المسيطرة وذلك إذا كان من غير المرجح حدوث تغيير اجتماعي. ويجب أن أشير هنا إلى أن استراتيجية التماثل سوف تستخدم من قبل أفراد المجموعة التابعة الذين يعتبرونها مرغوبة وقد تحقق لهم مكاسب اجتماعية في المجتمع على نطاق واسع. أما الذين لا يرون إمكانية أو رغبة في محاولة "الصعود" عن طريق الاندماج مع الفئة المسيطرة فسوف ينغلقون على أنفسهم ضمن جماعتهم، وقلما يتعاملون مع الجماعة المسيطرة وقد لا يقومون إلا بمحاولات ضئيلة للتماثل عندما يتوجب عليهم ذلك.

ولكن عندما يبدو التغير الاجتماعي ممكنا ويعتبره أحد أفراد المجموعة المسيطرة

مرغوبا (ربما لأسباب تتعلق بالضمير) فإن غايلز وبورهيس وتيلور يرون إمكانية حدوث تماثل تنازلي: أي قد يحاول الفرد المنتمي إلى المجموعة المسيطرة إظهار التعاطف عن طريق التماثل بلغته نحو الضرب اللغوي الأقل منزلة. والمثال الذي يقدمونه على ذلك هو حالة بعض طلاب الطبقة الوسطى العليا في بريطانيا الذين اعتنقوا المثل الليبرالية في أوائل السبعينيات وأظهروها من خلال رفضهم أساليب التكلم والملابس المعهودة لدى طبقتهم الاجتماعية. غير أنه يبدو لي أن قبول التماثل "التنازلي" من جانب المجموعات التابعة يتوقف جزئيا على الوضع الاجتماعي اللغوي للضرب اللغوي التابع. فإذا كان هذا الضرب اللغوي يعتبر لغة فإن الفئة التابعة قد تقبل أو حتى تطالب باستخدامها من قبل المجموعة المسيطرة أثناء عملية التغيير الاجتماعي. ومثال ذلك يقظة النزعة القومية في كويبك بكندا. أما إذا كان النظام اللغوي لدى المجموعة التابعة يعتبر ضربا لغويا فرعيا من اللغة النموذجية للمجموعة المسيطرة فإن احتمالية قبول التماثل التنازلي ستكون أقل. وتعود بعض أسباب ذلك إلى أن محاولة استخدام الضرب العرقي من قبل غير أفراد المجموعة قد يعتبر نوعا من السخرية ، غير أنه أثناء فترة التغير الاجتماعي قد تعتبر محاولة التماثل مطالبة أو ادعاء بعضوية المجموعة التابعة ، أي الانتساب إليها. ولن تميل المجموعة التابعة إلى قبول هذا النوع من المطالبة خاصة إذا صدر عن فرد من المجموعة الطاغية مهما كانت درجة التعاطف التي يظهرها هذا الفرد.

وختاما إذا كان لمنزلة المجموعة التابعة فرصة حقيقية في التحسن وكانت المجموعة المسيطرة لا ترغب في هذا التطور فإن غايلز وبورهيس تيلور يفترضون أن تقوم المجموعة المسيطرة بالتحالف اللغوي ؛ لكي تؤكد الفروق اللغوية بينها وبين المجموعة التي تهددها. إن استخدام اللغة يعد أحد سبل إبعاد اللغة الصاعدة حديثا. ويبدو أن غايلز ومساعديه لا يعتبرون أنه من المرجح أن تتخذ المجموعة التابعة موقفا

سلبيا من التغيير الاجتماعي الذي سيتضمن مزايا إيجابية لجماعتهم الخاصة. بيد أن هناك دائما وجودا لبعض أفراد المجموعة التابعة الذين يعتبرون أن المخاطر التي تنطوي عليها محاولة تحسين مكانتهم هي مخاطر أكبر من الفوائد المحتملة؛ ولذلك لا يؤيدون هذا التغير الاجتماعي. ويبدو لي أنه من المرجح أن يكشف هؤلاء الأفراد عن رؤيتهم عن طريق التماثل اللغوي أثناء فترات التغيير، وبذلك يبينون للمجموعة المسيطرة أنهم راضون عن هذا النظام الاجتماعي القائم. وبالطبع فإن هذا السلوك قد يكلفهم فقدان احترام الأفراد المتقدمين ضمن جماعتهم.(٩)

الأنثروبولوجيا: علم الإنسان

مقارنة بالعلوم الاجتماعية الأخرى. في حين ينظر علم النفس الاجتماعي إلى مسألة اختيار اللغة من زاوية تعامل الفرد مع تركيبة مجتمعه، ويحاول علماء الاجتماع تفسيرها في ضوء البنى الاجتماعية المجردة، فإن لعلم الإنسان توجها مختلفا. يهتم علماء الجنس البشري أشد الاهتمام بكشف قيم كل جماعة اجتماعية ثقافية، وكذلك كشف القواعد الثقافية للسلوك التي تظهر هذه القيم. ويهتم عالم الإنسان، كعالم النفس الاجتماعي، بكيفية تعامل المتحدث الفرد مع تركيبة مجتمعه، ولكن ليس في ضوء حاجاته النفسية بقدر ما هو اهتمام بكيفية استخدام هذا الشخص لخياراته اللغوية لإظهار قيمه الثقافية. وبما أن باستطاعة الفرد القيام باختيارات مختلفة من بين القيم التي تسمح له ثقافته بها في أوقات مختلفة، فإن علماء الإنسان يهتمون بالتحليل الدقيق لتفاعلات معينة. إن علماء الإنسان يهتمون اهتماما كبيرا، يفوق إلى حد بعيد اهتمام علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعيين، بمزج الشفرة والتنويع الضمني فضلا عن اهتمامهم بتبديلات الشفرة بشكلها الواسع. ويمثل كل نوع من هذه التنويعات بالنسبة لعالم الإنسان تغيرا في التعبير عن القيم الثقافية، وهذا هو

الأهم الذي يتوجب علينا فهمه.

المنهج.

إضافة إلى التوجه العام، هناك فرق ملحوظ في المنهج بين علماء الإنسان وعلماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، إذ يميل علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعيون إلى الاعتماد على بيانات الاستبيانات أو على ملاحظة سلوك الناس في ظروف تجريبية مضبوطة. وتجمع النتائج كبيانات رقمية ويجري عليها تحليل إحصائي على نحو يؤدي إلى اكتشاف ما إذا كانت هناك ميول ذات أهمية. أما علماء الإنسان فيضعون القيمة العليا على السلوك الطبيعي وغير المضبوط. ويقودهم ذلك إلى استخدام مناهج بحث قلما تستخدم في علم الاجتماع أو علم النفس الاجتماعي، وهو منهج "ملاحظة المشارك".

فمثلا، قضت غال (١٩٧٩) عاما في أوبروارت في شرق النمسا بين أفراد أسرة في إحدى المدن وكان هدفها جمع بيانات لدراستها الرائعة للاختيار والتحول اللغويين. وقضى بلوم وقومبرز (١٩٧٢) وجيليان سانكوف (١٩٨٠) وروبن (١٩٦٨ ب) فترات طويلة مماثلة بين الجاليات التي كانوا يدرسونها، وقضى دوريان (١٩٨١) أكثر من عشر سنوات في إعداد بحث عن تغير اللغة في شرق سذرلاند في المرتفعات الاسكتلندية. ورغم أن أفراد العينة قد يقابلوا، وكان من الممكن جمع البيانات عن طريق الاستبيانات، إلا أن هذه البيانات تعتبر تكميلية تماما. وتتكون البيانات الأساسية من ملاحظة سلوك الناس وهم يعيشون حياتهم اليومية. وقد جمعت غال (١٩٧٩، ص ١٢٠) بيانات عن طريق مقابلات شخصية ذات نمط جيد ذكر فيها أفراد العينة اختياراتهم اللغوية تبعا لمن يتحدثون اليه، ولكنها رغبت فقط في استخدامها بعد أن أوضحت أن هذه البيانات أردفتها بسجلاتها عن الملاحظات الفعلية. وكان هذان

المصدران لجمع البيانات المتعلقة باختيار اللغة منسجمين إلى حد كبير، حيث قدما دعما قويا لمصداقية كل منها، وذلك بالمعنى الذي ناقشناه في الفصل الخامس. ومن ناحية أخرى، وجدت دوريان (١٩٨١، ص ٩٧-٩٨) أن نتائج الاستبيان الذي وزعته في شرق سنرلاند مليئة بالمشاكل مقارنة بما عرفته عن الموقف اللغوي من خبرتها الطويلة في ملاحظة المشاركين، وذلك على نحو جعلها تضع كافة المناقشات التي يثيرها الاستبيان في ملحق خاص.

ولم يستخدم التحليل الإحصائي عادة في غير جدولة للبيانات والمتوسطات (يستثنى من ذلك بحث غال حيث استفادت من معدل الارتباط بين الرتبة والترتيب لدى سبيرمان). غير أن علماء الإنسان يجدون أن انخراطهم المكثف في المجتمعات التي يدرسونها يمكنهم من تميز الأشياء المهمة من غيرها دون اللجوء إلى التحليل الرسمي القائم على الأرقام. والواقع أن هذا الفرق في المنهجية يعد مصدرا لبعض الاختلافات بين العلوم الاجتماعية. و يعتقد علماء الإنسان أن بحوث علم الاجتماع ينقصها درجة معينة من العمق، هذا ويعتقد علماء الاجتماع أن بحوث علم الإنسان تنقصها الدقة.

بنية الجماعة.

ألقت بحوث علماء الإنسان حول اختيار اللغة ضوءا كبيرا على ظاهرة بنية الجماعة، ونركز هنا على رؤية أساسية مستوحاة إلى حد كبير من عمل بلوم وغومبيرز (١٩٧٢) وغال (١٩٧٢ ب) (١٩٧٩).

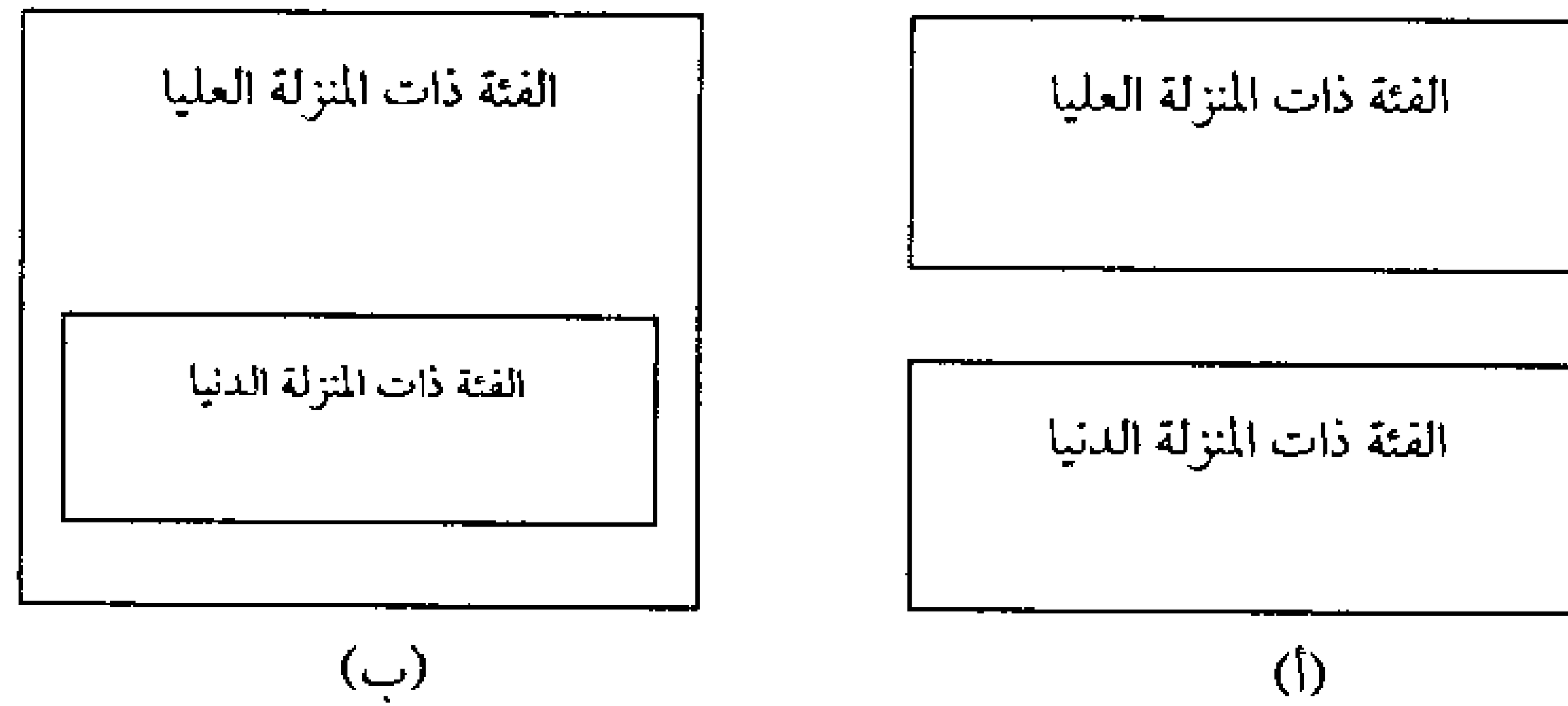
وهنا نتذكر أحد أنواع ازدواجية اللغة لدى فيشمن، وهي"الازدواجية بدون ثنائية اللغة". إن معايير هذا النوع هي وجود جاليتين (جماعتين) منفصلتين في المجتمع الواحد، إحداهما نخبة حاكمة والأخرى هي الجماعة المحكومة. وتستخدم هاتان الجماعتان لغات مختلفة، ولا يوجد بينهما إلا نسبة ضئيلة من التواصل ما عدا الذي

يتم من اتصال ربما عن طريق لغة خليط. ويصعب إيجاد "ازدواجية لغوية دون ثنائية لغوية" بشكل مطلق، ولكن هناك مجتمعات تقترب من البنية الاجتماعية التي كان يعنيها فيشمن، وفي مثل هذا المجتمع سوف تذعن الطبقة المحكومة لحكم النخبة الحاكمة، ولكنها لا تعتبر نفسها جزءا من المجتمع الكلامي نفسه، حيث لن يشعروا بحاجة خاصة إلى تعلم لغة المجموعة المسيطرة، فيما عدا الحد الأدنى المطلوب للتعامل معها. ويعني ذلك أساسا أن هناك جماعتين منفصلتين في المجتمع نفسه تربطهما السلطة التي تمارسها إحدى الفئتين على الأخرى، ولكن لا تعتبر أي من المجموعتين نفسها جزءا من المجموعة الأخرى.

وثمة ترتيب اجتماعي آخر يضم مجموعتين داخل المجتمع نفسه، إحداهما ذات منزلة عالية وسلطة أكثر من الأخرى، كما هو الحال في الحالة الأولى. ولكن في هذه الحالة يرى أفراد المجموعة ذات المنزلة الأدنى أن المجموعة ذات المقام العالي هي فئة أوسع يمكن أن تشملهم، إذ إن لديهم نوعا من الانتماء والعضوية في مجموعتين. وكما هو الحال مع اكتساب المستويين الأعلى والأدنى من اللغة، فإن هذه العضوية الثنائية مرتبة بشكل تتابعي في حياة المرء، حيث في البداية يصبح عضوا في المجموعة ذات المنزلة الدنيا التي تقترب قيمها بشكل وثيق من قيم بيته وجيرانه. وعندما يكبر يدرك أنه يدين ببعض الولاء إلى مجموعة اجتماعية أخرى غريبة عنه بعض الشيء، ولكنها تشمله في أحد الجوانب. إن الولاء الثنائي، الذي ينشأ على هذا النحو، يسبب نوعا من الصراع، ويحسم أفراد المجموعة الاجتماعية ذات المنزلة الدنيا هذه الصراعات بطرق مختلفة لها نتائجها اللغوية المثيرة. ويعد الشكل رقم (٧,٢) أيضا مثالا توضيحيا لهذين النوعين من التركيب الاجتماعي.

إن عمل بلوم وغومبيرز (١٩٧٢) في قرية همنيز برغيه النرويجية يعد مثالا على مجتمع يبدو في حالة انتقال بين التركيبين الاجتماعيين الموضحين في الشكل رقم (٧,٢).

ويعترف سكان هذه القرية بضربين لغويين: (١) الرنمالية، وهي اللغة المحلية المستخدمة في الخطاب اليومي، (٢) البوكمالية، وهي الضرب النموذجي للغة النرويجية. وبالنسبة لمعظم الذين يعيشون في هذه القرية يعتبر الوضع اللغوي حالة من الازدواجية الكبرى بين ضربين من النظام اللغوي نفسه، حيث ترتبط الرنمالية بوظائف اللغة الدنيا والبوكمالية بوظائف اللغة العليا. ويتصف سلوكهم إزاء اختيار اللغة بما وصفه الباحثان "بالتبديل السياقي". وإذا اعتبر الموقف رسميا نوعا ما وبعيدا نسبيا عن الاهتمامات المحلية والشخصية، فإن البوكمالية هي التي ستكون مهيمنة. أما إذا كان الموقف يتعلق بعلاقات حميمة وجزء من مجتمع هذه القرية (وليس المجتمع النرويجي ككل)، فسيكون التركيز منصبا على أشكال اللغة الرنمالية. ويوضح بلوم وغومبيرز (١٩٧٢، ص ٤٢٤-٥) فكرة التبديل السياقي على النحو التالي:



الشكل رقم (٧.٢). تمثيل تخطيطي لنوعين من التركيب الاجتماعي. (أ) المجموعة العليا والدنيا عضوان في مجتمعين منفصلين. (ب) المجموعة ذات الوضع الأدنى في الوقت نفسه جزء من المجموعة ذات الوضع الأعلى.

"فمن جهة عندما نتحدث عن شخص ما يلقي محاضرة في قاعة دراسية أو يقدم موعظة في كنيسة أو يتحدث إلى سائح، فإننا قد نفترض بثقة أنه يستخدم الصيغ

والأشكال القواعدية للبوكمالية. أما من جهة أخرى عندما يكون هناك حديث من القلب إلى القلب بين مواطنين محليين فمن المفترض أن يكون حديثهما باللغة البرغمالية. ولكن إذا وجدا يتحدثان البوكمالية بدلا من الرغمالية نستنتج إما أنهما لا يرتبطان بقيم الفئة المحلية وإما أن حديثهما ليس من القلب إلى القلب.(١١)

أما النوع الآخر من التبديل الذي اكتشفه بلوم وغومبيرز فيدعى "التبديل المجازي" حيث يصبح الاختيار اللغوي في التبديل المجازي رمزا أو "استعارة" عن العلاقة الناشئة بغض النظر عن الموقف. وتعتبر شؤون الجماعة الرسمية أمورا غير محلية وبالتالي تحتاج إلى استخدام البوكمالية. غير أن كثيرا من الموظفين الحكوميين هم أصدقاء لكثير من المواطنين الذين يضطرون إلى التعامل معهم بصفتهم الرسمية مما يؤدي إلى نشوء نوع من الصراع. والحل الشائع هو أن يقترب المواطن المقيم من طاولة الموظف الحكومي ويقدم له التحية ويسأل عن أموره العائلية مستخدما الرغمالية، ولكن يزيد من استخدام البوكمالية عند المخاطبة بشأن الأعمال الرسمية. وعلى هذا النحو ترمز الرغمالية أو تخدم كاستعارة لدور الصداقة القائمة بين هذين الفردين اللذين ينتميان إلى جماعة واحدة، بينما تخدم البوكمالية كاستعارة لدور المواطن الذي يعمل موظفا حكوميا.

إن التمييز بين هذين النوعين من التبديل يعد ضروريا في المواقف التي تكون محلية بصفة بحتة حيث لا يوجد أو يرتبط بذلك أي وضعية أخرى بالإضافة إلى العضوية في مجتمع القرية. ولتسهيل ملاحظة هذا النوع من المواقف صمم الباحثان سلسلة من "التجارب".(١٢) فقد طلبا من الناس في مجتمع القرية الذين أصبحوا أصدقاء لهم (حيث عاش المؤلفان في القرية فترة من الزمن) أن يرتبوا لهم تجمعات اجتماعية صغيرة ويسمحوا بتسجيلها. ونجح الباحثان في ترتيب ثلاثة من هذه اللقاءات. وقد تكونت المجموعة الثالثة من شبان وشابات ترعرعوا في القرية وكانوا يعتزون بقريتهم

ولهجتها المحلية، ولكنهم التحقوا بالجامعات في مدن نرويجية أخرى وتشربوا القيم والهويات السائدة في النرويج كلها إلى حد ما. أما المجموعتان الأولى والثانية فلم يكن فيهما أي طلاب جامعيين أنهوا دراستهم في المدن الأخرى. وبالتالي فإنه لا يوجد في المجموعتين الأولى والثانية أية أمثلة على التبديل المجازي أو أي استخدام للبوكمالية على الإطلاق، ويستثنى من ذلك ما يحدث عندما يستشهد شخص ما بما قاله شخص آخر بالبوكمالية أو عند توجيه الكلام للباحثين نفسيهما. وفي تجمع من هذا النوع لا توجد علاقات قائمة غير العلاقات المحلية. وبالتالي لا تصلح إلا الرنمالية. وهذا صحيح بغض النظر عن الموضوع الذي هو قيد النقاش حتى أن الشؤون الحكومية كانت تناقش بالرنمالية. ولكن هذا لا ينطبق على المجموعة الخاصة بالطلبة العائدين من الدراسة بالجامعات، حيث إنه في حالة إثارة موضوع يستفيد فيه المتكلم من الانجذاب إلى وضع المثقف مثلا، تكون اللغة المستخدمة هي البوكمالية، وذلك حتى بين هذا التجمع من الأصدقاء الذين ترعرعوا جميعا في هذه القرية. وهذا يعني أنه بالنسبة لهذه المجموعة التي هي عضو في مجتمع القرية وعضو في المجتمع النرويجي الأكبر، فإن كلا الشكلين مهم في الحالة التي كانت محلية بحتة بالنسبة للمجموعتين الأخريين.

وهنا نقول: إن أعضاء المجموعات الثلاث يعتبرون أنفسهم ينتمون إلى الشكل رقم (٧،٢) (ب)، وبينوا جميعا عن طريق استخدامهم التبديل المجازي أنهم يعتبرون أنفسهم من أهل القرية المذكورة وكذلك نرويجيين حتى على المستوى النفسي العميق. غير أن الأفراد التقليديين احتفظوا بهوياتهم "النرويجية" لبعض العلاقات المحددة، وهي العلاقات التي تعتبر سطحية بالنسبة لاهتماماتهم الحميمية جدا. أما إذا كانوا في وضع اجتماعي حميم مع أصدقائهم المحليين فإنهم يعتبرون أعضاء "فريق محلي" بصفة خاصة على حد تعبير الباحثين. أما الشبان في المجموعة الثالثة فقد أصبحت هويتهم "النرويجية" جزءا كبيرا منهم وعلى نحو جعلها تتعايش مع "هويتهم المحلية" حتى في

المواقف الاجتماعية الحميمية.(١٣)

ويبين البحث الذي أجرته غال (١٩٧٨ب ، ١٩٧٩) في أوبروارت بالنمسا الفرق بوضوح أكثر، حيث إن في هذا المجتمع القريب من الحدود المجرية كثيرا من الأفراد الذين يتحدثون لغتين هما المجرية والألمانية. فالمجرية هي اللغة الدنيا، وهي اللغة التي تستخدمها الجماعة فيما بينها في إحدى شرائح المجتمع. أما الألمانية فهي اللغة العليا، وهي اللغة القومية في النمسا، وكذلك لغة التعليم والطبقة المهنية. وترتبط المجرية بالقيم الريفية الرعوية التقليدية مثل العمل الجاد وملكية حيوانات المزرعة وملكية الأرض كمصدر للوجاهة. أما الألمانية فترمز وبشكل أكثر إلى القيم "المجرية" والحضارية التي انتقلت إلى المجتمع ودخلته منذ الحرب العالمية الثانية. وهناك فروق فردية في قبول أو رفض القيم الوطنية والحضارية المرتبطة باستخدام الألمانية، وتعد هذه الفروق صارخة أكثر مما هي الحال في قرية هيمينزبرغيه.

يعد سلوك الشخص إزاء من يتحدثون لغة واحدة ، وهي في أوبروارت الألمانية، دليلا قويا جدا على هوية الشخص الذاتية الاجتماعية اللغوية، حيث إن كافة المجريين البالغين يتحدثون لغتين. وكقاعدة عامة، من المتوقع أن يتحول الذين يتكلمون بالمجرية إلى الألمانية وذلك في حضور من يتكلمون الألمانية فقط. وقد روت غال (١٩٧٩، ص ١٦٦) الحكاية التالية لبيان كيفية حدوث ذلك: "كان عدد من عمال البناء الذين يتحدثون لغة واحدة ويعتبرون غرباء على مدينة أوبروارت يصلحون الطريق الذي يمر من أمام فندق شعبي. وعندما حان وقت الغداء جلسوا قرب طاولة يجلس عليها أربعة ممن يتحدثون لغتين وكانوا يتحدثون بالمجرية عند دخولهم. وعلى سبيل المزاح طلب أحاديو اللغة من ثنائيي اللغة أن يتوقفوا عن الحديث وألحوا في طلبهم . ومما علقوا به على ذلك قولهم: "دعونا نسمع ما تقولون، إننا نعيش في النمسا وكلنا نمساويون، ألا تعرفون التحدث بالألمانية؟ عندها تحول

ثنائيو اللغة إلى التحدث بالألمانية".

ورغم أن ثنائيو اللغة لم يكونوا يتحدثون إلى عمال البناء، إلا أنهم استجابوا للطلب المتعلق بمكانتهم كنمساويين، وهو التحدث باللغة الوطنية حتى ولو كانوا في مرمى سمع "أقرانهم" من المواطنين في مكان عام. ومن الواضح أن أفراد هذه المجموعة من أهل المنطقة كانوا يرغبون في الاعتراف بهويتهم "كنمساويين" فضلا عن كونهم أعضاء في جماعة فرعية خاصة بهم في هذا الموقف.(١٤)

وتؤكد غال أن ذلك لم يكن دائما كذلك، وليست هذه هي الطريقة التي يستجيب بها كافة المتحدثين بالمجرية في أوبروارت إلى مثل هذا الموقف. وفي واقعة أخرى، دعا زوجان مجريان عجوزان يعملان بالزراعة جارا لهما يتحدث الألمانية فقط ليساعدهما على ذبح خنزير، وظل الجار معهما لمدة ثلاث إلى أربع ساعات ولم يساعدهما على عملية الذبح فحسب، بل انتظر لتناول الطعام معهما. ورغم ذلك دارت كافة جوانب الحديث باللغة المجرية فيما عدا بضعة تعليمات تتعلق بعملية الذبح قيلت بالألمانية للجار الألماني الذي لا يتحدث غيرها. وتوضح غال (١٩٧٩، ص١٦٥) أن ذلك لا يمكن تفسيره كوقاحة متعمدة (أو تخالف متعمد حسب تعبير غال) باعتبار أن الجار كان يساعدهما وذهب إلى هناك بناء على دعوتهما، وتناول الطعام معهما. ومن الواضح أنهما ببساطة احتفظا بحق استخدام لغتهما في بيتهما، وكانا يعتقدان أن "الأجنبي" لن يتوقع منهما غير ذلك. وكان سلوكهما مهذبا في نظرهما حيث كان ذلك طبيعيا بكل بساطة. إن المجرية والألمانية تمثل لدى هذين الزوجين العجوزين "مجموعتين اجتماعيتين متوازيتين ومتناسقتين" (غال ١٩٧٩، ص ١٦١) وليس مجموعة صغيرة داخل مجموعة أكبر. والواقع أن ذلك هو المفهوم العام للعلاقة بين اللغتين والمتحدثين بهما قبل الأربعينات.

بل إن الأعجب من ذلك هو السلوك المتناقض إزاء النساء القادمات من القرى

النمساوية اللاتي تزوجن برجال من الجالية المجرية في أوبروارت وذهبن ليعشن مع آباء أزواجهن وأمهاتهم. وقد التقت غال (١٩٧٩، ص ١٤٢-٣) باثنتي عشرة زوجة كن يتحدثن لغة واحدة هي الألمانية وتزوجن في أوبروارت وقد تعلمت ست منهن فقط اللغة المجرية ولم تتعلمها الست الأخريات. فأما الست اللاتي تعلمن المجرية فكانت خبراتهن متشابهة حيث كان من النادر أن يتحدث إليهن غير أزواجهن باللغة الألمانية. أما أعضاء الأسرة الآخرون فلا يتحدثون إلا اللغة المجرية، وتضطر العروس الجديدة إلى تعلمها بطريقة أو بأخرى. وكان ذلك صحيحا على الرغم من أن كل من يتكلم المجرية يعرف الألمانية أيضا. وإذا أدركنا أن هذه الأسر تعمل بمفهوم "المجموعة الاجتماعية الموازية" بالشكل رقم (٧.٢) (أ)، فإن سلوكهم يصبح واضحا. إن كل من كان عضوا في أسرة لا يمكنه على الإطلاق أن يظل "أجنبيا". لذلك كان على الزوجات الشابات أن يصبحن عضوات في مجتمعات أزواجهن إذ لا يمكن حدوث ذلك دون تعلم لغة المجتمع الذي يعشن فيه. أما الزوجات اللاتي لم يتعلمن المجرية فقد وجدن أفرادا يتحدثن إليهن بالألمانية، ولم يستطع أقاربهن أن يسيطروا على خياراتهن اللغوية بالقدر نفسه. إن عدم إمكانية السيطرة على البيئة اللغوية من جانب أهل الزوج هو أمر مهم دون شك، ولكن من الطريف أن نلاحظ أن الزوجات اللاتي بقين يتحدثن لغة واحدة تزوجن بعد الحرب العالمية الثانية، أو تزوجن أزواجا لا يعملون بالمهن الزراعية (أو كن أنفسهن يعملن بهذه الوظائف). ويغلب على هؤلاء الأفراد الأكثر تحضرا والأصغر سنا أن يفهموا البنى الاجتماعية المحلية أكثر في ضوء الطريقة الموضحة في الشكل رقم (٧.٢) (ب)، وحتى لو لم تكن المرأة عضوا في المجتمع المحلي بالمعنى الكامل بسبب عدم استطاعتها التحدث بالمجرية، فهناك مجموعة ما في أوبروارت بإمكانها التفاعل معها. وكنتيجة لذلك، تمكنت العروس الجديدة من التعايش الاجتماعي دون تعلم اللغة المجرية.

وهناك اعتبار آخر نجده في دراسة غال، وهو درجة الطلاقة في اللغة العليا. كان الفلاحون منذ قرن مضى في أوبروارت (وكانت حينئذ لا تعرف إلا باسمها المجري "فيلسور") لا يتحدثون الألمانية إلا "بقدر يكفي لتأدية المهام المطلوبة والتعامل مع الأسواق في القرى المجاورة" (غال ١٩٧٩، ص ١٥٥) غير أنه بحلول السبعينيات لم يكن الهدف هو تعلم الألمانية بطلاقة، ولكن تحدث الألمانية خالية من أي أثر للكنة المجرية على نحو يمكن معه "اعتبار المرء متحدثا بلغة واحدة" (غال ١٩٧٩، ص١٠٧). وكان هذا الاهتمام الزائد بنوعية مقدرة الفرد على التحدث بالألمانية انعكاسا آخر لمفهوم "العضوية الثنائية".

يبرز اختيار اللغة كفعل مصاحب لمفهوم المرء حول عضويته بالجماعة بشكل واضح، عندما نفهم نموذج اختيار اللغة الذي وجدته غال على أنه الأكثر إفصاحا ووضوحا. لقد اكتشفت أنماطا منتظمة لاختيار اللغة عند وضع أنماط الاختيار الفردية في جدول "القياس التضميني" مع متحدثين تمثلهم صفوف أفقية والمخاطبين تمثلهم أعمدة.[١٥] ويظهر في الجدول رقم (٧،٥) المقياس التضميني لدى النساء (ويكاد يتطابق مع مقياس الرجال).[١٦] إن استخدام اللغة الألمانية في أي حديث مع مخاطب معين يدل ضمنيا على أو يتنبأ أن الألمانية ستستخدم مع كافة المخاطبين الموجودين على اليمين. وبشكل مشابه إذا استخدمت المجرية مع أي مخاطب، فإنها ستستخدم أيضا مع كافة المخاطبين على يسار المقياس. أما استخدام الألمانية والمجرية معا مع المخاطب نفسه فسيظهر بين استخدام المجرية فقط والألمانية فقط.

الجدول رقم (٧,٥). المقياس التضميني لاختيار اللغة لدى المتحدثات النساء في أوبروارت المخاطبون: ١ – الله، ٢- الجدان وجيلهما، ٣ - زبائن السوق السوداء، ٤ - الوالدان وجيلهما، ٥- الأقران من الأصدقاء والجيران، ٦ - الأخوة والأخوات، ٧ - البائعون، ٨- الزوج أو الزوجة، ٩ – الأولاد وجيلهم، ١٠- اللغات المستخدمة في الحكومة .

م= المجرية . أ = الألمانية

عمر	المخاطب											
المتكلم	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
١٤	م	أم		أ	أ	أ	أ			أ		أ
١٥	م	أم		أ	أ	أ	أ			أ		أ
٢٥	م	أم	أم	أم	أ	أ	أ	أ	أ	أ		أ
٢٧	م	م		أم	أ	أ	أ			أ		أ
١٧	م	م		م	أم	أ	أ			أ		أ
١٣	م	م		أم	أم	أم	أم			أ		أ
٤٣	م	م		أم	أم		أ◆	أم	أم	أ		أ
٣٩	م	م		م	أم	أم	أ	أ	أ	أ		أ
٢٣	م	م		م	أم	م◆	أ		م◆	أ		أ
٤٠	م	م		م	أم		أم	أ	أ	أ		أ
٥٠	م	م		م	م	أم	أم	أم	أم	أ	أ	أ
٥٢	م	م	م	أم ◆	م		م	أم	أ	أ	أ	أ
٦٠	م	م	م	م	م	م	م	أم	أم	أ	أ	م◆
٤٠	م	م	م	م	م	م	م	أم	م	أم		أ
٣٥	م	م	م	م	م	م	م	م	أم	م◆		أ
٦١	م	م	م	م	م	م	م	م	أم ◆	م		أ
٥٠	م	م	م	م	م	م	م	م	م	م		أ
٦٦	م	م		م	م	م	م	م	م	م	أم	أ

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
٦٠	م	م		م	م	م	م	م	م	م	أم	أ
٥٣	م	م		م	م	م	م	م	أم ◆	م	أم	أ
٧١	م	م		م	م	م	م	م	م	م	أم	أ
٥٤	م	م	م	م	م	م	م	م	م	م		أ
٦٩	م	م		م	م	م	م	م	م	م	أم	أ
٦٣	م	م		م	م	م	م	م	م	م	أم	م◆
٥٩	م	م	م	م	م	م	م	م	م	م		م
٦٠	م	م	م	م	م	م	م	م	م	م		م
٦٤	م	م		م	م	م	م	م	م	م	م	م
٧١	م	م		م	م	م	م	م	م	م	م	م

◆ فشلت هذه الخانات في الاتفاق مع القياسية التامة.

المصدر: غال(١٩٧٩، صفحة ١٢١، الجدول ٤,٣).

وإذا وضعنا بعين الاعتبار أن ترتيب المخاطبين من اليسار إلى اليمين في قمة الجدول رقم (٧,٥) حددته محاولة جعل المقياس يقترب من درجة الكمال ما أمكن، فإنه من الطريف أن نرى الترتيب الذي يعطينا إياه هذا الإجراء. بادىء ذي بدء، من الواضح أن مخاطبة الأصدقاء والأقارب الأكبر سنا ستتم على الأرجح باللغة المجرية، بينما يخاطب الأصغر سنا باللغة الألمانية. وهذا لا بد من توقعه طالما أن الأشخاص الأصغر سنا هم الأكثر احتمالا لأن يكون لديهم المفهوم الأحدث حول النظام الاجتماعي. أما من غير الأقارب، وذلك باستثناء الدعاء إلى الله في الصلوات والترانيم الدينية، فإن أكثر الناس قابلية للتحدث إليهم باللغة المجرية هم "زبائن السوق السوداء". فنشاط "السوق السوداء" في أوبروارت ليس سيئا كما يبدو، وهو يمثل فقط محاولة الجماعة الحفاظ على تقاليدهم الخاصة بالتبادل المشترك للخدمات في مواجهة

القوانين النمساوية الصارمة المتعلقة بإصدار التراخيص للعمالة الماهرة. فالنجار الذي يتحدث المجرية مثلا، والذي يقوم بعمل ما لأحد جيرانه لا يمكن تنفيذه قانونيا إلا عن طريق مقاول مرخص (وباهظ الثمن)، يكون في هذه الحالة متورطا في نشاط "السوق السوداء". ويلاحظ أن هذا النوع من الترتيبات يمثل الحفاظ على القيم الريفية التقليدية، ويحتاج إلى درجة كبيرة من الثقة المتبادلة، ويعتبر تحديا للقانون النمساوي". ولا عجب في أن يخاطب "زبائن السوق السوداء" على الأرجح بلغة المجتمع الصغير. وعلى النقيض من ذلك فإن "موظفي الحكومة" هم جزء من المؤسسة الاجتماعية الأكبر، ولذلك يحتمل أن يغلب على مخاطبتهم استخدام اللغة الألمانية. وتستخدم اللغة نفسها مع الطبيب الذي يمثل مهنة محترمة.

قد يندهش القراء الواعون من أن الدعاء الموجه إلى الله تعالى (في الصلوات والترنيمات) هو الكلام الأكثر احتمالا لأن يكون باللغة المجرية، غير أن الدين عادة ما يكون ضمن مجال اللغة العليا، بيد أن المجرية تعتبر اللغة الدنيا في هذا المجتمع. وفي مجتمعات أخرى بحثناها كانت اللغة العليا هي الأكثر ملاءمة في النشاط الديني، حيث كانت اللغة العربية الكلاسيكية في مصر مثلا هي اللغة التي تعتبر الأكثر ملاءمة للاستخدامات الدينية. وتفسير ذلك أن الاستخدامات الدينية والأنشطة الدينية تنفذ باللغة العليا المرتبطة بالمجتمع الكلامي الذي يتواجد فيه هذا الدين. وفي اوبروارت فإن كافة أعضاء الجالية المجرية تقريبا من أتباع كالفين. وتعتبر الألمانية لغة الأديان الأخرى للشعب، وأغلبهم لوثريون أو كاثوليك. إن اللغة المجرية هي الوحيدة التي يمكن استخدامها في الكنائس الكالفينية بيد أن المجرية المستخدمة في الكنيسة أرقى مستوى وأسلوبا من المستخدمة في المجتمع. كما أن الإسلام في مصر ليس هو الدين الوحيد لكافة المسلمين المصرين فقط، بل هو كذلك دين كافة المسلمين العرب، وبالتالي فمن المؤكد أن تكون العربية الكلاسيكية أرقى لغة تستخدم في ذلك المجتمع الكلامي.(١٧)

إن مجرد قراءة أعلى الجدول رقم (٧,٥) تبين لنا الكثير عن خلفيات الاختيار اللغوي في أوبروارت، كما نحصل على معلومات ذات دلالة أيضا من قراءتنا من أعلى إلى أسفل الجانب الأيسر من الجدول رقم (٧,٥)، فمن السهل أن نرى أن المتحدثين الشباب يغلب عليهم التجمع نحو القمة في حين يقع المتحدثون الكبار قرب القاعدة السفلى. وبالطبع فإن المتحدثين الواقعين قرب القمة هم الذين يستخدمون اللغة الألمانية مع معظم من يخاطبونهم في حين أن الواقعين قرب القاعدة السفلى غالبا ما يختارون التحدث بالمجرية مع معظم الناس. ويمكن قياس هذا التوجه نحو التوزيع حسب العمر عن طريق أحد الاختبارات الإحصائية المبينة في الفصل الرابع، وهي اختبار سبيرمان لترابط الرتبة والترتيب. إن قيمة الارتباط الذي وجده سبيرمان بين العمر والرتبة والترتيب من أعلى المقياس التضميني إلى أسفله كان معامل ارتباط عاليا للغاية، حيث بلغ ٨٢, ٠ في جدول يضم إلى جانب الجدول رقم(٧,٥) جدولا مماثلا لمتحدثين ذكور. ويتفق معامل الارتباط هذا مع حقيقة أن الصغار غالبا ما يتشربون القيم الحضارية النمساوية المرتبطة باستخدام اللغة الألمانية.

وعند تأسيس ترتيب للاختيار اللغوي مبني على قاعدة ما مثل ما جاء في الجدول رقم (٧,٥)، يمكننا استخدام هذا الترتيب الرتبي في قياسات الارتباط مع العوامل الأخرى. إننا هنا نبحث فكرة أن استخدام اللغة المجرية على نطاق واسع يعني أن المتكلم يميل إلى التفكير والاعتقاد بأن المجتمع المجري والمجتمع النمساوي الأوسع هما مجتمعان متوازيان أكثر منهما متداخلين. وبالتالي ربما يتوقع أن يرتبط الترتيب الرتبي للمقياس التضميني مع التوجه نحو وجود تفاعل مركز مع الأعضاء الآخرين في المجتمع الكلامي المجري. وكل ما نحتاجه هو مقياس للتفاعل بين عناصر المجتمع.

لقد طورت غال (١٩٧٩، ص ١٤٠-١) الطريقة الآتية لقياس "النزعة الريفية" في الاتصالات بين الأفراد حيث إن الالتزام بأسلوب الحياة الريفية يستلزم الالتزام

بقيم المجتمع المجري التقليدية. ويقوم هذا المقياس على تخصيص ثنائي لمفهوم "الريفية" يكون فيه الفرد ريفيا إذا كان يعيش في بيت توجد فيه أبقار أو خنازير، أو هما ملك للأسرة، ولا يكون "ريفيا" إذا لم يكن يمتلك أيا من هذه الحيوانات . وهذا المعيار بسيط وغير متقن، ولكنه يتسق مع الطريقة التي يقيم من خلالها الانخراط في أسلوب الحياة الزراعية في أوبروارت. لقد تمكنت غال من معرفة من كان يتحدث معها من الأشخاص الموجودة أسماؤهم على قائمة المعارف التي أعدتها وعدد المرات التي يتحدث فيها على مدى عدة أسابيع، وذلك بعد أن عاشت بينهم فترة في أوبروارت. وكان مقياس التفاعل ببساطة هو النسبة المئوية للاتصالات مع "الريفيين" أو "الفلاحين". ويمكن ترتيب الأفراد حسب رتبهم بهذه النسب المئوية ويترابط هذا الترتيب مع ترتيب المقياس التضميني. وكانت النتيجة قيمة صحيحة لسبيرمان بلغت ب=٧٨, ٠ ، مما يبين وجود علاقة قوية بين شبكة اتصالات مكثفة مع الأفراد التقليديين في المجتمع الكلامي المجري والميل نحو اختيار اللغة المجرية في الكلام. ولا تعتبر هذه النتيجة شائعة كما قد تبدو حيث إن كل فرد في المجتمع المجري يتحدث لغتين، ومن الممكن أن يستخدم الألمانية في الحديث مع أي فرد آخر. والواقع أن بعض أفراد المجتمع يستخدمون الألمانية بالفعل مع الأشخاص أنفسهم الذين يخاطبهم الآخرون باللغة المجرية. لكن ما قدمه لنا مقياس غال هو دليل على المدى الذي يكون فيه المجتمع الأصغر، وبخاصة أعضاؤه التقليديون، كافيا لتلبية حاجات الفرد الاجتماعية.[١٨] فمن غير المحتمل أن يكون للشخص، الذي له انتماء اجتماعي راسخ الجذور في مجتمع صغير، ولاء كبير للفئة الكبرى في المجتمع وغالبا ما تقوم أنماط اختياره اللغوي بإظهار ذلك.

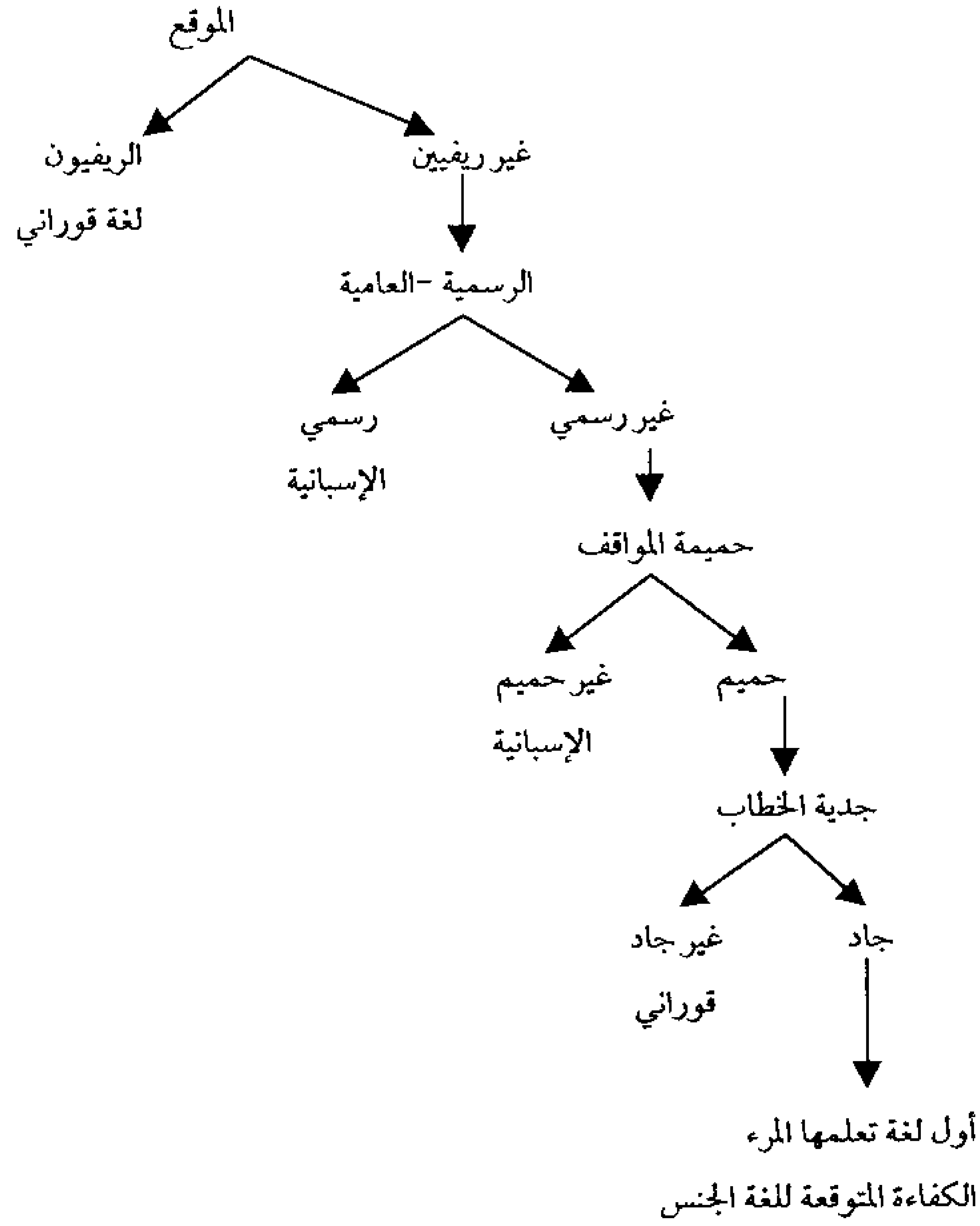
التنبؤ في مقابل التأويل.

إن هدف دراسة الاختيار اللغوي هو إجراء لتفسير الاختيار. وهناك مستويان للتفسير استخدمهما العلماء الذين أجروا بحوثا على الاختيار اللغوي: التفسير الأول هو التنبؤ، أما الثاني فهو التأويل.[١٩] إن أكثر أنواع التنبؤ طموحا هو أن يكون المرء قادرا على التنبؤ بالتوقيت الذي سيتحول فيه (المتحدث ثنائي اللغة) من لغة إلى اللغة الأخرى أثناء المحادثة. وهناك نوع أكثر محدودية للتنبؤ بمعنى أن يكون الفرد قادرا على التنبؤ بأي من النماذج الثلاثة للاختيار اللغوي سيقوم المتحدث باستخدامه في حالة معينة، فهل سيستخدم اللغة الأولى أم الثانية أم كلتيهما، وذلك دون محاولة التنبؤ بكل تحول في كل مرة. أما التأويل فله هدف أكثر تواضعا، فبدلا من محاولة التنبؤ بالتوقيت الذي يحدث فيه التحول إلى اللغة الأخرى، أو حتى التنبؤ بنمط الاختيار اللغوي العام الذي سيستخدم، فإن هدف التأويل هو اعتبار الاختيار اللغوي معروفا مسبقا وفهم عملية التفاعل كما تتحقق بالنسبة للمتكلم. وهناك اتفاق عام على أنه من غير الواقعي محاولة التنبؤ أو حتى تفسير المعنى الاجتماعي لكل عملية تحول على حده. غير أن بعض العلماء حاولوا كشف عناصر في المواقف الكلامية تجعل من الممكن التنبؤ باختيار لغة ما بدلا من أخرى بصورة عامة، أو استخدام مزيج منهما.

وهناك أسلوب تصنيفي واسع التنبؤ يستخدم أحيانا في تحليل اختيار اللغة، ألا وهو "شجرة القرار"[٢٠]. وشجرة القرار هذه تذكرنا بتحليل المجال حيث إن بعض نقط التفرع (عقد التفرع) على "الشجرة" تظل نفسها كمكونات للمجالات. مثال ذلك، استخدمت روبن (١٩٦٨ب ، ص ٥٢٦) شجرة القرار في تحليلها للاختيار اللغوي في بلد أصبح مألوفا لدينا الآن وهو براغوي. ومن ملاحظاتها وبيانات الاستبيانات التي أجرتها في إحدى المدن البراغويية الصغيرة، وأخرى في إحدى المدن الكبيرة، وجدت

روبن بشكل عام أن قرار استخدام اللغة الإسبانية أو القوارني بالنسبة للمتحدث البراغويي ينبني على سلسلة مرتبة من الاعتبارات الخاصة بالمواقف كما يمثلها الشكل رقم (٧،٣):

ويقصد من هذا الرسم الإشارة إلى أن الشيء الأول الذي كان يفكر فيه المواطن البراغويي ثنائي اللغة هو ما إذا كان موجودا في موقع ريفي أم لا . وإذا كان في موضع ريفي فإنه سيختار اللغة الغورانية ، وإذا لم يكن كذلك فإنه يفكر في رسمية الموقف. وإذا كان رسميا فإن الإسبانية تكون هي الخيار ، أما إذا كان الموقف غير رسمي فهنا يأتي دور الحميمية. فإذا كان الموقف غير حميمي فإن اللغة الإسبانية هي المستخدمة ، أما إذا كان الموقف حميميا فلابد للمرء أن يفكر فيما إذا كان الكلام جادا أم لا. فإذا كان الكلام غير جاد لا تكون اللغة الغورانية هي الاختيار التلقائي ، ولكن إذا كان الكلام جادا فعندها يتأثر الاختيار بعوامل ثانوية. فعلى سبيل المثال ، أحد هذه العوامل هي لغة المتكلم الأولى (يفترض أن المتكلم سيختار لغته الأولى إذا كانت المؤثرات الكبرى غير حاسمة). إن كفاءة اللغة المتوقعة تعد عاملا آخر (حيث ستختار اللغة الغورانية إذا كان المخاطب من النوع الذي لا يعرف الإسبانية). وهناك عامل ثالث وهو الجنس ذكر أو أنثى (حيث إن الرجال ثنائيي اللغة سيختارون الغورانية عند التحدث مع غيرهم من الرجال الذين يكونون في الدرجة نفسها من التضامن الاجتماعي ، ولكن الإسبانية ستكون هي اللغة المستخدمة مع النساء إذا كن وحدهن ، أما النساء ثنائيات اللغة فغالبا ما يخترن الإسبانية مع كل من الرجال والنساء ، حتى عندما يكون المخاطب شخصا عزيزا عليهن). قدمت سانكوف (عام ١٩٨٠ ، صفحة ٣٦) شجرة قرار مماثلة وذلك للاختيار بين ثلاث لغات في نيوغيني ولكن شجرة القرار لديها تحتوي على قدر كبير من عدم التحديد.



شكل رقم (٧,٣). شجرة القرار لاختيار اللغة بين الغورانية والإسبانية في براغوي.
المصدر: روبن (١٩٦٨ ب، صفحة ٥٢٦)

إن كلا من تحليل شجرة القرار وتحليل المجال يقترح جوانب معينة من المواقف الاجتماعية كجوانب يطلب مراقبتها إذا كان الهدف هو التنبؤ بالاختيارات اللغوية بصفة عامة. وثمة أربعة عوامل ذكرت في عدة دراسات، هي: ١- الموقع أو المكان

(روبن ١٩٦٨ ب، هيرمان ١٩٦٨، بلوم وغومبيرز ١٩٧٢، غرينفيلد ١٩٧٢، ودوريان ١٩٨١)، ٢- الموقف (روبن ١٩٦٨ ب، وبشكل خاص "فئتها" الرسمية لديها، هيرمان ١٩٦٨، بلوم وغومبيرز ١٩٧٢، وسانكوف ١٩٨٠)، ٣- الموضوع (روبن ١٩٦٨ ب، بالنسبة "لخطاب الجدية"، غرينفيلد ١٩٧٢، سانكوف ١٩٨٠، باراشر ١٩٨٠، دوريان ١٩٨١)، ٤- المشاركون (روبن ١٩٦٨ ب، "الحميمية" وبعض عواملها الثانوية، هيرمان ١٩٦٨، غرينفيلد ١٩٧٢، غايلز وبورهيس وتيلور ١٩٧٧، غال (١٩٧٨ ب، ١٩٧٩)، سانكوف ١٩٨٠، باراشر ١٩٨٠، وبشكل ضمني في بلوم وغوبيرز ١٩٧٢). إن مثل هذه القائمة القصيرة التي صادق عليها عدد كبير من الباحثين ربما تظهر أن هناك تقدما كبيرا قد أحرز في اكتشاف محددات اختيار اللغة. ولكن الوصول إلى مثل هذه النتيجة مغلوط لسببين على الأقل. أولهما: أنه رغم أن كثيرا من العلماء يستخدمون المصطلحات ذاتها إلا أن هناك اختلافا كبيرا فيما يقصد كل منهم من وراء هذه المصطلحات. فمثلا الموقع لدى روبن قد يعني التباين الصارخ بين المناطق الحضارية والريفية في براغوي، وقد يعني لدى هيرمان التمييز بين الأماكن العامة والخاصة، وقد يشير هذا المصطلح لدى بلوم وغومبيرز أساسا إلى نوع من الأنشطة التي تحدث عادة في موقع معين، مثل المكاتب الحكومية أو الكنيسة، وقد يعني لدى جرينفيلد التجانس بين المكان والموضوعات والمشاركين في مجال ما. وثانيا، أن كافة الباحثين تقريبا لا يصرحون بمعرفتهم بكيفية استخدام هذه العوامل للخروج بتنبؤات موثوقة عن الاختيارات اللغوية. وتعترف روبن بالقوة التنبؤية الكبيرة لتحليل شجرة القرار لديها عندما تذكر حقيقة أن قواعد اختيار اللغة تتغير، وأن المواطنين المتعلمين في براغوي يستخدمون الإسبانية في الغالب في حين ان تحليلها يقود المرء إلى توقع استخدام اللغة الغورانية.

ويستثنى من ذلك تحليل غال (١٩٧٩، ص ١١٩) الذي يسمح لها بالتنبؤ

بالاختيار اللغوي على أساس المشاركين فقط:

"إن المعنى الذي ينطوي عليه الاختيار الثابت للغة ما بين المتحدثين يمكن تفسيره في أحسن الأحوال بالرجوع إلى مسألة كيفية اختيار الأفراد بين اللغتين الألمانية والمجرية أو كلتيهما معا. *فبالنسبة لأي راو لغوي يمكن التنبؤ باختياره اللغوي إذا عرف المرء هوية الراوي اللغوي وهوية المخاطب*". (الكتابة المائلة لي).

ويمكن إجراء التنبؤات إذا عرفنا من هم المشاركون باستخدام مقاييس التضمين الخاصة باختيار اللغة. وتمضي غال لتؤكد أن هوية المشاركين هي بالفعل الأمر الوحيد المطلوب معرفته. وهي تستثني بشكل صريح المكان أو الموقع فيما عدا المدرسة (حيث تستخدم الألمانية حسب القانون كلغة وحيدة للتعليم)، باعتبارها مؤثرا محتملا على اختيار اللغة. أما الموضوع فيقال: إن له "تأثيرا قليلا" باعتباره هو "ذاته المناسبة بحد ذاتها أو هدف التفاعل" (غال ١٩٧٩، ص١٢٥). إن هناك تأثيرا واحدا ثانويا على اختيار اللغة، بغض النظر عن المشاركين الفعليين وموقع المدرسة، وذلك التأثير هو ما إذا كان الأفراد الذين يتكلمون الألمانية فقط حاضرين أم لا، كما سبق ورأينا.

ولعله لا يوجد عالم اجتماع واحد أو عدد محدود جدا من علماء الإنسان يقتنع بخطة التنبؤ التي تحتاج لأن يكون المحلل على علم بهوية الفرد المحددة وموقعه على المقياس التضميني. لكن يبدو أن غال كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تقول بخصوص المجتمع الذي درسته: إن الشخص الذي لديه درجة (س) من الالتزام وقيم اللغة الصغرى أو السفلى، وهي الخاصة بالمجتمع، سيختار اللغة (ص) عند التحدث مع المخاطب (ع). وكل ما ينقصنا هو مقياس موثوق لقيمة (س). ولو وجدت طريقة لقياس مدى اشتراك المجتمع على مقياس متواصل، لظهر أنه بالإمكان الحصول على طريقة ذات مصداقية عالية للتنبؤ بالاختيار اللغوي في أوبراوارت. وقد ينطبق أسلوب مماثل لهذا على مجتمعات لغوية أخرى أيضا.

إن الدراسة التفسيرية لمزج الشفرة أو "تبديل الشفرة التحاوري" (غومبيرز ١٩٧٧) تكشف عن تشابهات مذهلة في المواقف حول العالم. ورغم أن التنبؤ بكل تحول (تبديل) قد يبدو بعيد المنال، إلا أنه في بعض الحالات نجد توافقا صارخا حول تفسير التحولات بين اللغتين العليا والدنيا ضمن المحادثة الواحدة. وبالطبع، فإن استخدام اللغة العليا بشكل أساسي يعني أن المتكلم يستثير قيم المجتمع الواسع ومنزلته، أما عند اختياره اللغة الدنيا فإنه بالمثل يستدعي الأنماط الثقافية الخاصة بالمجتمع الأصغر الذي ينتمي إليه. غير أنه من الممكن أن نجد تشابهات في التفاصيل في كيفية تطبيق هذا المبدأ العام. إن هناك ثلاثة تطبيقات خاصة تظهر تشابهات صارخة بين مجتمعات لغوية منفصلة جدا عن بعضها في جميع أنحاء العالم. وهذه المستويات الثلاثة هي :-

١- استخدام اللغة العليا لجعل التعبير أكثر رسمية وذا سلطة.
٢- استخدام اللغة العليا في تفسير بيت القصيد أو توضيحه من وراء قصة غالبا ما كانت تحكى باللغة الدنيا.
٣- استخدام اللغة العليا للتأثير على ولد ما وإفهامه أن الأمر جدي.

وتبين الاقتباسات التالية هذه الحالات :-

١- استخدام اللغة دليلا على السلطة

إن التعبير عن الخبرة وحسن الاطلاع أو تأكيدهما سواء في قضية ما أو في مجال نشاط ما أو مهارة أو حرفة، غالبا ما كان يتحقق عن طريق قيام المتكلم بالتحول إلى اللغة الألمانية عند إصدار الحكم أو التعبير عن رأي ما (غال ١٩٧٩، ص١١٧ حول ثنائية اللغة الألمانية والمجرية في اوربرايت في النمسا).

وتحليلنا لذلك يكشف أنه عندما تتطلب المناقشة من المتكلم أن يثبت منزلته كمثقف

فإنه يميل مرة أخرى إلى استخدام المستويات النموذجية من اللغة (بلوم وغومبيرز ١٩٧٢ ، ص ٤٣٠ حول التباين بين البوكمالية والرنمالية في هيمنس بيرغيه في النرويج).

وهناك ثلاثة أنواع من الأدلة ، وكلها توحي بأن استخدام الإسبانية بكثرة في ناهوتا هو تحول مجازي يقصد به إثارة سلطة العالم المتحدث بالإسبانية ومكانته (هيل وهيل ١٩٨٠ ، ص١٣٠ حول ثنائية اللغة الإسبانية والناهوتلية في ولايات تلاكسالا وبيوبيلا في المكسيك).

وهنا يعترض الشخص (ب) على عبارة الشخص (أ) أو يحاججه (أ) بالألمانية كما لو كان سيعطي عبارته مزيدا من السلطة والقوة والنفوذ (غومبيرز ١٩٧٧ ، ص ١٩ يعلق على مثال حول التحول من الألمانية والسلوفانية في قرية نمساوية لم يحدد اسمها).

٢- شرح مغزى رواية سردية

واستخدام آخر للتبديل اللغوي هو ما يمكن تسميته التأكيد أو "الإثبات" ، ففي عملية سرد حكاية عن تجربة شخصية تقال العبارة التي تلخص المغزى والعبرة الأخلاقية من وراء إخبار هذه القصة مرتين ، مرة في كل لغة (غال ١٩٧٩ ، ص١١٧).

وفي عملية السرد غالبا ما تكون الألفاظ الإسبانية مركزة بصورة مكثفة في معظم الأجزاء "التقييمية" للخطاب حيث يقوم المتكلم بإظهار السبب الذي يدعو لأن تكون حكايته جديرة بالاستماع (هيل وهيل ١٩٨٠ ، ص ١٢٥).

٣- توجيه الأوامر إلى الأولاد.

هناك تشابه صارخ في ثلاث حالات من التحول عند إعطاء الأوامر للأولاد ،

وقد اخترت اقتباس هذه الأمثلة بالكامل هنا. والعبارات المحكية باللغة العليا في كل مقطع مطبوعة بالأسود الغامق. ففي المثال الأول يوبخ جد حفيدته التي تبلغ الثالثة من العمر وابن عمها الذي نثر لتوه كومة من الخشب الذي سيستخدمه الجد في إشعال نار يتدفأ بها (غال ١٩٧٩، ص١١٢).

Grandfather : Szo! **ide dzsuni** ! (pause) jeszt jeramunyi mind

Well, **come here** ! put all this away, both

حسنا، تعالا إلى هنا وضعا كل ذلك جانبا أنتما الاثنان

e kettuotok, **no hat akkor**! (pause) **kum her**! (pause)
of you, **well now**! **come here** !

تعالا إلى هنا.

Nem koapsz vacsorat !
you don't get supper !

لن تحصلا على العشاء الليلة.

وفي المثال الثاني، يحذر هندي بالغ صبيا في العاشرة من عمره، وهو يمارس رياضة السباحة، بأن يظل قريبا من حافة المسبح (غومبيرز ١٩٧٧، ص ٢٨).

Baaju -me, be Ta, bajju -me ! **Stay on the side** !
On the side, son, on the side

ابق على الطرف.

والمثال الثالث مأخوذ من حوار تفاعلي بين أسرة مهنية أمريكية مكسيكية (غومبيرز ١٩٧٧، ٢٨).

Ven aca! Ven aca! **Come here, you** !
Come here! Come here!

تعال إلى هنا

تعال إلى هنا! تعال إلى هنا أنت.

نلاحظ في المثال الأول أن الجد قد أصدر أمرين باللغة المجرية، لم يحظيا بطاعة من جانب الحفيدة، ويلاحظ أنه توقف بعد كل من الأمرين. وأما الأمر الذي صدر بالألمانية فهو يعتبر تصعيدا لجدية الموقف، والأكثر دهشة أن الفتاة الصغيرة لم تتعلم الألمانية بعد، أو أي شيء منها. ولعل ذلك أحد الأسباب وراء عدم طاعتها لأوامر جدها حتى عندما صدرت بالألمانية، وكان لا بد أن يصعد الجد من الموقف إلى حد التهديد الواضح. وعند مناقشة حالات الإسبانية/الإنجليزية وحالات الإنجليزية/الهندية مع أعضاء المجتمعات الكلامية الملائمة نجد أن هناك اتفاقا، كما هو الحال في اللغة النمساوية، على أن التحول إلى اللغة العليا يوحي بتحذير أو تهديد معتدل (غومبيرز ١٩٧٧، ص ٢٨).[٢١]

وبغض النظر عن هذه الحالات التي يميل المتحدثون فيها إلى الخصائص المتعلقة باللغة التي يتحولون إليها، فإن دارسي الخيارات اللغوية لاحظوا استخدامين آخرين لتحولات اللغة، وهما: الاقتباسات ومواصفات المخاطب. لقد لاحظت غال (١٩٧٩، ص ١٠٠) وكذلك هيل وهيل (١٩٨٠، ص ١٢٤) وغومبيرز (١٩٧٧، ص ١٤) أن هناك ميلا ما في مواقع ثنائية اللغة للاستشهاد وبأقوال أناس باللغة الأصلية للتعبير المقتبس، فمثلا، قام أحد معارف غال أثناء سرده لقصة وفاة أبيه باللغة المجرية بالتحول والتبديل إلى اللغة الألمانية عندما اقتبس ما قاله الطبيب. غير أن

غال لم تعتبر الاقتباسات أمثلة أصيلة تماما عن التحول. ومن ناحية أخرى، يشير غومبيرز (١٩٧٧، ص٢١) إلى أن ثنائيي اللغة لا يقتبسون دائما عن اللغة الأصلية، ولعل قرارهم بالقيام بذلك أو عدمه كان له أهمية تواصلية.

ويقدم كل من غال (١٩٧٩، ص١٢٢) وغومبيرز (١٩٧٧، ص١٥) أمثلة على التبديل اللغوي عندما يستخدم لانتقاء الشخص الذي وجهت له الملاحظة عندما يكون هناك احتمالية وجود أكثر من مخاطب واحد. وليس بالضرورة أن يفهم الشخص هذه اللغة ولا لغة أخرى. يمكن أحيانا تحديد المخاطب؛ لأن اللغة التي تحول إليها المتكلم لتوه هي اللغة التي يستخدمها عادة مع ذلك الشخص بالذات والذي قد يكون أيضا ثنائي اللغة.

وعلى الرغم من التشابهات في طريقة تفسير اختيار اللغة في جميع أنحاء العالم إلا أنه ليس من الممكن دائما تفسير كل تبديل لغوي بصورة لا يكتفنها الغموض حتى داخل المجتمع الواحد. إن إطار غال لتحليل التبديل اللغوي التحاوري لم يفسر إلا نصف الحالات الأربعين التي درستها بالتفصيل (غال ١٩٧٩، ص١١٧). وكما يقول غومبيرز (١٩٧٧، ص٣٠) لا ينبغي علينا أن نتوقع قدرتنا على تحديد تفسير واحد لكل تبديل لغوي؛ لأن "ما يتولد هو التفسيرات المفضلة أو الممكنة لا المعاني الواضحة وغير القابلة للجدل". لقد استنتج سانكوف (١٩٨٠، ٤٤)، بعد فحص عدة حالات عن التبديل اللغوي بين لغة توك بيسين (العليا) وبوانغ (الدنيا) في نيو غيني، أنه من غير الممكن، بل ومن غير الضروري، تفسير التحولات الفردية في استخدام اللغة. "إن استخدام المتكلم للغتين في هذا السياق يعد أمرا مهما طالما أنه يظل على ارتباط واتصال بكافة شرائح مستمعيه عن طريق التبديل المتواصل. بيد أن ما يقوله بلغة ما أو بأخرى، ليس في حد ذاته أمرا مهما". ربما كان على الباحث أن يكون قارئا للأفكار ليعرف بالضبط سبب اختيار الشخص للغة ما أو غيرها عند نقطة محددة في موقف

كلامي ما. ومن ناحية أخرى، قد يكون الأمر واضحا بشكل معقول أحيانا، وقد قدمت لنا البحوث الأخيرة على الأقل فكرة طيبة عن أنواع الأهمية التواصلية التي قد ترتبط بالتبديل اللغوي التحاوري.

الاختيار دون اختيار.

من الضروري قبل أن ننهي مناقشتنا لدراسة علم الإنسان لقضية الاختيار اللغوي، أن نذكر ظاهرة غريبة أخرى، لاحظها عدة باحثين في مجال الاختيار اللغوي. يبدو أن أنماط تبديل اللغة التحاوري تبدو بعيدة بشكل خاص عن سيطرة المتكلمين الواعية، بل غالبا ما تكون معاكسة لمواقفهم اللغوية الواضحة. كما أن التحول إلى اللغة المجازية يكاد يبدو لثنائيي اللغة أمرا غير مرغوب "كخلط لغوي". بيد أن التبديل المجازي هو تبديل شائع بين الأفراد الذين ينتقدونه أشد الانتقاد أيا كان عمق تعصبهم ضده وانتقادهم له (غومبيرز ١٩٧٧، ص ٣، يلخص جزءا من نتائج بلوم وغومبيرز ١٩٧٢، وهيل وهيل (١٩٨٠، ص ١٣١). وما المثال التالي الذي أورده فيرما (١٩٧٦، ص ١٦٠) إلا تأكيد ذاتي على ذلك:

Kyo saheb! Hindii-me English ke expressions kyo prayog hone
Why sir Hindi- in English of expressions why usage has

lage hai
lage hai

why have so many English expressions found their way into Hindi?
لماذا وجد كثير من التعابير الإنجليزية طريقه إلى اللغة الهندية؟

haa. Yah to baRii hiiraatii hai merii
yes This very indeed unnatural seems Of-me

to is topic par scholars-sekaffiifrank discussions

this-topic -onscholars -with numerous frank discussions
hui hai
have been

yes. It seems very unnatural . I have had numerous frank discussions with scholars on this topic.

"نعم، يبدو ذلك غير طبيعي، فلقد أجريت عدة نقاشات صريحة مع بعض العلماء وحول هذا "الموضوع".

وهكذا فإن تبديل اللغة التحاوري يعد موردا تفاعليا قويا وذلك على نحو يجعله في الواقع الفعلي يلغي تماما شعور الفرد بنقاء اللغة. وكما هو الحال بالنسبة للظواهر الاجتماعية اللغوية الأخرى التي لا تحظى باهتمام معظم الناس لها، مثل اللغات الخليط والمزيج، فإن اللهجات غير النموذجية وازدواجية اللغة والتبديل اللغوي المجازي تعد أدوات للتواصل فائقة الفائدة على نحو يجعل من الصعب الاستغناء عنها بتلك السهولة.

دمج (توحيد) المفاهيم

لا شك في أنه يبدو واضحا الآن أنني أحمل انطباعا جيدا عن نهج علم الإنسان بالنسبة للاختيار اللغوي. ورغم أن علماء اللغة المختصين بعلم الإنسان لا يمارسون المعايير نفسها في تصميم البحوث والتحقق الإحصائي اللذين يحتاجهما علم الاجتماع وعلم النفس، إلا أنه يبدو لي أن نظرتهم الثاقبة بخصوص أسباب حدوث تبديل الشفرة أو مزجها، تعد نظرة أكثر عمقا من نظرة بحوث علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي. ولا يعني ذلك أننا نقول: إن النتائج التي توصل إليها علماء الإنسان تتعارض مع النتائج التي توصل إليها علماء المبدأين الآخرين أو تحل محلها. إن تحليل المجال، بتركيزه على اختيار اللغة الذي يحدده الموقف التواصلي الدائر

(الجاري)، يشترك في جوانب كثيرة مع نهج عالم الإنسان. غير أنه يبدو لي أن تحليلا كتحليل غال يتعمق أكثر من خلال تفسير أسباب اختلاف اختيارات اللغة لدى بعض أفراد المجتمع نفسه أكثر من غيرهم في المجالات ذاتها. ويبدو أن بحوث علم الاجتماع في تحليل المجال تعني فيما تعني ضمنيا أن التباين في الاختيار اللغوي لا يمكن تفسيره، أو لا حاجة إلى تفسيره طالما ظل الباحثون راضين بالعلاقة المهمة إحصائيا بين الاختيارات اللغوية والمجالات التي تتم فيها هذه الاختيارات. إن مفهوم تحليل المجال الذي يدمج عوامل، مثل الموضوع والموقع والمشاركين كمكونات لبنية أعلى في المستوى، يتعارض مع ما تقدمه غال من دليل على أن الاختيار اللغوي في مجتمع يمكن تفسيره على أساس المشاركين فقط. والسؤال ما إذا كان مفهوم المجال المعقد ضروريا أو لا، وما إذا كان صحيحا القول بشكل عام إن المراكز الاجتماعية ومفاهيم المشاركين الذاتية تكفي لتفسير اختيار اللغة يبقى مسألة تجريبية بحتة.

وتنسجم أيضا أعمال هيرمان وغايلز ومساعديهما التي تناولت رغبة الفرد في تأكيد روابطه بمجموعته الاجتماعية أو عدم تأكيدها مع الاكتشافات التي قام بها علماء اللغة المختصون بعلم الإنسان. وتعد فكرة غايلز عن التماثل متناسبة تماما مع إطار عمل علم الإنسان. وهناك عدة عوامل تشترك جميعا في تحديد درجة التماثل واتجاهه، وتتعلق فيما إذا كان الفرد يعتبر نفسه عضوا في المجتمع نفسه الذي ينتمي إليه الشخص الذي يخاطبه، أو فيما إذا كان الشخص الآخر يعتبر زائرا لمجتمع المتكلم أو العكس، وكذلك عامل وجود أو غياب صراع بين المجتمعين. ومثال على ذلك قصة غال عن الزوجين الريفيين العجوزيين اللذين دعيا جارهما الناطق بالألمانية ليساعدهما على أعمال المزرعة، ولكنهما لم يستخدما التماثل التوافقي مع لغة الجار. لقد اعتبرا الجار دون شك زائرا من مجتمع آخر، وينبغي عليه أن يتوقع أن يكون هو الذي يقوم بعملية التوافق. ومن ناحية أخرى فإن موقف الرجال الناطقين بالمجرية في

الفندق الشعبي الذين تماثلوا مع لغة المخاطب عن طريق التبديل إلى اللغة الألمانية، لمجرد أن الناطقين بالألمانية كانوا يسمعون حديثهم، يعتبر حالة معاكسة للحالة السابقة. ويرى هؤلاء أن أحاديي اللغة هم أعضاء في المجتمع الأكبر نفسه، وبالتالي يحق لهم التماثل التوافقي. ولعل التخالف وعدم التماثل المتعمد والمدرك لا يحدث إلا عندما يكون المتكلم والمخاطب لا ينتميان إلى مجتمعين مختلفين فحسب، وربما كان هناك عداء بين المجتمعين أيضا.

ملخص

يدل التنوع اللغوي الاجتماعي ضمنا على أن للمتكلمين خيارا بين ضروب مختلفة من اللغة. وقد يكون هذا الاختيار بين لغة وأخرى بناء على الموقف (تبديل الشفرة)، أو مجرد استخدام عناصر لغة ما عند التحدث بلغة أخرى (مزج الشفرة)، أو بين عدد لا يحصى من المتغيرات ضمن نظام لغوي واحد.

درس علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي وعلماء الإنسان الجوانب الاجتماعية اللغوية لعملية اختيار اللغة. وقد اشتمل هذا الفصل على مناقشات لتحليل المجال أخذت من بحوث علم الاجتماع حول الاختيارات اللغوية، وكذلك من عمل هيرمان بعنوان "المواقف النفسية المتداخلة"، وبحث غايلز وزملائه حول "نظرية التماثل" المأخوذة من دراسات علم النفس الاجتماعي، فضلا عن بحوث عدة لعلماء لغة مختصين بعلم الإنسان. وتبحث الدراسات من منظور علم الإنسان عن تفسيرات للاختيارات اللغوية في ضوء إدراك المتكلم لذاته كعضو في مجتمع واحد فقط، أو كعضو في الوقت نفسه في مجتمعين أو أكثر. ويعتبر الاختيار اللغوي في لحظة ما دليلا على رغبة الفرد في الارتباط بقيم مجتمع كلامي معين أو بغيره من المجتمعات.

وبحثا عن تفسيرات لمسألة اختيار اللغة، فكر علماء الإنسان في مدى اعتماد

التنبؤ أو التفسير هدفا مناسبا. وقد يكون من الممكن مثلا التنبؤ عن طريق شجرة القرار بالاختيار ما بين اللغات، أو تحديد استخدام أكثر من لغة واحدة في الحدث الكلامي نفسه. غير أنه من المتفق عليه بشكل عام أن هناك أملا ضئيلا في إمكانية التنبؤ بكل تحول لغوي يقدم عليه شخص ثنائي اللغة. فالباحثة غال (١٩٧٩) مستعدة على سبيل المثال لأن تقوم بتنبؤات كبيرة بالنسبة للمجتمع الذي درسته في أوبروارت في النمسا بناء على تحليل المقياس التضميني للمتكلمين كل على حدة. ورغم أن التنبؤ بالتحولات اللغوية في محادثة ما يبدو بعيد المنال، إلا أنه غالبا ما يكون ممكنا تفسير التبديلات التحاورية عند ملاحظتها. والواقع أن هناك بعض التفسيرات متشابهة على نحو مدهش، والمتعلقة بالتحولات المجازية بين اللغتين العليا والدنيا في مجتمعات كلامية متنوعة الثقافة والجغرافيا. ولكن رغم أن المهمة التفاعلية التي يحتاج المتكلم إلى تحقيقها عن طريق اختيار لغة مجازية يمكن في الغالب تفهمها، إلا أننا لا يمكن أن نتوقع تخصيص أو تحديد تفسير غير غامض لكل تبديل لغوي نلاحظه.

لا يستطيع ثنائيو اللغة غالبا تقويم القدرة الاتصالية التي يستوحيها المتكلم من استخدامه لغتين مختلفتين في الموقف نفسه. غير أنه رغم شيوع انتقاد ثنائيي اللغة لعملية "مزج اللغة"، وتأييدهم لـ "نقاء اللغة"، إلا أنه ليس لهذه المواقف أثر تقريبا على الاستخدام الفعلي للغة، إذ إن هؤلاء المتكلمين أنفسهم لا زالوا يستخدمون التحول المجازي دون أن يكونوا على دراية تامة بذلك.

إن إسهامات هذه العلوم الاجتماعية الثلاثة جميعها تقدم لنا رؤى قيمة تتعلق بظاهرة اختيار اللغة. ويبدو أن علم الإنسان هو الذي يقدم عمقا تفسيريا أكبر من العلوم الثلاثة رغم ممارساته المنهجية التي لا تبدو دقيقة بما يكفي حسب وجهة نظر علم الاجتماع أو علم النفس الاجتماعي. ويبدو أن أعمق فهم لاختيار اللغة كظاهرة اجتماعية لغوية يأتي من دمج رؤى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي في إطار

علم الإنسان.

هوامش لمراجع إضافية

الخيار اللغوي بين الإنجليزية والهندي ليس الظاهرة الوحيدة الموجودة في الهند. فتوجد علاقات مشابهة بين الإنجليزية وكانادا (سريدهار Sridhar ١٩٧٨م)، ومالايالم (كولا Kola ١٩٧٧م). وتشمل دراسات أخرى للخيار اللغوي دراسة هيلر Heller (١٩٧٨م في مونتريال) وروس وغايلز (١٩٧٩، في فالينسيا) وسكتون وأوري (١٩٧٧م). وقد كتب روس وغايلز بحثيهما من منظور نظرية التماثل.

هوامش

(١) المسائل اللغوية الناتجة عن دراسة الخيار اللغوي هي موضوع فصل في الجزء الثاني من هذا الكتاب حول تبديل الشفرة والمتغيرية المتأصلة. ونهتم هنا بالخيار اللغوي كظاهرة اجتماعية. ناقش غومبيرز (١٩٧٧م) بعض الضوابط النحوية والبراغماتية على مزج الشفرة.

(٢) تعاملت غال (١٩٧٩م) في واحدة من أعمق الدراسات عن الخيار والتحول اللغويين مع جميع الأنواع الثلاثة للخيار اللغوي. كما فعل ذلك دوريان (١٩٨١) في دراسة أخرى ممتازة حول هذه المواضيع. وذكر غومبيرز (١٩٧٧م) بعض الاختلافات بين التباين اللغوي والخيار اللغوي الذي يتعلق بلغات منفصلة.

(٣) الفرق اللغوي بين التبديل والتنوع داخل اللغة مهم من الناحية النظرية، ولكن من الصعب القول أيهما هو الحادث في حالة معينة. وعلى كل حال، فالفرق ليس مهما من ناحية اللسانيات الاجتماعية، واعتبر أن

الخيار من بين بدائل اللغة الواحدة بشكل رئيسي هو الظاهرة اللسانية الاجتماعية نفسها كالتبديل أو مزج الشفرة.

(٤) هذا مضلل بعض الشيء؛ لأن الهندي -أردو كانت اللغة الأم لأكثر من ربع المستجيبين، وتيليقو التي تعتبر اللغة الإقليمية لأندار براديش (وهي المكان الذي تم فيه البحث) هي اللغة الأم لـ ٢٨٪ منهم. وإذا حسبت لغة ما على أنها لغة أم فلن تحسب أيضا ضمن "الهندي" أو "اللغة الإقليمية".

(٥) من بين الفروق المدهشة أن الاستخدام الأكثر للإسبانية ذكره الأمريكيون من أصل كوبي في ميامي، بينما ذكر الأمريكيون من أصل مكسيكي في أوستن للخلط بين الإسبانية والإنجليزية.

(٦) يعرج تحليل هرمان على المواضيع نفسها مثل نظرية غايلز عن التماثل، كما سنرى بعد قليل.

(٧) شاهدت بنفسي مثالا واقعيا جدا على هذا في رحلة لأوروبا مع والدي الذي هاجر إلى الولايات المتحدة من ألمانيا قبل ثلاثين عاما. وبما أنه كان نادرا ما يستخدم الألمانية في الولايات المتحدة، فقد تطلب تحدث الألمانية بطلاقة دون التحول للإنجليزية بعض الجهد في بداية الرحلة إلى أوروبا. وعند عمل بعض الترتيبات مع موظف الفندق عند وصولنا إلى لوكسمبورج، بدأ بالتحدث بالألمانية ثم تحول إلى الإنجليزية ثم انتبه لنفسه وتحدث الألمانية مرة أخرى. وحدث هذا مرات عدة خلال المحادثة. وقد تماثل موظف الفندق تماثلا تاما حيث كان يجيب باستخدام اللغة نفسها التي كان يسأل بها آخر مرة.

(٨) وللتقديم لنقاشنا الأخير فإننا هنا نتفحص التحليل التنبؤي للخيار اللغوي. وكما سنرى قريبا فإن الهدف الأقل طموحا هو تحليل تفسيري، والذي لا

نحاول فيه القول مسبقا ماذا سيقول المتحدث ، ولكن بدلا من ذلك نحاول فهم دوافعه حالما نعرف الخيار اللغوي الذي قام به.

(٩) أسهمنا في التركيز على أنواع مختلفة من التماثل داخل تفاعلات معينة، ولكن التماثل قد يحدث لفترة زمنية طويلة أيضا. ولقد رأينا في الفصل السادس كيف أن الهنود الغربيين في ويلز تماثلوا مع حديث المجتمع المحلي للدرجة أنه لم يمكن معرفة أصلهم العرقي من خلال حديثهم. وقام ولفرام Wolfram (١٩٧٣م، ١٩٧٤م) بدراسة ممتازة للظاهرة نفسها، والتي استطاع فيها إظهار أن بعض البورتوريكيون في مدينة نيويورك تماثلوا، بمعنى لغوي كبير، مع العامية الإنجليزية للسود بدلا من أي شكل آخر. واتضح أن أولئك هم الشباب الذين أصدقاؤهم من السود أكثر في شبكات اتصالهم، وهم من يعرفون الكثير عن القيم الثقافية للسود ومؤسساتهم الاجتماعية.

(١٠) باستخدام المصطلحات المرتبطة بأساليب المخاطبة الواردة في الفصل الأول من الجزء الثاني، يوجد هناك علاقة "قوة" وليس علاقة "تلاحم" بين المجموعتين.

(١١) يستخدم بلوم وغومبيرز تعبير "الفريق المحلي" للتعبير عن مفهوم العضوية في المجتمع المحلي الذي يقابل المجتمع الأكبر. وأخذا في ذلك المقال موقفا تأويليا وليس تنبؤيا لتحليل الخيار اللغوي. وسنناقش فيما يلي هذا الأمر المثير للجدل.

(١٢) لاحظ أن هذا النوع من التجارب خاص بتجارب علماء علم الإنسان فقط . فبدلا من تجميع الناس الذين يتبعون الشبكة الاجتماعية نفسها ومساعدتهم قليلا لبدء المحادثة بينهم، لم يحاول بلوم وغومبيرز التدخل

إطلاقا. وفي العديد من تجارب علم النفس الاجتماعي، يحاول المجرب أن يفعل شيئا للتحكم في الظروف التي يجد أفراد العينة أنفسهم فيها.

(١٣) نحن الآن في وضع أفضل لفهم المتعلمين الهنود في دراسة باراشر الذين قالوا: إنهم يستخدمون الإنجليزية بكثرة حتى في المجالات النموذجية لاستخدام اللغة "الدنيا" كالصداقة والجيران. وتعريف أنفسهم كأعضاء طبقة مجتمع متعلمي الإنجليزية يسمح لهم بالتعايش مع تعريفهم كأعضاء في مجموعات لغاتهم الأم، وربما تجاوز ذلك أيضا هذه المجالات، بالإضافة إلى المجالات "الأعلى". وانتماؤهم إلى مجموعة اللغة الأم يسيطر فقط في حالة المجال العائلي الحميمي جدا.

(١٤) ذكر غومبيرز (١٩٧٧م ، ص ٢١٢) حالة موازية في مجتمع ثنائي لغة آخر في النمسا، في هذه المرة على حدود يوغسلافيا مع سلوفانيا كاللغة الدنيا. ويتجنب بشدة متحدثو السلوفانية والألمانية في هذه القرية تحدث السلوفانية في حضرة متحدثين بالألمانية فقط، لدرجة أنه من الممكن أن تمكث هناك لأسابيع دون أن تلحظ أن هناك لغة أخرى يتكلمها الناس غير الألمانية. وذكرت دوريان (١٩٨١م ، ص ٧٩-٨٠) معالجة أخرى مختلفة بشكل طفيف جدا لأحاديي اللغة في منطقة هايلاندز الأسكتلندية حيث كانت تعمل. وهناك سيتحول ثنائيو اللغة من اللغة الغيلية إلى اللغة الإنجليزية إذا انضم إلى المجموعة متحدث واحد فقط لا يتكلم إلا الإنجليزية، ولكن لن يتحول لمجرد وجود متحدثين أحاديي اللغة يسترقون السمع للمحادثة ولا يشاركون فيها فعليا.

(١٥) أثبتت المقاييس التضمينية فائدتها الكبيرة كأداة تحليلية في النقاش حول العديد من المواضيع في الجزء الثاني.

(١٦) "الحقول" التي لا تنسجم مع المقياسية التامة والمؤشرة بعلامة النجمة في الجدول رقم (٧,٥) تختار عشوائيا في بعض الأحيان. والعدد الصحيح الذي يشير إلى الحقول يظهر مؤشرا، فليس من الممكن غالبا التأكد من أي الحقول يمكن اعتباره شاذا.

(١٧) وجد حديثا وضع مشابه جدا للوضع في أوبروارت في شرق سزرلاند ، وهي منطقة في شمال هايلاندز الأسكتلندية (دوريان ١٩٨١ ، ص ص ٩٠ ، ٩٣-٩٤). فهناك يمكن اعتبار الإنجليزية اللغة العليا بشكل يشبه كثيرا الألمانية في أوبروارت، ولكن الغيلية التي تعتبر اللغة الدنيا يستخدمها مجتمع الصيد في الطقوس الدينية في الكنيسة، وهذا هو المقابل للمزارعين متحدثي المجرية في أوبروارت. ولكن كان الشكل اللغوي من الغيلية قديما وذا منزلة أعلى من ذلك المستخدم في الحديث اليومي. ويجب أن أشير إلى أن دوريان تنكر أن ازدواجية اللغة تنطبق على المجتمع الذي درسته، ويرجع سبب ذلك -جزئيا إلى أن اللغة المرشحة كلغة دنيا كانت مستخدمة في الأغراض الدينية، ويقع هذا نموذجيا في مجال اللغة العليا. ولكن يبدو هذا الوضع كما وصفته متناسبا تماما مع الفكرة الموسعة لازدواجية اللغة المقدمة في الفصل الثاني.

(١٨) وصل ميلروي (١٩٨٠م) إلى نتيجة موازية ضمن ضروب الإنجليزية المستخدمة في بلفاست، فالأفراد ذوو الكثافة العليا في شبكات الاتصال المحلية يستخدمون أكثر ضروب اللهجات المحلية. ووصل هيل وهيل (١٩٨٠م) إلى خلاصة مشابهة في بحثهما، وهي أن الهنود ذوي الالتزام الكبير بقيم مجتمع نهاوتل كانوا الأقل في الاقتراض من الإسبانية والتحول لها.

(١٩) ناقش سانكوف (١٩٨٠م) بتعمق التنبؤ والتفسير كأهداف لدراسة الخيار اللغوي.

(٢٠) استخدمت غال (١٩٧٩م، ص١٠٠)، هذا المصطلح بالرغم من عدم استخدامها للأسلوب.

(٢١) دأبنا على افتراض أن "المجتمع الأوسع"هو الذي يتحدث اللغة ذات المنزلة الأعلى، وأن "المجتمع الصغير" هو الذي يتحدث اللغة الأدنى منزلة. وهذا صحيح لجميع الحالات التي درسناها، ما عدا حالة المتعلمين الهنود. فهناك المجتمع الكلامي الذي يستخدم الإنجليزية وهو أصغر بكثير من مجتمع متحدثي الهندي كما رأينا. ولكن الإنجليزية في هذه الحالة هي لغة ذات منزلة وتقوم بوظيفة اللغة العليا.

الأهداف

١ - أن يكون قادرا على ذكر الأنواع الثلاثة للخيار اللغوي المذكورة في.

٢ - أن يكون قادرا على القول بما إذا كان من السهل التمييز بين الأنواع الثلاثة من الخيار اللغوي.

٣ - أن يكون قادرا على معرفة تعريف "المجال".

٤ - أن يكون قادرا على معرفة كيفية ربط مفهوم "المجال" بمفهوم "ازدواجية اللغة".

٥ - أن يكون قادرا على معرفة أوجه الشبه والاختلاف في النتائج التي توصل إليها كل من غرينبيرغ وباراشر بين مجتمعي البورتوريكيين في نيويورك والهنود المتعلمين في جنوب الهند.

٦ - أن يكون قادرا على كتابة تفسير أسباب النتيجة غير المتوقعة التي توصل لها باراشر في الهند.

٧- أن يكون قادرا على تسمية العوامل التي ذكرها سيمون هيرمن المتعلقة بالتجميع الاجتماعي والعامل الثالث غير المتعلق به.

٨- أن يكون قادرا على معرفة "فكرة هرمان الرئيسية".

٩- أن يكون قادرا على تعريف الأنواع الثلاثة للتماثل في نظرية غايلز.

١٠- أن يكون قادرا على القول بما إذا كان "التماثل" هو فقط مسألة خيار لغوي.

١١- أن يكون قادرا، بعد معرفة واحد من الأنماط الثلاثة لإدراك التغير الاجتماعي في جدول رقم (٧,٤)، على أن يعرف تنبؤ غايلز وبورهيس وتيلور حول السلوك اللغوي للجماعات المسيطرة والتابعة. فمثلا إذا عرفت أنه لا توجد إمكانية التغير الاجتماعي، فستقول: إن المجموعة المسيطرة ستمارس عدم التماثل أو التباعد، وأن المجموعة التابعة ستتماثل.

١٢- خلال الأوقات التي تؤكد فيها المجموعة التابعة حقها فيما يتعلق بالمجموعة المسيطرة، فالتماثل اللغوي لأفراد المجموعة المسيطرة قد لا يبدو مقبولا. الهدف أن يكون قادرا على معرفة سبب هذه الظاهرة.

١٣- أن يكون قادرا على معرفة اهتمام علماء علم الإنسان الرئيس بدراسة الخيار اللغوي، واختلافه عن اهتمام علماء الاجتماع أو علماء علم النفس الاجتماعي.

١٤- أن يكون قادرا على معرفة وصف أسلوب علماء علم الإنسان المسمى "ملاحظة المشاركين".

١٥- بعد أن تتعرف على وصف للبنى الاجتماعية لمجتمعين كلاميين في الشكل رقم (٧,٢)، أن تكون قادرا على ملاحظة المدلولات الناتجة عن الخيار اللغوي.

١٦- أن يكون قادرا على تمييز الفرق بين التبديلين السياقي والمجازي.

١٧- أن يكون قادرا على وصف السلوك اللغوي المتباين لمتحدثي المجرية من الرجال في المقهى وحالة زوج المزارعين الكبار متحدثي المجرية، وما يرمز إليه سلوكهم حول مفهومهم للهوية الاجتماعية.

١٨- افهم جيدا معنى استخدام غال للمقياس التضميني حتى تستطيع عمل التالي: إذا كان لدينا مخاطب من أوبروارت، واللغة أو اللغات التي سيستخدمها المتحدث معه، كان لدينا أيضا مخاطب ثان، فالهدف هنا أن تستطيع معرفة اللغة التي سيختارها المتحدث مع المخاطب الثاني إذا افترضنا مقياسا سليما. فمثلا، إذا قيل لك: إن الألمانية هي التي تستخدم مع "البائعين" فعليك أن تعرف أن الألمانية ستستخدم مع كل فرد يقع على يمين "البائعين" في الجدول رقم (٧،٥). وعليه إذا سئلت عن أي لغة سيستخدمها المتحدث نفسه مع "موظف حكومي"، وبافتراض مقياس سليم، فيجب أن تجيب بأنها "الألمانية". ملحوظة: حتى تحقق هذا الهدف لا يجب عليك أن تحفظ الجدول رقم (٧،٥) ولكن أن تأخذ فكرة عامة عن كيفية ترتيب المخاطبين على أساس العمر والمنزلة الاجتماعية.

١٩- اختيار لغة الدين في مجتمع ثنائي اللغة غالبا ما يختلف عن الاختيار اللغوي في المجالات "العليا" الأخرى. وعليه يجب أن تكون قادرا على معرفة القاعدة العامة لاختيار لغة الدين.

٢٠- أن تكون قادرا على قراءة شجرة القرار بدرجة جيدة، فإذا ما أعطيت الشكل رقم (٧،٣) وإحدى نقط التفرع على الشجرة فلابد تعرف الخطوة التالية بقرار الخيار اللغوي. مثلا، إذا قيل لك: إن متحدثا في منطقة غير ريفية، فيجب أن تقول أن الخطوة التالية في الخيار اللغوي هي فحص رسمية الموقف

من عدمها.

٢١- أن تكون قادرا على معرفة الأهداف الأقوى والأضعف لتحليل الخيار اللغوي بعد معرفة تعاريفها.

٢٢ - أن تستطيع تسمية التطبيقات الثلاثة للخيار للغوي بين اللغات "الأعلى" و"الأدنى" الموجودة في أماكن متفرقة حول العالم.

٢٣- أن تستطيع معرفة مدى نجاح تقرير الخيار اللغوي طبقا لما استشهد به المختصون البارزون.

٢٤- أن تعرف شرح ما يقصده فاسولد بقوله: "الخيار دون اختيار".

الفصل الثامن

التحول والإبقاء اللغويان

إن التحول اللغوي، والوجه المقابل له ألا وهو الإبقاء اللغوي، هما في الواقع النتائج المجملة والطويلة الأمد للاختيار اللغوي. والتحول اللغوي يعني ببساطة أن يتخلى مجتمع كلامي ما عن لغة ما بشكل كامل ليستخدم لغة أخرى مكانها. وعند حدوث هذا التحول إلى لغة أخرى، يكون جميع أفراد ذلك المجتمع قد اختاروا بشكل جماعي لغة جديدة تحل محل اللغة القديمة التي كانت مستخدمة. أما بالنسبة للإبقاء اللغوي فمعناه أن يقرر المجتمع بشكل جماعي الاستمرار في استخدام اللغة أو اللغات المستخدمة تقليديا. وعندما يبدأ المجتمع الكلامي باختيار لغة جديدة واستخدامها في المجالات التي كانت تستخدم فيها اللغة القديمة سابقا فلربما دل هذا على أن هناك تحولا لغويا في طور النشوء. أما إذا كان أفراد المجتمع الكلامي أحاديي اللغة ولم يكتسبوا بشكل جماعي لغة أخرى، فمن الواضح أنهم يريدون المحافظة على نمط استخدامهم لغتهم. والإبقاء اللغوي، من ناحية أخرى، هو في الغالب ميزة من ميزات المجتمع الكلامي ثنائي اللغة أو متعدد اللغات أيضا. ويحدث هذا الأمر (كما سنرى بالتفصيل لاحقا) عندما يكون المجتمع ذا ازدواجية لغوية، وذلك بالمعنى الموسّع الوارد في الفصل الثاني. وهناك طريقة أخرى لقول الشيء نفسه، وهي إن المجتمعات المتعددة اللغات والمحافظة على مبدأ الإبقاء اللغوي تحتفظ بكل لغة لتستخدم في مجالات معينة مع تجاوزات طفيفة جدا للغة واحدة في مجالات اللغات الأخرى.[١]

يشار إلى التحول اللغوي بشكل متطرف نوعا ما على أنه موت اللغة. ويحدث

موت اللغة عندما يتحول المجتمع بشكل كلي إلى اللغة الجديدة بحيث لا يبقى للغة القديمة، أي استخدام. وهناك جدال بسيط عما إذا كان موت اللغة يتم فقط عندما يتكون المجتمع الكلامي المتحول إلى لغة أخرى من متحدثين قلائل للغة القديمة أو أنه يتم عندما يتحول مجتمع كلامي بشكل كامل للتحدث باللغة الجديدة سواء كان هناك أناس آخرون في العالم يتحدثون تلك اللغة القديمة أولا. ولا يشك أحد في أنه عندما يموت آخر الذين يتحدثون لغة "قوارني القبلية" في البراغوي ربما في أوائل القرن الحادي والعشرين، ستصبح لغة قوارني "لغة ميتة". ولكن إذا تحولت الجالية الهنغارية ثنائية اللغة الموجودة في منطقة اوبروارت، إلى اللغة الألمانية بشكل كامل سيتبقى الكثير من الذين يتحدثون اللغة الهنغارية، (حتى ولو أنهم لا يتحدثون بلهجة منطقة اوبراوارت). يمكن للغة المجرية أن تموت في منطقة أوبروارت لكنها لن تموت على نطاق العالم. ودوريان (١٩٧٨، ص٦٤٧) هي إحدى العالمات التي تتبنى فكرة أن موت اللغة يمكن أن يحدث فقط عندما يكون هناك تحول تام في مجتمع كلامي ما شريطة أن يكون ذلك التحول قد تم من لغة إلى أخرى وليس من ضرب لغوي معين إلى آخر ضمن اللغة نفسها. بمعنى آخر، إن موت اللغة يجب أن يشكل تنافسا لصالح لغة أخرى وليس أن تكون اللغة الجديدة ذات مقام أعلى ضمن النظام اللغوي نفسه. وبالإشارة إلى تحول اللغة الحاصل في شرقي ساذرلاند (وهي منطقة في الأراضي الأسكتلندية) وبالإشارة إلى اللغة الهولندية في بنسلفانيا (والتي هي في الواقع شكل من أشكال اللغة الألمانية) نجد أن دوريان تقول في هذا الخصوص: "بالرغم من أن اللغة الغيلية لن تختفي تماما مع انقراض الضرب اللغوي الموجود في ساذرلاند، وأن اللغة الألمانية ستعيش بعد وفاة اللغة الهولندية في مقاطعة بيركس، فإن اللغة الغيلية تموت في شرقي ساذرلاند وكذلك الألمانية في مقاطعة بيركس". ويعبر دينسون (١٩٨٥ ص ٥١) عن وجهة النظر المعارضة لهذه الفكرة بشكل ساخر على النحو التالي:

"رغم أن الاختفاء الكلي لكافة المتحدثين من منطقة الباسك سيرمز إلى "موت اللغة"، ولكن لو أصيب كافة متحدثي لهجة فيينا بأنفلونزا هونغ كونغ لما عنى أكثر من صداع طفيف يصيب "اللغة الألمانية". ليس مهما كثيرا أن نقرر فيما إذا كان من الضروري إعطاء مصطلح "موت اللغة" تفسيره الواسع، أو أن نقتصر على معناه الضيق طالما أننا مدركون بأنه يمكن استخدام ذلك المصطلح في كلا المحملين.

هناك جانبان لموت اللغة حازا على اهتمام علماء اللغة، وهما: الجانب اللغوي والجانب اللغوي الاجتماعي. إن اللغات التي تمر في آخر مراحل استخدامها في مجتمع كلامي ما تتعرض لتغييرات مثيرة تطرأ على نظام التلفظ بها، ونظم القواعد المتعلقة بها أيضا. وهذا يذكرنا بشكل ما بعملية الاختلاط (درسلر ١٩٧٢).[٢] إن الجانب اللغوي الاجتماعي، وهو موضوع هذا الفصل من الكتاب، يبحث في مجموعة الظروف التي تجعل الناس يتخلون عن لغة ما لصالح لغة أخرى.

المنهجية

مثلما دُرس موضوع الاختيار اللغوي، فقد دُرس أيضا الإبقاء على اللغة والتحول لها باستخدام طرق مختلفة تعتمد على النظم الأكاديمية التي يتبعها العالم اللغوي. يستخدم علماء علم الإنسان واللغويون الطرق نفسها، وخاصة طريقة ملاحظة المشاركين التي يستخدمونها في الدراسات الخاصة باختيار اللغة. وفي الواقع فإن الباحثين المهتمين بعلم الإنسان عادة ما يدرسون الاختيار اللغوي مع الإبقاء والتحول اللغويين في الوقت ذاته كجزء من الظاهرة نفسها. إن ما يجعل من هذا التوجه توجها معقولا هو الاهتمام التقليدي عند علماء الإنسان في الدراسة المكثفة التي يجرونها على المجتمعات الكلامية المستقلة. وإن ما يساعد على التحول والإبقاء على اللغة في مجتمع معين هو الخيارات التي يقوم بها أفراد مجتمع ما، والتي تعكس بالتالي

قيمهم الثقافية. يمكن استخلاص الأسباب العامة أو الشاملة للإبقاء والتحول اللغويين من خلال دراسة عدد من البحوث الاستقصائية المكثفة عن المجتمعات الكلامية المستقلة.

المنهج المتبع في دراسة علم الاجتماع هو منهج مختلف تماما. فمن المحتمل أن ينهج علماء الاجتماع وجهة نظر أكثر شمولية، فبدلا من دراسة مكثفة لمجتمع محدد بقصد التوصل إلى شرح الأسباب التي قد تؤدي إلى التحول إلى لغة أخرى، نجدهم يفضلون دراسة مجمل المعطيات التي يُحصل عليها عن أكبر عدد ممكن من المجتمعات. فالبيانات المتوافرة لديهم تختلف عن الملاحظات التي يجمعها علماء الإنسان، بل من المحتمل أن تكون مجرد نتائج للإحصائيات السكانية أو الاستبيانات الإحصائية الأخرى. هناك طريقتان يمكن أن يظهر بهما التحول في البيانات الإحصائية. فإذا توافرت بيانات عن المجموعة السكانية نفسها ولعدة مرات (وهي عادة ما تكون بيانات الإحصاء السكاني)، وشوهد أيضا انخفاض ملحوظ في عدد المستجيبين الذين يصرحون بتكلمهم بلغة ما، فإن ذلك قد يدل على حدوث تحول من لغة إلى أخرى. أما إذا كانت بيانات الإحصاء السكاني غير دقيقة أو غير متوافرة فيمكن في هذه الحالة أن يقوم الإحصاء لمرة واحدة بتلبية الغرض. والشيء الذي يجب البحث عنه هنا هو أرقام توزيع الأعمار. فإذا ذكر الأشخاص الأكبر سنا أنهم يستعملون لغة ما بشكل أكبر من استعمال من هم أصغر منهم، والذين يستخدمون لغة أخرى أكثر منهم، فهذا مؤشر على وجود تحول في اللغة. ولكن غالباً ما يشار إلى مخاطر استخلاص النتائج استناداً إلى مثل هذا النوع من البيانات (ليبرسون ١٩٨٠، ماكي وكارت رايت ١٩٧٩م). دلت معظم الدراسات على أن المشكلتين الرئيسيتين في تفسير نتائج المسح الذي يتم لمرة واحدة تتعلقان بمسألتي تصنيف الأعمار والهجرة.

وإذا كان هناك تحول حقيقي في طور التحقق فإن ذلك سيظهر بالتأكيد في

النسب الأكبر للمتحدثين الكبار الذين يستخدمون اللغة الزائلة أكثر مما يظهر في نسبة الصغار في السن. وعلى أية حال، فإن التحول اللغوي ليس هو الطريقة الوحيدة التي من خلالها تظهر الفوارق المتعلقة بالعمر. فغالبا ما يتوقع ظهور أنواع مختلفة من السلوك اللغوي من الناس الذين يعيشون في مجتمع واحد بحسب اختلاف أعمارهم. وفي المجتمعات ذات الازدواجية اللغوية يقوم الأولاد بتعلم اللغة الدنيا أولاً. وكنتيجة لذلك غالبا ما يكون معظم الأولاد الصغار أحاديي اللغة، وهي اللغة الدنيا، وعندما يكبرون سيكتسب بعضهم اللغة العليا. إن بيانات المسح التي تشير إلى وجود مستوى عال من أحادية اللغة بين الأولاد الصغار ووجود مستوى عال من ثنائية اللغة بين البالغين يجب أن لا تعني - بالضرورة - أن اللغة العليا في طريقها إلى الزوال. فالعديد من الأولاد أحاديو اللغة سيتعلمون اللغة الثانية بمجرد دخولهم المدرسة والبدء باستخدام اللغة العليا في مجالاتها المختلفة. يمكننا القول بأن الصغار يكونون أحاديي اللغة في بداية حياتهم، ولكن من الحماقة أن نفترض أنهم سيستمرون كذلك طيلة حياتهم. ذكر ليبرسون (١٩٧٢-١٩٨٠: ص ١٤-١٥) حالة عن ثنائية اللغة باللغتين الفرنسية والإنجليزية في مونتريال توضح كيف يمكن أن تكون البيانات المرتبطة بأعمار الناس الذين يتحدثون لغتين مضللة، وذلك حتى بالنسبة للأفراد البالغين على مدى حياتهم. وسوف نلقي الضوء لاحقا على هذه الحالة بالتفصيل في هذا الفصل.

ويعتبر موضوع الهجرة عاملا مضللا آخر بالنسبة لبيانات المسح، وخاصة الناس الذين ينتقلون إلى منطقة ما أو يخرجون منها في فترة واقعة بين عمليتي مسح، فإن النتائج التي يمكن التوصل إليها بالنسبة لتلك المنطقة لا تظهر فيما إذا كان هؤلاء الأفراد يحافظون على لغاتهم أم يتخلون عنها طالما أن البيانات ستكون عن مجموعات سكانية مختلفة جزئيا في كلا الإحصاءين. وبالطبع يمكن القول بأن منطقة جغرافية ما تمر بحالة تحول لغوي إذا انتقل إليها عدد كبير من المتحدثين للغة أخرى، حتى ولو لم

يتعلم أي من سكان المنطقة الكبار هذه اللغة الجديدة. فعمليات الهجرة الحقيقية يمكن أن تضع ضغوطا على كبار السن المقيمين لتعلم لغة المجموعة الوافدة الجديدة، وخاصة إذا تمكن المهاجرون الجدد من فرض سيطرتهم على المرافق الاقتصادية والاجتماعية. ولكن من الممكن أن تكون البيانات الإقليمية في الحقيقة معلومات مدمجة لمجتمعين لغويين تصادف أن يعيشا في الرقعة الجغرافية نفسها. وقد يحافظ أحد هذين المجتمعين الكلاميين على لغتين بينما يحافظ المجتمع الآخر على لغة واحدة فقط دون أن يقوم أي من المجتمعين بأي تحول لغوي على الإطلاق. وبالطبع، فإنه حتى بدون الهجرة، فإن بيانات المسح يمكن أن تخلط بسهولة بين بيانات أكثر من مجتمع لغوي واحد.

ولقد رأينا بالفعل اثنتين من المشاكل الأكثر عمومية، واللتين تشكلان خللا في بيانات المسح. وغالبا ما تتحدث بيانات المسح عن ذاتها مما يجعلها مشبوهة إلى حد ما، ولكن مثل حالة تنبؤات النشرة الجوية، فإن البيانات التي تتحدث عن ذاتها ليست دائما خاطئة. ولنسترجع أن غال (١٩٧٩م) كانت قد توصلت إلى ذلك عندما وجدت أن نتائج مسحها ترتبط ارتباطا عاليا بملاحظاتها. والمسألة الأخرى في استخدام بيانات المسح المتعلقة بالتحول اللغوي تتعلق باكتشاف الأسباب. وبخلاف عملية ملاحظة المشاركين عند علماء الإنسان، فإنه من غير المحتمل إطلاقا أن تقدم بيانات المسح معلومات عن القيم الثقافية، وعليه فإنه يكون من اللازم أن نبحث عن مسببات قابلة للقياس مثل التمدين (التحضر) أو الهجرة، أو التغيرات في المؤشرات الاقتصادية. وحتى عند وجود ربط بين تلك القيم القابلة للقياس وبين الشواهد الإحصائية الدالة على انخفاض عدد المتحدثين لإحدى اللغات، فإنها لن تثبت وجود علاقة سببية. ولقد تفحصنا في الفصل الخامس بعض أعمال ليبرسون وزملائه والتي توضح كيف يمكن أن يكون مثل هذا الربط مضللا (ليبرسون وهانسون ١٩٧٤م:

ليبرسون ، ودالتو وجنسون ١٩٧٥م). وعلى الرغم من ذلك فإن الاستخدام الحذر لبيانات المسح هو في حد ذاته أداة قيمة في فهم عمليتي الإبقاء والتحول اللغويين. والاستخدام الإضافي لبيانات المسح من قبل كثير من المتخصصين في علم اللغة الاجتماعي ذوي الميول الأنثربولوجية، مثل غال (١٩٧٩) ودوريان (١٩٨١) وهوفنز (١٩٨٠) هو دليل غير مباشر على صحة ذلك.

وهناك نوع آخر من البحوث الاجتماعية التي تمت حول الإبقاء والتحول اللغويين. وهذا النوع يبحث في العموميات الواقعية والنظرية دون اللجوء المباشر إلى بيانات معينة. وهناك مثالان على ذلك، وهما المقارنة التي قام بها تابوريت كيلر (١٩٦٨) بين أنماط الإبقاء والتحول اللغويين الأوروبي والإفريقي، وكذلك تحليل فيردوت (١٩٧٢) لثلاث حالات من التواصل اللغوي بين الألمانية والفرنسية في غرب أوروبا. وفي هذا النوع من الدراسات يكون قد افتُرض، وبشكلٍ مسبق، حقائق الحالة، إضافة إلى أن الباحث يواصل تحليل ما وراءها. وعلى الرغم من أن الدراسات المبنية على البيانات تميل لأن تكون أكثر إقناعا، إلا أن دراسات "الرجوع خطوة إلى الوراء والتمعن بما حدث" قد تكون ضرورية وجديرة بالاهتمام والمتابعة.

الدوافع نحو التحول اللغوي

هناك توجّه نحو ربط شروط معينة بموضوع التحول اللغوي في العديد من الدراسات التي تمت بخصوص هذه الظاهرة. ولعل الشرط الأساسي الأكبر في هذا التحول هو وجود الثنائية اللغوية في المجتمع. ومن المهم أن نلاحظ أن الثنائية اللغوية ليست شرطا كافيا للتحول اللغوي، ولكنها ربما تكون شرطا ضروريا. وتحدث كل حالات التحول اللغوي للمجتمع تقريبا من خلال التبديل بين الأجيال (ليبرسون، ١٩٧٢ ، ١٩٨٠). وبعبارة أخرى، فإن من النادر أن تتخلى نسبة كبيرة من الأفراد في

المجتمع وبشكلٍ كلي عن استخدام لغة ما، وتستبدلها بلغة أخرى على مدى سني عمرهم. وفي الحالة النموذجية، يكون جيل واحد فقط ثنائي اللغة، ولكنه ينقل إحدى اللغتين للجيل الذي يليه. وحيث إن التحول بين الأجيال يتطلب أن يكون الجيل الأسبق ثنائي اللغة، فإن نسبة السكان ثنائيي اللغة تشكل "تعريضا للخطر" المتمثل في إمكانية فقدان إحدى اللغتين في النهاية (ليبرسون ١٩٧٢ : ٢٤٢). ومن المؤكد فعليا بأنه سيُحتفظ بلغة المجتمع الأحادي اللغة طالما ظلت الأحادية اللغوية باقية. إن العديد من المجتمعات الثنائية اللغة تظل ثنائية اللغة لعقود أو قرون من الزمن، لذا فإن وجود الثنائية اللغوية في المجتمع لا تعني بالضرورة أن التحول اللغوي سيحدث بالفعل. فبالإضافة إلى الثنائية اللغوية، هناك عوامل أخرى يجب أن تكون موجودة أيضا.

وهناك ميل قوي لأن يعزى التحول اللغوي للأسباب نفسها الواردة في دراسات متتالية. ومن بين الأسباب التي تذكر كثيرا ما يلي: أولا، الهجرة: إما بواسطة أفراد مجموعات صغيرة يرتحلون إلى منطقة لن تخدمهم لغتهم الأصلية فيها، أو بواسطة مجموعات كبيرة "يغمرون" السكان المحليين بلغتهم الجديدة (تابوريت كيلر(١٩٦٨، ١٩٧٢)، لويس (١٩٧٢ أ، ١٩٧٨)، دريسلر وفوداك ليودولتر ١٩٧٧، ليبرسون وماكيب ١٩٧٨، غال ١٩٧٩، دوريان ١٩٨٠، وتيم ١٩٨٠).ثانيا، التصنيع والتغيرات الاقتصادية الأخرى: (تابوريت- كيلر١٩٦٨، ١٩٧٢، دريسلر وفوداك ليودولتر ١٩٧٧، غال ١٩٧٩، هوفينز ١٩٨٠، تيم ١٩٨٠، دوريان ١٩٨١). ثالثا، لغة المدرسة والضغوط الحكومية الأخرى (دريسلر وفوداك ليودولتر ١٩٧٧، غال ١٩٧٩، كهاني وكهاني ١٩٧٩، دوريان ١٩٨٠، هوفينز ١٩٨٠، تيم ١٩٨٠). رابعا، التمدن (التحضر) (تابوريت- كيلر١٩٦٨، غال ١٩٧٩، تيم ١٩٨٠، دوريان ١٩٨١). خامسا، المكانة العليا للغة المتنقل إليها

(دينسون ١٩٧٧ ، غال ١٩٧٩ ، كهاني وكهاني ١٩٧٩ ، دوريان ١٩٨١). وسادسا، قلة عدد السكان الذين يتحدثون اللغة المتنقل منها (ليبرسون ومكابي ١٩٧٨ ، كهاني وكهاني ١٩٧٩ ، دوريان ١٩٨٠ ، هوفينز ١٩٨٠). وتماماً كما رأينا في حالة اختيار اللغة حيث ذكر عدد من الباحثين العوامل نفسها بشكل مستقل إلا أنه كان هناك نجاح ضئيل في استخدام أي من هذه العوامل مجتمعة للتنبؤ بالوقت الذي يمكن أن يحدث فيه التحول. وفي الواقع فإن هناك إجماعا كبيرا على أننا لا نعرف كيف نتهكن بحدوث التحول (كلوس ١٩٦٦ : ص ٢٠٩-٢١٢ ، دينيسون ١٩٧٧ : ص ١٦ ، غال ١٩٧٩ : ص٣/ دوريان ١٩٨١ : ص ٤ وهؤلاء فقط بعض ممن قال ذلك). وعلى الرغم من أن العديد من العوامل الاجتماعية التي يرد ذكرها مرارا تكون موجودة عند حدوث تحول لغوي ، فمن السهل تماما إيجاد حالات يكون فيها أحد المجتمعات الكلامية معرضا لهذه العوامل بحد ذاتها ، ولكنه يبقى محافظا على لغته.

ومعظم المناقشات الخاصة بالتحول اللغوي تتعلق بتحول مجموعات لغوية صغيرة ذات منزلة أدنى إلى لغة مجموعة أكبر ذات منزلة أعلى. ومع ذلك فهناك حالات قليلة مدهشة تكون فيها المجموعات الأكثر قوة قد تماثلت لغويا مع الناس الذين تحت سيطرتهم السياسية. ولعل المثال الأكثر ورودا في هذا الخصوص ، هو التحول المطلق للنورمانديين الذين فتحوا إنجلترا في القرن الحادي عشر الميلادي ، إلى اللغة الإنجليزية (كهاني وكهاني ١٩٧٩ ، دينيسون ١٩٧٧). والمثال الآخر ، هو مثال نعرفه جيدا الآن ، وهو انتشار اللغة الغورانية بين سلالة المستعمرين الإسبان في براغوي على الرغم من أن ذلك لم يصل إلى حد اختفاء اللغة الإسبانية كما حدث لفرنسية النورمانديين في إنجلترا. ويجدر بنا أن نبذل الجهد لمحاولة معرفة الأسباب التي جعلت تلك المجموعات المنتصرة تتخلى عن لغاتها الأصلية لصالح لغات السكان الخاضعين تحت سيطرتهم.

حالات التحول والإبقاء اللغويين

الدول النامية

على الرغم من أن فيشمن (١٩٦٤) كان قد لفت الانتباه منذ عشرين سنة تقريبا إلى الإبقاء والتحول اللغويين، كظاهرتين جديرتين بالدراسة، إلا أن هذا الموضوع لم يشجع إلا عددا محدودا نسبيا من الدراسات.(٣) وأول البحوث التي جاءت بحجم الرسالة العلمية والتي توافرت بطريقة واسعة هما البحثان اللذان أجراهما غال (١٩٧٩) و دوريان (١٩٨١) حول التحول اللغوي ضمن مجتمع كلامي ما. وقد ظهرت مؤخرا تقارير أقصر لأبحاث حول الإبقاء والتحول اللغويين، ولكنها اهتمت في الغالب بالحالات الأوروبية والأمريكية الشمالية. وسيكون من المهم جدا إجراء دراسات متعمقة على تلك الظواهر في البلدان النامية، لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف بالمقارنة مع الحالات في الأمم الغربية. وعلى أساس استعراض موسع للحالات الأوروبية والإفريقية، فقد خلص تابوريت كيلر (١٩٦٨: ١١٧) إلى أن أوجه الاختلاف أكثرُ من أوجه التشابه، وذلك عند مقارنة حالة أوروبا في الوقت الحاضر مع حالة إفريقيا في الوقت الحاضر أيضا. ولكن النظرة التاريخية ستوضح "أن أوجه التشابه أكثر من أوجه الاختلاف بشرط أن نقارن التحولات الحالية في إفريقيا بالتحولات التي بدأت في أوروبا عند نهاية القرن التاسع عشر". ومن بين الدراسات المتوافرة عن الأمم النامية، هناك استعراض عام للدراسات الخاصة بالإبقاء والتحول اللغويين في الفليبين (اسونسيون - لانديه وباسكسيو ١٩٧٩)، ومجموعة أخرى في سنغافورة (شونغ ١٩٧٧)، كما أن هناك المسح البحثي الذي قام به ليبرسون ومكابي (١٩٧٨) في نيروبي. بالإضافة إلى ذلك، فهناك الكثير مما يمكن تعلمه حول موضوع الإبقاء والتحول اللغويين، وذلك من خلال التقارير المكتوبة عن الأمم النامية والتي ركزت على موضوعات أخرى مثل بحث عبد العزيز مخيلفي (١٩٧٨) عن تنزانيا،

وأعمال كيو (١٩٧٩) وبلات (١٩٧٧) عن ماليزيا، وهي أمثلة قد تعرضنا لها سابقا. وعلى الرغم من ذلك فإنه يجب أن نكتفي مؤقتا بالدراسات المستفيضة المتوافرة عن أوروبا وأمريكا الشمالية.

الدول المتطورة

حالات التحول اللغوي -أوبروارت:

لكي نفهم طبيعة التحول اللغوي سوف ننظر في لمحة موجزة إلى حالتين من التحول اللغوي، وحالة عن الإبقاء اللغوي، وإلى مثال واحد عن البيانات التي فيها لبس. لقد عرفنا في السابق البحث الذي قامت به غال (١٩٧٨ ب، ١٩٧٩) في أبيروارت بالنمسا كدراسة عن الاختيار اللغوي، وسنتفحص الآن ذلك البحث كحالة من حالات التحول اللغوي (انظر الخريطة رقم (٨.١)).

تواجدت الثنائية اللغوية "الألمانية -المجرية" في أبيروارت (واسمها فيلسور باللغة المجرية) منذ ما يربو على ١٥٠٠ م تقريبا. وبحلول القرن التاسع عشر كان أغلبية الفلاحين في أبيروارت ثنائيي اللغة. وأثناء ذلك القرن تحولت أبيروارت من قرية زراعية إلى مدينة ذات تنوع اجتماعي وثقافي. وصل المهاجرون أحاديو اللغة الذين كانوا يتحدثون اللغة الألمانية فقط وشكلوا طبقة اجتماعية ذات مكانة عالية من التجار والصناع وموظفي الحكومة. ووجد السكان الأصليون من الفلاحين أنفسهم في أدنى طبقات المجتمع المحلي من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. كانوا هم وحدهم ثنائيي اللغة، وكانوا هم الذين يتحدثون اللغة المجرية. حدث ذلك كله في حين كانت مقاطعة بيرقنلاند التي تقع فيها مدينة أبيروارت لا تزال جزءا من المجر. وأدى تحول بيرقنلاند من المجر إلى النمسا في عام ١٩٢١ إلى زيادة مكانة اللغة الألمانية حيث أصبحت اللغة الوطنية الرسمية. وبالرغم من المكانة العالية للغة الألمانية والوضع الاجتماعي المتدني

لطبقة الفلاحين والثنائية اللغوية الواسعة الانتشار بين أفرادهم، لم يكن هناك أي تحول لغوي. فقد كانت اللغة المجرية رمزا لغويا يحدد هوية مجموعة فلاحي أوبروارت، بينما كانت اللغة الألمانية تستخدم فقط في التعامل مع الدخلاء.



الخريطة رقم (٨,١). موقع المجتمع الكلامي ذي الثنائية اللغوية في أوبروارت بالنمسا.

وكانت الزراعة، وهي مصدر رزق الفلاحين، مجدية من الناحية الاقتصادية، ولكن كان من الضروري في بعض الأحيان إيجاد مصدر إضافي لدخلهم، وذلك بالعمل ساعات إضافية عند التجار والصناع. وعليه كانت اللغة الألمانية ضرورية لهذا الغرض. ولكن هذا النوع من العمل لم يكن مربحا بما فيه الكفاية، ليصبح بديلا عن الزراعة. وكنتيجة لذلك، فإنه لم يكن ممكنا ولا مرغوبا أن يصبح الفرد عضوا في المجتمعات التي تتحدث اللغة الألمانية فقط. كما أن الدين أصبح عامل توحيد وتفريق. فقد كان الفلاحون ثنائيو اللغة من أتباع المذهب الكالفيني البروتستانتي، بينما كان أحاديو اللغة الذين يتحدثون الألمانية لوثريين أو كاثوليك.

بدأ هذا الوضع يتغير بعد الحرب العالمية الثانية، فقد تطور الاقتصاد المحلي الصناعي والتجاري وزاد التوظيف الحكومي المرافق له إلى مستوى أصبح فيه التوظيف غير الزراعي إمكانية مغرية. وللاستفادة من تلك الفرص الجديدة، فقد صار من الضروري أن يصبح المرء نمساويا حقيقيا بدلا من أن يظل فلاحا محليا يتحدث في الأساس اللغة المجرية. وتصادف أنه يعيش في النمسا. وكنتيجة لذلك، فقد أصبحت الهوية الاجتماعية المرتبطة باللغة الألمانية شيئا مرغوبا فيه. وعلى الرغم من بقاء الثنائية اللغوية إلا أن استخدام اللغة الألمانية بدأ ينتشر في المقاطعات المجرية السابقة، وأصبحت اللغة المجرية سمة لطبقة الفلاحين الذين أخذ قدرهم ينحط أكثر فأكثر، وأصبحت علامات التحول اللغوي تظهر أكثر فأكثر.

كانت المجموعتان اللغويتان في أوبروارت قبل الحرب العالمية الثانية متعايشتين مع بعضهما بشكل متكافئ بدلا من أن تكونا متنافستين. فقد كان لكل منهما لغة لها مكانتها الخاصة، وكانت كل مجموعة تعتبر الأخرى دخيلة عليها. أما مؤخرا فقد أصبحت اللغتان رمزين لهويتين عرقيتين متوافرتين كلتاهما للفلاح الأوبروارتي، وبذلك أصبحت الهويتان تتعايشان وتتنافسان مع بعضهما شأنهما شأن اللغتين

الموجودتين. ونتيجة لذلك، فإنه بالقدر الذي أصبح الفرد يرى فيه نفسه عضوا في النظام الاجتماعي والاقتصادي النمساوي، فإنه بالقدر نفسه أصبح استخدام اللغة الألمانية يتزايد على حساب اللغة المجرية بدرجة كبيرة. فالشخص الذي يعتبر نفسه فلاحا سيحافظ على اللغة المجرية إلى حد كبير.

وكما نعلم، فقد وجدت غال أنه يمكن التكهن باستخدام اللغتين من قبل أشخاص ثنائيي اللغة على أساس المحاور فقط. كما أنها وجدت أن التحليل الميداني الأكثر تعقيدا غير ضروري. ولقد رأينا كيف أن المقياس التضميني في الجدول رقم (٧,٥) يوضح تسلسل انتشار اللغة الألمانية إلى مواقع كانت تستخدم فيها اللغة المجرية في السابق. ولا يزال كثير من المحافظين في تلك المواقع يستخدمونها حتى الآن. وبإلقاء نظرة عبر الجزء العلوي من الجدول رقم (٧,٥) فيمكننا أن نلاحظ أنه على الرغم من أن المحاورين المحددين هم جماعة غير متجانسة، فهم كما أشارت غال (١٩٧٩ : ١٢٦) "مصنفون بحسب درجة "تمدنهم" أو "نمساويتهم". وبما أن لتلك الصفات المكانة الأعلى، فإن اللغة الألمانية سوف تستخدم في المواقع ذات المكانة العالية أولاً ومن قبل معظم الناس.

أصبح معروفا لدينا الآن التوزيع العمري للمتحدثين بالمقارنة مع القوة النسبية للغة الألمانية واللغة المجرية. وعلى العموم، فإن المتحدثين الأصغر سنا هم الذين يستخدمون الألمانية في معظم الأوضاع، والمتحدثون الأكبر سنا هم الذين يحافظون جيد ا على اللغة المجرية. ويوحي هذا النمط بأن اللغة الألمانية كانت تكسب على حساب اللغة المجرية مع مرور الوقت. ولكن كما حذرنا ليبرسون فإنه قد يكون خطرا أن نفسر علاقة العمر، بدون تمييز، على أنها دليل للتغيير. ولقد كانت غال (١٩٧٩ : ١٥٤-٦) مدركة لهذا الشرك، وقد أعدت أدلة تاريخية توضح بأنه في حالة أوبروارت فإن ربط استخدام اللغة بالعمر يجب أن يفسر على أنه دليل على التغيير عبر الزمن.

وكما سنرى بوضوح أكثر عندما نتفحص حالتي التحول الأخريين، فإن الدليل المهم الآخر، بالإضافة إلى علاقة العمر، هو اللغة التي يكتسبها الأطفال. ويظهر أن معظم أطفال أوبروارت من الفلاحين يكبرون وهم ثنائيو اللغة.(٤) وفي الغالب، فإن الأبوين لا ينقلان اللغة ذات المنزلة العليا ويتركان اللغة ذات المنزلة الدنيا. ولكن هناك استثناء واحد لذلك وهو أنه في حالة التزاوج بين أحاديي اللغة الذين يتحدثون الألمانية وثنائيي اللغة الذين يتحدثون الألمانية والمجرية، فإن أطفالهم يكبرون وهم أحاديو اللغة باللغة الألمانية فقط بغض النظر عما إذا كان الأب أو الأم هو الذي يتحدث الألمانية فقط (غال ١٩٧٩ : ١٠٧). وغالبا ما تكون الأم هي التي تتحدث الألمانية فقط؛ لأن النساء الصغيرات ثنائيات اللغة لا يرغبن في الزواج من الرجال الفلاحين كي لا يلزمن أنفسهن بالحياة الصعبة التي يعنيها الزواج من الفلاح. وهذا يجعل الزواج من غير الأقارب، في كثير من الأحيان، هو البديل الوحيد للرجال صغار السن الذين يرغبون في الاستمرار في حياة الفلاحة. وعموما، فإن عائلات الفلاحين هي التي من المحتمل، في غالب الأحيان، أن تحافظ على اللغة المجرية، بشرط أن يتحدث كلا الأبوين هذه اللغة. ولكن أنماط الزواج التي بدأت تظهر حاليا أصبحت فألا سيئا على الاحتفاظ باللغة المجرية.(٥)

ويمكن أن يكون لدعم المؤسسات للغة أثر في الإبقاء أو عدم الإبقاء على اللغة. والمؤسستان الأكثر أهمية في ذلك هما الكنيسة والمدرسة. وفي أوبروارت، فإن اللغة الألمانية هي لغة التعليم في مدارس الدولة، ولكن الحكومة النمساوية تضمن رسميا الحقوق اللغوية للأقليات. وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد أُنشئت مدرسة للغة المجرية بدعم من الحكومة، ولكنها أغلقت في النهاية بسبب عدم وجود دعم من المجتمع. ويرى الناس حتى ثنائيو اللغة أن الألمانية دون سواها هي اللغة الصحيحة للتعليم. وكانت الطقوس الدينية في الكنيسة تقام تقليديا باللغة المجرية في كنيسة

أوبروارت الكالفينية. ولكن أُدخل أحد الطقوس باللغة الألمانية عندما بدأت غال بحثها. ومع ذلك فإن الطقوس الدينية باللغة المجرية هي المفضلة أكثر:

إنهم يفضلون الصلاة وأداء التراتيل باللغة المجرية، كما أنهم يفضلون سماع المواعظ باللغة المجرية على الرغم من أن الذي يقدم تلك المواعظ هو قس مجري المولد. ويفسرون ذلك بأن تلك هي الطريقة التي تعودوا عليها، وأن اللوثريين والكاثوليكيين يؤدونها باللغة الألمانية؛ لذا "فنحن" نؤديها باللغة المجرية، (غال (١٩٧٩ : ١٠٦).

وبالنسبة للمجموعات التي تتحدث المجرية ، فإن الكنيسة هي مؤسسة للمجتمعات الصغيرة، ولن يكون من الملائم استخدام لغة المجتمعات الكبيرة فيها. ولكن يجب أن نلاحظ أن الصنف الأعلى من اللغة الدنيا هو المستخدم في الكنيسة.

وأخيرا، فإن هناك جانبين لغويين آخرين، ربما يكون لهما أثر على التحول اللغوي. أولهما، أنه بالإضافة إلى الاختلافات في المنزلة بين اللغة الألمانية والمجرية، فإن هناك نوعا أفضل من اللغة المجرية. فهناك لغة مجرية "خاصة" مرتبطة بالكتابة وبالمتحدثين المتعلمين القادمين من المجر. ومن الملاحظ أن اللهجة المحلية مختلفة، ويعتقد أنها ليست جيدة مثل هذه اللغة الخاصة.قد يكون من الصعب للمتحدث باللغة المجرية النموذجية أن يفهم المتحدث باللغة المجرية المحكية في أوبروارت.، ولكن المقيمين في أوبروارت والذين يسافرون إلى المجر يقولون: إن بإمكانهم التغلب على هذه المشكلة. وبالمقابل، فإنه إذا حاول متحدث أوبروارتي أن يستخدم الكلام المجري النموذجي في حياته اليومية فسيُنتقد ويُستهجن فورا. ولقد لخصت إحدى معارف غال في أوبروارت هذا الموقف المتناقض نحو أساليب اللغة المجرية حيث "عبرت عن أسفها لعدم استطاعتها الحديث بلغة مجرية أكثر جمالا من هذه، ولكنها أضافت أنها إن فعلت ذلك يوما ما فإن الناس سيضحكون منها" (غال ، ١٩٧٩ : ١٠٦). أما الظاهرة اللغوية الأخرى فهي ظاهرة "الاقتراض". فنادرا ما تستخدم الكلمات المجرية في كلام

شخص يتحدث الألمانية ولكن استخدام الكلمات الألمانية في اللغة المجرية يكون بحرية أكبر.

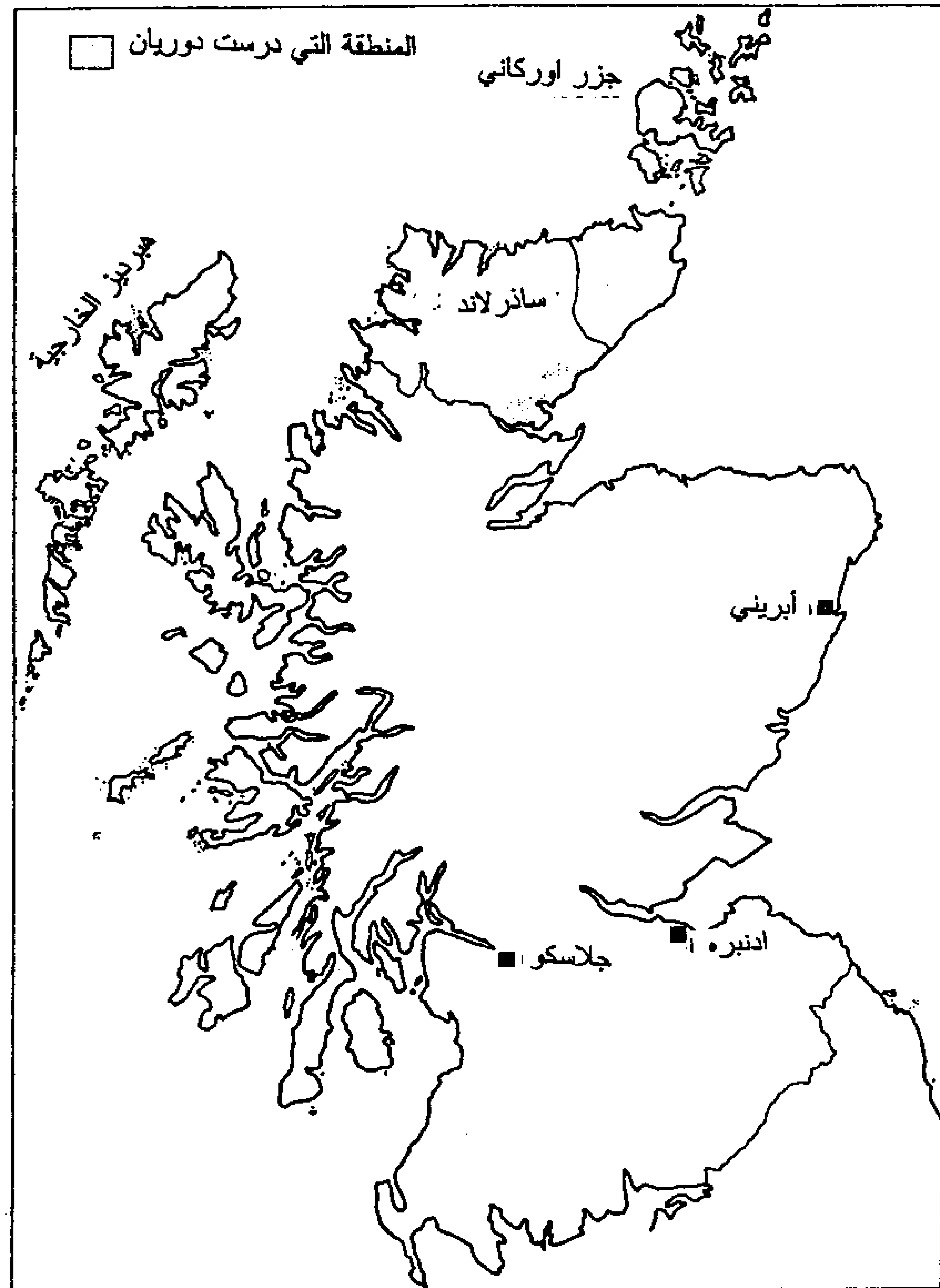
حالات التحول اللغوي شرق ساذرلاند.

هناك حالة أخرى من حالات التحول اللغوي في طور النشوء في منطقة شرق ساذرلاند، وهي إقليم بالمرتفعات الشمالية لأسكتلندا (دوريان ١٩٨١، انظر الخريطة رقم ٨,٢). إن شرق ساذرلاند وبقية المرتفعات الأسكتلندية، شأنها شأن أوبروارت، لها تاريخ طويل من الثنائية اللغوية. وهناك لغتان هما الإنجليزية والغيلية. ومثل اللغة المجرية في أوبروارت، فإن الغيلية اللغة ذات التاريخ الأطول، ولكن منزلتها أدنى. تستخدم المحكمة الأسكتلندية الواقعة في الأراضي المنخفضة اللغة الإنجليزية منذ القرن الرابع عشر. وبمرور السنين، أصبحت اللغة الإنجليزية مرتبطة بسكان المنخفضات "المتحضرين"، بينما صارت الغيلية هي لغة سكان المرتفعات "البدائيين"، وأخضع قانون الاتحاد الصادر عام ١٧٠٧ م، الذي وحد البرلمانيين الإنجليزي والأسكتلندي، مرتفعات الهايلاند تحت حكم يسيِّره متحدثون للغة الإنجليزية. ولكن البعد الجغرافي وقلة الطرق أبقى مرتفعات الهايلاند الأسكتلندية معزولة حتى بداية القرن التاسع عشر. وفي ذلك الوقت انتقلت مجموعة من السكان من الصفوة الذين يتحدثون اللغة الإنجليزية إلى شمالي أسكتلندا، وبدأت اللغة الإنجليزية "تضغط من أعلى الهرم الاجتماعي، وانتشرت بثبات نحو الأسفل"، حتى انتقلت اللغة الغيلية من مرتبة لغة الأغلبية إلى مرتبة لغة الأقلية (دوريان ١٩٨١ : ٥٣).

ومثال آخر مشابه جدا لحالة أوبروارت، فإن المجموعة ما قبل الأخيرة التي احتفظت باللغة الغيلية كانت جماعة "صغار المزارعين" الذين يملكون مساحات صغيرة من الأراضي، ويعيشون على ما تغله لهم الزراعة، فهم يمثلون أقرب مثال مكافىء

لطبقة الفلاحين (دوريان ١٩٨١ : ٦). ووصلت دوريان متأخرة لدراسة التحول اللغوي بين صغار المزارعين حيث كان تحولهم إلى اللغة الإنجليزية قد تم فعليا في بداية الستينيات عندما بدأت هي في بحثها. وكانت في شرق ساذرلاند مجموعة أخرى لازالت تتحدث الغيلية، وهم مجتمع صيادي الأسماك. ولقد حصل هؤلاء الصيادون على مهنتهم وعلى وضعهم بطريقة مدهشة. ولقد كانت الزراعة في بداية القرن التاسع عشر، حسب الطريقة التي كانت تمارس بها في ذلك الوقت، غير مربحة لكبار ملاك الأراضي. كما نمت في الوقت نفسه صناعة مربحة وهي تربية قطعان الضأن، ولكنها كانت تتطلب قطعا كبيرة من الأراضي. ولأجل فتح الأراضي لرعي الأغنام، فقد كان من اللازم تنظيف المنطقة من المستأجرين الذين يعملون على قطع صغيرة من الأراضي. وبدا لمالكي الأراضي بأن هناك صناعة محتملة لصيد الأسماك لم تتحقق بعد وبإمكانها تقديم العون للمستأجرين المزاحمين. وتبعا لذلك، فقد نُقل المستأجرون على عجل إلى المواقع الساحلية حيث استطاعوا، فيما بعد ودون رغبة منهم وبقدر كاف من المعاناة، أن يتعلموا كيف يعولون أنفسهم من صيد الأسماك .

وأصبحت مجتمعات صيادي الأسماك تلك تنمو بسرعة كمجموعات اجتماعية وثقافية منفصلة (دوريان ١٩٨١ : ٥٤-٥). وسكنوا في مناطقهم السكنية الضيقة، والتي يسميها جيرانهم في بعض الأحيان بـ "مدينة الصيادين". وقد كانوا منبوذين اجتماعيا، ولم يكن أمامهم خيار سوى الزواج من ضمن جماعتهم، ثم أصبحوا معروفين بأنهم الناس الذين يتحدثون الغيلية (على الرغم من أنهم أصبحوا ثنائيي اللغة في النهاية وصاروا يتحدثون الإنجليزية). وبدرجة أكبر مما يحدث في أوبروارت، فإن الوضع الاجتماعي الأدنى لمجتمع صيادي الأسماك بشرق ساذرلاند كان مفروضا عليهم بسبب رفض أعضاء المجتمعات الأكبر قبولهم.



الخريطة رقم (٨،٢). أسكتلندا، وتظهر منطقة شرق ساذرلاند.

والمفارقة هي أن التحدث باللغة الغيلية الذي أصبح معروفا على أنه خاصية من خصائص مجتمعات صيادي الأسماك هو في حد ذاته السبب الذي أدى إلى الإبقاء على اللغة، وهو أيضا الذي أدى إلى موتها في النهاية (دوريان ١٩٨١ : ٦٧). فطالما ظل صيادو الأسماك أعضاءً في مجموعة اجتماعية وثقافية متميزة ورمزها اللغوي هو اللغة الغيلية، فإن الناس سيستمرون في تعلم تلك اللغة واستخدامها. ولكن بما أن الآخرين كانوا ينظرون لصيادي الأسماك كما كانوا أيضا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مجموعة من الناس أقل قيمة من الآخرين، فإنه في اللحظة التي يصبح فيها التحرك الاجتماعي ممكنا ستقوم المجموعة بتفكيك نفسها، وسينجم عن ذلك التخلي عن رمزها اللغوي. وقد بدأت هذه العملية في العقود التي تلت الحرب العالمية الأولى عندما دخلت صناعة الأسماك، التي كانت هامشية كعادتها دائما، في انحدار خطير. فاضطر صيادو الأسماك الذين يتحدثون الغيلية إلى البحث عن وظائف أخرى، كما بدأ التحيز الذي يبديه الآخرون ضدهم يضعف، ولكن ببطء مؤلم. وأصبح التزاوج مع الآخرين ممكنا. ومما سارع في عملية قبولهم لدى الآخرين، إلى حد ما، تدفق أشخاص من مناطق أخرى للعيش معهم، حيث لم يكن القادمون الجدد يعرفون أنه ليس من المفترض منهم حبُّ الناس الذين ينتمون إلى مجتمع صيادي الأسماك. وببطء وبالقدر الذي سمحت لهم به الظروف، بدأ الناس يتركون هوية صيادي الأسماك ويتركون معها لغتهم الغيلية .

"وباعتبار أن اللغة الغيلية أصبحت سلوكا يؤدي إلى تسمية الأفراد الذين يتحدثونها بأنهم صيادو أسماك، فقد أصبح هناك ميل للتخلّي عن الغيلية مع أنواع السلوك الأخرى التي تميز صيادي الأسماك. وكما قالت المرأة نفسها: " أنا نفسي أعتقد بأنه عندما يكبر الأطفال من يورورا السفلى سيخجلون من تحدث اللغة الغيلية، وذلك لئلا يصنَّفوا بأنهم من طبقة صيادي الأسماك" (دوريان ١٩٨١ : ٦٧).

يعتمد استخدام اللغة الغيلية واللغة الإنجليزية داخل مجتمع صيادي الأسماك بشرق ساذرلاند على مدى ارتباط الحدث الكلامي بالمجتمع الأصغر. لقد كان البيت والعمل والدين في بداية القرن العشرين ميادين تتطلب أو تفضل استخدام اللغة الغيلية، بينما كانت المؤسسات المدنية الوطنية (كالمدرسة والأحزاب السياسية والمحاكم والجيش والشرطة) والحياة العامة المحلية والاستخدامات الكتابية، تتطلب أو تفضل اللغة الإنجليزية (دوريان ١٩٨١ :٧٥). ويوضح وصف دوريان أنه بالإمكان ترتيب الميادين التي يمكن فيها استخدام اللغة الغيلية والإنجليزية ضمن سلسلة متواصلة، مثل العناوين العمودية بالجدول رقم (٧,٥) بحيث تكون الميادين في الجانب الأيسر هي التي تستخدم فيها اللغة الغيلية والميادين التي في الجانب الأيمن هي التي تضمن استخدام اللغة الإنجليزية، أما التي في الوسط فتظهر استخدام اللغتين معا. فعلى سبيل المثال، كانت اللغة الغيلية في ذلك الوقت هي الوحيدة التي تستخدم في البيت، بينما اللغة الإنجليزية فقط كانت تستخدم في المؤسسات المدنية الوطنية. وفي الميادين الأخرى، مثل العمل، فيمكن اختيار كلتا اللغتين اعتمادا على عوامل أخرى. وتذكر دوريان (١٩٨١ : ٧٥-٨) أن الترتيب والشخص المحاور والوظيفة هم بالإضافة إلى المجال (الميدان) عوامل محددة لذلك التوجه. (وعلى خلاف غرينفيلد ١٩٧٢، فمن الواضح أنها تعتبر الميدان (المجال) العاملَ الوحيد، وليس مجموعة من عوامل أخرى). ويبدو أن الشخص الذي يتحدَّث معه، أي المحاور، هو أكثر تلك العوامل أهمية. ومن الواضح أنه يتم التحدث مع الأعضاء الذين من خارج المجموعة باللغة الإنجليزية كما لو كانوا ضمن المجموعة، إذا اعتبر أن الشخص الذي يتحدث الإنجليزية فقط هو جزء من المحادثة.(٦) وحتى داخل المجموعة، فهناك بعض الأفراد، وليس الكل، يخاطبون دائما باللغة الغيلية.(٧)

إن الأنماط المرتبطة بالعمر مشابهة للوضع في أوبروارت، فكبار المتحدثين

يكونون أكثر ارتياحا مع اللغة الغيلية، بعكس الصغار الذين يفضلون الإنجليزية (دوريان ١٩٨١ : ٤-٥). وإن استخدام اللغتين داخل العائلة يتأثر إلى حد كبير بعمر الشخص المخاطب. إن الأجداد يستخدمون اللغة الغيلية ويتوقعون أن يُتحدث إليهم بها. والآباء يستخدمون الغيلية مع الآخرين من أبناء جيلهم ومع الأجيال التي سبقتهم، ولكنهم يستخدمون الإنجليزية مع أولادهم ويتوقعون بالمقابل أن يسمعوها من أولادهم (دوريان ١٩٨١ : ٧٦). وبالنسبة لهؤلاء الآباء فإن الإنجليزية تتعايش مع الغيلية في مجال المنزل الذي كان في يوم ما يتطلب الغيلية فقط. وفي الوقت الحالي فهذا هو النمط الأكثر شيوعا. يتحدث الأبوان الغيلية فيما بينهما بالمنزل، ولكنهما لا يتحدثان بها إلى أطفالهم. ونتيجة لذلك فإن الأطفال يكبرون وهم قادرون على فهم اللغة الغيلية ولكنهم لا يتحدثونها. وفي مثل هذه العائلات فمن المؤكد أن اللغة الغيلية ستموت عند الجيل التالي عندما يكبر أبناء هؤلاء الآباء السلبيين ثنائيي اللغة، ويصبحون أحاديي اللغة بشكل كامل بحيث لا يتحدثون إلا الإنجليزية.

"إن البيت هو آخر حصن للغة التابعة عندما تكون في منافسة مع لغة رسمية مهيمنة وذات تداول أوسع. والتحول المتوقع قد يحدث فعلا رغم وجود عدد كبير من المتحدثين باللغة الغيلية، وذلك إذا فشل هؤلاء المتحدثون في نقل اللغة إلى أطفالهم بحيث لن يبقى هناك جيل بديل عندما يرحل جيل الآباء" (دوريان ١٩٨١ : ١٠٥) .لقد كانت الإنجليزية لغة التعليم منذ منتصف القرن التاسع عشر. وفي القرن التاسع عشر كان من الممكن أن يضرب الطفل عند استخدامه اللغة الغيلية على مسمع من ناظر المدرسة.(٨) ولقد لطِّفت عبر السنين السياسة التعليمية المضادة للغة الغيلية، وذلك بالتسامح مع اللغة الغيلية ومن ثمّ تشجيعها. ولكن حدثت هذه التغيرات بخطوات صغيرة جدا بحيث تفصل بينها أحيانا عقود من الزمن، كما أن السياسيات الجديدة كانت تنفذ بفتور ودون حماس. وكما يتذكر العديد من الناس الذين يعيشون

في شرق ساذرلاند، فقد كانت هناك صلاتان تقامان في الكنائس، إحداهما باللغة الغيلية يحضرها صيادو الأسماك فقط، والأخرى باللغة الإنجليزية... وهي للجميع (دوريان ١٩٨١ : ٦٤). والآن أصبحت اللغة الغيلية لا تستخدم في الطقوس الكنسية. واللغة الغيلية التي كانت مستخدمة كانت اللغة المحافظة وذات المكانة العالية التي لا تستخدم في الحديث اليومي ولا في أغراض أخرى ما عدا الأغراض الدينية (دوريان ١٩٨١ : ٩٠).

والحقائق اللغوية حول التنويع داخل لغة المجتمع الأدنى أو الصغير وحول الاقتراض، هي حقائق مشابهة لما كان موجودا في أوبروارت. فمتحدثو اللغة الغيلية في شرق ساذرلاند يعتذرون عن "سوء" لغتهم الغيلية المحلية، وغالبا ما يقولون إن متحدثي الغيلية من مناطق أخرى يتحدثون نوعا لغويا أكثر جودة (دوريان ١٩٨١ : ٨٦ - ٩٣). ويبدو أن اللغة الغيلية "الجيدة" تعزى لسكان جزر الهبريديز الخارجية، وهي جزر تبدأ من الشاطئ الشمالي الغربي لأسكتلندا. ولقد بدأ اضمحلال اللغة الغيلية قبل الإنجليزية تقريبا من الجنوب والشرق نحو الشمال والغرب، ولذا فإن جزر الهبريديز هي المنطقة الرئيسية التي تستخدم فيها اللغة الغيلية على نحو واسع (وهي تقريبا مماثلة لوضع المجر بالنسبة لمتحدثي اللغة المجرية في أوبروارت). والناس في شرق ساذرلاند يرون أنهم يجدون صعوبة كبيرة في فهم الأشخاص القادمين من مناطق تتحدث لهجات غيلية أخرى، مثل القادمين من جزر الهبريديز. وهناك أيضا نوع من اللغة الغيلية النموذجية المكتوبة، ولكنها لا تماثل تماما أي لهجة من اللهجات المحكية، ومن الواضح أنها تختلف عن لهجة شرق ساذرلاند أكثر مما تختلف عن بعض اللهجات الأخرى. كما أنها تتمتع بمكانة أكبر من صيغة اللغة المحكية المحلية. وكما في أوبروارت فإن تحدث اللهجة المحلية هو رمز للولاء للمجموعة، ولا أحد يحاول في الواقع تحدث نوعية "أجود" من اللغة الغيلية. وفي الحقيقة فإنه عند تقديم دروس

مكتوبة باللغة الغيلية، كان المدرس يصر بقوة على طرق اللفظ النموذجية للغة الغيلية ولقد عرف عن المواطنين الأصليين من شرق ساذرلاند أنهم كانوا يخرجون من قاعة الدراسة بدلا من أن يلتزموا بالطريقة التي يتبعها المدرس (دوريان ١٩٨١ : ٨٨-٩) . وأنماط الاقتراض مشابهة لتلك التي كانت في أوبروارت، فالكلمات الغيلية قليلا ما تستخدم عندما يتكلم الناس اللغة الإنجليزية، ولكن الكلمات الإنجليزية تدمج بحرية في اللغة الغيلية حيث تقيَّد بأحكام اللغة الغيلية وذلك فيما يتعلق بصياغة الكلمات والتلفظ.

وتكشف المقارنة بين الوضعين أن هناك أشياء كثيرة مشتركة بينهما، ففي كلتا الحالتين فإن لغة المجتمع الصغير قد تعايشت مع اللغة ذات المكانة الأعلى لحقب من الزمن وبدون حدوث تحول جوهري بعيد عنها. وفي كلتا الحالتين فقد جلبت التغييرات الاجتماعية والاقتصادية عددا أكبر من المتكلمين باللغة المهيمنة إلى تلك المناطق، وزادت من إمكانية الأفراد ورغبتهم في تعريف أنفسهم على أنهم أعضاء في مجموعة الأغلبية الاجتماعية الثقافية. وقد أدى ذلك إلى الزيادة المضطردة في استخدام لغة الأغلبية من قبل المتكلمين من مجتمع الأقلية بطريقتين بحيث يزداد عدد الناس الذين يستخدمونها بشكلٍ ملحوظ ومن ثمّ ينتشر استخدامها في عدد أكبر فأكبر من مجالات (ميادين) المجتمع الصغير أو ذي المكانة المنخفضة.(٩) وتستخدم اللغة العالية في البداية بتواتر أكثر في المناسبات وبين المتحدثين المرتبطين بثقافة المجتمع الأكبر، وتستخدم اللغة الدنيا في الأوضاع المرتبطة بالمجتمع الأصغر. وفي كلا المجتمعين فإن الأعضاء الأكبر سنا هم الأقوى في استخدام اللغة الدنيا. وفي أوبروارت، حيث ما زالت اللغة الأدنى تنقل إلى الأطفال، فإن "القوة" المذكورة آنفا تشير في الأساس إلى استخدام اللغة المجرية في معظم الحالات. وفي شرق ساذرلاند فإنها تعني أيضا أن عدد كبار السن القادرين على تكلم اللغة الغيلية أكثر من صغار السن، كما أنهم يتكلمونها بطلاقة أكثر. وفي

أوبروارت فإن الأطفال وصغار السن عموما هم من ينتشر بينهم استخدام اللغة الأعلى، أما في شرق ساذرلاند فإن العديد من الأطفال الأصغر سنا هم من لديهم المقدرة على تكلم اللغة الأعلى فقط.

وفي كلا المجتمعين فإن لغة التعليم هي اللغة الأعلى. وفي اسكتلندا فإن فرصة استخدام اللغة الغيلية في المدارس اتسعت، ولكن بدون حماس في أفضل حالاتها. أما في النمسا فقد اتخذت ترتيبات لاستخدام لغة الأقلية في التعليم، ولكن المجتمع الذي يتكلم اللغة المجرية في أوبروات كان قد اختار استخدام اللغة الألمانية لأغراض التعليم. وليس من الواضح ما إذا كان استخدام اللغة الأعلى في مجال التعليم قد كان سببا أو نتيجة للتحول اللغوي. وتعتقد غال (١٩٧٩ : ١٦٢) أنه كان الأمرين معا، وتوافقها دوريان (١٩٨١ : ٢٧) في أن السياسة التعليمية لا تساعد على المحافظة على اللغة الغيلية، ولكنها أشارت إلى أن اللغات يمكن في بعض الأحيان أن تنمو وتبقى حية رغم استبعادها من المدارس، كما في حالة الذين يتكلمون الألمانية في سويسرا. وفي شرق ساذرلاند فإن السياسة المدرسية هي في الأساس أحد مظاهر المنزلة الأدنى للغة الغيلية، وإن كانت تلك ظاهرة مهمة. وفي كلا المجتمعين فإن مجال الدين هو أحد المجالات الأخيرة التي يُحتفظ فيها باللغة الأدنى. وفي كلتا الحالتين فإن الدين مرتبط بالمجتمع الصغير. وفي أوبروارت فإن المجتمع الصغير يتميز بالكالفينية، بينما نجد الآخرين حولهم تقريبا يدينون باللوثرية أو الكاثوليكية. أما في شرق ساذرلاند فإن كلا المجتمعين، الصغير والكبير، يدين إلى حد كبير بالبروتستانتية الحرة، ولكن في مدينة واحدة على الأقل، فإن المجتمعين يحضران صلوات منفصلة تقام بلغتين مختلفتين، ولكن في المبنى نفسه. وعلاوة على ذلك، فإنه من الشائع أن يؤدي صيادو الأسماك صلوات أسرية يومية بالمنزل وباللغة الغيلية (دوريان ١٩٨١ : ٩٠). وتختلف الحالتان في أن اللغة المجرية مازالت لغة الدين في أوبروارت، ولكن اللغة المستخدمة في مجال

الدين في شرق ساذرلاند كانت قد تحولّت موخراً من الغيلية إلى الإنجليزية. ويعزى هذا جزئيا بدون شك إلى حقيقة أن كلا المجتمعين في شرق ساذرلاند، الكبير والصغير، يدين بالمعتقد نفسه، بينما يختلفان في أوبروارت، ولكنه صحيح أيضا أن تحول اللغة يتم بوجه عام في شرق ساذرلاند بشكلٍ أكثر تقدما.(١٠)

وفي كلا المجتمعين يبقى الضرب المحلي من اللغة مصدر حرج ورمزا قويا إلى الولاء العرقي. ويقر المتكلمون فورا بأن مستخدمي اللغة في المجتمعات الأخرى يتكلمونها بطريقة أجود مما يعرفون، وأن الصيغة النموذجية المكتوبة من اللغة تختلف عن اللهجة المحكية المحليّة، وهي أجود منها أيضا. علاوة على ذلك فإن المتكلمين من كلا المجتمعين يلاقون قدرا من الصعوبة في فهم، وفي إفهام، المتكلمين اللهجة ذات المنزلة الأعلى من اللغة الدنيا. ولكن لم تكن هناك في أي من الحالتين محاولة جادة لتعلم وتكلم شكل " أجود " وغير محلي من لغة المجتمع، وعلى النقيض من ذلك فإن ضروب اللغة ذات المنزلة الأعلى تجد في الواقع مقاومة نشيطة. أما بالنسبة للاقتراض فإن استخدام الأشكال الأدنى من اللغة في تكلم اللغة الأعلى هو أقل حدوثا من نقيض ذلك. فالأشكال الأعلى من اللغة تستخدم بسهولة عندما يتكلم الناس اللغة الأدنى. ولكنهم بشكل عام يلتزمون قواعد اللغة الدنيا ونظم التلفظ فيها.

حالة الإبقاء اللغوي – مونتريال.

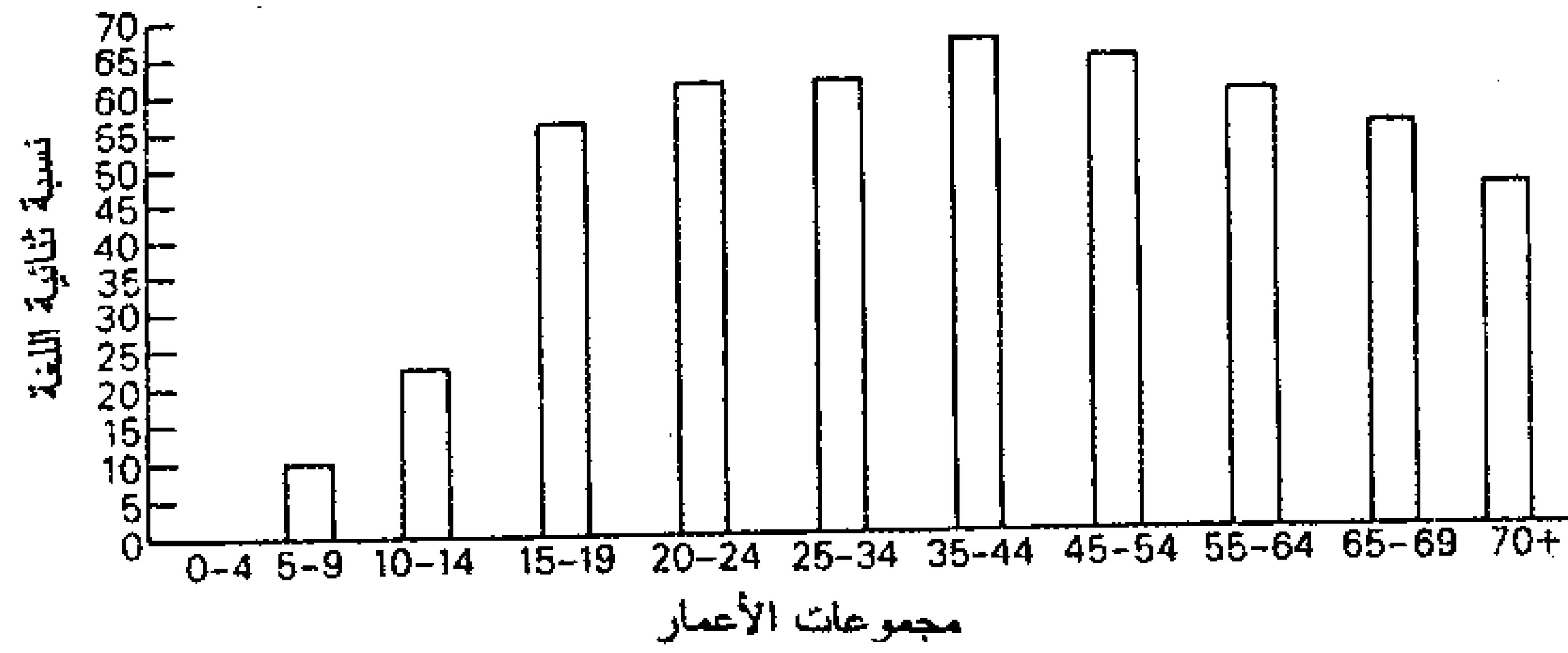
باستثناء حالات مجموعات المهاجرين (مثلا ، دراسات فيشمن ١٩٦٦، وهوفمان وفيشرمان ١٩٧٢)، فإن التحول اللغوي أكثر سحرا بالنسبة للباحثين من الإبقاء اللغوي. وبالتالي فإنه من الصعب العثور على أبحاث تركز على الإبقاء اللغوي في مجتمع مقيم. وعلى الرغم من ذلك، فإننا سننظر في بعض البيانات عن مجتمع ثنائي اللغة له تاريخ في الإبقاء على هاتين اللغتين. ومجتمع آخر هو مثال ممتع لكل من الإبقاء

والتحول اللغويين. والمجتمع الأول هو مجتمع سكان مدينة مونتريال الذين يتكلمون اللغة الفرنسية، بينما المجتمع الثاني هو مجتمع تيوا للهنود الحمر، وهي مجموعة تسكن قرى الهنود الحمر في نيو مكسيكو.

درس ستانلي ليبرسون (١٩٧٢) حالة الإبقاء على اللغة الفرنسية في مونتريال على أساس بيانات الإحصاءات السكانية في كندا. وكنتيجة لذلك فإننا لا نعتمد هنا على بيانات ملاحظة المشاركين كما فعلنا في حالات التحول اللغوي وإنما نعتمد على بيانات المسح. والأرقام التي استخدمها ليبرسون مأخوذة من إجابات على أسئلة تتعلق باللغة الأم وأخرى تتعلق باللغة التي يعرفها المجيب من بين اللغتين الرسميتين الموجودتين في كندا، الإنجليزية أو الفرنسية. وبالمقارنة بالنظرة المعمّقة للثقافة التي يمكن أن يكتسبها عالم الأنثربولوجيا الوصفية عبر شهور أو سنوات من "ملاحظة المشاركين"، والمقابلات الفردية المتعمقة التي يقوم بها، فإن مثل تلك البيانات تبدو بالفعل قليلة هنا. ولكن بيانات الإحصاء السكاني لها ميزتان عظيمتان لا تجد لهما مثيلا بسهولة في أبحاث علماء الأنثربولوجيا الوصفية. أولاهما أن تلك البيانات لا تمثل فقط عشرات أو مئات من الناس من قرية صغيرة، وإنما تمثل مئات الآلاف من الناس في مدينة كبرى. وثانيتهما أن تلك البيانات تغطي فترة ثلاثين سنة. وعندما تصل معطيات من هذا النوع إلى يدي باحث يمتلك مهارة ليبرسون وخبرته فإنها تصبح مصدر إلهام كبير.

ومن النظرة الأولى سيبدو لنا أن أحد المطالب الأساسية للتحول من الفرنسية إلى الإنجليزية موجود وهو الثنائية اللغوية الواسعة الانتشار. كما رأينا في شرق ساذرلاند حيث ينقل الوالدان ثنائيا اللغة إلى أبنائهم لغة واحدة فقط، فإن الثنائية اللغوية يمكن أن تسبق التحول اللغوي. وهذا الشرط المسبق المحتمل كان موجودا في مونتريال عام ١٩٦١م. فبين السكان الذكور ممن تكون اللغة الفرنسية لغتهم الأم،

هناك ٤٨٪ منهم ثنائيو اللغة. بينما تكون النسبة أدنى، إلى درجة ما، بين السكان من النساء. وعلى النقيض من ذلك، فإن ٢٨٪ من الذكور ممن تكون اللغة الإنجليزية لغتهم الأم كانوا ثنائيي اللغة في التقويم نفسه (ليبرسون ١٩٧٢، ٢٤٠-٢٤١)، انظر الشكل رقم (٨,١).



الشكل رقم (٨,١). العلاقة بين العمر وثنائية اللغة في مونتريال عام ١٩٦١م.
المصدر: بيانات من ليبرسون (١٩٧٢-٢٤٩).

يوضح الشكل رقم (٨,١) بيانات خاصة بالعلاقة بين العمر والثنائية اللغوية لدى المتكلمين الذكور، وذلك بناء على الإحصاء السكاني بمونتريال عام ١٩٦١م. وإذا ما فسرنا معطيات الجدول بطريقة ميكانيكية بأنها تعكس ما يحدث مع مرور الزمن، فإنه يتوجب أن نقول: إن الثنائية اللغوية قد ازدادت من معدلات كبيرة في الأساس إلى معدلات أعلى، ثم انخفضت بحدة خلال الخمسين سنة الأخيرة. وإذا كنا دقيقين أكثر وافترضنا أن العديد من صغار السن تحت سن العشرين ربما يصبحون

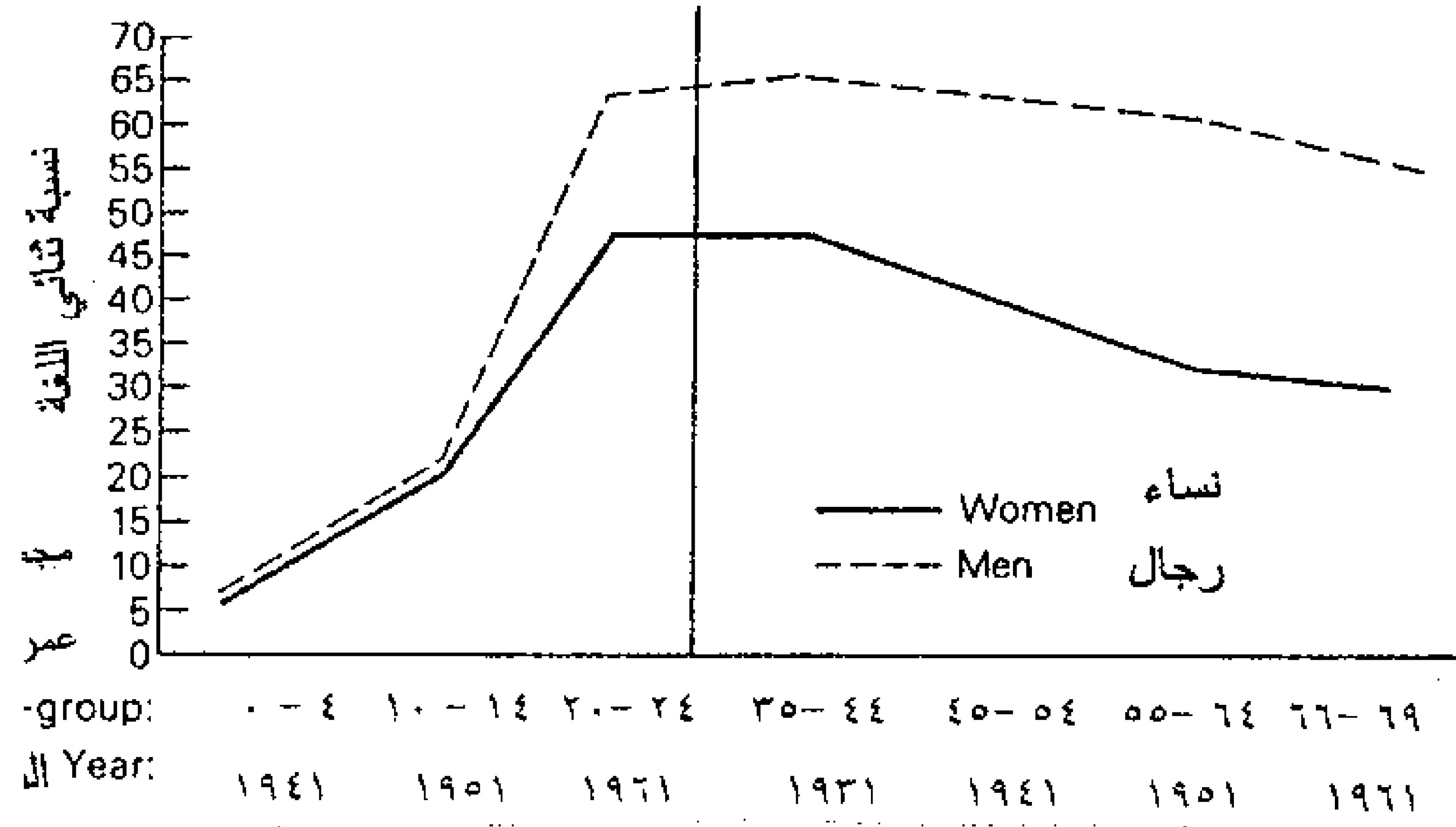
ثنائيي اللغة، فإنه لن يكون من الواجب علينا بالضرورة أن نفسر الشكل رقم (٨,١) بأنه دليل على الانخفاض في السنين الأخيرة. ولكن البيانات من سن البلوغ وحتى سن الشيخوخة تشير إلى زيادة في الثنائية اللغوية، وبالتالي فإنها تشير إلى زيادة محتملة في التعرض لمشكلة التحول اللغوي.[11] وربما نخلص حينئذ إلى أن التحول إلى اللغة الإنجليزية هو في مرحلة التطور. ولكن سيكون هذا الاستنتاج خاطئا تماما.

وكبداية، فإن البيانات عن اللغة الأم للأولاد الصغار تظهر أن اللغة الفرنسية تكتسب قوة. ولقد قارن ليبرسون (١٩٧٢/ ٢٤٣-٢٤٤) البيانات الخاصة باللغة الأم بالنسبة للنساء اللاتي في عمر الإنجاب مع بيانات اللغة الأم بالنسبة للأولاد تحت سن ٥ سنوات، فجاءت نتيجته كما يلي:

نجد أن الدرجة العالية من الثنائية اللغوية الموجودة بين السكان الذين يتحدثون الفرنسية كلغتهم الأم لم تؤد إلى التبديل المطلق إلى اللغة الإنجليزية بين الأولاد. وفي كل الفترات فإن نسبة الأولاد الصغار الذين يتحدثون الفرنسية كلغتهم الأم كانت أكبر من نسبة الأمهات اللاتي في سن الإنجاب. والنتيجة النهائية لتحليلاتنا بين الأجيال تشير إلى أن الفرنسية لا تحتفظ بنفسها فقط، وإنما تكتسب في الواقع بين الأجيال.

ومن الواضح أن النمط الظاهر في الشكل رقم (٨,١) لا يبين أن هناك عملية تحول في مرحلة التطور. وفي الحقيقة يشك أيضا في أنه يظهر زيادة في الثنائية اللغوية الثابتة مع مرور الزمن. فإلى ماذا يشير ذلك إذاً؟ وللإجابة على هذا السؤال فقد أجرى ليبرسون تحليلا "المجموعات من الأعمار". وفكرة مجموعات الأعمار هي فكرة بسيطة، فهي تفترض أن الناس الذين كان عمرهم ٢٥ سنة في وقت الإحصاء الذي تم عام ١٩٥١م سيبلغون من العمر ٣٥ سنة عند إجراء إحصائية عام ١٩٦١م. وبمقارنة بيانات الثنائية اللغوية لكل مجموعة عمرية مع بيانات المجموعة العمرية نفسها بعد عشر سنوات في الإحصاء التالي فإن الأنماط المسجلة للثنائية اللغوية تظهر بشكلٍ

واضح . ويوضح الشكل رقم (٨،٢) تلك الأنماط المسجلة بطريقة منفصلة للنساء والرجال.



الشكل رقم (٨،٢). النسبة المئوية لسكان ثنائيي اللغة في مونتريال من خلال مجموعات الأعمار والجنس من عام ١٩٤١ حتى ١٩٦١.
المصدر: ليبرسون (١٩٧٢-٢٤٩)

والنزعات التي يوضحها الشكل رقم (٨،٢) هي في غاية التشويق. فنجد هناك زيادة في الثنائية اللغوية من الطفولة المبكرة وحتى سن البلوغ المبكر. ثم نجد زيادة إضافية أخرى إلى منتصف العمر. وابتداء من عمر الأربعينيات فقد سجل الناس انخفاضا متزايدا في الثنائية اللغوية. واستمرت هذه النزعة إلى سن الهرم. وبالإضافة إلى ذلك ، فلم يكن هناك فرق بين المتكلمين من النساء والمتكلمين من الرجال حتى سن البلوغ المبكر حيث يبدأ نمط النساء يسير موازيا نمط الرجال ، ولكن بتواتر أدنى في الثنائية اللغوية. ويجب أن نشير هنا إلى أننا لم نكن ننظر إلى الأشخاص أنفسهم طيلة

المسار عبر الرسم البياني للشكل رقم (٨,٢). فالنسب المئوية المسجلة على يسار الخط العمودي في الشكل رقم (٨,٢) هي مجموعات أعمار حقيقية. فالأشخاص الذين كانوا بين عمر الولادة وسن ٤ سنوات عام ١٩٤١م أصبحوا بين ١٠-١٤ سنة في عام ١٩٥١م، وقرّرت أعمارهم بين ٢٠-٢٤ سنة في عام ١٩٦١م. وبالمثل فإن النسب على الجانب الأيمن من الشكل تمثل مجموعات أعمار حقيقية.[١٢] ولكن المجموعة العمرية بين ٣٥- ٤٤ سنة ليست هي المجموعة العمرية نفسها التي بين ٢٠-٢٤. لذا ، فمن بيانات الشكل رقم (٨,٢) فقط لا يمكننا أن نتأكد أن الأشخاص الذين يمثلون المجموعة العمرية ٢٠-٢٤ سيتبعون النمط نفسه على الجانب الأيمن من الشكل عندما يكبرون. ولكن البيانات الواردة في الشكل رقم (٨,٢) هي فقط عينة للأشكال التي أوردها ليبرسون. فباستخدام النطاق الكامل للمجموعات العمرية المتداخلة يمكننا توضيح أن الزيادة والنقصان والفرق بين الرجال والنساء كانا متسقين بدرجة جيدة على مدى الجدول بأكمله. فمثلا ٦٨,٨٪ بالمائة من الرجال الذين كانوا في عمر ٢٥-٣٤ في عام ١٩٤١م كانوا ثنائيي اللغة. وفي عام ١٩٥١م عندما أصبح عمرهم ٣٥-٤٤ سنة كان هناك انخفاض طفيف حيث صارت النسبة ١, ٦٨٪ ومن ثمّ حدث انخفاض آخر إلى ٦, ٦٣٪ عام ١٩٦١م عندما أصبح عمرهم ٤٥-٥٤ سنة. والأرقام المقابلة بالنسبة للمتكلمات من النساء هي ١, ٤٨٪ و ٢, ٤٥٪، ٦, ٤٢٪ على التوالي (ليبرسون ١٩٧٢ : ٢٤٩ ، الجدول رقم ٤). ولا ضير في اعتماد أنماط الشكل رقم (٨,٢) كممثل للثنائية اللغوية المسجلة ذاتيا عبر مراحل حياة الناس.

والتفسيرات التي يوردها ليبرسون هي تفسيرات شيقة ومقنعة تماما. فإذا بدأنا بحقيقة أن اللغة الإنجليزية هي لغة أعلى في مناطق كندا التي تتكلم اللغة الفرنسية وخاصة ما يتعلق بمجال التوظيف، فإن الأنماط تصبح مفيدة ولها معنى. ومن الواضح أن الأولاد الكنديين الفرنسيين يتعلمون اللغة الفرنسية فقط في المنزل، واللغة

الإنجليزية تدرس لهم كمادة في المدرسة التي تكون اللغة الفرنسية فيها وسيلة التدريس (كما هو الحال في المدارس التي يدخلها كل الأولاد الفرنسيون تقريبا)، ويبدو أن عددا متزايدا من الشباب يكتسبون اللغة الإنجليزية أثناء انتقالهم عبر مراحل المدرسة. وبالطبع فإن تعلم اللغة الثانية لا يتم كله بالمدرسة. ويُكتسب قدر كبير من الكفاءة في اللغة الإنجليزية عندما يجد الشباب أنه من الواجب عليهم المشاركة في المجتمع على نطاقه الواسع. وعلينا أن نتذكر هنا أن المقيمين الذين تكون لغتهم الأم هي اللغة الإنجليزية، والذين يجب عليهم، وبالمثل، تعلم اللغة الفرنسية كمادة في مدارسهم التي تستخدم اللغة الإنجليزية كوسيلة للتعليم يصبحون ثنائيي اللغة بدرجة أقل كثيرا. وعندما ينتقل الناس إلى مسارهم الوظيفي فإن العديد منهم يجدون أن معرفة اللغة الإنجليزية شيء مهم جدا. وبالتالي فإن الأعداد المسجلة عن الثنائية اللغوية تزداد قليلا ثم تصبح ثابتة عبر السنين المتوسطة. وعندما يكبر الناس ويتركون العمل فإن اللغة الإنجليزية تصبح غير ضرورية للعمل. وكنتيجة لذلك فإن الأعداد المسجلة للثنائية اللغوية تقل.[١٣] ويدعم هذا التفسير حقيقة أنه بعد سن الطفولة فإن عدد النساء ثنائيات اللغة يصبح أقل من عدد الرجال. فإذا افترضنا أن أغلبية النساء يمتهن المهن النسوية التقليدية كالعمل المنزلي ورعاية الأطفال بدلا من الانخراط في المؤسسات التوظيفية التي تتطلب اللغة الإنجليزية ، فإن عددا قليلا من النساء سيحتاج للغة الإنجليزية وبالتالي فإنهن لن يتعلمنها.

وإذا ما حاولنا رؤية كل ذلك في ضوء مفهومنا الواسع للازدواجية اللغوية فيمكننا أن نرى أنها تشير إجمالا إلى الإبقاء المستمر على اللغة الفرنسية حتى ولو استمرت الثنائية اللغوية بدرجة كبيرة باللغة الإنجليزية. وعلى الرغم من أنه ليست لدينا بيانات تمكننا من استنتاج التوزيع في المجالات الأخرى، وذلك إذا كان ليبرسون على صواب، فإن اللغة الإنجليزية تستخدم في مجال التوظيف (لبعض الوظائف) -

وهو مجال أعلى. وفي مجال المنزل، وهو أصلا مجال اللغة الدنيا فإن اللغة الفرنسية هي الوحيدة المستخدمة فيه. علاوة على ذلك، فإنه يبدو أن الذين يكتسبون اللغة الإنجليزية هم الذين يحتاجون إليها فعلا ، ولا يكتسبونها قبل احتياجهم إليها. ويتوقف عدد كبير من الناس عن إبداء رغبتهم في إعلان معرفتهم اللغة الإنجليزية، وإذا لم يتوقفوا عن معرفة اللغة نفسها، بأسرع ما يمكن. لذلك يبدو معقولا أن نستنتج أن اللغة الإنجليزية لا تتسرب إلى مجالات اللغة الفرنسية أبدا. وإذا حدث أي شيء على الإطلاق، فإن الزيادة السريعة في النزعة الوطنية بإقليم كويبيك ربما يدفع الفرنسية إلى المجالات التقليدية للغة الإنجليزية.

وقد أشار ليبرسون إلى حقيقة واحدة أخيرة، وهي أنه بما أن أعداد النساء ثنائيات اللغة أقل من أعداد الرجال فإن عددا كبيرا من العائلات سيشتمل على زوج ثنائي اللغة وزوجة أحادية اللغة تتكلم اللغة الفرنسية. وحيث إن الفرنسية هي اللغة الوحيدة المشتركة فإنها ستنقل إلى الأولاد مما يزيد من تقوية عملية الإبقاء على اللغة الفرنسية. وتعمل الظاهرة نفسها ضد اللغة الأدنى في أوبروارت، فنجد هناك العديد من الأسر التي يكون فيها أحد الوالدين ثنائي اللغة ويتكلم المجرية والألمانية ، بينما يكون الوالد الآخر أحادي اللغة لا يتكلم إلا الألمانية، ولكن فعليا لا توجد عائلة في الأماكن التي تكون فيها اللغة المجرية هي اللغة الوحيدة المشتركة . ويرى تابوريت - كيلر (١٩٦٨ : ١١٢) أن النمط نفسه يعمل لصالح انتشار لغة الولوف على اللغات الأخرى في السنغال.

الإبقاء والتحول اللغويان – التيوا.

والمثال الأخير مبني على دراسة صغيرة أجريتها بنفسي على مجتمع التيوا للهنود الحمر في تاوس بنيومكسيكو بواسطة استبيان.[١٤] والتيوا مجموعة يبلغ تعدادها نحو

٢٠٠٠ فرد وتسكن قرى الهنود الحمر. ويسكن معظمهم المساكن القروية التي خلفها لهم أجدادهم. ولقد كانت الثنائية اللغوية حقيقة في حياة التيوا على مدى أجيال عديدة، فقد كانت الإسبانية هي اللغة الثانية، ثم تركت مكانها عبر السنين لصالح اللغة الإنجليزية لتصبح اللغة الثانية. والتيوا قوم رائعون؛ لأنهم احتفظوا بلغتهم الأصلية لقرون، بالرغم من أنهم كانوا أولاً تحت سيطرة المكسيك ومؤخرا أصبحوا تحت سيطرة الولايات المتحدة، ورغم حقيقة أن مجموعتهم كانت صغيرة جدا.

والبيانات التي حصلنا عليها من التيوا لا تفي بكل ما كنا نرغب فيه. فلم تكن هناك فرصة للمراقبة الشاملة، وكنتيجة لذلك فإنه لم يكن من الممكن فحص بيانات استخدام اللغة المسجلة ذاتيا مقابل الملاحظات كما فعلت غال ودوريان. وكانت الاستبيانات التي جمعناها وعددها ٤٨ استبيانا تعتبر عددا صغيرا جدا، بالرغم من أنها تمثل نسبة مئوية كبيرة من السكان فيما إذا قورنت في مجتمع كبير.[١٥] ولم تكن البيانات موزعة توزيعا متساويا بحسب العمر، كما أن المتكلمين من صغار السن قد مثّلوا بدرجة كبيرة. ولكن بالرغم من ذلك، فإن النتائج تقود إلى بعض التفسيرات المتوافقة مع تاريخ المجتمع ومع ما نعرفه عن الإبقاء والتحول اللغويين. وعلى الرغم من أنه إذا ما تم القيام بمجهود بحثي أكثر شمولا، وأجود تصميما، فإنه ربما يقود إلى نتائج مختلفة. إلا أنه يمكن استخدام البيانات التي لدينا لتوضيح النتائج التي سوف نستخلصها، ذلك إذا كانت ممثلة لواقع الحال.

والجانب الأول الذي سنستكشفه من الثنائية اللغوية للتيوا هو الدليل المتمثل في أنهم قد شهدوا تحولا ضخما في اللغة الأعلى بينما احتفظوا بلغتهم التيوا. ولقد سألنا عناصر العينة في الاستبيان عن أي اللغات الثلاث المستخدمة محليا (التيوا والإسبانية والإنجليزية) يتكلمونها بأنفسهم ويفهمونها.[١٦] كما سألناهم عن أي من تلك اللغات يتكلمها آباؤهم وأجدادهم. ولقد قسم السؤال حول لغة الأجداد إلى سؤالين

منفصلين حول الأجداد من ناحية الأم والأجداد من ناحية الأب ، بحيث كانت إجابات الجيل الصاعد الثاني أكثر من إجابات الأجيال الأخرى (فلم يكن بمقدور كافة المستجيبين للأسئلة الإجابة على كلا السؤالين الخاصين بالأجداد). وعندما ترتَّب تلك البيانات حسب المجموعات العمرية للمستجيبين يصبح من الواضح تماما أن هناك انخفاضا في اللغة الإسبانية كلغة ثانية وزيادة في اللغة الإنجليزية. وتظهر تلك البيانات في الجدول رقم (٨.١)، حيث قسّم المستجيبون إلى أربع مجموعات عمرية غير متساوية: ٥٠ -٧٥؛ و٣٠- ٤٥ ؛ و١٦- ٢٥؛ و١١-١٤ (ويبدو أن تلك التقسيمات تظهر كتقسيمات طبيعية في البيانات). وإذا ما أخذنا البيانات التي سجلها المستجيبون عن أنفسهم وعن آبائهم وأجدادهم فستظهر أربعة أنماط عامة للثنائية اللغوية بحسب العمر . ولقد قسِّم الأشخاص إلى "أجيال" على أساس تلك الأنماط الظاهرية ، وكان لتلك الأجيال التركيبة التالية:

الجيل ١ : آباء وأجداد المجموعة العمرية من ٥٠ - ٧٥ سنة ، وأجداد المجموعة العمرية من ٣٥ - ٤٠ سنة.

الجيل ٢ : أجداد المجموعة العمرية من ١٦-٢٥ سنة ومن ١١ -١٤ سنة ، وآباء المجموعة العمرية من ٣٠-٤٥ سنة.

الجيل ٣ : المجموعة العمرية من ٥٠- ٧٥ سنة ، ومن ٣٠-٤٥ سنة ، ومن ١٦-٢٥ سنة وآباء المجموعات العمرية من ١٦-٢٥ سنة ومن ١١ - ١٤ سنة.

الجيل ٤ : المجموعة العمرية من ١١- ١٤ سنة.

والنمط السائد في الجيل الأول هو الثنائية اللغوية بلغة التيوا واللغة الإسبانية مع عدد قليل من الناس الذين يسجلون معرفة باللغة الإنجليزية وعدد قليل من الناس أحاديي

اللغة بلغة التيوا فقط. وليس هناك شخص واحد أحادي اللغة باللغة الإنجليزية فقط. وفي الجيل الثاني فإن اللغة الإسبانية قد خسرت أرضية كبيرة لصالح اللغة الإنجليزية . فمعظم الناس الذين يعرفون لغة التيوا واللغة الإسبانية يعرفون أيضا اللغة الإنجليزية. وهناك عدد من الناس ثنائيو اللغة بلغتي التيوا والإنجليزية، وذلك مساو تقريبا عدد أولئك الذين يتكلمون التيوا والإسبانية. وهناك عدد قليل جدا من الذين يتكلمون التيو كلغة أحادية، ولكن ظهر هناك شخص واحد في هذا الجيل يتكلم الإنجليزية كلغة أحادية. وعند الوصول إلى الجيل الثالث نجد أن النمط السائد بقوة هو الثنائية اللغوية بالتيوا والإنجليزية، فكل شخص يعرف اللغة الإسبانية يعرف أيضا اللغة الإنجليزية، وكان هناك شخصان يتكلمان لغة أحادية، أحدهما بالتيوا والآخر بالانجليزية. أما في الجيل الرابع فلا أحد يدعي قط معرفة اللغة الإسبانية، وليس هناك أحاديو اللغة بلغة التيوا ولكن هناك العديد من أحاديي اللغة باللغة الإنجليزية.

وليس من الممكن أن نثبت بدون قدر من الشك أنه يجب أن تفسر بيانات الجدول رقم (٨،١) على أنها تمثل تغييرا طرأ عبر الزمن . ولكن يبدو أنه من غير المحتمل أن نفسر النمط الذي يشمل فقدان اللغة الإسبانية بأي طريقة أخرى. والبديل سيكون افتراض أن تلك البيانات تمثل الاستخدام المتغير للغات والمرتبط بحياة الشخص. وهذا سيتضمن أن أعضاء الأجيال الأصغر سنا سوف ينسون الإنجليزية ويتعلمون الإسبانية عندما يكبرون. وسيكون من المعقول أن نفترض إلى حد ما أن بعض الشباب الذين يسجلون الآن ثنائية لغوية بالتيوا والإنجليزية ربما يدعون بأنهم سيكونون أحاديي اللغة بلغة التيوا فقط عندما يكبرون كما يحدث في ظاهرة الكنديين الفرنسيين في مونتريال. ولكن مع ذلك لا يوجد العديد من الذين يقرون بأنهم أحاديو اللغة بالتيوا حتى في الأجيال الأكبر سنا. ويبدو أن الاحتمال الأغلب هو أن الجدول رقم (٨،١) يمثل الإبقاء على لغة (التيوا) والتحول (من الإسبانية إلى الإنجليزية)

خلال الـ١٢٥ سنة الماضية أو ما يقارب ذلك. وقد وضح التبادل الدراميكي هذا للغة الثانية في هيئة رسم بياني في الشكل رقم (٨،٣).

الجدول رقم (٨،١). أنماط الثنائية اللغوية عبر أربعة أجيال من مجتمع التيوا.

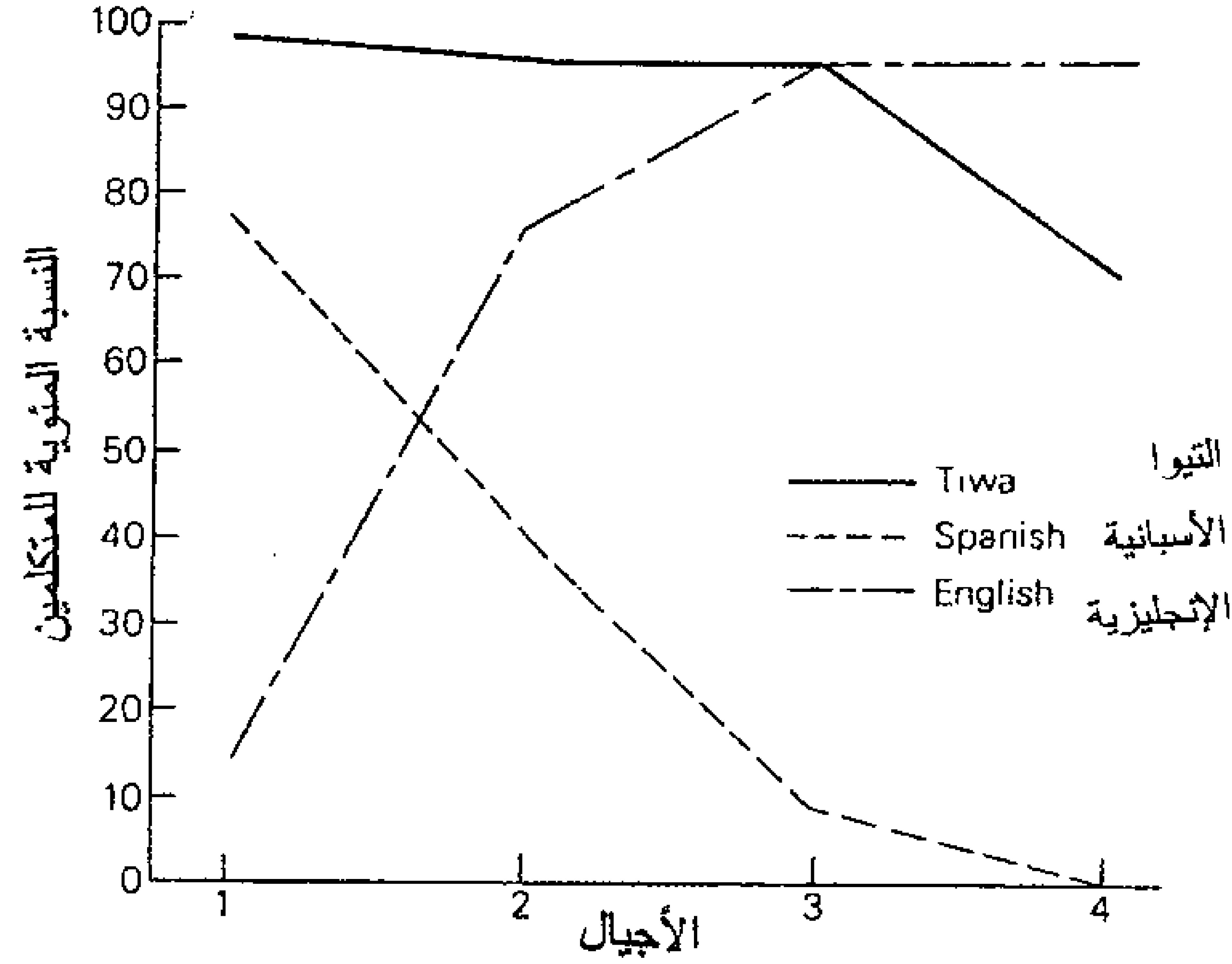
الجيل	اللغات				
	ت س	ت أ س	ت أ	ت	أ
١ - العدد	٢٠	٢	٢	٤	٠
النسبة المئوية	٧١،٤	٧،١	٧،١	١٤،٣	٠
٢ - العدد	٦	٢٧	٢٩	١٠	١
النسبة المئوية	٨،٢	٣٧،٠	٣٩،٧	١٣،٧	١،٤
٣ - العدد	٠	٦	٥١	١	١
النسبة المئوية	٠	١٠،٢	٨٦،٤	١،٧	١،٧
٤ - العدد	٠	٠	١٨	٠	٦
النسبة المئوية	٠	٠	٧٥	٠	٢٥

ت س = التيوا والإسبانية، ت أ س = التيوا والإنجليزية والإسبانية،
ت أ = التيوا والإنجليزية، ت = التيوا فقط، أ = الإنجليزية فقط.

والشكل رقم (٨،٣) يبين أن كل شخص من الأجيال الثلاثة الأولى في ذلك المجتمع قد تعلم في الواقع لغة التيوا عندما كانت الإنجليزية تحل محل الإسبانية تدريجيا. ولكن في المجموعات العمرية الأصغر فقد لوحظ انخفاض مفاجيء في عدد الذين

يعرفون لغة التيوا. وحيث إن هذا الانخفاض في متكلمي التيوا مبني على ٢٤ متكلما فقط، فمن الممكن أن يكون قد حدث ذلك بسبب خطأ في اختيار العينات، أو بسبب خطأ في تقسيم المجموعات العمرية. ولكن هناك، على الأقل، بعض الأدلة على أنه يجب علينا أن نبحث عن علامات تدل على أن اللغة الإنجليزية ربما تزيح لغة التيوا في النهاية. وهذا شيء لم تفعله اللغة الإسبانية أبدا. وكما نعلم الآن فهناك بعض المؤشرات التي تدل على التحول والتي يجب البحث عنها. وأحد هذه المؤشرات هو تقدم إحدى اللغات في المجالات الخاصة باللغة الأخرى.

ولقد رُسم جدول تضميني، كالذي رسمته غال، لاثنين وأربعين شخصا من التيوا الذين أدلوا بإجاباتهم (مع استبعاد ٦ متكلمين أحاديي اللغة، واثنين من المجيبين الذين لم توضع بياناتهم في المكان الصحيح). وتظهر تلك النتائج في الجدول رقم (٨,٢).[١٧] ويبدو أن البيانات تتدرج بدرجة جيدة، فهناك عدد متواضع من الخانات المنحرفة (وضعت عليها علامة نجمة). وفي الحقيقة فإن نسبة التدرج هي ٧, ٩١٪ وهو رقم محترم.[١٨] وكما في أوبروارت، فهناك ميل لاختيار لغة المجتمع الأصغر من قبل الأجداد أكثر من الآباء، ومن قبل الآباء أكثر من الإخوة والأخوات. وهذا الانخفاض في استخدام لغة التيوا من قبل المحاورين الأصغر سنا مشابه للنمط الذي حدث في أوبروارت حيث إنه يشير في الظاهر إلى بداية التحول اللغوي. كما يبدو أيضا أن هناك ميلا قليلا لدى المتكلمين الأكبر سنا ليظهروا في الجزء الأعلى من الجدول حيث تقع الأنماط الأكثر محافظة، كما أن هناك ميلا لدى المتكلمين الصغار ليظهروا في الجزء الأسفل من الجدول. ولكن هناك عددا من الشباب يسجلون أنماطا محافظة، كما أن هناك بعض متوسطي العمر الذين يقعون في الجزء الأسفل من الجدول.



الشكل رقم (٨،٣). الإبقاء والتحول اللغويان في مجتمع التيوا في الوقت الراهن.

وهناك ٢٥ متكلما لم تكن لديهم انحرافات تدريجية، وقد اختُبرت تقاريرهم لمعرفة العلاقة بالعمر. (ولقد حُذف المتكلمون ذوو الانحرافات؛ لأنه لم يكن من الواضح تماما في أي مكان يجب وضعهم). والاختبار الذي استخدم هو اختبار سبيرمان للارتباط (ب) بين الرتبة – الترتيب، باستخدام العمر والوظيفة كمتغيرين في الجدول رقم (٨،٢). وكانت النتيجة أن هناك ارتباطا إيجابيا مع قيمة (ب) غير مهمة.[١٩] علاوة على ذلك فقد كان هناك عدد كبير من المتكلمين صغار السن في هذه المجموعة، والمتكلمون في هذه المجموعة قد يغيرون عادات الاستخدام اللغوي عندما يكبرون. لذا فإنه من غير الممكن أن نقول بثقة بأن الشباب صغار السن هم من

يقودون التحول اللغوي إلى الإنجليزية.

وأول شيء نلاحظه عند النظر إلى الترتيب خلال الأعمدة هو أن المقياس يبدو أفضل لمعظم المتحدثين لو وضعت اللغة المستخدمة مع الأصدقاء الهنود في القرية الهندية وفي المدينة (الموضعان ٣، ٤) على يسار تلك المستخدمة مع الإخوة والأخوات (الموضع ٥). ويبدو هذا غريبا بعض الشيء؛ لأن العلاقة بين أفراد العائلة الواحدة تعتبر حميمية ولذا فمن المتوقع أن يتحدثوا إلى بعضهم باللغة الدنيا.[٢٠] وهنا نجد أن عدم الألفة للمجتمع هي عائق خطير. ومن المحتمل أن هناك قيمة توضع لاستخدام لغة التيوا مع أعضاء آخرين في الجماعة علناً، ولكن يعتبر مقبولا استخدام اللغة الإنجليزية أحيانا وفي بعض المواقع الخاصة التي من المحتمل أن يتواجد فيها أفراد من الأسرة.

الجدول رقم (٨،٢). المقياس التضميني للاختيار اللغوي من قبل متكلمي التيوا.

رقم المتكلم	عمر المتكلم	المحاورون						
		١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
١	٦٥	ت	ت	ت	ت	ت	ت أ	أ
٢	٤٣	ت	ت	ت	ت	ت	ت أ	أ
٣	٢٠	ت	ت أ ❖	ت	ت	ت	ت أ	أ
٤	١٨	ت	ت أ ❖	ت	ت	ت	ت أ	أ
٥	٢٥	ت	ت	ت	ت	ت	أ	أ
٦	١٢	ت	ت	ت	ت	ت	أ	أ
٧	٧٥	ت	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	أ
٨	٦٥	ت	ت	ت	ت	ت أ	أ	أ
٩	٥٢	ت	ت	ت	ت	ت أ	أ	أ
١٠	١٤	ت	ت	ت	ت	ت أ	أ	أ
١١	١٣	ت	ت	ت	ت	ت أ	أ	أ
١٢	١٣	ت	ت	ت	ت	ت أ	أ	أ
١٣	٢٥	ت	ت	ت	ت	أ	أ	أ
١٤	١٢	ت أ ❖	ت	ت	ت	ت أ	أ	أ

١٥	٣٥	ت	ت أ ❖	ت	ت	ت أ	أ	أ
١٦	٢٠	ت	ت أ ❖	ت	ت	ت أ	أ	أ
١٧	١٩	ت	ت أ ❖	ت	ت	ت أ	أ	أ
١٨	٤١	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	ت أ	أ
١٩	٦٥	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٠	١٦	ت	ت أ ❖	ت	ت أ	ت ❖	ت أ	أ
٢١	٤٣	ت	ت	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ
٢٢	٤٣	ت	ت	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٣	٤٤	ت	ت	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٤	١٧	ت	ت	ت أ	ت أ	ت ❖	أ	أ
٢٥	١٤	ت	ت	أ ❖	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٦	١٤	ت	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٧	١٣	ت	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٨	٢١	ت	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٩	١٧	ت	ت أ	ت أ	ت أ	ت ❖	ت أ	أ
٣٠	١٣	ت	ت أ	ت أ	ت أ	ت ❖	ت أ	أ
٣١	١٢	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ
٣٢	١٧	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ
٣٣	١٨	ت أ	ت أ	ت ❖	ت أ	ت أ	ت أ	أ
٣٤	١٤	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٣٥	١٤	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٣٦	١٣	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٣٧	١١	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٣٨	١٣	ت أ	ت ❖	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٣٩	٣١	ت أ	ت أ	ت ❖	ت أ	ت ❖	أ	أ
٤٠	١٣	ت أ	ت أ	ت ❖	ت ❖	ت أ	أ	–
٤١	١٤	ت أ	ت أ	ت ❖	ت أ	ت ❖	أ	أ
٤٢	١٣	ت أ	ت أ	ت أ	ت ❖	ت أ	ت ❖	أ

المحاورون: ١= الأجداد؛ ٢= الوالدان؛ ٣= الأصدقاء الهنود في القرية؛ ٤= الأصدقاء الهنود في المدينة؛ ٥= الإخوة والأخوات؛ ٦= الأصدقاء الهنود عندما يكون الأصدقاء الإنجليز والشيكانو موجودين؛ ٧= الأصدقاء الإنجليز والشيكانو.

اللغات: (ت) = التيوا؛ (أ) = الإنجليزية.

❖ هذه الخانات ليست وفق التدرج الكامل.

واحتمال آخر هو أن بعض من استجابوا للاستبيان قد فسروا وضع المخاطب (المحاور) في الحالتين ٣ ، ٤ بأنهما حالتان نطلب فيهما أن يحيوا فقط الشخص الآخر، بينما يتطلب الحديث مع الإخوة والأخوات محادثة أطول. ومن المحتمل أن بعض المتحدثين يحيون أصدقائهم بالتيوا فقط، ولكن بعض المحادثات مع الإخوة والأخوات قد تكون بالإنجليزية. وقد يكون هناك احتمالات أخرى أيضا، ولا يبدو من الحكمة التخمين على أساس بيانات الاستبيان فقط. ولا يعطينا وضع الأصدقاء الهنود في ترتيب المتحدث إليهم دلائل حقيقية عن ما إذا كان هناك تحول لغوي أو لا.

وهناك ملاحظتان على وضع الأقارب من الأجيال المرتبة تصاعديا في جانب التيوا من جدول رقم (٨،٢). تذكر أن المتحدثين الأكبر سنا هم في الغالب ممن لا يعرفون الإنجليزية. وأحيانا قد يرجع ببساطة سبب التحدث إلى كبار السن بالتيوا إلى حقيقة أنهم لا يفهمون الإنجليزية. والاحتمال الآخر هو أن لكبار السن التزاما أكبر تجاه قيم المجتمع الصغير، ولذا فهم يتوقعون أن يخاطبوا باستخدام تيوا. وإذا كان الناس يخاطبون كبارهم لأنهم لا يفهمون الإنجليزية، فهذا قد يعني أن الخيار قد وجهته الحاجة المحضة للفهم وقد لا يعني أن للقيم الثقافية دورا هنا. ولكن هناك مؤشرا على أن من الأنسب اجتماعيا مخاطبة كبار السن بالتيوا، فقد أضاف اثنان من المستجيبين على سؤال "الأصدقاء الهنود" ملاحظة بأن ذلك يعتمد على عمر المتحدث إليه. فالتيوا سوف تختار إذا كان الهندي الآخر المتحدث إليه أكبر سنا، وستختار الإنجليزية إذا كان أصغر سنا.

ومن الواضح أن الإنجليزية هي اللغة الوحيدة المستخدمة مع المحاورين من خارج المجوعة. فقد ذكر معظم هنود التيوا، وليس كلهم، أن الإنجليزية قد تستخدم مع صديق هندي آخر إذا كان هناك أصدقاء من أصل أبيض أو مكسيكي بالحوار. ويشير هذا في أوبروارت إلى حد ما في شرق سازرلاند إلى أن المتحدث يرى نفسه

عضوا في مجموعة متحدثي اللغة العليا وكذلك عضوا في المجموعة الأصغر. وتمنح هذه العضوية المشتركة أفراد المجتمع الأكبر أن تستخدم اللغة المشتركة بحضورهم. ولكن، ذكر اثنان ممن قالوا إنهم سيستخدمون تيوا والإنجليزية في هذا الموضع أنهما قد يستخدمان تيوا لمنع الإنجليز أو التشيكانو من فهم ما يقولونه. وحسب شروط غال فإن هذا النوع من السلوك هو تباعد بعض الشيء ومؤكد العضوية في المجموعة الصغيرة التي لا تتضمن أفراد المجتمع الأوسع. وحقيقة أن عددا كبيرا من المتحدثين قد يستخدمون تيوا بحضور الإنجليز أو التشيكانو وذلك بقصد استبعادهم بشكل واضح من فهم المحادثة يجعل البيانات في العمود رقم ٦ غير واضحة فيما يتعلق بكونها مؤشرا على التحول.

وجميع "الانحرافات" التي وضعت عليها علامة نجمة في الجدول رقم (٨،٢) هي استجابات في غير مكانها. ومن المحتمل أن معظمها ليس نتيجة الفشل في الاتفاق مع المتوقع، ولكن دليلا على وجود أنماط تختلف عن النمط الشائع. وأحد الأنماط هو عدد الأفراد المستخدمين كلتا اللغتين مع آبائهم، بينما يستخدمون تيوا فقط مع إخوانهم وأخواتهم. وهذا ما ذكره المتحدثون الذين يحملون الأرقام ٣، ٤ و٢٠ و ٢٩ و ٣٠ و ٣٩ و ٤١. وتحبذ المتحدثة رقم ٣٨ استخدام كلتا اللغتين مع إخوانها وأخواتها، ولكنها تحبذ استخدام الإنجليزية فقط مع والديها، ويستخدم أيضا خمسة من الثمانية تيوا مع أصدقائهم الهنود في القرية الهندية، وتستخدم المتحدثة رقم ٣٨ كلتا اللغتين مع أصدقائها كما تفعل مع إخوانها وأخواتها. بجانب ذلك، كان خمسة من الثمانية من بين الأقلية التي تستخدم كلا من تيوا والإنجليزية مع أصدقائهم الهنود حتى مع وجود الأجانب.

كانت أعمار خمسة من هؤلاء المتحدثين بين ١٦ و ٣٥ سنة، أما الثلاثة الآخرون فكانوا أصغر سنا بعض الشيء حيث كانت أعمارهم ١٣ و ١٤ عاما. وإذا

قسم المتحدثون إلى ثلاث مجموعات بحسب العمر، وهي: من يزيدون عن ٤٠ والمراهقون الصغار بين ١٢-١٤ عاما، والشباب بين ١٦-٣٥ عاما، يتضح لنا حقيقة مدهشة. فالجماعة الأكبر سنا تتلاءم تماما مع المقياس في جدول رقم (٨,٢)، ولا يوجد هناك أي حالة انحراف عن المتوقع. ولكن جماعة العمر الوسطى تتلاءم تماما مع المقياس في جدول رقم (٨,٣) أفضل من قبل[٢١]. فهناك مجموعة من أربع حالات انحراف أقل، وقل انحراف استجابات ستة من المتحدثين في جدول رقم (٨,٣) مما كانت عليه في الجدول رقم (٨,٢)، بينما ازدادت انحرافات استجابات متحدثين اثنين فقط. وكان في استجابة خمسة من الستة انحراف واحد في الجدول السابق، ولكن هذه الانحرافات اختفت تماما في الجدول رقم (٨,٣) (تلاءمت استجابات المراهقين من الأعمار ١٢-١٤ سنة مع المقياس في الجدولين رقما (٨,٢) و(٨,٣) بالدرجة نفسها).

والفرق بين ترتيب المخاطبين في الجدولين هو أن موقع الآباء قد تحرك إلى اليمين، إلى موقع يسبق موقع الأصدقاء الهنود عند وجود أصدقاء إنجليز أو تشيكانو في الجوار. أي أنه سيخاطَب الآباء في هذه المجموعة العمرية بالإنجليزية أكثر من الحديث مع أي شخص عندما لا يوجد أجانب في الجوار. وبمعنى آخر، تلائم هذه المجموعة العمرية المقياس أفضل لو افترضنا أن لغة تيوا مفضلة عندما تتحدث لشخص من العمر نفسه (سواء أخ أو أخت أو صديق هندي) عما لو كانت تتحدث إلى الآباء. وفي الغالب يخاطب الأجداد بالتيوا، وقد يكون هذا إما بسبب أن كبار السن لا يتكلمون الإنجليزية وإما بسبب قيمة ثقافية كبيرة تتطلب أن يكون من المناسب أكثر التحدث إلى كبار السن باللغة التقليدية للمجتمع.

الجدول رقم (٨،٣). المقياس التضميني للاختيار اللغوي من قبل متكلمي التيوا من المجموعة العمرية ١٦-٣٥سنة.

رقم المتكلم	عمر المتكلم	المحاورون						
		١	٣	٤	٥	٢	٦	٧
٥	٢٥	ت	ت	ت	ت	ت	أ	أ
١٣	٢٥	ت	ت	ت	أ❖	ت	أ	أ
٣	٢٠	ت	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	أ
٤	١٨	ت	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	أ
٣٩	٣١	ت أ❖	ت	ت أ❖	ت	ت أ	أ	أ
١٥	٣٥	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	أ	أ
١٦	٢٠	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	أ	أ
١٧	١٩	ت	ت	ت	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٠	١٦	ت	ت	ت أ ❖	ت	ت أ	ت أ	أ
٢٤	١٧	ت	ت أ	ت أ	ت❖	ت❖	أ	أ
٢٨	٢١	ت	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ	أ
٢٩	١٧	ت	ت أ	ت أ	ت❖	ت أ	ت أ	أ
٣٢	١٧	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ
٣٣	١٨	ت أ	ت ❖	ت أ	ت أ	ت أ	ت أ	أ

المحاورون: ١= الأجداد ؛ ٢= (الوالدان) ؛ ٣= الأصدقاء الهنود في القرية ؛ ٤= الأصدقاء الهنود في المدينة ؛ ٥= الإخوة والأخوات ؛ ٦= الأصدقاء الهنود عندما يكون الأصدقاء الانجليز والشيكانو موجودين ؛ ٧= الأصدقاء الإنجليز والشيكانو.

اللغات: (ت) = التيوا ؛ (أ) = الإنجليزية.

❖ هذه الخانات ليست وفق التدرج الكامل.

لو أخذنا هـذه الحقائق مجموعة مع بعضها لأصبح لدينا دليل على أن هناك مجموعة من الشباب تبتعد عن هوية المجموعة الكبيرة باتجاه تأكيد هويتها كهنود تيوا.

وقد يكون لآبائهم دور في الاتجاه سابقا نحو استخدام الإنجليزية، ولذا يتوقعون مخاطبتهم بالإنجليزية بعض الوقت. ولكن كانت عينة الأفراد من المتحدثين صغيرة، ولا نستطيع وضع ثقة كبيرة بهذا التفسير دون معرفة عميقة بهذا المجتمع.

وعلامة صريحة على التحول هي عندما يقوم الآباء ثنائيو اللغة بنقل لغة واحدة فقط إلى أبنائهم. (وهذا دون شك حدث للأطفال الستة الذين يعرفون لغة واحدة فقط). وكان في العينة اثنا عشر والدا، كانوا صغارا بما يكفي لأن يكون لديهم أولاد في المنزل، أو أنهم رزقوا بهم حديثا. وسأل الاستبيان عن اللغة المحكية مع الزوج أو الزوجة وكذلك اللغة المستخدمة مع الأولاد. وكان ستة من بين الاثني عشر يستخدمون تيوا فقط، أو كلا من تيوا والإنجليزية مع أزواجهم وأيضا مع أولادهم. ومن الواضح أن هؤلاء الستة ليسوا مشتركين في التحول اللغوي بين الأجيال. وقد ذكر ثلاثة من الأزواج أنهم يستخدمون اللغتين مع بعضهما، ولكن يستخدمون الإنجليزية فقط مع أولادهم. وقد يكون هذا دليلا ممكنا على التّحول نحو الإنجليزية. ولكنّ اثنين من الثلاثة الآخرين استخدموا الإنجليزية فقط مع الزوج أو الزوجة بينما استخدموا تيوا والإنجليزية مع الأولاد، وذكر الثالث أنه يستخدم اللغتين مع الزوج أو الزوجة وتيوا فقط مع الأطفال. وقد يخدم نمطهم كدليل على التحول نحو تيوا. ويبين الدليل الضئيل هذا أن هناك تحولا بين الأجيال باتجاه الإنجليزية يقابله نزعة في التّحول باتجاه تيوا.

وقد سُئل جميع أفراد العينة عن اللغات التي يودون أن يعرفها أولادهم. واحد فقط ذكر أنه يريد أولاده أن يعرفوا الإنجليزية فقط. وقال معظمهم: إنهم يريدون أولادهم أن يعرفوا تيوا والإنجليزية معا، وقليل منهم قال: إنهم يريدون أولادهم أن يعرفوا تيوا فقط، أو أن يعرفوا تيوا والإنجليزية والإسبانية معا. ويبين هذان النوعان من الاستجابات الأخيرة أن الإجابة على سؤال من هذا النوع قد لا تكون واقعية

تماما، فمن الصعب اليوم وجود أي متحدث للتيوا فقط، وكذلك ليس هناك منهم من يتعلم الإسبانية الآن.

ومؤشر آخر على التحول هو الشعور بأن اللغة المتحول عنها ليست لغة جيدة جدا. وعندما سئلوا: أي اللغات الثلاث أكثر جمالا؟ قال أكثر من ٨٠٪: إنها تيوا. وقال واحد فقط: إن الإنجليزية هي الأكثر جمالا، أما البقية فقد اختارت إما تيوا والإنجليزية أو تيوا والإسبانية. ويشترك الأولاد أحاديو اللغة بهذا الشعور أيضا، ولم يقل أي من الستة: إنهم يريدون أن يصبح أبناؤهم متحدثين بالإنجليزية فقط. وقال اثنان: إنهم يرغبون في أن يصبح أولادهم ثنائيي لغة، ورغب اثنان في أن يعرف أولادهم الإسبانية بجانب تيوا والإنجليزية، بينما ذكر اثنان تيوا فقط كإجابة على هذا السؤال. وقال أربعة من الستة: إن تيوا هي اللغة الأجمل، بينما اختار الخامس كلا من تيوا والإنجليزية. أما الطفل السادس الذي لا يتحدث إلا لغة واحدة فهو الوحيد الذي ذكر أن الإنجليزية هي اللغة الأجمل. بجانب هذا، قال ثلاثة من الأولاد الستة الذين ذكروا أنهم لا يتحدثون إلا الإنجليزية فقط إنهم يستطيعون فهم تيوا.

وباختصار فإن الدليل من نتائج الاستبيان في الحقيقة غامض جدا. ويشير ما يلي بإمكانية التحول إلى الإنجليزية: (١) حقيقة أن ستة من الأولاد الأربعة والعشرين في أصغر العينات العمرية كانوا لا يتحدثون إلا الإنجليزية فقط، (٢) تظهر الحقيقة التي بينها جدول رقم (٨،٢) أنه يخاطَب على الأرجح المحاورون الأصغر سنا بالإنجليزية أكثر من مخاطبة الأكبر سنا، (٣) التوجه الضئيل لدى المتحدثين الأصغر سنا باستخدام كلتا اللغتين مع الآخرين أكثر مما يفعله الأكبر سنا، و(٤) توجه الأغلبية لاستخدام الإنجليزية فقط مع هنود التيوا الآخرين في حضرة الناس من خارج المجتمع. ومن جهة أخرى، لم يكن الارتباط بين العمر والموقع في الجدول رقم (٨،٢) كبيرا وذا دلالة إحصائيا. بالإضافة إلى ذلك، تتفق على الأقل أنماط معظم المتحدثين ممن

هم في عمر المراحل الأخيرة من المراهقة وبداية الشباب مع فرضية أن هناك توجها بين المتحدثين الأصغر سنا على الأقل لتقوية استخدامهم التيوا على حساب الإنجليزية. ولم يكن هناك أي متحدث للغتين يستخدم الإنجليزية فقط عند التحدث إلى أجنبي أو في وجود أجنبي، باستثناء حالتين قد تكونان خطأ في وضع العلامة على الاستبيان. ولم يكن هناك دليل على توجه عام للآباء نحو نقل الإنجليزية فقط لأبنائهم، بل على العكس قال جميعهم باستثناء واحد فقط: إنهم يريدون أولادهم أن يعرفوا تيوا، والغالبية العظمى منهم قالت: إن التيوا هي اللغة المحلية الأكثر جمالا، والكل باستثناء واحد فقط من البقية يعتقدون أنها على الأقل واحدة من اللغات الأكثر جمالا. وحتى الأولاد أحاديو اللغة ذكروا أنهم يودون أن يتعلم أولادهم التيوا، وجميعهم باستثناء واحد ذكروا بأن تيوا أجمل من الإنجليزية، أو أنها على الأقل مساوية لها في الجمال. وسنكون في وضع أفضل إذا لم نعلق أهمية كبيرة على إجابات السؤالين الأخيرين؛ لأنه ليس من غير الشائع أن يختلف سلوك الناس الحقيقي عن مواقفهم المعلنة. ولكن الدليل غير المباشر أكثر غموضا والبيانات المتوفرة لدينا عن هنود تيوا مثال على صعوبة التنبؤ بالإبقاء على اللغة أو التحول عنها.

ملخص ونتائج

الإبقاء على اللغة والتحول عنها هي نتائج جماعية طويلة المدى لأنماط مستمرة للاختيار اللغوي. ويسمى التحول اللغوي أحيانا بموت اللغة، خاصة إذا تكونت الجماعة المتحولة من الناس الوحيدين في العالم الذين يتحدثون تلك اللغة. ويدرس غالبا الإبقاء على اللغة أو التحول عنها بطرق تتبع علم الإنسان، أو علم الاجتماع. والأسلوب الذي يستخدمه علماء علم الإنسان واللسانيات الإنسانية هو ملاحظة المشارك، وأحيانا يُلحق هذا الأسلوب ببيانات مسح استبيانية. أما علماء الاجتماع

واللسانيات الاجتماعية فمن الغالب أن يستخدموا الإحصاءات السكانية أو بيانات مسح أخرى. ويجب توخي الحذر في تفسير هذا النوع من البيانات الرقمية، وهناك مشكلتان هما الهجرة والتقدم بالعمر.

وهناك إحساس بأن من الممكن الإجابة "بنعم" على سؤال ما إذا كان بالإمكان التنبؤ بالإبقاء أو التحول اللغوي. وسيحدث التحول اللغوي فقط وإلى المدى الذي يود به المجتمع التخلي عن هويته التي تميزه كجماعة اجتماعية ثقافية معروفة لصالح هوية تجعله فردا في مجتمع آخر. وفي الغالب يكون هذا المجتمع هو الجماعة الاجتماعية الأكبر التي تسيطر على المجتمع الذي تشكل فيه المجموعة الأولى أقلية. ولكن هذا لا يساعد كثيرا، لكنه في الواقع يساعد فقط في تأجيل المشكلة. والآن يجب أن نكون قادرين على التنبؤ بالوقت المحتمل الذي يريد المجتمع فيه حدوث هذا النوع من التغيير في الهوية. وهذا التنبؤ في الأرجح مستحيل، على الأقل في الوقت الراهن. فهناك جماعات أبقت على لغتها وهويتها العرقية تحت الظروف الاجتماعية والاقتصادية نفسها التي أغرت جماعة أخرى على التحول عن لغتها وهويتها. وحتى لو استطعنا تعريف تلك المجتمعات التي تمر بمرحلة تغيّر مفهومها عن نفسها، فإن التنبؤ بعيد المدى بالتحول اللغوي لا يزال نوعا من المجازفة بسبب عدم وجود ضمانات بأن إحساسهم بالهوية لن يسير بعد ذلك في اتجاه معاكس (وهذه احتمالية قائمة في مجتمع تيوا).

ولكن نستطيع على الأقل الإشارة إلى عدد من العلامات التي تدل على أن المجتمع يمر بعملية تحول لغوي في وقت معين. وإحدى العلامات التي تدل على أنه ليس هناك تحول في مرحلة التطور هي النزعة السائدة للإبقاء على الفرق "بيننا" و"بينهم"، أي بين من هم داخل المجموعة ومجموعة خارجية معينة. فاللغة في الغالب هي التي تركز على مفهوم "نحن" - "هم". فمثلا، تشير جماعة الأيمش في بنسلفانيا وفي أماكن أخرى، والذين حافظوا لقرون على الألمانية المحكية في بنسلفانيا في

الولايات المتحدة، إلى جيرانهم ممن يتحدثون الإنجليزية فقط بأنهم "الشعب الإنجليزي"، وكتبت مدرسة، في مدرسة أبرشية تابعة لجماعة أيمش، على الاستبيان عن الاستخدام اللغوي بأنها استخدمت الإنجليزية فقط في المدرسة وعندما كانت تتحدث إلى "الشعب الإنجليزي". وذكر هوفينز Huffines (١٩٨٠م ، ص ٤٧) استخدام المصطلحات ذاتها. وبالطبع فليس المقصود هنا المواطنين من إنجلترا، وإنما ببساطة الأمريكيون الذين يمكن وصفهم بأنهم يتحدثون الإنجليزية. واستخدام مماثل لتسمية "ألماني" يستخدمها الفلاحون الذين يتكلمون المجرية في أوبروارت (غال ١٩٧٩ : ١٠٧): "غالبا ما يقول الآباء الفلاحون عن أبنائهم الذين توظفوا في مكاتب وأعمال تجارية ويقصدون المقاهي والحوانيت في وسط المدينة إنهم أصبحوا "U ma egiz nimet" أي أصبح هو أو هي ألمانيا تماما". وهذا لا يشير إلى جنسياتهم والتي دائما ما تذكر بأنها نمساوية، أو إلى قدراتهم اللغوية؛ لأنهم ثنائيو لغة وغالبا ما يتحدثون المجرية والهنغارية في المنزل، ولكنها تشير إلى العلاقة الرمزية القريبة بين الوظائف التي يعمل بها أبناؤهم، والمنزلة، واللغة الألمانية."

وثنائية اللغة مطلب سابق تقريبا على التحول اللغوي، ولكن هناك العديد من المجتمعات ثنائية اللغة مستقر تماما. وقد يكون أول علامة للتحول هو بدء استخدام لغة في مواضع كانت في السابق مخصصة للغة الأقدم. وقد يظهر هذا مثلا في مقياس تضميني مشابه للذي عملته غال. وسيتضمن المقياس لمجتمع متحول المحاورين أو المجالات المميزة جدا للمجتمع التقليدي في إحدى النهايات حيث يوجد الاستخدام الأكثر للغة التقليدية ويوجد في النهاية الأخرى المحاورون أو المجالات المرتبطة بالمجتمع الآخر. وسيستخدم المتحدثون الأكبر سنا اللغة التقليدية في معظم الظروف، بينما يدفع المتحدثون الأصغر سنا باللغة الجديدة إلى الاستخدام في معظم المجالات. ويجب تفسير نمط كهذا بحذر شديد. أولا قد يكون هناك أنماط "منحرفة" تشير إلى نقيض

التوجه، وثانيا ، قد لا يكون التوزيع بحسب العمر أحد مظاهر التغير ، ولكن قد يعكس تغيرات في الاستخدام اللغوي من فترة في حياة الإنسان إلى فترة أخرى.

وللمراحل المتأخرة من التحول عدد من المميزات. أولا ، قد تعتبر اللغة المتحول عنها أدنى من اللغة القادمة. ليس هذا فحسب، ولكنها قد تعتبر أيضا أدنى من ضرب أو أكثر من ضروب اللغة نفسها- أما ضرب اللغة النموذجية المكتوبة أو ضروب اللغة المحكية في المجتمعات التي حافظت على اللغة أو كلتيهما معا. وسيكون هناك أيضا اقتراض غير متوازن -تقترض كلمات من اللغة الجديدة بحرية وتَدْخُل اللغة التقليدية، ولكن الاقتراض في الاتجاه المعاكس أقل شيوعا. وإذا كان الدين أحد الأمور التي تختلف فيها المجموعة المتحولة عن المجتمع الآخر، فإن التحول سيكتمل تقريبا عندما تمارس الشعائر الدينية باستخدام اللغة الجديدة. وبالطبع فإن العلامة الواضحة لمراحل التحول الأخيرة هي عندما ينقل الآباء ثنائيو اللغة اللغةَ الجديدة فقط إلى أبنائهم.[٢٢]

وبأخذ المنظور الأوسع، فهناك ظروف معينة كبيرة اجتماعية اقتصادية تشجع التحول، ولكنها لا تضمن حدوثه. فالناس الذين يعيشون في المراكز الحضرية الصناعية أو التجارية إذا كانوا من متحدثي لغة المجموعة الصغيرة هم في الغالب من سيتحولون أكثر من غيرهم إلى اللغة الأكثر تداولا. أما الناس الذين يعيشون في مناطق معزولة جغرافيا أو يعملون في الزراعة ففرصتهم في المحافظة على لغة الأقلية أكبر.[٢٣] ويبدو أن تحسن وسائل النقل والاتصال في مراكز الثقافة المرتبطة باللغة الجديدة سيشجع على التحول، كما يفعل تدفق الناس من المجموعة الأكبر، ولكن هذه العوامل الكبيرة هي شروط فقط يمكن لها أن تتسبب في أن يقوم مجتمع ما بتعريف نفسه كجزء من المجموعة الجديدة أو الأكبر. وأفضل طريقة لاكتشاف ما إذا كان التحول اللغوي في الواقع في طور التطور الآن هو بحث إثنوغرافي يتعامل مع المجتمعات

الكلامية الواحد تلو الآخر.

ودراسة ليبرسون (١٩٧٢) الديموغرافية لثنائية اللغة في الفرنسية والإنجليزية في مونتريال هي حالة واضحة لثنائية اللغة الثابتة. فبالرغم من حقيقة وجود تغيير نمطي في عدد المتحدثين للغتين بحسب العمر، فإن هذه الأنماط ليست دليلا على تحول من خلال الوقت، ولكنها حالة من التقدم بالعمر. فيستخدم متحدثو الفرنسية الكنديون في مونتريال الإنجليزية فقط عندما يتطلب استخدامَها مجالٌ معين، كالتوظيف مثلا، ولكنهم سيتركون استخدامها بالتأكيد حالما ينتهون من العمل ضمن ذلك المجال، مثلا بعد التقاعد. على أية حال، فليس هناك توجه على الإطلاق لنقل اللغة الإنجليزية إلى أبنائهم، ولكن على العكس من ذلك، فالغالبية العظمى من الأولاد، ممن هم في سن أصغر من سن الذهاب إلى المدارس، أحاديون باللغة الفرنسية فقط.

وتشير دراسة هنود تيوا في نيو مكسيكو على أساس بيانات استبيان غير كاملة إلى أن الهنود قد حافظوا على لغة تيوا لمدة تجاوزت القرن الماضي أو ما يقارب ذلك، بينما تحولت اللغة العليا للمجتمع من الإسبانية إلى الإنجليزية. وتقترح البيانات بشكل ما أن التحول من تيوا إلى الإنجليزية ربما قد بدأ، ولكن تقترح مؤشرات أخرى عدم وجود تحول الآن، أو حتى وجود تغير عكسي حاليا من أنماط تحول إلى أنماط محافظة وإبقاء. على كل حال، فمن المستحيل، دون معرفة عميقة بقيم المجتمع المرتبطة باللغة أو على الأقل وجود بيانات مسح جيدة، القول بما إذا كنا نتوقع إبقاءَ على اللغة أو تحولا عنها في المستقبل.

هوامش كمراجع إضافية

بغض النظر عن المراجع التي وردت في هذا الفصل، هناك دراسات حديثة حول الإبقاء والتحول اللغويين، منها: دراسة أدلر (١٩٧٧) وجونز (١٩٧٩)

(بالإضافة إلى لويس ١٩٧٨) على اللغة الويليزية، وأغنيو (١٩٨١) على السويدية والفنلندية، وكتاب وجسون دي كناب (١٩٧٩) على جماعة الأمريكان الأصليين، وبيريز ألونسو (١٩٧٩) على لغة الكلاتلان في إسبانيا، ووود (١٩٨٠) على الفلاندريين الفرنسيين. وويكسلر (١٩٨١) هي في جزء منها دراسة عن الإبقاء والتحول في المجموعات السكانية للأقليات اليهودية. وفيشمان (١٩٧٦) وفيشمان وآخرون (١٩٧٧) هما دراستان عن الانتشار العالمي للإنجليزية كحالة من التحول اللغوي. ودراسة كوبر (١٩٨٢) هي مجموعة من المقالات عن انتشار اللغة كظاهرة عالمية.

هوامش

(١) القول بأن تحليل المجال هو "طريقة أخرى لقول الشيء نفسه" كازدواجية اللغة يتضمن أن المجالات دائما تنظم على طول متصل من اللغة الأعلى إلى اللغة الدنيا. ويبدو هذا لي صحيحا، ولكنني لاحظت أن بعض المختصين باللسانيات الاجتماعية قد لا يوافقون على هذا.

(٢) نوقش في الجزء الثاني من هذا الكتاب الاختلاط، وهو نشوء لغات "بسيطة" تحت ظروف لسانية اجتماعية معينة.

(٣) من الدراسات الكلاسيكية في الحقل مجموعة دراسات فيشمن (١٩٦٦) عن الولاء اللغوي بين مجموعات المهاجرين في الولايات المتحدة. فمعظم الدراسات السابقة للتحول والإبقاء اللغويين تعاملت مع المهاجرين.

(٤) بالرغم من أن بعض البالغين الممثلين في الجدول رقم (٧,٥) قد ذكروا أنهم

يستخدمون الألمانية فقط مع "أبنائهم وأبناء جيلهم"، فحتى أصغر فرد في العينة قد ذكر أنه يستخدم الهنغارية فقط على الأقل في الصلوات والترانيم، واستخدام كلتا اللغتين على الأقل مع الأجداد وكبار السن. والشيء نفسه ينطبق على المتحدثين من الرجال في الجدول المشابه (غال ١٩٧٩، ص ١٢٢). وهذا يعني أنهم يعرفون كلا من الهنغارية والألمانية على حد سواء.

(٥) أوصي كثيرا القراء المهتمين باختلافات الاختيار اللغوي المتعلقة بالجنس بالاطلاع على غال (١٩٧٨ أ) كما أوصي به كل من يهوى قراءة عمل إثنوغرافي جيد عن الاتصال. وتقدم غال تحليلا عميقا ومقنعا كليا عن سبب كون النساء في أوبروارت هن اللائي يقدن التحول إلى الألمانية وأسلوب حياة العمل غير الزراعي. بالرغم من أنه من غير الواضح مدى تعميم تحليلها لحالات أخرى، فإنه أكثر تحليل مقنع على الإطلاق للاختلافات اللغوية بسبب الجنس على حد علمي.

(٦) لا يحدث هذا إذا كان متحدث الإنجليزية فقط يستمع للحديث من بعيد. وهذا يتضارب مع ما رأيناه في الفصل السابع عن القاعدة الثقافية في أوبروارت.

(٧) لم تحاول دوريان وصف أي نوع من أعضاء المجتمع الصغير الذي من المحتمل أن يستخدم الغيلية أو يخاطب بها، ولكن من غير المحتمل أن يكونوا هم الأشخاص الذين يعتبرون أكثر الأفراد التزاما بمجتمع الصيد، وهذا يشبه حالة أوبروارت.

(٨) كان النظام المستخدم هو أن يسلم كل ولد قطعة من الخشب تسمى بالقطعة الخشبية الصغيرة إلى ولد آخر عندما يسمعه يتكلم اللغة الغيلية. وفي نهاية اليوم أعيدت القطعة الخشبية بالترتيب نفسه الذي مرت به عندما ضرب بها كل ولد في العملية. ذكر تيم (١٩٨٠م، ص ٣٠) أن هناك نظاما مشابها جدا لهذا

يستخدم في إقليم برتياني شمال غرب فرنسا ضد الأولاد الذين يسمعون وهم يتحدثون لغة بريتون التابعة لإقليم بريناني في المدرسة.

(٩) بمعنى آخر، بدأت ازدواجية اللغة في التسرب. وفي المجتمعات التي تمر بتحول لغوي يزداد التسرب من قطرات إلى سيل.

(١٠) كان الدين هو مجال المجتمع الصغير في بريتاني كما هو الحال في شرق ساذرلاند وكانت لغة بريتون وحتى وقت قريب جدا هي اللغة الدنيا المستخدمة (درسلر ودواك ليودلتر ١٩٧٧م، تيم ١٩٨٠م). وكان دين المجتمع الصغير هو الكاثوليكية، وهو دين معظم أفراد المجتمع الفرنسي الأكبر. ولولا ضيق المساحة هنا لكان من السهل إظهار كيف أن التحول من بريتون إلى الفرنسية يوازي حالات شرق ساذرلاند وأوبروارت.

(١١) كان هناك العديد من الافتراضات لتفسير البيانات في الشكل رقم (٨.١). فقد افتُرض أن جميع ثنائيي اللغة هم متحدثون للفرنسية كلغة أم، وأن اللغة الثانية هي الإنجليزية فقط. والافتراض الثاني صادق فيما يخص بيانات الإحصاء السكاني، حيث كان السؤال يتعلق فقط بثنائية اللغة في اللغتين الرسميتين. وحتى يمكن حساب متحدث الفرنسية كلغة أم على أنه ثنائي لغة، فلا بد له من معرفة الإنجليزية. والافتراض الأول أبعد ما يكون عن الدقة، ولكن طالما أن متحدثي الفرنسية كلغة أم هم الأغلبية في مونتريال وطالما أن متحدثي الفرنسية كلغة أم هم في الغالب من ثنائيي اللغة أكثر من متحدثي الإنجليزية كلغة أم، فإن أي اتجاه في مجتمع متحدثي الفرنسية سيظهر بالتأكيد في بيانات المدينة ككل.

(١٢) يجب توخي الحذر أيضا عند تفسير ما نسميه "بمجموعة العمر الحقيقي". ماذا يعني حقا أن النسبة المئوية لتلك المجموعة من عمر ٠ - ٤ تمثل المقيمين في

مونتريال في تلك المجموعة العمرية في عام ١٩٤١م، والنسبة المئوية لمجموعة من عمر ١٠- ١٤ تمثل عينة كل من كان في ذلك السن يعيش في مونتريال عام ١٩٥١م. فقد لا يكون الناس هم نفس الناس. ولكن ليس من الواجب أن يكون الأفراد هم أنفسهم طالما أن العينتين قد أخذتا من مجموعات لها الخصائص الديموغرافية نفسها. وكان ليبرسون مقتنعا بعد تحليل دقيق للبيانات بأن التفسير الذي قدمناه عن المجموعات العمرية هو تفسير صادق (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ليبرسون ١٩٧٢م، ص ص ٢٥١-٢٥٢).

(١٣) يعتقد ليبرسون (١٩٧٢، ص٢٥٠) أن ثنائيي اللغة ينسون اللغة الإنجليزية عندما لا تكون قيد الاستخدام، كما ينسى الناس علم الجبر بعد مغادرة المدرسة إذا توقفوا عن استخدامه. ولكن تعلم اللغة يشبه تعلم ركوب الدراجة أكثر من تعلم الجبر، وفي رأيي أن التركيز يجب أن يكون على التوجه نحو التصريح بالثنائية اللغوية بدلا من أن يكون على الفقدان الفعلي للكفاءة باللغتين. الفرد المتقاعد قد يستمر في القدرة على تحدث الإنجليزية ولكن طالما أنه في منزلة لا تتطلب منه تقديم نفسه على أنه يعرف الإنجليزية لذا فلن يصرح بمعرفته بها.

(١٤) أنا ممتن لديفيد وأليس هل David & Alice Hull لتوزيع الاستبيان وجمعه، وكذلك لمساعدتهم القيّمة على إعداده.

(١٥) عملت أيضا غال (١٩٧٩م، ص ص ٢٦، ١٣٤) مقابلات شخصية مع ثمانية وأربعين فردا من مجتمع متحدثي الهنغارية في أوبروارت البالغ عدده نحو ١٥٠٠ فرد. ولكن المقارنة ليست عادلة تماما طالما أنها قد شاهدت عن قرب المجتمع ككل لفترة طويلة من الزمن، كما أنها كانت تعرف أفراد عينتها شخصيا، وكذلك قامت بمقابلات شخصية عميقة معهم بدلا من أن تقوم

ببساطة بتوزيع استبيان فقط.

(١٦) منطقة تاوس الشبيه بمجتمعات متعددة اللغة ناقشها هذا الكتاب أكثر من معظم المناطق في الولايات المتحدة. وبجانب هنود تيوا، هناك مجتمع التشيكانو الذين يستخدمون الإسبانية بكثرة، والإنجليزية هي اللغة الرسمية، وهي لغة التعليم، كما أنها لغة المجتمع الإنجليزي ولغة الاتصال بين الجماعات.

(١٧) حذفت بعض الإشارات القليلة لاستخدام الإسبانية.

(١٨) موازنة النسبة إلى نسبة العناصر في المكان المناسب مقياس غير دقيق لقياس الموازنة، ولكنه القياس الشائع الاستخدام. وقد حسبت موازنة النسبة للجدول رقم (٨,٢) على أساس الأعمدة من ١ إلى ٦ فقط. وبسبب عدم وجود تباين في العمود ٧ لم يكن ممكنا وجود انحراف.

(١٩) أثرت الفراغات بين المجموعات العمرية على مصداقية إحصاء سبيرمان في هذه الحالة. وكنتيجة لذلك فقد عومل الفرق بين متحدث عمره ٤٤ سنة ومتحدثين أعمارهم ٦٥ سنة، وهم في المجموعة العمرية التالية، بالأسلوب نفسه الذي نعالج به الفرق بين متحدثين أعمارهم ١٣ و ١٤ سنة. وقد يعني استخدام اختيار بيرسون أن المواضع في الجدول رقم (٨,٢) قد عوملت على أنها بيانات فاصلة، وسيكون خطأ فادحا التعامل معها على أنها بيانات ترتيبية.

(٢٠) وجدت غال كما يبين جدول رقم (٧,٥) الترتيب نفسه في أوبروارت حيث: إن "الإخوة والأخوات" أقرب إلى نهاية المتصل الألماني منه إلى "الأصدقاء من العمر نفسه والجيران".

(٢١) أنا ممتن لتاكاشي ناقاتا Takashi Nagata لهذه الإعادة المدهشة لجدولة بيانات تيو بحسب العمر.

(٢٢) ذكر تابورات كيلر (١٩٧٢) Tabouret Keller تباينا شيقا لهذا النمط لمنطقة بيزي آوك Pays d' Oc في فرنسا. حيث كان هناك تحول كامل تقريبا من اللغة المحلية باتوا إلى الفرنسية. فالأولاد يتعلمون الفرنسية أولاً ثم يتعلم العديد منهم اللغة المحلية باتوا فيما بعد. وسبب ذلك أن من المعتاد فصل الأولاد عن البالغين في بعض المواضع (مثلا الوجبات العائلية) حتى يبلغوا سن عشر سنوات. ومن الواضح أن البالغين ثنائيي اللغة يتحدثون الفرنسية فقط مع الأولاد الصغار، ولكنهم يستخدمون كلتا اللغتين مع بعضهم. وعندما تبدأ معاملة الأولاد كالبالغين، فتكون لديهم فرصة تعلم اللغة المحلية باتوا، ولكنه حتى هذا التعلم المتأخر نسبيا للغة المجتمع الصغير في طريقه إلى الزوال.

(٢٣) من الواضح أن مقاييس التحضر والمقاييس المشابهة ليست مُنْبئا جيدا عن التباين اللغوي لكل الدولة، كما أشار لذلك ليبرسون ودالتو وهونستون (١٩٧٥) وكما رأينا في الفصل الخامس.

الأهداف

١- أن يستطيع كتابة تعاريف للإبقاء والتحول اللغويين.
٢- أن يستطيع معرفة وجهي الموت اللغوي اللذين اهتم بهما اللغويون.
٣- أن يستطيع التعرف على الفروق في المنهجية لدراسة الإبقاء والتحول اللغويين من قبل المختصين بعلم الإنسان مقارنة مع المختصين بعلم الاجتماع.
٤- أن يستطيع شرح كيف أن التقدم بالعمر قد يعقد تفسير بيانات الإحصاء لمرة واحدة في دراسة الإبقاء والتحول اللغويين.
٥- أن يستطيع ملاحظة النوع الوحيد المسبب للإبقاء والتحول الذي يأتي من تحليل بيانات المسح والتعداد.

٦- أن يستطيع تعريف العلاقة بين ثنائية اللغة والأجيال الإنسانية لإمكانية التحول اللغوي.

٧- أن يستطيع ذكر أي من الأسباب الثلاثة شائعة الذكر للتحول اللغوي التي ذكرت في الدوافع نحو التحول اللغوي.

٨- أن يستطيع القول إلى أي مدى يعتقد المختصون بالتحول اللغوي أنهم قادرون على التنبؤ متى سيحدث التحول من لغة إلى أخرى.

٩- أن يستطيع ذكر ما إذا كانت الثنائية اللغوية للأغلبية في أوبروارت قد وجدت قبل أن يبدأ التحول، أو أنها قد وجدت قبل مباشرة التحول بوقت قصير.

١٠- أن يستطيع التعرف على العامل الاجتماعي الاقتصادي السطحي وعامل الهوية الاجتماعية الناتج الذي عمل في التحول اللغوي في أوبروارت.

١١- أن يشرح كيف أن هوية الفلاحين وأنماط الزواج قد عملت مع بعضها ضد الإبقاء على الهنغارية.

١٢- أن يعرف اللغة التي أصر أفراد مجتمع الهنغارية في أوبروارت على استخدامها كلغة تعليم، واللغة وأشكالها التي يفضلونها في الطقوس الدينية الكنسية.

١٣- أن يستطيع التعرف على العاملين اللغويين اللذين أثرا على التحول المذكور.

١٤- أن يستطيع تسمية آخر جماعة اجتماعية اقتصادية أبقت على اللغة الغيلية في شرق سازرلاند.

١٥- أن يتعرف على مظاهر حالة التحول اللغوي في شرق سوذرلاند التي تشبه حالة أوبروارت وتلك التي تختلف عنها.

١٦- أن يستطيع معرفة مصدر البيانات التي استخدمها ليبرسون في دراسته عن الإبقاء اللغوي في مونتريال.

١٧- أن يتعرف على الميزتين الموجودتين في طريقة ليبرسون بالرغم من أنها ليست مقنعة كدراسات غال ودوريان.

١٨- أن يستطيع تسمية المطلب السابق للتحول إلى الإنجليزية الموجودة في مونتريال.

١٩- أن يستطيع الاستشهاد بالدليل على الإبقاء على الفرنسية استناداً إلى مقارنة اللغة الأصلية للنساء ممن في سن الإنجاب مع الأولاد الأصغر سناً.

٢٠- أن يستطيع ملاحظة وصف نمط ثنائية اللغة بحسب المجموعة العمرية في الشكل رقم (٨،٢).

٢١- أن يستطيع معرفة تفسير ليبرسون لبياناته فيما يخص مجال التوظيف.

٢٢- أن يستطيع ذكر الحقيقة بأن دراسة المجموعة العمرية قد أظهرت تاريخ اللغة العليا في مجتمع تيوا.

٢٣- أن يستطيع معرفة ما يتضمنه عمر المخاطب إليه الذي بينه الجدول رقم (٨،٢) والقول بما إذا كان هذا النمط مشابها لنمط التحول في أوبروارت أم لا.

٢٤- أن يستطيع ذكر نمط الاستخدام اللغوي المبني على عمر المتحدث في مجتمع تيوا باستخدام البيانات في جدول رقم (٨،٢).

٢٥- أن يستطيع إعطاء تفسير ممكن لنمط عمر المخاطب إليه، وإن كان صحيحا سيعني أن ليس لهذا النمط أي تأثير على طبيعته سواء كان يظهر قيمة ثقافية أم لا.

٢٦- أن يستطيع معرفة "الانحرافات" الظاهرة من النمط السائد في الجدول رقم (٨،٢) والتي تشير إلى أنه قد يكون هناك مجموعة من الشباب الهنود في تيوا الذين يعيدون تأكيد لغة التيوا كرمز لهوية المجموعة.

٢٧- أن يستطيع معرفة وصف الدليل على التبديل اللغوي بين الأجيال في مجتمع تيوا.

٢٨- أن يستطيع معرفة خلاصة فاسولد حول ما إذا كان مجتمع تيوا في طريقه للتحول إلى الإنجليزية أو الإبقاء على تيوا.

الفصل التاسع

التخطيط والتقييس اللغويان

هناك حقيقة أساسية تتعلق باللغة، وهي أنها دائما في تغيّر مستمر. هناك طيف كامل من التنوعات اللغوية في العالم يبدأ من التنوعات الأسلوبية المحضة داخل اللهجة الواحدة ليصل إلى اللغات المنفصلة التي لها نظم مختلفة جوهريا للنطق والقواعد. ليس هناك تغير في تركيب اللغة فحسب، ولكن في استخدامها. فكما نعلم لا يستخدم المتحدثون الضروب اللغوية نفسها لجميع الأغراض، فقد يتحولون من استخدام لغة أو لهجة أو أسلوب واحد في مجال خاص إلى استخدام غيرها في مجالات أخرى. وقد يرفض مجتمع كلامي ما نقل لغة من لغات المجتمع التقليدية إلى الأجيال القادمة مما يؤدي إلى زوالها وموتها على الأقل ضمن ذلك المجتمع. وهذا يعني أن لدى المتحدثين دائما بدائل متاحة أمامهم، فهم في حالة اختيار دائم بين الضروب اللغوية المختلفة أو بين البدائل الموجودة ضمن نظام لغوي ما. فوجود البدائل يجعل عملية التخطيط أمرا ممكنا، وعليه ينظر إلى تخطيط اللغة عادة على أنه اختيار واضح بين البدائل. وهذا بدوره يتضمن وجد تقييم للبدائل ووجود تقييم للتي اختيرت على أنها الأفضل (جرنود ١٩٧١، ص ١٧، هوغن ١٩٦٦ب: ص٥٢). تم القيام بمحاولة لتوضيح أن البديل الذي اختير يفوق الاحتمالات الأخرى.

أنواع الاختيارات

على الرغم من المبالغة في التبسيط إلا أنه من الأنسب تقسيم أنواع الاختيارات

إلى صنفين شاملين. وقد سُمِّيَ هذان الصنفان بعدة طرق. على سبيل المثال، يتحدث نيوستوبني (١٩٧٠، ص ٤) عن اتجاه السياسة واتجاه التهذيب (الصقل). يشير اتجاه السياسة، من بين الأشياء الأخرى، إلى اختيار لغة قومية أو انتقاء لهجة لجعلها لغة نموذجية، كما يشير هذا الاتجاه إلى حل المشاكل المتعلقة بعلم الكتابة. يشتمل اتجاه التهذيب على اعتبارات الأسلوب والصوابية. وهناك تمييز مشابه ولكنه ليس متماثلا تماما نادى به جيرنود (١٩٧٣: ١٦-١٧) يتحدث عن تحديد اللغة وارتقائها. يعني تحديد اللغة انتقاء خيارات كبيرة الحجم من اللغات وذلك لاستخدامها لأغراض محددة. فإذا قررت أمة ما أن لغة معينة سوف تُستخدم كلغة رسمية أو ستُستخدم كوسيلة للتعليم في المدارس الابتدائية، فإن هذا مثال على تحديد اللغة. في حين يشير مصطلح ارتقاء اللغة بمفهومه الواسع إلى اختيار والبدائل وترقيتها ضمن لغة ما. فإذا ذكر كتاب قواعد ذو قبول واسع أن زمن المضارع التام في اللغة الإنجليزية يُستخدم بشكل صحيح مع الظروف الزمنية مثل "سابقا" already و"حتى الآن" yet، ولكن الماضي البسيط يختلف عن ذلك، فهذا إذن يعتبر نوعا واحدا من اختيار ارتقاء اللغة. فكما بحثت عن كلمة في قاموس لكي تجد الهجاء الصحيح لها، فإنك تعود إلى قرار الارتقاء اللغوي لمرجع موثوق. وبشكل تقريبي فإن "تطور اللغة" يعني عند جيرنود شيئا مماثلا لجزء من عنوان هذا الفصل، ألا وهو "التقييس اللغوي". ويتوازى عنده "تحديد اللغة" مع تخطيطها، ولكن فقط بالمعنى الضيق. ولكن من المناسب على مستوى أكثر شمولا تضمين التقييس اللغوي أو تطور اللغة كنوع من أنواع تخطيط اللغة.

تحديد اللغة

من المحتمل أن تكون القضية اللغوية الأكثر أهمية فيما يتعلق بتحديد اللغة في العالم هي اختيار اللغات القومية. وعندما أقول "اللغة القومية" فإنني أشير بذلك إلى

تعريف فيشمن للقومية والذي ناقشناه في الفصل الأول. فاللغة القومية هي أكثر من مجرد لغة الحكومة أو لغة التعليم، بل هي رمز لهوية الناس كمواطنين في تلك الأمة. هناك مشكلة مهمة تتعلق باختيار اللغة القومية وهي التواصل (هوغن ١٩٦٦ب: ٥٥، جيرنود وداس جوبتا ١٩٧١: ٢٠٨). إذا كان كل واحد في الدولة يتكلم فعليا لغة شائعة مشتركة، فإن مسيرة حياة الأمة ستكون بالتأكيد أكثر سهولة. ولكن إذا كان التواصل هو الموضوع الوحيد، فإن أيرلندا لم تكن لتقطع تلك الأشواط البعيدة كما فعلت حقا؛ لكي تعيد اللغة الغيلية الأيرلندية كلغة قومية لها (وهي حالة سوف تناقش بالتفصيل في الفصل العاشر). لم تكن الرغبة في تحسين الاتصال هي التي دفعت إيفار آسن لمحاولة تطوير لغة قومية موثقة في النرويج عندما كان لدى الدولة بالفعل معيار لغوي وحيد في شكل اللغة الدينونرويجية التي تسمى بوكمال (هوغن ١٩٥٩، ١٩٦٦ب). فمن الخطأ أن نفكر في تحديد اللغة القومية فقط وفق شروط التواصل[1].

ومن الخطأ أيضا أن نفكر في تخطيط اللغة للغات القومية فقط بالنظر للدول التي تشكل أمة. ففي جميع أنحاء العالم، هناك قوميات ليس لديها سيطرة سياسية على مناطقها التي تُبذل فيها جهود التخطيط للحفاظ على اللغات التي ترمز إلى قوميتهم. وليس لدى القوميات الفرعية السلطة التي لدى الأمم تحديد أي اللغات ستستخدم في التعليم العام أو في الخدمة المدنية أو العسكرية. ومع ذلك، فإن هذا لا يمنعهم من استخدام الوسائل التي يمتلكونها لمصلحة لغاتهم القومية. يورد جريفن (١٩٨٠) مثالا موثقا على التعقيدات التي يمكن أن تظهر في جهود تخطيط اللغة من خلال القومية الفرعية، وفي هذه الحالة فإنهم يمثلون الويلزيين.

ربما لا تكون اللغة القومية في بعض الحالات كافية لتنفيذ كل الوظائف رفيعة المستوى. تخدم اللغات القومية وظائف التوحيد والانفصال عند جارفن وماثيوت

(١٩٥٦)، ومع هذا فإن بعض الأنشطة البشرية يتطلب ما يدعو إليه جارفين (١٩٧٣ : ٣٠-٣١) وهو وظيفة المشاركة. تشير وظيفة المشاركة إلى المشاركة في التطورات الثقافية على مستوى العالم مثل العلوم والتكنولوجيا والتجارة الدولية والدبلوماسية. وحيث إن وظائف الانفصال والمشاركة تعارض بعضها (تشتمل وظيفة الانفصال على شعور بالتميز والتفرقة عن الأمم الأخرى في العالم، في حين تشتمل وظيفة المشاركة على درجة من الوحدة الدولية)، فلن تستطيع كل دولة أن تستخدم اللغة نفسها لكلتا الوظيفتين. أحد الأمثلة على ذلك يمكن أن تكون دولة تنزانيا حيث أن اللغة السواحيلية هي اللغة القومية الناشئة، ولكن من المحتم الإبقاء على اللغة الإنجليزية من أجل أغراض المشاركة وفقا لمنظور جارفين.

تطور اللغة

إذا استخدمنا تشبيها سطحيا وقارنا بين عملية تحديد اللغة واختيار الشخص لنوع وموديل سيارة جديدة، فإن تطور اللغة هو مثل إجراء التعديلات الجمركية على هذه السيارة الجديدة (أو ربما تكون سيارة قديمة لديك سابقا). يرى فيرجسون (١٩٦٨) ثلاث فئات لتطور اللغة: (١) الكتابة، (٢) التقييس، (٣) التحديث. تعني الكتابة تبني نظام للكتابة وتأسيس قواعد الهجاء والمبادىء الكتابية الأخرى مثل تكبير الحروف وعلامات الترقيم.[٢] أما التقييس بالنسبة لفيرجسون (١٩٦٨ : ٣١) فهو "عملية أن يصبح ضرب لغوي ما مقبولا على نطاق واسع في المجتمع الكلامي الذي يتحدث به باعتباره أكثر اللهجات معيارية و"أفضل" شكل من أشكال اللغة ويأتي في مرتبة أعلى من اللهجات الإقليمية والاجتماعية".[٣] أما بالنسبة للتحديث فيقصد فيرجسون "أن تصبح اللغة مساوية للغات المتطورة الأخرى كوسيلة للتواصل"

(فيرجسون ١٩٦٨ : ٣٢).

وهذا التعريف للتحديث هو مفهوم يحذر منه العديد من اللغويين ؛ لأنه ببساطة ينص على أن هناك لغات غير متطورة (متخلفة) ولا تساوي اللغات المتطورة كوسيلة للتواصل. فهناك إجماع في الرأي في مجال اللغويات على أن نظم النطق والقواعد الأساسية لأي لغة طبيعية كاف لإتاحة الفرصة لأي متحدث لهذه اللغة لكي يعبر عن أي شيء. بالطبع هناك بعض اللغات التي قد تفتقر إلى بعض المفردات للتعبير عن أشياء محددة ، ولكن من السهل إلى حد ما تصحيح هذا الأمر من خلال إضافة مفردات جديدة إليها سواء عن طريق نحتها أو اقتراضها من لغات أخرى. وبالفعل فإن تطور المفردات هو أحد الأمور التي كانت تدور في ذهن فيرجسون فيما يتعلق بعملية التحديث. فلكي تحدُّث اللغة لا بد أن تخضع اللغة المتطورة لتوسع في معجمها. ولكنه أيضا يشير إلى "تطوير أساليب وأشكال جديدة للحديث" (فيرجسون ١٩٦٨ : ٣٢). يستخدم جارفين (١٩٧٣ : ٢٧) مصطلح "العقلانية" والذي يرى أنه "يقابل تقريبا" مصطلح "التحديث" عند فيرجسون. ولمصطلح العقلانية وجهان : وجه معجمي ووجه نحوي (قواعدي). ويمكن وصف مميزات العقلانية القواعدية حسب ما يلي : "في القواعد ، تتجسد العقلانية في تطوير أساليب صياغة الكلمات وتطوير الوسائل النحوية بحيث تسمح بتشكيل جمل مركبة محبوكة بشكل جيد ومتقنة بالإضافة إلى التوجه نحو إزالة كافة أشكال الحذف من التعابير عن طريق الطلب بإنشاء تراكيب كاملة". ويشك في وجود لغات يستحيل فيها وجود جمل مركبة على الرغم من أنها قد تأتي في بعض اللغات غير محبوكة بشكل جيد. وفي الواقع يبدو أن كل اللغات لا تحتوي على تراكيب العطف النسقي فحسب وإنما تحتوي أيضا على نظائر اللغة الطبيعية لروابط العطف المنطقية مثل "و" ، "أو" ، و"إذا" - إذن بالإضافة إلى الأساليب النحوية الأخرى للإتباع أيضا. يتحدث جارفين عن "إزالة" أشكال

الحذف في التعبير، فإذا كان بالإمكان إزالة أشكال الحذف في التعبير فإنه يبدو أن أشكال التعبير الكاملة البديلة المطلوبة من اللغة العقلانية موجودة في اللغة ما قبل العقلانية، ولكنها غير مستخدمة.

الأمثلة التي يقدمها فيرجسون عن "الصيغ الجديدة للحديث" هي التفقير والتعاقب المرتب والانتقال والملخصات والإحالة... وغيرها. من الواضح أن هذه المواضيع هي أمثلة على أساليب استخدام اللغة وليست تراكيب قواعدية يجب إضافتها إلى لغة ما. يبدو لي على الأقل أن التحديث عندما لا يشير إلى المفردات يتعلق باكتساب مهارة في استخدام الموارد اللغوية التي تمتلكها لغة ما بالفعل. ولتقديم تشبيه سطحي آخر، تخيل أن لدي آلة حاسبة قادرة على حساب جيب الزاوية وجيب التمام وظل الزاوية وتحويل القيم العادية إلى درجات ودقائق وثوان وتنفيذ وظائف أخرى لا أحتاج إليها ولا أعرف كيفية تنفيذها. إذا احتجت في أي وقت لاستخدام هذه القدرات، فإنني أحتاج فقط إلى أن أصبح أكثر مهارة في استخدام الآلة التي امتلكها بالفعل، ولا أحتاج إلى تعديلها أو شراء واحدة جديدة. أظن أن المقارنة بتحديث اللغة تنطبق هنا. على الأقل، فإنني لم أر على الإطلاق أي مثال بلغة ما يستدعي تقوية بنائها القواعدي بطريقة ما قبل إمكانية استخدامها للوظائف العالية.(٤)

حينما يتعلق الأمر بالتوسع في المفردات، فإنه لا يهم كثيراً عالم اللغة أن تأتي هذه المفردات الجديدة من لغات أخرى (عن طريق الاقتراض) أو أن تشكّل من عناصر موجودة سابقا في اللغة.(٥) ومع هذا فإن الاقتراض مقابل النحت غالبا ما يصبح أمرا عاطفيا في الممارسة العملية. وفي الغالب ستحاول واسطة للتخطيط "تنقية اللغة" عن طريق استبدال الكلمات المقترضة من اللغات الأخرى بكلمات منحوتة جديدة. وحيث إن نحت الكلمات لا يتعارض مع ما يمكن لأعضاء المجتمع أن يكونوا مستعدين للقيام به، فمن المتوقع لهذا التوجه أن ينجح بشكل جيد. يذكر هوغن

(١٩٦٦ب: ٦٤) أن نحت كلمات جديدة بالنسبة لظواهر العقلانية تم بشكل ناجح تماما في استونيا ولتوانيا. ويرجع ذلك بالتأكيد إلى أن هذه الكلمات المنحوتة كانت مقبولة بشكل عام لمستخدمي هاتين اللغتين. لكن عندما تكون الكلمات المقترضة هي في الواقع قيد الاستخدام من قبل المتحدثين والكتاب بشكل منتظم، فإن محاولة التخلص منها من المحتمل أن تبوء بالفشل. كان لأتاتورك السيطرة الكاملة على الحكومة التركية ، كما أنه كان يرغب كثيرا في أن يتخلص من الكلمات المقترضة من اللغات العربية والفارسية وأن يزيلها من اللغة التركية ولكنه واجه معارضة شديدة فرضت عليه أن يحصر أهدافه في تخطيط المفردات. يعتبر إحياء اللغة العبرية في إسرائيل إحدى قصص النجاح العظيمة لتخطيط اللغة ، ولكن محاولة تنقية اللغة العبرية من الكلمات المقترضة من اللغات الأوروبية لم تكن لتشكل جزءا من هذا النجاح (موراج ١٩٥٩).

مفهومان من مفاهيم تخطيط اللغة

الطريقة الوسيلية

يتبنى معظم طلاب تخطيط اللغة إحدى وجهتي النظر التاليتين: *الطريقة الوسيلية أو الطريقة الاجتماعية اللغوية*. تنظر الطريقة الوسيلية إلى اللغة كأداة في الأساس (ويعتبر تاولي ١٩٦٨ أكثر المناصرين المعروفين لهذه الطريقة علما أن ري ١٩٦٣ و١٩٦٨ يتبنى الموقف نفسه إلى حد ما). وكما أن العمل سيكون أسهل للعمال الميكانيكيين إذا توافرت لديهم الأدوات الميكانيكية النموذجية، فإن التواصل يصبح أسهل إذا قيِّست اللغة. فالمعايير الوحيدة التي يجب استخدامها في تقييس الأدوات الميكانيكية تتعلق بإمكانية جعل هذه الأدوات أكثر ملاءمة للمهمة المستخدمة من

أجلها، ومن خلال وجهة النظر هذه فإن الشيء نفسه ينطبق على تقييس اللغة. تعتبر بعض اللغات أفضل من بعضها الآخر في موازنتها بين الجمال والوضوح والمرونة والإيجاز، ويجب اختيار هذه اللغات بدلا من اللغات الأخرى الأقل كفاية كلما أمكن. وعندما يتعذر ذلك، يجب استخدام تخطيط اللغة لتحسين نوعية اللغات التي تفتقر إلى الكفاية. ومن سمات الطريقة الوسيلية أنها تعتبر بعض اللغات أفضل ذاتيا من اللغات الأخرى، كما تضع ثقة عظمى في الجهود الحثيثة لتحسين اللغات التي تفتقر إلى الكفاية. ولكن القيمة الرمزية للغة والمواقف اللغوية ليست من الأشياء التي تدخل في حسبان هذه الطريقة.(٦)

الطريقة الاجتماعية اللغوية

أسمّي هذه الطريقة الثانية بالطريقة الاجتماعية - اللغوية مبينا بوضوح الواصلة بين الكلمتين، وذلك لتأكيد أن هذه الطريقة تبدأ بإدراك المشكلة الاجتماعية المتعلقة باللغة. والعلماء وأصحاب هذا التوجه الفلسفي لا يحاولون تحسين المميزات الجمالية والوظيفية للغات كأدوات وسيلية، بل بدلا من ذلك ينظرون إلى اللغة كمصدر يمكن استخدامه في تحسين الحياة الاجتماعية. تحاول هذه الطريقة في ممارسة تخطيط اللغة تحديد البدائل اللغوية التي من الممكن أن تحسن الحالات الإشكالية. ومن ثَمّ تتَّخذ الخطوات المنظمة التي تحقق أفضل البدائل الكفيلة بإنجاح هذا التوجه. والعلماء أتباع هذا التقليد يشككون في فكرة الطريقة الوسيلية، وذلك من حيث إمكانيتها في تحديد العنصر الأكثر كفاءة في اللغة بالمعنى المطلق والتخطيط لذلك (فيرجسون ١٩٦٨، جيرنود وداس كوبتا ١٩٧١، وجيرنود ١٩٧٣: ١٤، وروبن ٤: ١٩٧٣). وكما يقول جيرنود (١٩٧٣: ١٤) "إذا كان المجتمع يفتقر إلى وجود لغة مشتركة، فإن الأمر لا يهم كثيرا إذا كانت الجهود الأولى لإغلاق تلك الفجوة جميلة لغويا (بأي معنى

مطلق) أم لا". وأفضل حل هو الذي يعمل بشكل أفضل لتخفيف المشكلة الاجتماعية.

يتبنى العلماء الذين يعملون في هذا الإطار فكرة التخطيط بشكل جدي. يجب عند التعامل مع المشكلة الاجتماعية المتعلقة باللغة، كما في حالة التعامل مع المشاكل الاجتماعية بشكل عام، تنظيم الحقائق ومعرفة البدائل المتاحة وتقييمها وتصميم الخطوات وتنفيذها لتنفيذ الخطة بعناية، وإصدار الأحكام على مدى نجاح الخطة (روبن ١٩٧٩، ١٩٧٣، جيرنود ١٩٧٣، جيرنود وداس كوبتا ١٩٧١). هذه الدرجة من العناية في عملية التخطيط يشار إليها أحيانا باعتبارها فكرة مثالية نادرا ما تتحقق في الواقع الفعلي.

الاعتبارات العملية

من؟ وكيف؟

من:

لقد تعرفنا على شيء يتعلق بتخطيط اللغة وأنواع الاختيارات المتاحة في ذلك التخطيط، والاتجاهين الرئيسين الفلسفيين المتبعين في التخطيط. ويبدو من المنطقي أن ننظر إلى من يقوم بتخطيط اللغة وكيف يتم التنفيذ. إن الإجابة على السؤال "من يقوم بتخطيط اللغة؟" هو أمر مدهش إلى حد ما، حيث يمكن لأي شخص أن يقوم بذلك (هوغن ١٩٦٦ ب، ري ١٩٦٨، جيرنود ١٩٧٣، روبن ١٩٧٣). بالطبع فإن الحكومات تتمتع بوضع يمكنها من تخطيط ذلك على نطاق واسع (ولكن ليس بالضرورة أن تكون الأكثر نجاحا) خاصة فيما يتعلق بالقرارات التي تؤثر على اللغة. كان القرار الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ نحو عشرين عاما مضت والذي يتعلق بالسماح باستخدام اللغات الدارجة بدلا من اللغة اللاتينية وكذلك أيضا

التعديل الأخير في لغة الطقوس الدينية في كنيسة إنجلترا هي كلها أمثلة على تخطيط اللغة في المجال الديني. توجد في بعض الدول أكاديميات للغات، حيث يصدر الخبراء القرارات عن الاستخدام الصحيح للغاتهم. أما بالنسبة للعالم الذي يتحدث اللغة الإنجليزية فقد كان هناك مواطنان عاديان قاما بتأليف القواميس وكان لهما تأثير عميق على تقييس المعاني وهجاء الكلمات، وهما صامويل جونسون في إنجلترا ونوح وبستر في الولايات المتحدة الأمريكية .

في بدايات استعمال الطباعة، كان الأفراد الذين قرروا كيفية استخدام اللغة في الإصدارات الأولى هم السباقون إلى وضع الأسس التي أثرت إلى حد كبير على تحديد ما هو صحيح في اللغة المكتوبة ولفترات طويلة تالية. فإن ترجمة لوثر للإنجيل إلى اللغة الألمانية كانت واحدة من الأعمال الأولى التي صدرت على نطاق واسع وكان لها التأثير القوي على تقييس اللغة الألمانية. أما في النصف الآخر من القرن الخامس عشر، أحضر ويليام كاكستون واحدة من المطابع الأولى إلى إنجلترا من أوروبا واستخدمها لنشر مخطوطات متعددة. ومن خلال هذه العملية عمل كمحرر لكل شيء قام بنشره، وحاول اتخاذ قرارات متلازمة حول الأشكال المختلفة للقواعد والهجاء في المخطوطات التي استلمها. وبهذه الطريقة كان له تأثير قوي على عملية تقييس اللغة الإنجليزية أكثر مما كان يمكن أن يكون لغيره ممن عاشوا في فترة مختلفة (شاكلي ١٩٨٠: ٤٨). أما في هذا القرن الذي نعيشه وحتى هذا اليوم فإن الإرساليات التي تنفذ برامج محو الأمية في اللغات السابقة غير المكتوبة هم غالبا أناس قرروا كيفية كتابة هذه اللغات وقرروا اللهجات التي تُستخدم لأغراض الكتابة.(٧)

قدم جيرنود (١٩٧٣: ١٨-١٩) القائمة المختصرة التالية لعوامل تخطيط اللغة إضافة إلى الحكومات:

١ - الوكالات الوطنية غير الحكومية على سبيل المثال، غرفة التجارة في

سنغافورة التي أعدت وأصدرت اختبارات لغة وكتيبا عن أسلوب اللغة للمراسلات التجارية بلغة المالاي.

٢ - الوكالات غير الوطنية وغير الحكومية، مثل شركة شل التي تقدم مجموعة المصطلحات الخاصة بالبترول في ماليزيا بلغة الملاي - وتؤثر على تطور اللغة في خطط التدريب وإعداد الموظفين.

٣ - وظيفة تنقيح ومراجعة الصحف اليومية.

٤ - المؤلف المستقل، أو كاتب الرسائل، أو حتى الخطيب المتحدث.

ويذهب جيرنود للتأمل فيما إذا كان من الملائم التحدث عن تخطيط اللغة في حين يحدد مدير مكتب ما الكلمات التي يمكن استخدامها وأي الكلمات التي لا يمكن استخدامها في المراسلات في مكتبه، أو عندما تتجادل مجموعة من طلبة الجامعة حول النطق الصحيح لبعض الكلمات. يوضح ري (١٩٦٨ : ٧٦٤) أن جهود هيئات التأسيس تعتمد في نجاحها على ما قررت أن تفعله "الهيئات الأقل مستوى" من النوع الذي يتحدث عنه جيرنود.

"بمعنى آخر، فإن أي إجراء رسمي ينظِّم من قبل هيئة معترف بها مثل الدولة أو الكنيسة أو جمعية أو مؤلف، يمكن أن يكون ناجحا في مقصده لتشجيع أو عدم تشجيع عادات لغوية فقط إذا كان ذلك الإجراء يتعلق إلى حد كبير بالإجراء غير الرسمي وغير المنظم من جانب الهيئات المحلية المتعددة."(٨)

كيف:

إن السؤال كيف تخطَّط اللغة؟ يتعلق بمراحل التخطيط والتنفيذ لعملية تخطيط أكبر. يوجز روبين (١٩٧١ : ٢١٨-٢٠) الخطوات الأربع الخاصة بهذه العملية على النحو التالي :

١ - تقصي الحقائق: يجب أن تتوافر هناك كمية كبيرة من المعلومات عن خلفية الموضوع قبل أن يتخذ أي قرار تخطيطي بشأن ذلك.

٢ - التخطيط: هنا تتَّخذ القرارات الفعلية، "يحدد المخطط الأهداف، ويختار الوسائل (الاستراتيجيات) ويتنبأ بالمحصلة" (روبن ١٩٧١: ٢١٩).

٣ - التنفيذ: تنفَّذ قرارات التخطيط.

٤ - ردود الفعل: في هذه المرحلة، يكتشف المخطط مدى نجاح تنفيذ الخطة.

إن النظام التعليمي هو الأداة الرئيسية التي تستخدمها الحكومات في تنفيذ قرارات تخطيط اللغة. إذا اختيرت لغة ما لتكون اللغة القومية، فيمكن للحكومة أن تأمر بتعليمها كمادة دراسية لكل الطلاب في المدرسة، أو أن تأمر بأن تكون وسيلة تعليم لتدريس مواد أخرى. وإذا كان هناك قائمة رسمية بالكلمات المبتكرة الجديدة، يمكن تدريسها أيضا في المدارس كما هو الحال بالنسبة للتعديلات الإملائية والهجاء القياسي. يمكن، في الحالات القصوى، منع طلبة المدارس من تحدث اللغات غير المعتمدة في المدارس. لقد مررنا عبر بعض الحالات التي يتحدث فيها الأطفال اللغة الجوارنية في مدارس باراجوي واللغة الغيلية في المدارس الأسكتلندية، حيث يعاقَب الأطفال جسديا في حالة تحدثهم لغات غير معتمدة في المدارس. وعندما يخبر المدرس الطلبة الصغار بالا ينطقوا كلمة معينة مثل "ain't"، فإن هذا مثال ثانوي على استخدام النظام المدرسي في تنفيذ تخطيط اللغة أو على الأقل معاملة اللغة.(٩)

يمكن للحكومات أيضا طلب الكفاءة في لغة معينة كشرط أساسي للعمل في مجال وظائف الخدمة المدنية. وهذا يشكل عاملا مؤثرا في الدول التي يكون فيها مجال الخدمة المدنية والعمل المدني هو إحدى الطرق القليلة للتقدم الاقتصادي والاجتماعي للفرد. إن اللغة التي تستخدمها الحكومات في الحوارات التشريعية واللغة التي تكتب بها نصوص القانون والوثائق الحكومية تصدر أيضا كوسائل يمكن استخدامها لتشجيع

لغة ما مختارة أو ضرب لغوي ما. ويكون للغة التي تُستخدم في المجال العسكري تأثير عميق وخاصة في دولة تتميز بالتجنيد الالزامي العسكري. إذا كانت الحكومة تتمتع بالسيطرة الكافية، فيمكنها تنظيم اللغة التي تختارها لتكون المستخدمة في الوسائل المطبوعة ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة، كما يمكنها تحديد اللغة التي تنشر بها الكتب. يمكن للحكومات التي لا تمتلك السيطرة الكافية أن تحاول التأثير على استخدام اللغة في وسائل الإعلام وكذلك في الوسائل المطبوعة من خلال تقديم إعانات أو إعفاءات ضريبية عند استخدام اللغة التي تفضلها. يقدم راي (١٩٦٨ : ٧٦١) قائمة بوسائل محددة يمكن للحكومة أن تستخدمها للتأثير على كيفية استخدام اللغة في أعمال النشر.

لا تمتلك وكالات تخطيط اللغة غير الحكومية وسائل كثيرة تحت تصرفها. فالجمعيات المهنية تستطيع أن تصدر قوائم بالمصطلحات الرسمية ككتيبات إرشادية لأعضائها. ولمؤلفي الكتب الإرشادية في القواعد والاستخدام تأثير على استخدام اللغة إلى حد أنه يُرجع إلى أعمالهم للبحث عن الجوانب الصحيحة في استخدام اللغة. وكما أشار جيرنود فإن الأعمال والمنظمات التجارية لها تأثيرها على اللغة من خلال تدريب الأفراد والموظفين، وخاصة الدول التي تحاول تحديث لغة قومية جديدة. لدى الهيئات التي تحاول المحافظة على اللغات القومية للقوميات الفرعية خيارات مثل تقديم دورات مسائية، وعروض مسرحية، وأنشطة ثقافية باللغة التي تود معاملتها. وسياسيا، بإمكانهم الضغط على حكومة البلد التي يعيشون فيها لكي تدعم استخدام لغتهم.(١٠) وللأفراد تأثير أيضا على استخدام اللغة. فالروائي الموهوب والشاعر والكاتب المسرحي وصانع الأفلام السينمائية ذو السمعة الجيدة، إذا قاموا بإصدار أعمال بلغة ما ، فإنهم يجبرون الجمهور المتلقي على تعليم تلك اللغة، خاصة إذا رغبوا في معرفة هذه الأعمال. وسيكون هذا الأسلوب أكثر فاعلية إذا قامت مجموعة

من الفنانين الموهوبين باتباع هذا النوع من الممارسة.

حتى الأفراد المتحدثون للغة ما يمكنهم اتخاذ خطوات في صالح لغة محددة. ولقد قام بذلك فعلا بعض ثنائيي اللغة البارزين من المتحدثين الأصليين للغة الفرنسية في سويسرا عندما رفضوا استخدام اللغة الألمانية مع المتحدثين الأصليين لها من السويسريين على أساس أن السويسريين الفرنسيين كانوا دائما هم الذين يجب عليهم التماثل لغوياً للتكيف مع مواطنيهم من السويسريين الألمان. ويذكر غايلز وبورهيس وتيلور (١٩٧٧) مثالا متطرفا جدا لرجل ويلزي كان قد رفض أن يتحدث بأي لغة أخرى سوى لغة ويلز خارج نطاق عمله. فإذا كان من يتحدث معه يعرف القليل عن لغة ويلز ، فإن هذا الرجل يتحدث إليه ببطء ، ولكنه يتطلب من الشخص الآخر أن يعتمد على المقدرة اللغوية التي يمتلكها عن لغة ويلز. وإذا كان الشخص الآخر يتحدث باللغة الإنجليزية فقط ، فإن هذا الرجل الويلزي يتحدث إليه بلغة ويلز فقط ، ولكنه يترجمها إلى اللغة الإنجليزية جملة جملة.

قيود التخطيط اللغوي

تحليل الكلفة والفائدة

يرتبط أحد العوامل المقيدة للتخطيط اللغوي بدراسة التكاليف والفوائد ، وحتى لو تسنى إحداث تغيير جدير بالتحقق فإن التخطيط الجيد يعني أن الفوائد التي يخلص مجتمع ما إلى كسبها سوف تُقارن بالتكلفة. إن تحليل الكلفة والفائدة أسلوب يستخدمه الاقتصاديون أحيانا ، وسبق أن تطرق ثوربيرن (١٩٧١) وجيرنود (١٩٧١) لمناقشة كيفية تطبيقه على تخطيط اللغة. وقد عرف ثوربيرن (١٩٧١ : ٢٥٦) تحليل التكلفة - والفائدة في تخطيط اللغة على النحو التالي: " تحليل التكلفة - الفائدة في

تخطيط اللغة هو في الأساس محاولة لتبيان الفرق في النتائج بين بديلين محددين في تخطيط اللغة." إن استخدام هذا الأسلوب في العمل التجاري أبسط بكثير مما هو في تخطيط اللغة. والتطبيق النموذجي في التصنيع سوف يكون بحساب تكلفة الأجور والمواد، وبالتالي مقارنة النتيجة بالأسعار التي يباع بها المنتج. إن تطبيق الأسلوب نفسه على مشكلة الإدارة العامة كما هي الحال في تخطيط اللغة من قبل الحكومة، لن يكون دقيقا ومستقيما وذلك لعدة أسباب: أولا، لا يدفَع مبلغ محدد عن نتائج القرارات في وقت محدد. بل في الواقع إن مجمل التكاليف وغالبية نتائج تخطيط اللغة لا علاقة لها بالنقود إلا بشكل يسير جدا. ثانيا، قد لا تكون نتائج قرارات التخطيط في الإدارة العامة واضحة تماما لزمن طويل، إذ كلما وصل التخطيط مستقبلا لأبعد مدى كلما كانت النتائج غير محددة. ومع ذلك فلا بد من الأخذ بعين الاعتبار موضوع التكييف مع هذا الأسلوب وفق الخطوط العريضة التالية:

المطلب الأول لتحليل التكلفة - الفائدة هو الحصول على الأقل على خطتين بديلتين واضحتين ووضعهما تحت التحليل. إن تحليل التكلفة - الفائدة هو تحليل مقارن، فعلينا أن نعرف أي أسلوب عمل من الأساليب الموجودة هو الذي سيحقق أقصى الفوائد بأقل تكلفة. فبمجرد وضع البدائل، فلا بد من ثلاث خطوات تتبعها: (١) تحديد نتائج اختيار أحد أساليب العمل دون غيره، (٢) تحديد القياس، و(٣) تقييم تلك النتائج (ثوربيرن ١٩٧١: ٢٥٧). والتقييم ضمن هذا السياق بالنسبة لثوربيرن يعني التقييم النقدي، وهنا تنشأ معضلتان أساسيتان، فيمكن أن تحَدَّد النتائج بشكل أكثر من قياسها وأخرى يمكن قياسها أكثر من تحديدها، ولكن لا يمكن تقييمها نقديا. مثلا، لنفترض أن جزءا من الخطة يدعو إلى إصدار ديوان شعر بلغة قومية جديدة. وإنها لمسألة بسيطة منطقيا حساب تكلفة دفع عمولة الشاعر ونشر المجلد وتوزيعه. وقد يكون من الممكن أيضا تقييم عدد الناس الذين سيقرؤون الديوان، وإلى

أي حد يمكن استعراضه في الصحف الأدبية ودراسته في المناهج الدراسية الجامعية. وهذه المقادير دون شك يمكن أن تكون مقياسا للزيادة في وضع اللغة القومية الجديدة باعتبارها أداة للأدب الجاد. تحظى المكانة الأدبية للغة القومية بقيمة معتبرة عند أي أمة من الأمم، ولكن من الصعوبة بمكان ترجمة هذه القيمة إلى معنى نقدي مالي.

هناك نتائج أخرى من المحتمل أن يتعذر حتى قياسها. فإذا كان بالإمكان تأسيس لغة أهلية كلغة قومية تقوم بعملها فعلا، فإن مثل هذا العمل سوف تكون له أهمية كبيرة لوحدة الأمة واستقرارها. ولكن من الصعوبة بمكان أن يتخيل المرء كيف يمكن التعبير عن مثل هذه المزايا، كالوحدة والاستقرار، بشكل رقمي، فما بالك بشكل نقدي. فهناك بعض النتائج يمكن من حيث المبدأ قياسها وتقييمها معا، ولكن مع قدر كبير من عدم التأكد واليقين. فعلى سبيل المثال، يمكن للمرء أن يجادل بأنه يمكن لخطة تدعو إلى ترويج لغة عالمية مثل الإنجليزية أو الروسية في مجال الأعمال التجارية العالمية أن تزيد من مردود التجارة الخارجية للدولة. وإذ ما قورنت هذه الخطة مع خطة بديلة تدعو إلى استخدام لغة أهلية - وهي لغة لا يتكلم بها أحد خارج القطر - فإنه من المحتمل أن تقدَّر وتقارن القيمة النقدية المالية لحجم التجارة الخارجية بموجب هاتين الخطتين. والمشكلة هنا أن تقديرات من هذا النوع لن تكون دقيقة.

أعتقد أنه من الواضح أن تحليل "التكلفة - والفائدة "ليست صيغة سحرية يمكن أن يتمخض عنها أرقام مرتبطة بالبدائل لدرجة أن ما يجب على المحلل أن يفعله يكمن فقط في التقاط الرقم الذي يشير إلى الفوائد القصوى بأقل تكلفة. وكما يقول ثوربيرن (١٩٧١ : ٢٥٧) : "حساب الكلفة - الفائدة يمكن أن يكون أكثر ملاءمة كتحليل مساند بدلا من أن يكون أساسا كافيا للقرار النهائي." ومع ذلك، فإن إنجاز تخطيط اللغة مع تحليل توضيحي للتكلفة - والفائدة يجبر المخطط على: أولا، توضيح البدائل. ثانيا، يقود المحلل إلى محاولة تحديد كافة النتائج الممكنة للخطة. وأخيرا،

سوف يقاد المخطط إلى التفكير بلغة التكاليف بالإضافة إلى الفوائد والعلاقة بينهما. قد يكون من الممكن إلغاء خطة ذات فوائد كبيرة بسبب تكلفتها العالية علما بأن مثل هذه التكاليف قد لا تكون مقصورة فقط على المال.

خذ بعض طرق التخطيط اللغوي المذكورة آنفا، وافترض على سبيل المثال أن الحكومة قررت أن لغة أهلية يجب استخدامها في الإدارة الحكومية بعد تاريخ معين. فستجد، حتى ولو أن اللغة الجديدة لديها مفردات كافية أو زوِّدت بمفردات خلال تخطيط اللغة، أن منسوبي الحكومة الذين اعتادوا على العمل بلغة أخرى (مثلا لغة استعمارية سابقة) قد يستغرقون زمنا طويلا في البحث عن التعابير الجديدة في البيانات المجهزة لهم أو في مسارد الكلمات. قد يتوجب على المنسوبين الآخرين فعل الشيء نفسه عند محاولة قراءة المراسلات المكتوبة وفهمها باللغة المكتوبة. وهذا سيبطىء الفاعلية، على الأقل، لفترة ما ويعوق النشاط المحلي اليومي. وقد يكون هذا مكلفا ليس فقط من واقع أن الحكومة عليها أن تدفع للعاملين عن الساعات الإضافية لإنجاز حجم العمل نفسه، ولكن قد تتسبب في عدم رضا وعدم اقتناع المواطنين إذا كانت خدمات الحكومة متأخرة أو لم تصلهم.

الأمر الأكثر خطورة هو أن القرار نفسه قد يتسبب في مشاكل سياسية خطيرة خاصة إذا كانت اللغة الرسمية التي وقع عليها الاختيار هي لغة أصلية فقط لجزء من عامة السكان. وقد يشعر متحدثو اللغات الأخرى بأن قدرهم منتقص، على نحو غير عادل، إذا كان يجب على أعضائه أن يتعلموا اللغة القومية الجديدة للتعامل مع أو للعمل لدى الحكومة بينما لا ينطبق ذلك على متحدثي اللغة الأصلية. وعند استخدام اللغة الاستعمارية فإنهم قد يحتجون بأن كل فرد يتعرض للمستوى نفسه من الانتقاص في القدر والضرر. وهذه المشكلة بالطبع هي السبب الرئيس في التأخر اللانهائي في تأسيس اللغة الهندية كلغة خاصة بالحكومة الهندية. كل واحدة من

الطرق الموضحة في الجزء السابق تحمل معها "تكاليف" مماثلة. أما في الفصل الحادي عشر فسوف نبحث التكاليف والفوائد الخاصة المرتبطة بالبدائل في اختيار لغة التعليم.

يبدو أن تحليل التكلفة - والفائدة له مزايا على الرغم من قيوده وتحديداته، ومع ذلك لم يكن هناك الكثير من التقارير المطبوعة حول تطبيقه على مشاكل تخطيط اللغة. وأحد العلماء الذين استخدموا هذا الأسلوب، وهو تاداجو (١٩٧٧)، قام بدراسة التكاليف والفوائد في اختيار لغة التعليم في منطقة دون الصحراء بإفريقيا. واستخدم ماكي (١٩٧٨) تحليل الكلفة - الفائدة في حيز ضيق ومحدود أكثر، ألا وهو مجال أساليب تدريس اللغة. هناك اختلاف مفيد على تحليل التكلفة - والفوائد قام بتطبيقه ماكي (١٩٨٠) في تقييم اقتراح بودين (١٩٧٥) بأنهم يستخدمون المفرد من كلمة "هم" بدلا من صيغ التذكير للضمير النوعي. يقارن ماكي "التكاليف والفوائد" ليس بلغة المال أو القيمة العامة للمجتمع، بل بلغة ما إذا كان بديل تخطيط اللغة سوف يجعل التواصل أكثر أو أقل فاعلية.

القبول

معيار القبول:

اقترح هوجن (١٩٦٦ب : ٦١ -٣) ثلاثة معايير لتخطيط اللغة. ومن بين هذه المعايير معياران يتعاملان ظاهريا مع حالة اللغة ذاتها، وهما *الفعالية* أو سهولة التعلم والاستخدام، *والكفاية* أي مقدرة صيغ التراكيب اللغوية على نقل المعلومة بالدقة المطلوبة. أما المعيار الثالث فيرتبط بالوضع الاجتماعي للغة، والذي يسميه هوجن *القبول*. إن اللغة أو أي ضرب لغوي سواء أكان قائمة من المفردات الموافق عليها أم أي نوع من الممارسة اللغوية الخاضعة لعملية التخطيط يجب أن يقبلها أعضاء المجتمع

الذي يخطَّط فيه. على وجه الخصوص، يعتقد هوجن متبعا راي (١٩٦٣) أن هناك قطاعا مهما من المجتمع يسمى " القيادة"، وهم الذين يستحقون التقليد والذين من المرجح جدا أن تنتشر استخداماتهم. إن النجاح في تخطيط اللغة في هذه الحالة - يتطلب التعاون الضمني للقيادة. يبدو لي من بين المعايير الثلاثة أن القبول هو الأكثر أهمية. سوف يكون من الصعب استخدام وتعلم اللغة التي يمقتها الناس، وذلك بغض النظر عن مدى كون قواعدها وتصريفها ونطقها مستقيما ومباشرا بالمعنى المطلق. ترتبط الكفاية على نحو واضح بغرض معين، إن اللغة التي تحقق شرط الكفاية لحوار العائلة على المائدة قد لا تكون محققة للكفاية في محاضرة في الكيمياء. نتيجة لذلك، ليس هناك سبب يدعو الناس لقبول ممارسة لغة جديدة في الوقت الذي تكون فيه اللغات الحالية ذات الكفاية ملائمة لأي غرض يتوقعونه. حتى لو كان بإمكان المخططين تخيل ضرورة وجود درجة عالية من التحديث من أجل التطور الوطني المستقبلي فإن ذلك لن يعني الكثير إذا لم يشعر الناس بالحاجة ذاتها.

إن مسألة تنفيذ بديل لتخطيط اللغة بنجاح أمر أبعد ما يكون عن الأتوماتيكية حتى ولو كانت فوائده تبرر تكاليفه. وكما يقول راي (١٩٦٨ : ٧٦٢) "ليست هناك طريقة سريعة لجعل الحصان يشرب الماء إذا لم يرغب في ذلك"، ويضيف هوجن (١٩٦٦ب : ٦٠) : "في أي مجتمع متعلم وخلفه تقاليد معينة فإن هناك مجموعة من القناعات والعقلنة تتعلق بالكلام والكتابة وقد يجد المخطط نفسه تجاهها لا حول له ولا قوة، ولا يجب قصر هذه المقولة على المجتمعات المتعلمة فقط. وكالة التخطيط يمكنها فقط أن تسهل وتزيد من جاذبية عملية متابعة الممارسات اللغوية التي اختيرت، أو قد تجعل العملية صعبة وغير جذابة. إن استخدام اللغة هو في الأساس عبارة عن مسألة شخصية لا يمكن فيها التغيير الحقيقي إلا بموافقة مستخدم اللغة ذاته.

المنحى الطبيعي.

بما أن هدف تخطيط اللغة هو تحديد اتجاه التغيير اللغوي على نحو ما ، فإن نقطة الانطلاق المنطقية هي دراسة الأشياء التي تؤدي إلى حدوث التغيير اللغوي الطبيعي، أي التغيير الذي يحدث دون تخطيط لغوي مدرك. إن ما يمكن أن يسمى المنحى / الاتجاه الطبيعي يؤيد تسخير القوى الطبيعية للحصول على نتيجة مختارة بشكل مدرك. تكمن الخطوة الأولى في الاتجاه الطبيعي لتخطيط اللغة في تحديد المجال أو المجالات المعدة لتطبيق الخطة عليها وما هو حجم واتساع قطاع المجتمع الذي يفترض أن يستخدم البديل المخطط ، فمثلا ، قد تكون المسألة بسيطة نسبيا بالنسبة لجمعية كيميائيين مهنيين يسعون لتقييس المصطلحات التي سيستخدمها أعضاؤها في تقارير أبحاثهم. مثل هذه الخطة تنطبق فقط على مفردات اللغة ، وعلى الكتابة في مجال موضوع معين ، وفقط على مجموعة صغيرة نسبيا من المستخدمين. إن محاولة إقناع سكان بلد بأكمله بالتحول إلى استخدام لغة قومية مؤسسة حديثا في كافة الأغراض المحكية والمكتوبة سيكون مثالا للنموذج المعاكس. فهنا ستُشرك كافة المجالات ويفترض من كل سكان البلد أن يتبعوا الخطة. ولا داعي للقول هنا أن الخطة الثانية سوف تكون أصعب في التطبيق.

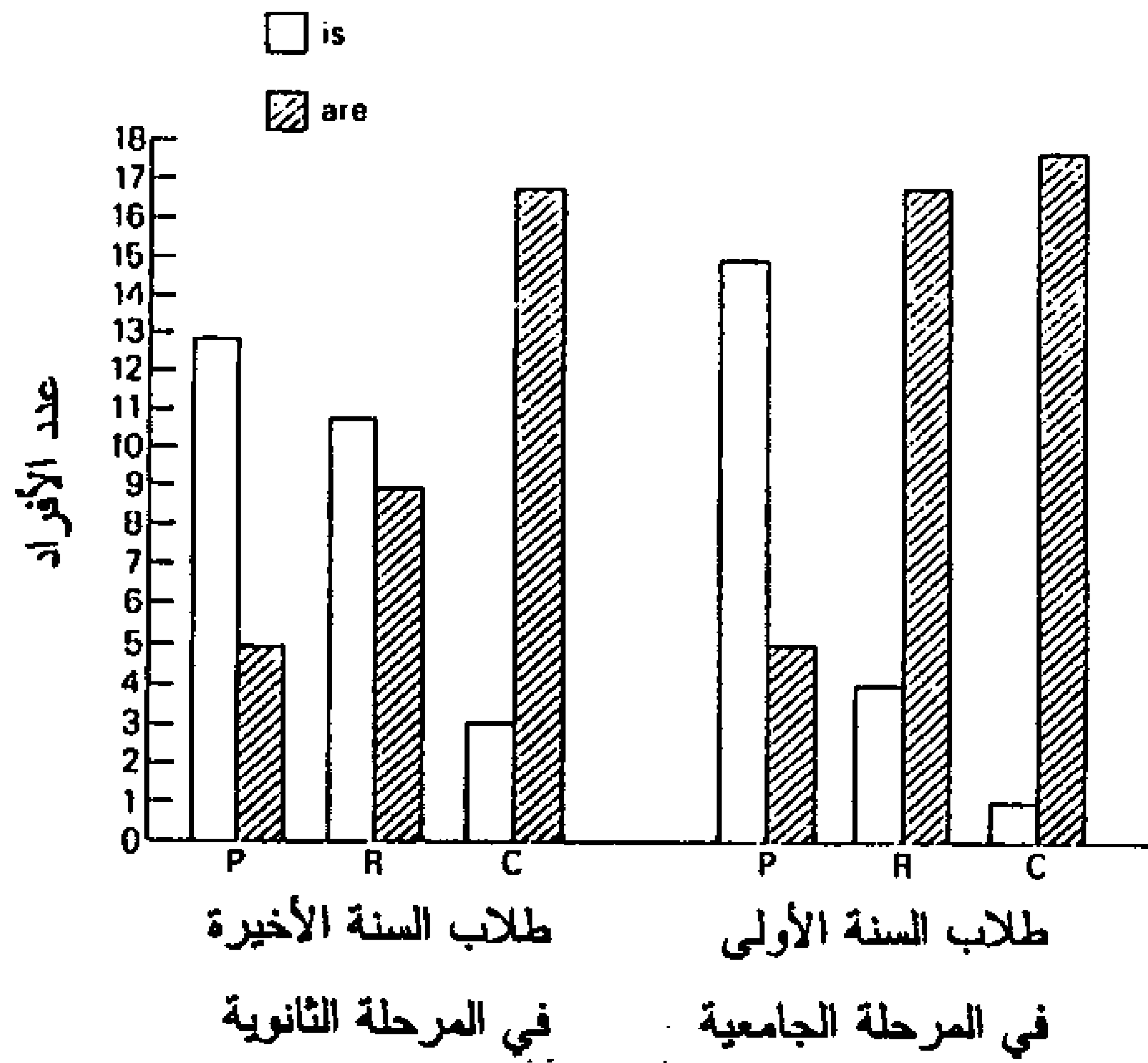
وتعتبر حقيقة اجتماعية لغوية أساسية أن تؤدي بعض استخدامات اللغة إلى جعل الناس يتنبهون إلى كيفية إيصال ما ينوون قوله للآخرين وما هي الرسائل التي يودون إيصالها.(١١) في مواقف أخرى يضع الناس تقريبا كل تركيزهم على مضمون رسالتهم تاركين شكلها إذا صح التعبير على الدليل الذاتي. إن الاستخدامات العالية للغة هي التي يتركّز فيها بشكل ملحوظ على شكل الرسالة. ونتيجة لذلك فمن المرجح أن يعتبر تخطيط اللغة الذي يهدف إلى الاستخدامات العالية أكثر نجاحا من التخطيط الذي يستهدف الاستخدامات الدنيا. إذا كان مستخدم اللغة يركز انتباهه

بشكل مدرك على شكل الرسالة فإن المخطط سوف يكون لديه مهمة سهلة نسبيا لإقناع مستعملي اللغة أن البديل المختار هو الذي ينبغي استخدامه. بما أن انتباه المستخدم مركز على الشكل اللغوي بالإضافة إلى محتوى الرسالة فمن المرجح أكثر أن يكون استخدامه متطابقا مع ما هو مقتنع به بشكل مدرك تماما. والتأثير على استخدام شخص ما للغة عندما يكون هناك مراقبة طفيفة على الشكل سيكون أصعب بكثير. وفي مثل هذه الحالات، وهي الحالات التي تشكل الكمية الكبرى من الاستخدام اللغوي، يجب على المخطط إيجاد طريقة ما للدخول في "الأدلة الذاتية اللغوية" لشعب ما.

وإحدى الفئات الواضحة للاستخدام اللغوي الذي يلقي أهمية كبيرة على الشكل هي فئة الاستخدام الكتابي للغة. فالكتابة أبطأ من الكلام، ويستغرق الكُتاب وقتا أطول للتفكير في كيفية وضع أفكارهم وتدوينها، وبإمكانهم المراجعة وإعادة الكتابة إذا لم يكونوا راضين عن محاولاتهم الأولى. فتخطيط اللغة، غالبا ما يكون غايته الاستخدام المكتوب بدلا من الكلام، مع الإقرار بأن التحديثات المخططة في الاستخدام المكتوب قد تصب في النهاية في الكلام (هوجن ١٩٦٦ب: ٥٣، فيرجسون ١٩٦٨: ٣٠). وكما أشار هوجن فإن هذا يعكس الطريقة العادية للغوي في نظرته للغة، إذ إن اللغويين، وهم مصيبون في ذلك، ينظرون إلى اللغة المحكية كلغة أساسية أكثر من اللغة المكتوبة.(١٢)

إن حقيقة وجود تمييز بين معايير اللغات الرسمية والمعايير اللغوية غير الرسمية التي يطبقها الناس في استخداماتهم المحكية اليومية قد يُلاحظ في كثير من الأحيان (مثال ذلك الدراسات التي قام بها كل من جومبيرز ونيم ١٩٦٠، ستيوارت (١٩٦٨: ٥٣٤ -هامش٥)؛ ويفرام وفاسولد (١٩٧٤: ١٨-٢١)؛ وشميدت ومكريري ١٩٧٧). يقدم شميدت ومكريري دليلا تجريبيا على التناقض بين

الاستخدام المكتوب لأفراد العينة، وذلك عندما لم ينتبهوا إلى الشكل النحوي الخاص وبين الشكل الذي صادقوا عليه بشكل علني على أنه صحيح. كانت إحدى هذه المتغيرات القواعدية تتعلق بالخيار بين "is" و "are" في جمل تسبقها كلمة there (هناك) مع فاعل منطقي جمع. مثلا الفرق بين "يوجد شخصان في السيارة" There are two guys in the car و"هناك شخصان في السيارة" There are two guys in the car. في تجربة "الأداء" قدم لأفراد العينة شفهيا جملة فيها كلمة there مع فاعل مفرد وعبارة اسمية في حالة الجمع طلب منهم وضعها في الجملة الأصلية بحيث تعطي معنى.



الشكل رقم (٩،١). الصيغ المستخدمة في اختبار الأداء (P)، الصيغة الأكثر استخداما في الغالب حسب تقرير أفراد العينة (R)، والموافقة على صحة ذلك (C) من قبل طلاب السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية الأمريكية الذين يتكلمون الإنجليزية وطلاب السنة الأولى في الجامعة، في جمل مثل "There (is, are) about five minutes left" "تبقى نحو خمس دقائق"

المصدر: بيانات من شميدت ومكريري (١٩٧٧).

مثلا ، بإعطاء جملة "تبقى وقت كاف" والعبارة الاسمية "نحو خمس دقائق "فإنه من الواضح أن العبارة الاسمية الجديدة يفترض أن تحل محل "وقت كاف" ، ولكن لم يذكر شكل الفعل "يكون" to be . بعد إكمال هذه المهمة سُئل أفراد العينة عن الأشكال والصيغ التي يستخدمونها ، وأي منها يعتبرونه صحيحا ، وما إذا كانوا يعتقدون بأنهم استخدموها أم لا. الشكل رقم (٩.١) يوضح الإجابات لمجموعة من طلاب في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية ومجموعة من طلاب اللغة الإنجليزية في السنة الأولى في الكلية.

في كلتا المجموعتين ، الشكل الذي اعتبرته غالبية المتحدثين صحيحا هو عكس ذلك الذي استخدمته الغالبية في مهمة الأداء. الكثيرون أفادوا بأنهم يستخدمون الشكل الذي يعتبرونه صحيحا أكثر من الشكل الذي استخدموه فعلا في الاختبار.(١٣) من الواضح أنه من الصعوبة بمكان التأثير على الممارسات اللغوية التي لا يراقبها المتحدثون بإدراك حسي. ولكي يكون لدينا أمل في التأثير على مستقبل اللغة في هذا المستوى علينا أن نلتفت إلى الخلف ، وبالتحديد إلى ما تعلمناه حول ما يجعل الناس يغيرون في استخدامهم اللغوي. إن دراسة الاختيار اللغوي والإبقاء على اللغة والتحول يوضح أن قدرا كبيرا من ذلك يعتمد على هوية الشخص. فمتى وكيف تستخدم مواطنة من أوبروارت اللغة الألمانية؟ يعتمد على الدرجة التي تعتقد فيها بأنها عاملة "نمساوية" بدلا من فلاحة من اوبروارت ، كما يعتمد على الظروف التي بموجبها ترغب في إعلان كل هوية ، بالمثل ، فإن استخدام اللغة الغيلية أو الإنجليزية في شرق ساذرلاند تأثر بقوة بما إذا كان الشخص يرغب في تقديم نفسه على أنه أسكتلندي من الهاي لاندز أو صياد سمك. يبدو أنه لكي يغير الناس ممارستهم اللغوية على مستويات أدنى وغير مراقبة فإن على المخططين أن يجعلوا الناس بطريقة ما يتخذون هوية تتماشى مع الأشكال والصيغ اللغوية الجديدة. قاد هذا التوجه إلى

مقولة "تخطيط الهوية" (لامي١٩٧٩). في دراسة تخطيط الهوية تمكن بول (١٩٧٩) من توضيح علاقة مؤكدة بين استخدام اللغة والرغبة في إعلان هوية خاصة باستخدام بيانات مسح أو دراسة. توضح البيانات التي حُصل عليها من دراسات تمت في ويلز وكندا أن الناس الذين يعرفون لغة ويلز والفرنسية على التوالي هم أكثر ترجيحا لرؤية أنفسهم "ويليزيين" بدلا من كونهم بريطانيين، أو "فرنسيين" أكثر من كونهم "إنجليزا". في كندا كانت اللغة المحكية مرتبطة إلى حد كبير بالرغبة في إعلان الهوية العرقية الفرنسية أكثر من الإقامة في كويبك، أو أن يكون المواطنون كاثوليكا، أو حتى ممن يحملون اسم العائلة الفرنسية، أو أن يكونوا من السلالة الفرنسية.

إن نتائج بول أبعد من أن تكون الدليل الأول الذي يربط استخدام اللغة بالهوية الاجتماعية. هنالك العديد من الأمثلة في مجمل الدراسات حول هذا الموضوع تدل على أن المجموعات الاجتماعية تتبع معايير غير رسمية، إما أن يكون لها دعم رسمي ضئيل وإما أن لا تتلقى أي دعم البتة. إن هنود التيوا يمثلون حالة من الحالات التي تطرقنا لها سلفا، كما أن فلاحي أوبروارت ومجتمعات صيد الأسماك في شرق سازرلاند كانوا أمثلة إلى وقت قريب جدا (بعض فلاحي اوبروارت ما يزالون حتى الآن). هناك دراسة سابقة قدمها لابوف (١٩٧٢ب: ٢٥٥-٩٦) أثبتت كيف أن الشباب السود في هارلم تكيفوا بانسجام مع المعايير اللغوية غير الرسمية للغة الإنجليزية الدارجة للسود إذا كان لديهم إحساس قوي بالاندماج مع المجموعات النظيرة من صغار السن المراهقين. كان المراهقون السود الذين كانوا في العمر نفسه والمقيمون في الحي نفسه ممن لم تكن لديهم مثل هذه الارتباطات هم الأكثر ترجيحا للتحول في اتجاه اللغة الإنجليزية النموذجية الرسمية. وأوضح ولفرام (١٩٧٣) أن الشباب من بورتوريكو الذين لديهم اتصالات مكثفة مع متحدثي اللغة الإنجليزية الدارجة للسود قد اكتسبوا خصائص تلك اللغة الإنجليزية أكثر من اكتسابهم معايير

اللغة الرسمية التي تدرس لهم في المدارس. ووجد بوبلاك (١٩٧٨) الاتجاه المماثل نفسه في مجتمع بورتوريكو في فيلادلفيا رغم وجود عدد قليل جدا من متكلمي اللغة الإنجليزية الدارجة للسود (هناك دليل على أن أولئك المقيمين هناك كانوا يتمتعون بمكانة عالية). بعيدا عن أي تأثير من اللغة الإنجليزية الدارجة للسود فإن حالة صغار بورتوريكو الذين أخضعهم بوبلاك للدراسة تدل على أنهم تعاملوا مع متغيرات نطق فيلادلفيا المحلية وكأنها صيغ ذات مكانة عالية. لكن سكان فيلادلفيا الأصليين كانوا على النقيض من ذلك حيث تحولوا عن المتغيرات المحلية نحو المعايير الأكثر شكلية عندما راقبوا كلامهم. أخيرا لتكرار مثال استخدمناه لإيضاح استخدام الإحصائيات فإن ميلروي قد تمكنت بإقناع من إظهار أن قاطني بلفاست ذوي الارتباطات المحلية القوية كانوا هم المستخدمين للأشكال اللغوية المحلية وغير النموذجية رسميا (ميلروي ١٩٨٠ ، ميلروي ومارجرين ١٩٨٠).

إن إجراء تخطيط الهوية يبدو كأنه يتضمن استخدام الموارد المتاحة ، وذلك لجعل عملية المطابقة مع متحدثي لغة معينة أو ضرب لغوي ما أمرا لافتا للنظر. إلا أن طلاب الإبقاء على اللغة والتحول تقريبا متفقون بالإجماع على أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية نفسها التي تحدث التحول في مجموعة واحدة لن تزحزح مجموعة أخرى عن عزمها على الإبقاء على لغة تقليدية.(١٤) الخلاصة العامة هي أن طرق تخطيط اللغة العادية ليس من المرجح أن تؤثر على الممارسات اللغوية للمتحدثين في استخدام اللغة غير المراقب، إلا إذا كانت مصممة لدعم الاتجاه الذي تتحرك فيه القوى الاجتماعية الطبيعية على أية حال.

البنية اللغوية وتخطيط اللغة

ما لم يأخذ المرء المنحى الوسيلي لتخطيط اللغة فإنه يبدو أن هناك القدر اليسير جدا من اللغويات التقنية في تخطيط اللغة. إن التوجيهات الاجتماعية اللغوية (الاجتماعية اللغوية والطبيعية) تؤيد تطوير أي شكل لغوي سوف يعمل ويجعل الوضع الاجتماعي أفضل. ويبدو أنه حتى الجوانب اللغوية النحوية المفترضة "للتحديث" أو "العقلنة" وكأنها مسائل تتعلق أكثر بالمهارة في استخدام الموارد الموجودة في لغة ما أكثر مما يتعامل بها علماء النحو. وبمعنى آخر، إن ما يعتبر نموذجيا أو جديرا بالترقية الرسمية يعتمد فقط على الوضع الاجتماعي للناس الذين يستخدمون ذلك الضرب اللغوي. إن إحدى الطرق الهزلية التي تقدم فيها هذه الفكرة أحيانا هي القول بأن اللغة النموذجية هي أي لغة يكون لدى متحدثيها جيش وبحرية.

على الرغم من أن تخطيط اللغة يبدو لي موضوعا اجتماعيا سياسيا أكثر من كونه موضوعا لغويا بحتا، فإنني أعتقد أنه من الممكن الذهاب إلى أقصى حد في تقليل أهمية الجوانب اللغوية لتخطيط اللغة وتقييسها. فإذا كانت القوى الاجتماعية غير حاسمة فإن الاعتبارات اللغوية قد تثبت أحيانا أنها حاسمة في اختيار بديل التخطيط (قارن بايلي ١٩٧٥). أما عن السؤال فيما إذا كان من الممكن أو من غير الممكن تمييز اللغات النموذجية على أسس لغوية (لسانية) فإنه من الحكمة عدم الإجابة وبسرعة بـ "لا". يجادل كروش (١٩٧٨ : ٢٠) بأن اللهجات التي لا مقام لها أو هيبة تتجه من ناحية النطق الواضح لأن تكون أكثر اقتصادية من اللهجة التي لها هيبة ومقام". وهذا يعني أن عمليات نطق اللهجة النموذجية أكثر ترجيحا للقيام بتميزات أكثر مما هو مطلوب للفهم.[١٥] إذا كان كروش صائبا، من المفيد معرفة ما إذا كان هناك اتجاه مواز في علم النحو. إذا كان الأمر كذلك، فإنه يكون اتجاها أو نزعة فقط. إن اللغة الإنجليزية الدارجة للسود على سبيل المثال، هي لهجة ليست عالية المكانة حيث إن

تمييز نظام الفعل فيها يمكن تبيانه بوضوح أكثر من اللغة الإنجليزية الأمريكية النموذجية. ومع ذلك فمن الأفضل أن نعامل مسألة المميزات اللغوية للهجات النموذجية كمسألة مفتوحة.

خلاصة

إن حقيقة أن اللغات تختلف وتتغير ويحافظ عليها أو تهجر، كل ذلك يعني أن البدائل اللغوية متوافرة للمتحدثين بشكل دائم. إن وجود البدائل يفتح إمكانية القول إنه بالإمكان التأثير على المتحدثين لاختيار بعض البدائل بدلا من غيرها. فالمقصود من وراء التخطيط اللغوي والتقييس هو محاولة القيام بمثل هذه التأثيرات المدركة.

ويوجد ضمن تخطيط اللغة قسمان رئيسيان، هما: تحديد اللغة وتطويرها. يشير تحديد اللغة إلى اختيار وحدات لغوية أوسع، أو لغات، أو لهجات لغات لأغراض معينة. أما تطوير اللغة فيشير إلى اختيار متغيرات من ضمن اللغة أو اللهجة. يقوم فيرجسون (١٩٦٨) بعمل تقسيم فرعي لتطور اللغة فيقسمها إلى ثلاثة أقسام: الكتابة، والتقييس، والتحديث. التحديث (أو العقلنة) يمكن تقسيمه فيما بعد إلى مظاهر تطوير المفردات والقواعد (ربما الاستخدام بدقة أكثر). فمن الممكن أن تكون القضية الرئيسية لتحديد اللغة في العالم هي اختيار اللغات القومية.

يأخذ غالبية العلماء المهتمون بتخطيط اللغة المنحى الوسيلي أو المنحى الاجتماعي -اللغوي. يؤكد علماء المنحى الوسيلي وظيفة اللغة كوسيلة للتواصل بطريقة يمكن أن تكون على حساب أهميتها الاجتماعية الرمزية. كنتيجة لذلك، فهم يرون أن تخطيط اللغة يجب أن يكرس لجعل اللغة أكثر فعالية وأكثر متعة جمالياً في دورها التواصلي. أما المنحى الاجتماعي- اللغوي فيأخذ النظرة القائلة: إن اللغة هي مورد اجتماعي. إذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يوجه التخطيط اللغوي إلى استخدام هذا المورد بحكمة للوصول إلى المآرب الاجتماعية حتى ولو كان البديل المخطط له

ليس فعالا أو جميلا بناءً على مغيار مطلق.

إن تخطيط اللغة عادة ما يعتقد بأنه يجري من قبل الحكومات، لكن جهود التأثير على تغيير اللغة يمكن إجراؤها من قبل المنظمات الدينية والمنظمات الداعمة لمصالح الجنسيات القومية الفرعية، ومنظمات الأعمال التجارية وحتى الأفراد. إن المشروع المتعمق والمدروس لتخطيط اللغة سوف يتضمن الخطوات الأربع التي أوضحها روبن (١٩٧٣). هناك وسائل محددة تستخدم في تخطيط اللغة تبدأ من إصدار المفردات اللغوية المجازة، وتنتهي بتحديد ضرب لغوي معين كوسيلة وحيدة للتعليم في المدارس الحكومية للبلد.

هناك قيود معينة واضحة على تخطيط اللغة، وأهم ما يجب أخذه في الاعتبار هو التكلفة. إن استخدام تحليل التكلفة -والفائدة يمكن أن يساعد على تقييم الخطة المقترحة، على الرغم من عدم إمكانية تطبيقه بالمعنى التام على تخطيط اللغة. إن أحد الأسباب التي تجعل تحليل التكلفة -والفائدة ذا وظيفة إضافية تكميلية في تخطيط اللغة، هو أن الكثير من التكاليف والفوائد لا يمكن تقييمها من الناحية النقدية المالية كما أن بعضها لا يمكن حتى قياسه. وسبب آخر هو أن نتائج تخطيط اللغة غالبا ما تتحقق على المدى البعيد مستقبلا حتى أن تنبؤاتها تصبح غير جديرة بالثقة.

أحد القيود الجوهرية يتعلق بالقبول. لن يكون بديلا مختارا ناجحا ما لم يقبله عامة السكان الذين يعد لهم التخطيط؟ قد يعتمد رفع فرص القبول إلى أقصى حد على مدى حسن الخطة في مطابقتها مع القوى الطبيعية العاملة في المجتمع. وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة للتخطيط الذي يحاول التأثير على ما يفعله الناس في استخدام اللغة غير المراقب. يشير البحث إلى أن ممارسات تخطيط اللغة العادية تكون أكثر نجاحا عندما توجه إلى استخدام اللغة المراقب (أي عندما يبدي الناس المزيد من الانتباه ليس فقط لما يقولونه، بل ولكيفية قول ذلك). هذا هو أحد الأسباب التي

تجعل تخطيط اللغة أكثر توجها نحو اللغة المكتوبة بدلا من الشكل المحكي للغة.

من المرجح القول إن الخيارات اللغوية للناس خاصة تلك غير المراقبة ترمز إلى إحساسهم بهوية المجموعة الاجتماعية الثقافية. وقادت هذه الحقيقة إلى مفهوم "تخطيط الهوية". إن الخطوات المتخذة عن إدراك للتأثير على الهوية الذاتية لشخص ما تبدو على الأقل صعبة كصعوبة الخطوات المتعلقة بتخطيط اللغة مباشرة.

عادة ما يتخذ اللغويون موقفا من أن اللغات متساوية بنيويا وأن القوى الاجتماعية وحدها هي التي تحدد ما إذا كان الضرب اللغوي نموذجيا أو ذا مكانة عالية. يناقش كروش (١٩٧٨) اللهجات ذات المقام العالي التي تميل للمحافظة على التميزات الصوتية التحتية أكثر مما تقوم به اللهجات التي ليست من المقام العالي. سواء كان هناك معنى أم لا من وراء محافظة اللهجات ذات المقام العالي على المميزات النحوية والصرفية أكثر من اللهجات التي ليست من المقام العالي فإنه سؤال مطروح للنقاش. من الواضح أن هناك ضروبا لغوية ليست ذات مقام عال ولديها بعض المميزات النحوية التي تفتقر إليها الضروب اللغوية الأخرى المقابلة التي يوافق عليها المجتمع.

هوامش لمراجع إضافية

لقد نشرت مقتطفات عديدة عن التخطيط اللغوي تشمل روبن وجبرنود (١٩٧١)، وروبن وشاي (١٩٧٣)، وفيشمن (١٩٧٤)، وروبن (١٩٧٧)، وروبن وآخرين (١٩٧٧)، وهناك دراسات ميدانية للتخطيط اللغوي إضافة إلى تلك التي ذكرت في هذا الفصل والفصل القادم وتلك المذكورة في المجلدات الآنفة، منها شاخر (١٩٧٨) (عن الإفريقيين وداهالشت (١٩٧٣) (عن اللغة السويدية).

تتضمن بعض الدراسات عن تخطيط علم الإملاء والتهجئة دراسات قام بها

دوفرنسيس (١٩٧٢)، وسيوبيرج (١٩٦٦)، وبيري (١٩٦٨)، وديويس (١٩٧٧) وفيشمان (١٩٧٧). بالنسبة لتقييس المصطلحات انظر المواضيع الواردة لدى ساج (١٩٨٠).

الهوامش

(١) قدم هوجن (١٩٦٦ب) إحدى أكثر المناقشات الأساسية وضوحا وفائدة المتوافرة حول التخطيط اللغوي. ومع ذلك وفي رأيي فإنه وقع في خطأ الإفراط في تأكيد التواصل كحافز وحيد لتخطيط اللغة. فهو يتحدث عن مجتمعات الحديث الأولية مثل أيسلندا حيث إن التنوع اللغوي طفيف جدا إلى درجة أن كل فرد يستطيع فهم الآخر تماما، وهناك مجتمعات الحديث الثانوية مثل إنجلترا، حيث إن التنوع اللغوي ملموس بصورة أكبر وهناك فقط فهم جزئي، وهناك مجتمعات الحديث الثالثة مثل سويسرا على سبيل المثال، حيث قد لا يكون هناك فهم بين المواطنين بدون مترجم. يرى هوجن (١٩٦٦ب : ٥٥) أن مجتمعات الحديث الثانية فقط هي التي تحتاج إلى لغة قومية. وبعبارة "اللغة القومية" فهو قد يعني شيئا مختلفا عن ما قصده فيشمن من هذا التعبير، وبالتحديد النموذج القومي لتوجيه الخيارات من بين المتغيرات في النظام اللغوي نفسه. قيل إن المجتمعات الأولية لا تحتاج إلى تخطيط اللغة على الإطلاق، وتلك الثالثة تحتاج إلى لغة عالمية أو مساعدة؟. أيرلندا هي مثال تقريبي معقول لمجتمع الحديث الأولي، ولكنها لا زالت تخطط من أجل اللغة القومية. إن معظم الأمم المصنّفة كمجتمعات كلامية ثالثة لن تكون راضية بلغة "عالمية أو مساعدة" للتغلب على مشاكل التواصل، أو أن كثيرا من الدول النامية سوف تتبنى لغات المستعمر السابق لذلك الغرض.

(٢) تعتبر مشاكل الكتابة مهمة جدا في تخطيط اللغة، إذ إن هناك كتابات مكثفة حول هذا الموضوع . هناك بعض الأبحاث حول الموضوع مدرجة في الملاحظات

البيبليوغرافية المذكورة آنفا.

(٣) عند هذه النقطة يختلط مفهوم تطور اللغة مع تحديدها ليصبحا غير واضحين. كلما عومل "ضرب لغوي واحد" بشكل كامل كلما كان التخطيط مشابها للتحديد. وكلما عومل الضرب اللغوي النموذجي كمجموعة "صحيحة" من المميزات اختيرت من المتغيرات الحالية ضمن نظام لغوي واحد، كلما بدا التخطيط مثل جهود التطوير.

(٤) تعتبر اللغات الخليط والمزيج في المراحل الأولى لإزالة المزيج أمثلة صالحة هنا.

(٥) توصل راي Ray (١٩٦٨ : ٧٥٦) إلى أن مصطلح "اقتراض" مضلل؛ لأنه لا يلزم بالإعادة، ويفضل بدلا منه "الوراثة". يبدو لي أن "النسخ المعجمي" مصطلح أكثر دقة لوصف ما يحدث فعلا. فعندما "تقترض" لغة ما كلمة من لغة أخرى، فإن اللغة المقرِضة لا تخسر هذه الكلمة، واللغة المقترضة ببساطة تأخذ نسخة من هذه الكلمة لاستخدامها الخاص. ومصطلح "الاقتراض" مع ذلك قد ثبت وترسخ ولا أرى داعيا أبدا لمحاولة تغييره.

(٦) انظر نقد هوجن (١٩٧٠) للمنهج الوسيلي. ويختلف راي Ray عن تولي Tauli في أنه أقل تفاؤلا باحتمالات نجاح التخطيط اللغوي.

(٧) وثق ديويس Dewees (١٩٧٧م) حالة قام فيها نشاط تخطيط لغوي تبشيري فيما بعد بلعب دور في جدل حول تخطيط لغوي قومي.

(٨) في كتابة هذا الكتاب حاولت أن ألعب دور المخطط اللغوي "الأقل جزما" وحاولت استخدام أسلوب أكثر عامية وأقل رسمية من الناحية النحوية مما يستخدم عادة في الكتب المنهجية. كما قد تكون قد لاحظت الإبدال في الاستخدام بين الضمير المذكر والمؤنث عندما يعود ضمير مفرد على أي من الجنسين. وآمل بعملي هذا أن أؤثر على القارئ باتجاه حلي المفضل لمشكلة الجنس في استخدام الضمائر الإنجليزية. ما لم يجد قرائي ما قمت به جديرا بالاتباع في استخدامهم الشخصي، فإن تأثيري على الإنجليزية سيكون ضئيلا.

(٩) فرّق روبن (١٩٧٣م) وجرنود Jernudd (١٩٧٣م) بين العملية المنظمة للتخطيط والمجهودات التصادفية للتأثير على اللغة والتي سموها بمصطلح أعم هو "معاملة اللغة".

(١٠) أسهم الضغط السياسي للقوميين الويليزيين في عام ١٩٨٢م في إجبار الحكومة البريطانية على اتخاذ قرار بتمويل برامج تلفزيونية باللغة الويلزية.

(١١) أكد لابوف (١٩٦٦م، ١٩٧٢م) هذا الجانب من الاستخدام اللغوي، كما نوقش في الجزء الثاني.

(١٢) هوجن أيضا محق عندما أشار إلى أن تعليق بلومفيلد (١٩٣٣م، ص٢١) القائل بأن الكتابة هي "فقط طريقة لتسجيل اللغة بواسطة علامات مرئية"، وهي عبارة مبسطة جدا، بالرغم من إمكانية فهم مقصودها في ضوء أهداف بلومفيلد.

(١٣) تختلف بعض النماذج غير الرسمية عن ما يقابلها من النماذج الرسمية؛ لأن التقنيات الرسمية لا يتمسك بها كليا. وبحث شميدت ومكريري (١٩٧٧م) حالة أخرى، وهي استخدام المعقول به للضمائر الشخصية في الإنجليزية، والذي اتضح فيه نشوء نموذج غير رسمي جديد يختلف عن النموذج الرسمي؛ لأن النموذج الرسمي لم يلحق بعد بتغير معايير اللغة غير الرسمية. وحقيقة أن نماذج اللغة تتغير عبر الزمن موثقة في الإنجليزية البريطانية، من قبل شاكلي Shaklee (١٩٨٠م)، أما بالنسبة للإنجليزية الأمريكية فقد وثق ذلك هيث Heath (١٩٨٠م).

(١٤) بالرغم من أن البديل المنطقي هو أن نجعل لغة مختلفة ترمز إلى الهوية التي تمتلكها مجموعة ما حاليا، ولكن عند التفكير في الحالات الواقعية فإن هذا العمل عادة ما يبدو سخيفا، فلا أستطيع تخيل كيف يمكن لشخص أن يجعل الألمانية رمزا لهوية فلاحي أوبروارت، أو الإنجليزية رمزا لهوية ساكني كويبك في مونتريال.

(١٥) فمن ناحية فنية، فإن النطق الظاهري للهجة ذات المقام العالي من المحتمل أن يحافظ على الفروق التحتية أكثر من نطق اللهجات التي ليس لها منزلة عالية.

الأهداف

١- أن يكون قادرا عندما يعطى هدفا افتراضيا لتخطيط لغوي أن يقول ما إذا كان هذا مثالا على التحديد أو التهذيب اللغوي.

٢- أن يكون قادرا على القول فيما إذا كان يقتصر استخدام التخطيط اللغوي على تحسين الاتصال أو لا.

٣- أن يكون قادرا على معرفة تعريف قارفن لوظيفة "المشاركة".

٤- أن يكون قادرا على معرفة تفسير مصطلح "التحديث" لفرجسون أو "العقلنة" لقارفن، بالإضافة إلى توسيع المفردات الذي يقره فاسولد. مفتاح للإجابة: هذا التفسير لم يذكر صراحة بإسهاب.

٥- أن يكون قادرا على معرفة موقف عالم اللغة من النحت مقابل الاقتراض كطريقة لزيادة عدد المفردات، وكذلك الموقف المشترك لهيئات التخطيط اللغوي.

٦- أن يكون قادرا على معرفة وصف منهجي التخطيط اللغوي.

٧- أن يكون قادرا على معرفة الإجابات الممكنة للسؤال عن من يقوم بالتخطيط اللغوي.

٨- أن يكون قادرا على القول، وطبقا لراى، أيهما أكثر أهمية لنجاح التخطيط اللغوي هل هو "الإجراء الرسمي المنتظم" أو "الإجراء غير الرسمي وغير المنظم" الذي تقوم به "سلطات عديدة لها قبول أكثر على المستوى المحلي".

٩- أن يكون قادرا على ذكر الخطوات الأربع التي ذكرها روبن لعملية التخطيط اللغوي.

١٠- أن يكون قادرا على تسمية الأداة الرئيسية التي تملكها الحكومات لتنفيذ قرارات التخطيط اللغوي .

١١- أن يكون قادرا على معرفة ما يتطلبه تحليل التكاليف والفوائد المطبق على التخطيط اللغوي وما سيقدمه عادة.

١٢- بالرغم من أن قرارات التخطيط اللغوي لا يمكن اتخاذها بناءً على تحليل التكاليف والفوائد فقط ، فإن محاولة القيام بهذا النوع من التحليل يجبر المخطط على القيام بثلاث مهمات مفيدة. والهدف هنا أن يكون قادرا على ذكر هذه المهمات.

١٣- أن يكون قادرا على ذكر المعايير الثلاث للتخطيط اللغوي التي ذكرها هوجن ، وأن يعرف تعريفاتها ، وأن يذكر أيها الأهم.

١٤- أن يكون قادرا على معرفة السبب الرئيسي جدا لماذا من الغالب أن ينجح التخطيط اللغوي الموجه للاستخدامات العليا.

١٥- أن يكون قادرا على معرفة العدد النسبي لأفراد عينة شميدث ومكريري (١)الذين قالوا إن "are" صحيحة في جمل "there" عندما يكون الفاعل جمعا منطقيا ، (٢) الذين ذكروا أنهم يستخدمون "are" في مثل هذه الجمل ، و(٣)الذين وضعوا "are" في الواقع في مثل هذه الجمل في اختبار الأداء.

١٦- أن يكون قادرا على تسمية العامل الاجتماعي الأعمق الواجب التخطيط له قبل أن يكون ممكنا نجاح التخطيط اللغوي للاستخدام في المجال السفلي.

١٧- أن يكون قادرا على معرفة منظور فاسولد فيما إذا كان من الممكن أو لا وصف الضروب اللغوية النموذجية على أسس لسانية.

الفصل العاشر

حالات التخطيط اللغوي

عرضنا في الفصل الأخير لمحة عامة عن تخطيط اللغة وتقييسها. يبدو الآن من المفيد أن نرى كيف يعمل ذلك التخطيط في الواقع العملي. وكمثال على ذلك سوف نستخدم حالتين يُحاول فيهما تحقيق أصعب هدف في تخطيط اللغة وهو إنشاء لغة قومية، ومن أسباب استخدام حالة اللغة القومية هو أنها تشتمل عادة على أهداف تخطيط للغة أكثر اعتدالا. ويعتبر تحديد اللغة بمثابة المشكلة المركزية في إنشاء لغة قومية جديدة، ويحتاج هذا الأمر أيضا إلى تحديد اللهجة وأنواع مختلفة من تطور اللغة. تشتمل الحالات الخاصة التي سوف نبحثها على أحد أكثر الأمثلة نجاحا في تأسيس اللغة القومية في العالم، وهي اللغة السواحلية في تنزانيا. والحالة الأخرى التي واجهت صعوبات خلال تاريخها ولم تحقق أهدافها كانت حالة تخطيط اللغة الغيلية في أيرلندا.

تنزانيا

لمحة تاريخية

تتألف جمهورية تنزانيا المتحدة مما كان يدعى في السابق المستعمرة البريطانية، وكانت تسمى تنجانيقا وجزيرة زنزبار، وهي من دول شرق إفريقيا. وتبلغ مساحتها تقريبا ٣٥٠.٠٠٠ ميلا مربعا. وتبلغ حدود شريطها الساحلي على المحيط الهندي ٥٠٠ ميل، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٥ مليون نسمة (انظر الخريطة رقم ١٠.١). ويرتكز

نشاطها الرئيسي على الزراعة، وليس لديها خطط كبيرة للتحول نحو الصناعة. ومن الناحية اللغوية، فإنها دولة متشعبة ومتعددة اللغات، ولهذا يذكر بولومي (١٩٨٠أ: ٣) أسباب صعوبة إدراج قائمة باللغات التنزانية بدقة.(١) وهناك سببان من هذه الأسباب معروفان لنا، وهما نقص الأسئلة المتعلقة باللغة في الإحصاءات التي أجريت بعد الاستقلال وصعوبة تمييز "اللغات" المتقاربة عن "اللهجات" المفهومة جزئيا فيما بينها.(٢)



الخريطة رقم (١٠،١). تنزانيا.

في مقالة لاحقة، أوضح بولومي (١٩٨٢ :١٢٧) وجود ١٣٥ وحدة من "الوحدات اللغوية المختلفة والمعروفة كلغات متميزة وفق المتحدثين بها". في عام ١٩٥٧، كان نحو ٩٤٪ من السكان يتحدثون لغة واحدة من عائلة لغات البانتو. ومع تعدد اللغات التي يتحدث بها أعداد قليلة نسبيا من السكان، فإنه توجد لغات قليلة جدا يتحدث بها أعداد كبيرة من الناس. وأكبر مجموعة هي السوكوما، وهي تشكل ١٢,٦٪ فقط من تعداد السكان، أما ثاني أكبر مجموعة فهي مجموعة (نياموزي) وهي تشكل ٤,٢٪ فقط من عدد السكان (وايتلي ١٩٧١ أ: ١٤٨).

كان استخدام اللغة السواحيلية في أول الأمر يتركز على طول الساحل، لم يكن يتحدث بها عدد كبير من السكان كلغة أم. وفي مراحلها الأولى، كان يتحدث هذه اللغة العرب والأفارقة من المسلمين وكانت تكتب بحروف عربية. وفي منتصف القرن التاسع عشر، أصبحت اللغة السواحيلية هي اللغة التجارية الرائدة من الساحل وحتى الداخل، وهو ما يسمى الآن بتنزانيا وكينيا وأوغندا وزائير الشرقية. وقد أدى النشاط التجاري إلى تعلم اللغة السواحيلية كلغة ثانية وتحدث بها آنذاك عدد لا بأس به من الناس الذين يعيشون في الداخل بعيدا عن الساحل. وقد استغل الألمان هذه الحقيقة وحكموا كثيرا من أراضي تنزانيا التي كانت تسمى شرق إفريقيا الألمانية، ودام حكمهم لها منذ نحو عام ١٨٩٠ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وكانت السياسة الألمانية تهدف إلى إقرار الحكم الاستعماري على المستعمرة بأقل عدد من الحكام الألمان العسكريين والمدنيين ومن مجموعة من صغار المسئولين الأفارقة. كان الحكام الأفارقة يتحدثون اللغة المحلية واللغة السواحيلية، وكان المستعمرون الألمان يتعلمون السواحيلية فقط. كان الحاكم الألماني يتعلم لغة إفريقية واحدة، وهي السواحيلية، وكانت هي اللغة التي يفهمها علية القوم عبر مساحة واسعة، بدلا من تعلم اللغة المحلية التي ليس لها فائدة أو استخدام في غير مكانها. وعندما استولى البريطانيون على

المستعمرة، وأعادوا تسميتها تنجانيقا، في نهاية الحرب العالمية الأولى، استمروا في اتباع سياسة اللغة التي استخدمها الألمان. وعلى الرغم من اكتساب اللغة الإنجليزية أهمية كبيرة باعتبارها لغة رجال الحكم وطبقة المتعلمين ، فإن اللغة السواحيلية كانت تمثل لغة الاتصال القومية بين عامة الشعب، وهذه العوامل القوية أدت إلى حدوث ظاهرة حالة "اللغة الثلاثية"، والتي سبق لعبد العزيز مخيلفي (١٩٧٨) أن وصفها ونوقشت في الفصل الثاني من هذا الكتاب.(٣)

أوضح وايتلي (١٩٦٩ : ٦٥) أن التانو (وهم الاتحاد الإفريقي القومي - تنجانيقا) قد اختاروا اللغة السواحيلية لغة لهم وذلك في كفاحهم من أجل الاستقلال، كما رفعت القدرة على التحدث باللغة الإنجليزية مكانة رئيس تنزانيا يوليوس نيريري كقائد؛ لأنها مكنته من التفاوض مع البريطانيين. ورغم ذلك فقد كانت اللغة السواحيلي مهمة له مثل اللغة الإنجليزية. وكانت اللغة السواحيلي فعالة جدا باعتبارها لغة الاتصال المنتشرة لدرجة أن نيريري اضطر لأن يستخدم مترجمين فقط في مناسبتين أثناء جولاته العديدة في البلاد قبل الاستقلال. وهذه حقيقة مهمة جدا خاصة وأننا نتحدث عن دولة بها ١٣٥ لغة محلية. وخلال الأعوام القليلة التي تلت الاستقلال الرسمي في عام ١٩٦١ ، اختارت تنزانيا اللغة السواحيلية كلغة قومية لها، وفي عام ١٩٦٧ اعتبرت اللغة الرسمية للدولة كذلك.

جهود تخطيط اللغة

التحديد.

لم يكن تحديد لغة قومية يمثل مشكلة بالنسبة لتنزانيا بالقدر الكبير كما هو الحال بالنسبة للعديد من الدول النامية.(٤) إن تاريخ اللغة بصفتها لغة التجارة والحكومة لقوتين استعماريتين قد ضمن ضرورة انتشار تلك اللغة في كافة أرجاء البلاد. ولم تكن

هناك بالفعل لغة محلية منافسة. والجماعة الثقافية الاجتماعية ذات العدد الكبير، وهي جماعة السوكوما، لم تكن طموحة من الناحية السياسية، ولم تكن لغتها منافسا خطيرا كلغة قومية. والميزة الأخرى التي تختص بها اللغة السواحيلية باعتبارها واحدة من لغات البانتو هي أنها مشابهة بنيويا للغات الأم لنحو ٩٥٪ من السكان. في الواقع أوضح عبد العزيز مخيلفي (١٩٧٨ : ١٣٢) أن المستجيبين الذين يعرفون كلا من لغة مجموعة البانتو الصغيرة ويعرفون أيضا قليلا من اللغة السواحيلية قبل الذهاب إلى المدرسة "لم يدركوا أنهم كانوا يتحدثون (أو يخلطون) لغتين مختلفتين" إلى أن ذهبوا إلى المدرسة. البديل الحقيقي الوحيد للغة الرسمية، إذا لم يكن اللغة القومية، كان اللغة الإنجليزية. وباعتبار أن اللغة الإنجليزية هي لغة الاستعمار، ويتحدث بها عدد قليل نسبيا من التنزانيين فإن الأمر كان يستلزم تجنب اختيار اللغة الإنجليزية ما أمكن. بعد الاستقلال كانت تنزانيا في وضع يستلزم منها اختيار لغة قومية تتميز بما يلي: (١) محلية، (٢) ألا تكون لغة إحدى الجماعات الثقافية المتعددة التي تتنافس من أجل الحكم، (٣) معروفة بشكل عام بأنها لغة ثانية، (٤) تتعلق من الناحية اللغوية باللغات الأم لمعظم المواطنين، (٥) تستخدم من الناحية التاريخية كلغة للتعليم الابتدائي، وعلى الأقل تمثل المستوى المتوسط لرجال الحكومة.

ومن ناحية أخرى، هناك عدة لهجات للغة السواحيلية ويجب تطوير لغة قومية من إحدى هذه اللهجات.[٥] ربما كان من حسن الحظ أن يُنجز تحديد اللهجة جيدا قبل الاستقلال من قبل السلطات البريطانية .لذلك في عام ١٩٣٠، أنشئت منظمة تعرف باسم لجنة اللغة السواحيلية داخل المناطق، وعرفت فيما بعد باسم لجنة اللغة السواحيلية لشرق إفريقيا، وهي تختص بتحديد شكل اللغة السواحيلية الذي سيستخدم في التعليم. وكان من المفترض أن تجد اللجنة سياسة موحدة لكينيا وأوغندا وكذلك تنجانيقا، وكان المنافسان القويان للهجة التي تشكل الأساس للغة النموذجية

هما كيونجوجا، وهي اللهجة التي يمكن التحدث بها في بلدة زنزبار، ولهجة كمفيتا، وهي لهجة مومباسا وهي مدينة كينية قريبة من الحدود التنزانية الكينية.(٦) وقبل عامين من تأسيس هذه اللهجة، اختار مؤتمر ما بين المناطق لهجة كيونجوجا على الرغم من اعتراضات العديد من الباحثين المجتمعين. وتتمتع كيمفيتا بميزة التراث الأدبي والقومي الذي لا تفتقده لهجة كيونجوجا. وهذا النقص هو الذي دفع وايتلي (١٩٦٩ : ٣٢٩) إلى تسمية اختيار كيونجوجا على أنه "من عدة نواح .. غير موفق". من ناحية أخرى، فإن التراث الأدبي في كيمفيتا كان إسلاميا، وهذه الحقيقة لم تؤثر على المخططين للغة الاستعمارية الذين كانوا ينتمون إلى الغرب في نظرتهم الثقافية، إن لم يكونوا مبشرين مسيحيين في الأساس (هينيبوش ١٩٧٩ : ٢٦٨). ومما يدعم اختيار لهجة كيونجوجا هو حقيقة أن لهجات السواحيلية المنطوقة في داخل تنجانيقا كانت شبيهة بها، حيث إن كيونجوجا هي اللغة الأم في بلدة زنزبار، منشأ الرحلات التجارية القديمة. وكانت هذه الميزة سببا مهما في القبول العام والواسع للغة النموذجية في تنزانيا.

التقييس.

كانت اللجنة وأتباعها مسئولين عن تقييس اللغة السواحيلية خلال فترة الاستعمار. وكان اهتمام اللجنة ينصب بشكل أساسي على اللغة المكتوبة، وهذه ميزة نموذجية لهيئات التخطيط اللغوي. ولعدة سنوات من المناقشة حول منح أو حجب الموافقة على النشر بها حددت في النهاية إمكانية نشر كتاب أم لا. وهذه القوة كانت مشابهة للتأثير الذي اختص به ويليام كاكستون عندما كانت لديه المطبعة الوحيدة في إنجلترا. وكان تأثير اللجنة طفيفا على الطريقة التي استخدمها الناس في تحدث اللغة السواحيلية ولكنها أثرت على كيفية تعلم اللغة في المدارس الحكومية. وفي سنواتها الأولى، كانت اللجنة متشددة في إصرارها على الأشكال التي قررت أنها صحيحة.

وقد سبب هذا الكثير من الضيق والاستياء، وكانت اللغة السواحيلية المكتوبة جامدة وبلا حياة وقد فرضهاالأوروبيون على شرق إفريقيا. وقد خفت السيطرة الشديدة على اللغة المكتوبة. وكان مجهود تقييس اللغة ناجحا في تنزانيا من ناحية أن اللغة النموذجية المكتوبة كانت قريبة من المعايير المنطوقة والمقبولة وفقا للغة كيونجوجا، ومن ناحية أخرى لأن معظم الجدل المرتبط بتقييس اللغة قد انتهى قبل الاستقلال.

وفي آخر الأمر، تحولت لجنة اللغة لتصبح معهد أبحاث اللغة السواحيلية لجامعة دار السلام في تنزانيا. ويعتبر تطور اللغة السواحيلية في تنزانيا هو الشغل الشاغل لوزارة التعليم ووزارة تطوير المجتمع والثقافة القومية، وكان لها مسئول معين يدعى "أخصائي تطوير اللغة السواحيلية". ولم يكن ممكنا تطبيق بعض خطط الوزارة لتطوير اللغة القومية نتيجة لنقص التمويل.

علم الإملاء والمفردات.

كانت اللغة السواحيلية تكتب أصلا بالحروف العربية. ومع هذا، فقد استبدلت الحروف العربية بالحروف الرومانية تحت تأثير الإرساليات المسيحية والذين قدموا معظم التعليم الرسمي وأصدروا تراجم للإنجيل والمواد المطبوعة الأخرى في الأيام الأولى للاتصال بأوروبا. كان هناك جدل طفيف حول استخدام الحروف الرومانية C بدلا من Ch، وهل تُفصل مقاطع كتابية معينة حول جذورها اللغوية المحددة بها. وفي كل الأحوال، فقد فشلت العروض الابتكارية وأصبحت الممارسات القديمة هي النموذجية السائدة الآن.(٧)

حتى قبل بدء الجهود الرسمية لتخطيط اللغة من قبل الحكومة الاستعمارية، كانت هناك قواميس (وقواعد) الإرساليات في شرق إفريقيا، وكانت إحدى المهام الأولى للجنة اللغة بين المناطق هي إنتاج قاموس إنجليزي وقاموس سواحيلي. وفعلا

صدر ذلك في عام ١٩٣٩م. وقد طور قاموس جديد في أواخر الستينيات من قبل معهد أبحاث اللغة السواحيلية، وهي المنشأة التي جاءت خلفا للجنة. وفقا لما ذكره هيل (١٩٨٠ : ٣٨٣) كانت القواميس السواحيلية - الإنجليزية، والإنجليزية- السواحيلية لا تزال تحت الإعداد من عام ١٩٧٩م، ولكن كان هناك قاموس سواحيلية - سواحيلية جديد قيل إنه في "مرحلة التنقيح الأخيرة" وكان له الأولوية والأسبقية أكثر من القواميس ذات اللغتين. وقد أصدرت ملاحق لقاموس عام ١٩٣٩م، وهي قوائم الكلمات التي صدرت بشكل دوري من خلال نشرة لجنة اللغة، وهي الآن صحيفة تسمى "سواحيلية" ويتولى المعهد إصدارها. وكان وايتلي (١٩٦٩ : ٩٢) الذي شارك بنفسه في الإصدار تساوره بعض الشكوك حول تأثير قوائم الكلمات الرسمية هذه. وقد أجرى هينيبوش (١٩٧٩ : ٢٨٧-٢٨٨) دراسة صغيرة للمقارنة بين قوائم الكلمات التي صدرت باللغة السواحيلية وبين المصطلحات المستخدمة بالفعل. وقد وجد أن المصطلح الرسمي يستخدم أحيانا وأحيانا لا يستخدم. وهو يستنتج "أن عامة السكان يستخدمون المفردات الجديدة عندما تدعو حاجة الاتصال إلى ذلك وأحيانا يكون ذلك نابعا من أعلى العشب أو من جذوره " (هينيبوش ١٩٧٩ : ٢٨٨). ولم يكن المعهد هو المصدر الوحيد لقوائم الكلمات الرسمية حيث إن كل منشأة حكومية فردية تعرض قوائم لكلمات في مجالها الخاص. وقد أصدر قاموس في القانون في منتصف الستينيات وأثار موجة من الجدل (هايس ١٩٦٨، اوبار، ١٩٧٦ أ). وكانت الأكثر إثارة للاهتمام على الأقل بالنسبة للغويين الابتكارات في المفردات التي تحدث في اللغة السواحيلية بعيدا عن التخطيط العلني. وقد قدم هينيبوش (١٩٧٩) صورة للعديد من هذه العمليات.[٨]

التعليم.

قبل الاستقلال، اعتادت المدارس التي تديرها الإرساليات التبشيرية على استخدام اللغات المحلية الدارجة في التعليم الابتدائي، واللغة الإنجليزية في المستويات الأعلى. وكانت السياسة الرسمية تحت الحكم البريطاني تتجه نحو استخدام السواحيلية كلغة للتعليم في الدراسة الابتدائية واستخدام اللغة الإنجليزية في المراحل اللاحقة.

صمِّمت السياسة التعليمية في تنزانيا بعد الاستقلال للمساهمة في السياسة الوطنية وللتركيز على الزراعة ودعم مفهوم "الأخوة" (ujamaa) وهو المفهوم الإفريقي للاشتراكية والذي يشكل النظام الاقتصادي والسياسي المحدد للأمة. وأحد أسباب ذلك هو أن التعليم الابتدائي يجب أن يكون مستقلا بذاته وليس مصمما كإعداد مسبق للتعليم الثانوي، والذي لم يلتحق به معظم المواطنين، وكما كتب الرئيس نيريري في "الأخوة": *مقالات عن الاشتراكية* قائلا: "في تنزانيا المبرر الوحيد للتعليم الثانوي هو أن القليلين من أفراد الشعب يحتاجونه لخدمة الكثير منهم" (١٩٦٨م : ٦٢). في الممارسة الفعلية، في عام ١٩٧٨م، كان هناك ٢٠٪ فقط من الطلاب في المستوى السابع (أعلى مستوى في التعليم الابتدائي) ومثله في المستوى الأول، ولكن كان أقل من ١٠٪ في المرحلة الأولى (المستوى الأول من التعليم الثانوي) كما في المستوى السابع (بولومي وهيل ١٩٨٠ : ٤٠٧ الملحق ١٤ : ب).

في ظل هذه السياسة العامة، لم يكن هناك سبب للإبقاء على اللغة الإنجليزية كوسيلة للتعليم في المدارس الابتدائية، واختيرت السواحيلية كوسيلة للتعليم على الرغم من استمرار اللغة الإنجليزية في شكل مادة دراسية. (في الأعوام الأولى كان الأباء الأثرياء يرسلون أطفالهم إلى المدارس الابتدائية التي تستخدم اللغة الإنجليزية كوسيلة للتعليم، ولكن منذ عام ١٩٦٧، كان مخالفا للقانون أن يدرس مواطن تنزاني

في مدرسة ابتدائية تكون وسيلة التعليم فيها خلاف السواحيلية). وقد ظلت اللغة الإنجليزية وسيلة التعليم لدرجة كبيرة في مستوى المرحلة الثانوية، على الرغم من أن الهدف كان استبدالها باللغة السواحيلية في التعليم الثانوي والمستويات الأعلى. وكان هناك عاملان أعاقا بشدة الجهود الرامية إلى استخدام اللغة السواحيلية في التعليم الثانوي والمستويات الأعلى، وهما: (١) نقص المصطلحات الفنية والمواد المطبوعة، و(٢) الصعوبة التي تواجه المدرسين عندما يتعين عليهم تدريس مادة ما بالسواحيلية في حين أنهم قد درسوها باللغة الإنجليزية.[٩] ومع هذا، فإن وزارة التعليم كانت تطور المناهج والامتحانات التي تتيح استخدام السواحيلية كلغة تعليم حتى على مستوى دخول الجامعة. في عام ١٩٧٩م، بدا واضحا تماما لهيل (١٩٨٠ : ٣٨٦) أن الانتشار الواسع للغة الإنجليزية كلغة تعليم في المرحلة الثانوية لن يستمر في المستقبل المنظور. أما في جامعة دار السلام، يتم التعليم باللغة الإنجليزية، باستثناء عدة دورات لغوية سواحيلية، وتُستخدم السواحيلية كوسيلة تعليم في كليات تدريب المعلمين، حيث تُدرس اللغة الإنجليزية كمادة دراسية فقط.

الحكومة.

وبما أنه قد أُعلن عن اللغة السواحيلية كلغة رسمية ولغة قومية أيضا فكان لا بد من أن تصبح لغة الحكومة أيضا، وفي الواقع أصبحت لغة المجلس الوطني ولغة المحاكم الدنيا كما أصبحت اللغة الرسمية لكافة الوظائف الرسمية للحزب الوحيد الحاكم في تنزانيا حزب التانو. ويزداد استخدام السواحيلية بدلا من الإنجليزية في الخدمة المدنية رغم وجود كم لا بأس به من تبديل الشفرة بين الإنجليزية والسواحيلية. والعديد من الاستمارات المكتوبة التي تستخدم في الخدمات العامة ما زالت مطبوعة

باللغة الإنجليزية رغم أن اللغة التي يستخدمها الموظفون الحكوميون مع المواطنين الذين يأتون إليهم هي اللغة السواحيلية. وتُستخدم اللغة السواحيلية واللغات الدارجة جميعها في الأنماط المعقدة للمحاكم (كافوكا وبوب ١٩٨٠) وبنسبة أكبر من اللغة الإنجليزية تستخدم في المستويات الأعلى للمحاكم. نظم النظام السياسي التنزاني بشكل هرمي من التشريع القومي إلى مجالس المناطق إلى مجالس القرية إلى خلايا الجوار حيث تُستخدم فيها أحيانا اللهجات الدارجة (جيه أوبار، ١٩٧٦). كانت السياسة المتعلقة بلغة الحكومة في تنزانيا ناجحة جدا وذلك على الرغم من عدم إزاحة اللغة الإنجليزية أو اللغات الدارجة تماما.

بصرف النظر عن الاستخدام الفعلي للغة في الحكومة ، فقد كانت هناك على الأقل سياستان حكوميتان أسهمتا بشكل رئيسي في نشر السواحيلية في تنزانيا (بولومي ١٩٨٢) كانت إحدى السياسات هي نقل العمال المدنيين لفترات محدودة من الزمن إلى أجزاء من الدولة بخلاف منطقتهم الأصلية، بحيث لا يكون أمامهم خيار سوى استخدام اللغة السواحيلية أثناء العمل (وذلك لأنهم لا يعرفون اللغة الدارجة المحلية للمنطقة المحولين إليها). وكانت السياسة الأخرى هي تأسيس القرى الجماعية لتكون بمثابة وحدات زراعية صغيرة يعيش فيها أناس ذوو خلفيات لغوية مختلفة. ويشجع غياب اللغة الدارجة المحلية المشتركة في هذه القرى الجماعية على تقدم اللغة السواحيلية للاستخدام المحلي.

النجاح

المعايير.

قبل أن نقول: إلى أي مدى كانت جهود تخطيط اللغة ناجحة في تنزانيا، نحتاج أن تكون لدينا فكرة عن ما إذا كان ذلك يحسب كنجاح. فأحد المعايير هو أن نقول:

إن النتيجة كانت مرضية إذا أصبحت السواحيلية تشكل في الواقع كلا من اللغة القومية والرسمية. وهذا يعيدنا إلى فكرة فيشمن عن التمييز بين القومية وتسيير أمور الدولة. تعتبر السواحيلية لغة حقيقية تمثل القومية، إذا كانت تعمل كرمز فعال للجنسية التنزانية بالنسبة لأغلبية السكان. وهي لغة حقيقية رسمية (وليس ببساطة كونها معلنة فقط) طالما أنها استخدمت عادة في تنفيذ المهام المتعلقة بتسيير أمور الدولة والتعليم بصورة يومية.(١٠)

أعتقد أنه من العدل أن نذكر أن تنزانيا قد حققت مستوى مؤثرا من النجاح في كلتا الجهتين. لا شك في أن اللغة السواحيلية كانت تمثل القومية التنزانية، كما أن مستوى النجاح الذي أُنجز في مجال تسيير أمور الدولة مؤثر. حقيقة لا تُستخدم اللغة لكل الأغراض الرسمية في كل مستويات الحكومة، وقد ثبت أنه من الصعب توسيع استخدامها إلى مجالات فنية وتعليمية أعلى. ورغم هذا، تم استخدام السواحيلية على نطاق واسع في الحكومة وبشكل حصري في المستوى الابتدائي في التعليم. علاوة على ذلك، حدث كل هذا في دولة فقيرة (وفقا لما ذكره ج. أوبار، ١٩٧٦أ : ٥٠، احتلت تنزانيا المركز ١٢٣ في قائمة مؤلفة من ١٣٥ دولة). والسؤال الذي سوف نناقشه في نهاية هذا الفصل هو إلى أي حد تكون هذه النتائج الجيدة ناتجة بالفعل عن تخطيط اللغة.

المتحدثون باللغة.

فيما إذا كانت اللغة هي اللغة القومية للدولة بالمعنى الكامل فإن هذا يعتمد على عدد من يتحدث بها من المواطنين، إذ لا يكفي أن تُعتبر اللغة مجرد رمز، ولكن يجب استخدامها لأغراض التواصل أيضا. ويعتبر أداء السواحيلية في تنزانيا جيدا من هذه الناحية: إذ يتحدث نحو ٨٠-٩٠٪ من سكان تنزانيا بها، والغالبية العظمى

تتحدثها كلغة ثانية (ج. أوبار ١٩٧٦ ب: ٧٠). يقدم و. أوبار التحليل التالي لسكان قرية أوسانجي الريفية بالنسبة للمقدرة اللغوية، وهي تبدو نموذجية لسكان البلدة (و. أوبار ١٩٧٠، عن دونسون ١٩٧٧: ٦٢):

من يتحدثون لغة واحدة وهي أسو	٥٪
من يتحدثون لغتين أسو سواحيلية	٦٣٪
من يتحدثون ثلاث لغات أسو سواحيلية إنجليزية	٣٢٪

والبيانات التي قدمها بولومي (١٩٨٢: ١٧٧) تظهر نسبة أعلى قليلا من المتحدثين بالسواحيلية والإنجليزية، وعلى الأقل إحدى اللغات الدارجة المحلية:

لغة أو لغات دارجة فقط	١,٨٪
سواحيلية فقط	١,٨٪
لغة دارجة محلية سواحيلية فقط	٤١,٢٪
لغة دارجة محلية سواحيلية إنجليزية	٥٢,٢٪

بلغ عدد المتحدثين الذين تقدموا بهذه المعلومات من أهل المدن أو حصلوا على تعليم جيد أو كليهما ٢٧٤ شخصا، وأوضح بولومي (١٩٨٠ب، ١٩٨٢) أن أهل الريف والمزارعين بشكل خاص من المحتمل أن يعرفوا واحدة أو أكثر من اللغات الدارجة المحلية، ربما السواحيلية ولكن ليس اللغة الإنجليزية.(١١)

توجد مجموعات معينة تميل أكثر بشكل ملحوظ إلى التحدث باللغة السواحيلية من غيرها. لقد شاهدنا بالفعل أن السواحيلية أسهل للتعلم بالنسبة للمتحدثين بلغات البانتو أكثر من المتحدثين باللغات الأخرى. يبدو من المعقول أن نتوقع أن نسبة أعلى من متحدثي لغات البانتو الأصليين سوف يعرفون السواحيلية بشكل أوسع أكثر من المجموعات الأخرى، على الرغم من أنني لم أشاهد أرقاما في هذا الشأن. وفقا لما ذكره بولومي (١٩٨٢: ١٧٥)، فإنه من المرجح أكثر أن يتحدث بالسواحيلية على

طول الساحل، وفي الداخل على طول الطرق التجارية، وفي المدن الكبيرة، كما يتحدث بها المتعلمون والذين يعملون في الخدمات المدنية. وقد وجد و. أوبار (١٩٧٦أ: ٤٢-٣) أن من المرجح أكثر أن يتحدث السواحلية: الرجال أكثر من النساء (كل الرجال تقريبا في يوسانجي يتحدثون بها)، والشباب أكثر من كبار السن، والمواطنين المتعلمين أكثر من الأقل في المستوى التعليمي. وحقيقة أن صغار السن والمتعلمين يعرفون تلك اللغة هو بدون شك نتاج السياسة التنزانية إلى حد كبير. ويعزو أوبار الاختلاف حسب الجنس إلى حقيقة أن الرجال يقضون وقتا خارج مناطق سكنهم للعمل في المدن أو الزراعة، أو يخدمون في القوات المسلحة. والسبب الآخر من وجهة نظره هو التعليم، حيث إن اللغة السواحيلية كما نعلم يتحدث بها الرجال أكثر من النساء. كما يشير بولومي (١٩٧٥: ٣٨) إلى التخلف في تعليم البنات وحبسهم في المنازل. إذا كانت سياسات المساواة للحكومة التنزانية تجعل على الأقل التعليم الابتدائي عاما للجميع، وإذا أتيح للنساء الالتحاق به، فقد تنخفض حدة هذه الفروق حسب رأي أوبار.

المواقف.

من الواضح أن النسبة الزائدة والكبيرة من السكان التنزانيين يتحدثون السواحيلية. وأن السواحيلية ترمز للقومية التنزانية، وتخدم وظائف الوحدة والاستقلال على المستوى القومي بطريقة تبدو مستحيلة للغة الإنجليزية. يظل لدينا اكتشاف كيف يشعر التنزانيون بشأن اللغة السواحيلية مقارنة باللغات الدارجة للمجموعات الصغيرة. فهل القيمة الرمزية للسواحيلية كلغة قومية تنطبق فقط على سكان المدن، "غير المنتمين إلى قبائل" والأفضل تعليما، وهؤلاء المشتركين في الحكومة القومية والسياسة؟ . وما هي قيمة السواحيلية للفرد العادي الذي ينتمي إلى

إحدى الجماعات الثقافية الاجتماعية التي تشكل المجتمع التنزاني؟ يمكن أن نتذكر أن فلاحي أوبروارت كانوا يتحدثون لغتين الألمانية والمجرية لعدة أجيال دون أن تشكل اللغة الألمانية رمزا للهوية. لقد كانت ببساطة أداة للتعامل مع "الأجانب". والأمر نفسه يتكرر مع اللغة الإنجليزية في إقليم كويبك. فهل هذا هو الدور الذي تلعبه السواحيلي بالنسبة لمعظم التنزانيين؟

يتفق الدارسون جميعا، وهم المتخصصون في الحياة في تنزانيا أنه لا يوجد تحويل شامل يحدث من اللغات المحلية إلى السواحيلية (واتيلي ١٩٦٩: ١١٥، و.أوبار ١٩٦٧أ: ٤٢، سكوتون ١٩٧٨: ٧٥٥ هامش ٢٤، هينيبوش ١٩٧٩: ٢٩٢). وحالة ثلاثية اللغة في تنزانيا التي ذكرناها في الفصل الثاني هي حالة ثابتة. وقد وُصف هذا الموقف من قبل واتيلي (١٩٦٩: ١١٥):

بمعنى آخر، فإن جمهورية تنزانيا الاتحادية مع دول أخرى عديدة في العالم اليوم، هي متعددة اللغات، وكل لغة تؤدي وظائف معينة... وطالما أن الدول الحديثة تشارك في المجموعات الفوقومية، مثل، السوق الأوروبية أو سوق شرق إفريقيا، ومنظمة الاتحاد الإفريقي، والأمم المتحدة ... إلخ، فإن هناك ضرورة للغة الفوقومية. طالما توجد ضرورة ملحة لإرساء هوية قومية لأسباب سياسية أو ثقافية فإن اللغة القومية، وفي هذه الحالة السواحيلية، يكون لها دور مهم عليها أن تؤديه. وحيث تكون الروابط المحلية مهمة، لتعزيز إحساس الارتباط والاستمرار مع الماضي، أو على سبيل المثال لتأكيد قيم مجموعة محلية عندما يبدو أنها تواجه الذوبان في وحدة أكبر، حينئذ تظهر اللغة المحلية في المقدمة.

وكما تعلمنا من دراسة الإبقاء والتحول اللغويين فإن الجزء من المعلومات الذي نبحث عنه هو اللغة أو اللغات التي تنقل للأولاد. يوضح سكوتون (١٩٧٨: ٧٥٥، هامش ٢٤) الحقيقة التالية من إحدى المجموعات التنزانية وهي تشاجا وهي

حسب ما ذكره واتيلي (١٩٦٩ : ١١٤) تتمتع بولاء كبير للغتها "العديد من تشاجا الذين يعيشون على منحدرات جبل كلمناجارو يستخدمون اللغة السواحيلية في حياتهم اليومية مع الأقارب كالإخوة والأخوات، ولكنهم لا يزالون يستخدمون لغة تشاجا مع *الأولاد* وكبار السن" (الكتابة المائلة لي). من الممكن أن تُستخدم تشاجا مع كبار السن؛ لأنهم لا يعرفون السواحيلية جيدا، وربما لأنهم اكتسبوا كفاءتهم اللغوية قبل ظهور القومية. ورغم هذا، فإن استخدام اللغة المحلية مع الأولاد يعني أن متحدثي تشاجا يريدون من أولادهم أن ينتموا إلى مجموعتهم وألا يكونوا مجرد أولاد تنزانيين فقط. من ناحية أخرى، يوضح بولومي (١٩٨٠ب: ١١٧) أن بعض الأباء الذين يتحدثون اللغة الدارجة نفسها يستخدمونها فيما بينهم، ولكنهم يستخدمون السواحيلية مع أبنائهم. وقد رأينا أن هذا النموذج يعني أن شرق سازرلاند قد وصلت المراحل الأخيرة للتحول من اللغة الغيلية إلى اللغة الإنجليزية. ومع هذا فإن العائلات التنزانية التي تدخل في هذا النموذج من اختيار اللغة يمثلون الأقلية. وقد كشفت المقابلات التي أجريت مع عينات من الطلاب في الأعوام النهائية في كليات تدريب المعلمين في عام ١٩٧٠م أن ٨٠٪ منهم يريدون من أطفالهم تعلم اللغة الدارجة التقليدية إلى جانب السواحيلية، وهناك سببان رئيسيان لذلك: "كان الحافز في الغالب هو الهوية الذاتية، واللغة الدارجة هي الوعاء الحقيقي للتراث، وبالأهمية نفسها أيضا كانت الحاجة لأن يكون الولد قادرا على التواصل بشكل مناسب مع أجداده الذين لا يلمون باللغة السواحيلية إلا قليلا (بولومي ١٩٨٠ب: ١٣١، هامش ٢١).

من السهل تأكيد أن اللغات المحلية هي رمز للانتماء بالنسبة للمجموعات الصغيرة عند معظم التنزانيين، وأن معظمهم أيضا يتحدثون السواحيلية. يبدو أقل وضوحا سواء أكانت السواحيلية تعتبر أداة فقط أم أنها أداة ورمز معا. بمعنى هل من الممكن أن تعرف نفسك مثلا بأنك من التشاجا ومواطن تنزاني معا. يبدو لعبد العزيز

مخيلفي (١٩٨٠ : ١٦١) أن الإجابة على السؤال هي "نعم" : "الموقف من السواحيلية هو موقف إيجابي فهي في الوقت الراهن تمثل لغة الصفوة والهوية القومية... والموقف من اللغة الأم هو نوع من الارتباط العاطفي الطبيعي تجاه لغة "البيت"، وباعتبارها تمثل الهوية الأصلية والثقافة".

هناك على الأقل سبب واحد مهم لكي يبدو هذا الأمر على هذا النحو. لقد تمت حركة الاستقلال في تنزانيا باللغة السواحيلية. وقادة التانو أمثال يوليوس نيريري كانوا يتحدثون إلى الجمهور بالسواحيلية، كما لا يزال القادة السياسيون القوميون يفعلون ذلك. وبهذه الطريقة أصبحت السواحيلية اللغة المرتبطة بوحدة كل المجموعات الثقافية والاجتماعية الصغيرة ضد خصم عام، وهو القوة الاستعمارية. فإذا كان هذا الإحساس الخاص بالهوية المزدوجة إحساسا عاما، فلربما حققت تنزانيا مزيجا يقرب من المثالية للوحدة والاختلاف. وإذا كان الأمر كذلك فقد لعبت السواحيلية دورا مهما في هذا التطور.

الأدب.

أحد العوائق الخطيرة في تقدم اللغة السواحيلية هو نقص الأدب المطبوع بهذه اللغة. معظم الأعمال المنشورة بالسواحيلية بغض النظر عن أدب الدوريات جاءت في شكل مواد مدرسية. ولكي تقرأ الروايات والشعر والمسرح حتى من قبل الكتاب الأفارقة، فمن الضروري تعلم اللغة الإنجليزية. وهذه الحقيقة ليست تضر اللغة السواحيلية فحسب في نظر المتعلمين، بل تعوق تقدم اللغة نحو مستويات أعلى من النظام التعليمي طالما أنه لا يوجد الكثير مما يمكن قراءته على هذا الصعيد. ومن أجل توضيح أن اللغة قادرة تماما على استخدامها في أعمال أدبية ، قام الرئيس نيريري بنفسه بترجمة مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير إلى السواحيلية. وهناك اقتصادي

يدعى بيترتيمو اتبع هذا المنهج وأصدر كتابا منهجيا باللغة السواحيلية في مجال تخصصه (و. أوبار ١٩٧٦أ: ٤٧). إن التشجيع على استخدام اللغة في الأدب يعد واحداً من المهام الرئيسة لمن يدعو إلى السواحيلية، وكان هناك بعض التحسن في الأعوام الأخيرة مع نشر روايات شعبية مثل القصص البوليسية والرومانسية. كما كان هناك تراجم للأعمال التي كتبت باللغة الإنجليزية من قبل مؤلفين أفارقة (هينيبوش ١٩٧٩: ٢٩٢).

المقارنة مع كينيا

من المفيد أن نعطي لمحة مختصرة إلى الدولة الجارة لتنزانيا وهي كينيا، وذلك فيما يتعلق بإصدارات اللغة القومية. وكينيا تشبه تنزانيا في عدة نواح. إذ إنها دولة شرق إفريقية ذات لغات متعددة، وهي مستعمرة بريطانية سابقة، حققت الاستقلال في الوقت نفسه تقريبا، كما أن اللغة السواحيلية منتشرة كلغة للاتصال على نطاق واسع. ورغم هذا، فإن السواحيلية ليست هي اللغة الرسمية لكينيا، بل اللغة الرسمية هي الإنجليزية. وقد دعا الاتحاد القومي الإفريقي الكيني (كانو)، وهو الحزب السياسي الوحيد في كينيا، بأن تصبح السواحيلية اللغة القومية أو على الأقل مساوية للإنجليزية، ولوقت طويل لم ينفذ الكثير بشأن هذه السياسة. في عام ١٩٧٤م، أُعلنت السواحيلية لغة البرلمان الكيني. وأثار الإعلان عاصفة من الاحتجاج لدرجة أنه أُغلق البرلمان في اليوم التالي. يشير سكوتون (١٩٧٨: ٧٣٥) إلى أن الاستخدام الرسمي للسواحيلية في البرلمان سوف يكون له تأثير محدود لو ظلت اللغة الإنجليزية لغة نشاط الحكومة اليومي، ولغة التعليم، ولغة الأعمال الخاصة. والسبب وراء عدم جعل السواحيلية لغة قومية لكينيا هو عدم قبولها.

وهناك عدة أسباب وراء الاختلاف بين خبرات الدولتين. أولا، على الرغم

من أن كلتا الدولتين كانت مستعمرة بريطانية فقد خضعت تنزانيا للحكم الألماني. كما اتبع الاستعمار البريطاني الأسلوب الألماني في تعيين إداريين يتحدثون السواحلية وبشكل متوسط. وفي كينيا كانت السياسة مذبذبة، أحيانا يفضلون السواحلية، وأحيانا اللغة الإنجليزية، وأحيانا اللغات المحلية. وجزء من السبب وراء ذلك هو أن الإرساليات المسيحية كانت أكثر تأثيرا في كينيا منها في تنزانيا وعادة يفضل المبشرون استخدام اللغات المحلية حيث يشعرون أن اللغة الأم للفرد أكثر ملاءمة للتبشير. وهذا يعني أن تأثير الإرساليات التبشيرية سيعمل لصالح اللغات الدارجة في مراحل التعليم الأولى. وسبب آخر يُقدّم أحيانا وهو المطامح السياسية المختلفة التي جاءت بعد الاستقلال في الدولتين (سكوتون ١٩٧٨، ج. أوبار ١٩٦٧). تتبع تنزانيا سياسة قوية من مبدأ "الأخوة" (الاشتراكية الإفريقية) وهي ذات تأثير يتعلق بالمساواة بين البشر. ويقود هذا بالطبع إلى استخدام السواحلية، وهي أكثر اللغات انتشارا. إن النظام السياسي والاقتصادي في كينيا أقل مساواة بالتأكيد. وإن الموجودين في السلطة قد حققوا القوة باستخدام اللغة الإنجليزية ولديهم مصلحة في الوضع الاجتماعي اللغوي الحالي.

أما السببان الثالث والرابع فهما سببان ذوا طبيعة لغوية اجتماعية. وحين نتذكر اللهجتين اللتين تتنافسان لتحديد اللهجة في المنطقة أثناء الفترة الاستعمارية نجد أنهما كانتا كيونجوجا وكيمفيتا. وكانت كيونجوجا اللهجة الأم في زنزبار، والآن هي جزء من جمهورية تنزانيا المتحدة. واللهجات الموجودة في شمال البلاد في كلتا الدولتين مشابهة لكيونجوجا كنتيجة للنشاط التجاري للقرن التاسع عشر. كيمفيتا هي اللهجة السواحلية لمدينة مومباسا وهي في كينيا. وعلى الرغم من أنها لم تختار كلغة نموذجية إقليمية، إلا أنه لا يزال هناك من يخلص لها ويتمسك بها. على الرغم من أن كيونوجا كلغة نموذجية مقبولة في تنزانيا، إلا أنها ليست مقبولة بشكل واسع في الساحل

الجنوبي لكينيا. ومن ناحية أخرى، فإن كيمفيتا هي نوع أدنى من السواحيلية يتحدث بها أهل الشمال في كينيا. وباختصار، حتى إذا تحقق تحديد اللغة السواحيلية في كينيا فإن تحديد اللهجة النموذجية يكون أمرا أكثر صعوبة.

وأخيرا فإن كينيا بها مجموعات عرقية أقل في العدد وأكبر في الحجم. ووفقا لإحصاء ١٩٦٢ والذي ذكره وايتلي (١٩٧١أ : ١٤٧-٨) يوجد نحو ٣١ مجموعة تتحدث اللغة مقابل ١١٤ في تنزانيا (الرقم الذي ذكره بولومي هو ١٣٥، مبني على أساس بيانات مسح حديثة). يشكل أربع من هذه المجموعات أكثر من ١٠٪ من السكان لكل منها، كيكويو (٨, ١٩٪)، ليو (٨, ١٣٪)، لويا (١, ١٣٪) والكامبا (٢, ١١٪). ويتحدث بكل من هذه اللغات الأربع ما يزيد عن مليون شخص. ومن غير المحتمل أن تتعلم المجموعات الكبيرة السواحيلية لسببين. من منظور الاتصال، كلما زاد عدد الناس الذين يشاركون شخصا ما لغته الأم، كلما قل احتمال احتياج هذا الشخص لتعلم لغة أخرى. فيما يتعلق بالجانب الرمزي للغة، فمن المحتمل أن يشعر أعضاء الجماعات الكبيرة أنهم ليسوا بحاجة لتعلم لغة أخرى، كما أنه يجدر بالآخرين تعلم لغتهم هم. وللغة السواحيلية ميزة، حتى في كينيا، لا تمتلكها اللغات المقترحة في بلدان أخرى. فعلى عكس اللغة الهندية في الهند فإن السواحيلية ليست اللغة الأم لإحدى الجماعات الثقافية الاجتماعية الكبيرة. لذا من المفترض أنه لن يكون صعبا الحصول على متحدث من إحدى الجماعات الأربع الكبيرة ليتعلم السواحيلية لأن الأمر تماما مثل ما يتعلم لغة لإحدى الجماعات الأخرى. ورغم هذا، فإنه يوجد بشكل عام علاقة بين حجم الجماعة والعدوانية تجاه اللغات المشتركة (سكوتون ١٩٧٨ : ٧٢٣). إن التوقعات بالنسبة للسواحيلية تبدو أكثر تعقيدا في حقيقة أن عددا أقل من مواطني كينيا يتحدثون لغات البانتو (٦٠-٦٥٪ مقارنة بـ ٩٤٪ في تنزانيا). وثاني أكبر مجموعة في تنزانيا وهي ليو، تتحدث لغة نيلوتيك، وهي

تجعلهم أقل ميلا لقبول السواحيلية ، لغة البانتو. وتعطي المقارنة بين كينيا وتنزانيا انطباعا بأنه إذا كانت الدولة متعددة اللغات بدرجة من متوسطة إلى قصوى، فإنه من الأفضل بالنسبة لتحديد اللغة القومية للدولة أن تكون أكثر وليس أقل اختلافا.

وسواء أكان أي من هذه الأسباب أو جميعها يصلح كتفسير، لم يكن للغة السواحيلية حظ أفضل في كينيا مثل تنزانيا. على الرغم من أنه يمكن أن يقال: إن السواحيلية لم تُقبل؛ لأن تخطيط اللغة لم يكن قويا في كينيا، إلا أن العكس يبدو لي أقرب إلى الحقيقة. لم يكن تخطيط اللغة قويا؛ لأن القيادة القومية كانت محنكة سياسيا بدرجة كافية لإدراك أنه لأسباب تاريخية وإثنوغرافية قوية، لم تُقبل لغة السواحيلي.

أيرلندا

التاريخ

أيرلندا هي ثاني أكبر الجزر البريطانية وتوجد في غرب بريطانيا العظمى. وهي دولة مقسمة سياسيا إلى جمهورية أيرلندا المستقلة وأيرلندا الشمالية التي تتألف من ست مقاطعات شمالية تخضع للحكم البريطاني. تبلغ مساحة جمهورية أيرلندا ٢٧٠٠٠متر مربع. ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة (أوهوالاتشين ١٩٧٠ : ١٨١).

منذ عدة قرون مضت كان الأيرلنديون يتحدثون اللغة الغيلية الأيرلندية (تسمى حاليا "الأيرلندية"). وكان للغة وللشعب الأيرلندي حضارة عظيمة ويرجع تاريخ الأدب الغيلي إلى ما يزيد عن ألف عام في التاريخ. والحكم الإنجليزي الذي كان غاشما في ذلك الوقت تأسس في القرن السابع عشر، وكان هناك تحول تدريجي في اللغة الأيرلندية إلى الإنجليزية واستمر ذلك حتى القرن الحالي. وفي عام ١٩٦١م، أشارت بيانات الإحصاء الأيرلندية إلى أن ما بين ٢ ، ٣٪ من سكان الجمهورية

يتحدث الأيرلندية الأصلية.[١٢] وفي الفترة الزمنية نفسها صرح نحو ٢٠٪ من سكان المنطقة بأنهم يتحدثون اللغة الأيرلندية، ومعظمهم تعلموا الأيرلندية كلغة ثانية.[١٣] يعيش المتحدثون بالأيرلندية باعتبارها اللغة الأم في مناطق بعيدة نسبيا عن الساحل الغربي. وعلى العكس من التنوع الشديد في تنزانيا، فإن أوهوالاتشين (١٩٧٠ : ١٨١) ذاته كان يفضل عودة اللغة الأيرلندية حيث قال: "إن الدولة ككل تتحدث لغة واحدة (الإنجليزية)".

والتناقض الآخر بالمقارنة مع تنزانيا هو حقيقة أن حركة الاستقلال في أيرلندا كانت قد تمت باللغة الإنجليزية، كما أن العاطفة القومية في القرن التاسع عشر في معظمها لم يعبَّر عنها باللغة الأيرلندية. ويشعر ماكنامارا (١٩٧١ : ٦٨) أن النجاح العظيم لحركة الاستقلال قد أضعف من قوة جهود استعادة اللغة. اعتقد الناس أنه إذا كان للغة الأيرلندية سيطرة سياسية على منطقتهم فإن العمل من أجل اللغة لن يكون ضروريا.

جهود التخطيط

التحديد.

لم يكن تحديد اللغة بالطبع أمرا مهما في أيرلندا. إذا كان من الضروري تخطيط اللغة، فيجب أن تخطَّط اللغة من جانب الأيرلنديين. وكانت اللغة الإنجليزية هي اللغة القومية الوحيدة، فلم تتطلب التخطيط.[١٤] ويحدد الدستور الأيرلندي اللغة الأيرلندية كلغة قومية، واللغة الرسمية الأولى ويعتبر اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية الثانية. وكان تحديد اللهجة أمرا أكبر نسبيا. على الرغم من حقيقة قلة عدد المتحدثين الأصليين للغة الأيرلندية، كانت هناك ثلاث لهجات معترف بها، وهي: مونستر، كوناتشت، ودونيجال. يتحدث أوهوالاتشين (١٩٦٢ : ٧٨) في مقالته

السابقة عن "قواعد قياسية تنطبق على جميع اللهجات". كان مدرسو المرحلة الابتدائية يفضلون لهجة مونستر في إحدى المراحل، ولكن حدث منذ فترة قريبة أن كان هناك "انتقال منتشر للهجة كوناتشت" (ماكنامارا (١٩٧١" ٧٢، ٧٤). وتتميز لهجة كوناتنشت بكونها لغة معظم المتحدثين الأصليين باللغة الأيرلندية، وهي وسط بين اللهجتين الأخريين. استُعين بأوهوالاتشين ومجموعة من زملائه من قبل الحكومة لإجراء دراسة عن اللغة الأيرلندية المنطوقة واستخدام النتائج لتطوير مواد التدريس. وقد اكتمل هذا العمل في منتصف الستينيات، واشتمل على أشرطة للمخابر اللغوية ومواد لدورات اللغة الأيرلندية تذاع بالراديو والتلفزيون. كانت لهجة كوناشت هي المفضلة في هذه المواد وفقا لما ذكره ماكنامارا، مما يؤكد تميزها كأساس للغة النموذجية.

التقييس.

قبل عام ١٩٥٠م، كان عدد من القواعد البسيطة متاحا للتدريس. وقد نُشرت القواعد النموذجية الرسمية في عام ١٩٥٣م، وأجري التعديل عليها في عام ١٩٥٨م، وقُبلت بشكل عام. أما المواد التي أنتجها أوهوالاتشين وزملاؤه وتدعى (أسس اللغة الأيرلندية وبداياتها) كان لها دون شك تأثير عظيم على مقاييس تدريس اللغة في المدارس، وذلك على الرغم من أنها لا تشكل قواعد رسمية.

علم الإملاء والمفردات.

ثبت أن تخطيط علم الإملاء أمر سهل إلى حد ما. وكان للقاموس المبكر للأب باتريك دنين تأثير على استقرار علم الإملاء. وقد صدر نظام التهجئة المبسط من قبل الحكومة في عام ١٩٤٥. "وكان مقبولا عالميا تقريبا" (ماكنامارا ١٩٧١ : ٧٣). وكان التخطيط للمفردات ناجحا بالمثل. استُبدل قاموس الأب دنين من الأيرلندية إلى

الإنجليزية، وكذلك قاموس الأب لامبرت مكينا من الإنجليزية إلى الأيرلندية، بقاموس رسمي صدر في عام ١٩٥٩م. في القاموس الجديد قسم للمصطلحات الفنية وكذلك مداخل للمصطلحات الأكثر ضرورية. وكان القاموس مهماً ليس فقط بالنسبة للمداخل التي يحتوي عليها، ولكن لوضعه مبادىء للتوسع في المفردات. كان الهدف المبدئي هو وضع الكلمات في الاستخدام الحالي أولاً ثم العودة إلى اللغة الأدبية الأقدم أو الألفاظ الجديدة فقط عند الضرورة. وكان هناك ميل لاقتراض المصطلحات الفنية من اللاتينية واليونانية على طريقة معظم اللغات الأوروبية الحديثة. وقد نجح تطوير المفردات إلى حد أنه توجد دورات تدريس باللغة الأيرلندية في جامعة جولوي (Galway) وتشتمل على اللاتيني والتاريخ والاقتصاد والكيمياء والفيزياء الرياضية والتجريبية بالإضافة إلى اللغة الأيرلندية (ماكنامارا ١٩٧١ : ٨٩، هامش ٢٤، أوهوالاتشين ١٩٦٢ : ٧٧). من بين قائمة تضم ٨٠ مصطلحا حديثا طورها أستاذ جامعة يل كاختبار لتحديث اللغة، لم ينقص اللغة الأيرلندية إلا ثلاث كلمات فقط هي "ديموغرافيا"(أي الدراسة الإحصائية للسكان)، و"الاضطراب العصبي"، و"تنظيم صارم" (أو هوالاتشين ١٩٦٢ : ٧٨).

التعليم.

كما هو الحال في تنزانيا، اشتمل معظم تخطيط اللغة في أيرلندا على النظام التعليمي. من أجل الحصول على صورة أوضح لكيفية عمل تخطيط اللغة في النظام التعليمي، من المهم أخذ فكرة عن شكل النظام ونوعيته. هناك ثلاثة مستويات للتعليم "الابتدائي والثانوي والعالي". تخضع المدارس الابتدائية للسيطرة الحكومية. وهناك نوعان من المدارس الثانوية : المهنية والأكاديمية. وجميع المدارس الثانوية في أيرلندا هي

مؤسسات خاصة يعمل معظمها بأوامر دينية. في المستوى الثالث، هناك ثلاثة أنواع من المؤسسات، كليات الجامعة وكليات التقنية المتقدمة وكليات تدريب المعلمين لمدارس المرحلة الابتدائية (أوهوالاتشين ١٩٦٢، ماكنامارا ١٩٧١).

تُستخدم المدارس الابتدائية كأداة لاستعادة اللغة الأيرلندية إلى حد أن أوهوالاتشين (١٩٦٢ : ٨٠) يرى أن المدارس الابتدائية لها "غرض مزدوج": "تعليم الأطفال ونقل المعرفة إليهم حتى سن الرابعة عشرة وتدريس اللغة الأيرلندية". وبمجرد أن تحقق الاستقلال قررت الحكومة الأيرلندية تدريس اللغة الأيرلندية أو استخدامها كوسيلة للتعليم لمدة ساعة على الأقل يوميا في كل المدارس الابتدائية التي يوجد بها مدرس يمكنه تدريسها بكفاءة. وفي عام ١٩٣٤م، كانت السياسة الرسمية هي أن الأيرلندية لم تكن فقط تدرس كمادة دراسية، ولكنها كانت تستخدم كوسيلة لأداء كل الأعمال في فصول "الأطفال"، وفي الفصول الأعلى لتدريس التاريخ والجغرافيا والغناء واللياقة البدنية إذا كان ذلك ممكنا على الإطلاق. ثم تمت الدعوة فيما بعد إلى استخدام اللغة الأيرلندية ما أمكن كوسيلة للتدريس في كافة الصفوف الدراسية. ومدى إمكانية تطبيق هذه السياسات في مدرسة محددة كان يقرره المسؤولون في تلك المدرسة (ماكنامارا ١٩٧١ : ٧٠-١). ولإيجاد مدرسين يمكنهم تنفيذ هذه السياسات، طلبت الحكومة من المعلمين تحت عمر ٤٥ اتباع دورات صيفية واشترطوا استقدام مدرسين من المناطق التي تتحدث الأيرلندية. وقد تم هذا عن طريق حجز نصف المنح الدراسية الحكومية المخصصة "للكليات الإعدادية" لمتحدثي الأيرلندية. وقد تابع الطلبة في الكليات الإعدادية في كليات تدريب المعلمين التي كانت تدرس أيضا باللغة الأيرلندية. عندما كان يعمل بهذا النظام بشكل كامل، قدم نحو ثلث معلمي المرحلة الابتدائية، وكانوا ممن يتقنون اللغة الأيرلندية (ماكنامارا ١٩٧١ : ٧١). وفي عام ١٩٦٢ ذكر أوهوالاتشين (١٩٦٢ : ٨١) أن ٨٠٪ من معلمي المرحلة الابتدائية

حصلوا على شهادات كفاءة للتدريس باللغتين. ولكن في بداية الستينيات توقفت هذه الكليات الإعدادية.[١٥] وفي عام ١٩٧١ "كانت كليات تدريب المعلمين تستخدم فقط قدرا محدودا جدا من التدريس باللغة الأيرلندية". (ماكنامارا، ١٩٧١ : ٧٥).

يصف أوهو الاتشين (١٩٧٠/ ١٨١-٢) الحالة في المدارس الابتدائية في ثلاثة نماذج : النموذج الأول الذي ضم ٢٦٩ مدرسة ابتدائية كانت اللغة الأيرلندية فيها هي وسيلة الدراسة الوحيدة ؛ على الرغم من أن الكتب الدراسية الإنجليزية تستخدم في بعض المواد في مستوى ما بعد الابتدائية. ومعظم هذه المدارس كانت في المناطق التي تتحدث باللغة الأيرلندية، حيث يكون معظم الطلبة ثنائيي لغة ولكن اللغة الأيرلندية كانت هي المسيطرة. أما في المدارس التي تتبع هذا النموذج والواقعة خارج المناطق التي تتحدث الأيرلندية، فإن بعض الطلبة كانوا أحاديي اللغة باللغة الإنجليزية فقط. وتُدرَّس اللغة الإنجليزية كمادة دراسية.[١٦] ثانيا، في ٤٢٧ مدرسة ابتدائية أخرى تستخدم كلتا اللغتين الأيرلندية والإنجليزية كوسيلة للتعليم، ولكن لا تتوافر معلومات عن كم التعليم بكل لغة. فمعظم الطلبة يأتون إلى المدرسة وهم يتحدثون اللغة الإنجليزية فقط، ولكن البعض منهم قد يتحدث الأيرلندية. وتشكل اللغة الأيرلندية مادة إجبارية في كل الصفوف. أما النموذج الثالث في المدارس المتبقية والتي يبلغ عددها نحو ٣٧٠٠ مدرسة، فإن وسيلة الدراسة الوحيدة هي اللغة الإنجليزية، على الرغم من وجود اللغة الأيرلندية كمادة إجبارية. والقليل فقط من طلبة هذا النموذج من المدارس يتحدثون الأيرلندية في المنازل.

لم تفرض الحكومة بصورة مباشرة اللغة الأيرلندية كوسيلة للتعليم على المدارس الخاصة في المرحلة الثانوية. ورغم هذا، فإن هؤلاء الذين يتلقون دعما حكوميا (أي معظمهم) يجب عليهم تدريس اللغة الأيرلندية كمادة دراسية. وهناك بواعث كثيرة لاستخدام اللغة الأيرلندية كوسيلة للتعليم، فمثلا تحصل المدارس

الثانوية التي تدرس كل المواد باللغة الأيرلندية على أكبر عدد من المنح الحكومية للطلبة. ويخيّر الطلبة في المدارس الثانوية أن يقدموا امتحاناتهم إما باللغة الإنجليزية وإما بالأيرلندية. والطلبة الذين يختارون اللغة الأيرلندية يحصلون على علاوات تشجيعية في مراحلهم الدراسية (ماكنامارا ١٩٧١ : ٧٤-٥). على الرغم من هذه السياسات، فإن استخدام الأيرلندية كوسيلة دراسية في المدارس الثانوية آخذ في هبوط. في عام ١٩٦٢، ذكر أوهولاتشين (١٩٦٢ : ٧٩) أن ٥٦٪ من المدارس الثانوية في أيرلندا لم تدرس أي مادة باللغة الأيرلندية. والبيانات التي قدمها في عام ١٩٧٠ (أوهوالاتشين ١٩٧٠ : ١٨١-٢) تشير إلى أن الرقم قد زاد إلى ٧٥٪ . كما سجلت دراسة (ماكنامارا ١٩٧١ : ٧٥) بالمثل هبوطاً في عدد المدارس الثانوية الأكاديمية (تسمى المدارس القواعدية) التي تدرس كل المواد (باستثناء اللغة الإنجليزية) باستخدام اللغة الأيرلندية. ويعود السبب في ذلك دون شك إلى نقص الكتب المنهجية باللغة الأيرلندية التي تصلح للتعليم الثانوي.

لقد أشرنا سابقا إلى مجموعة واسعة من المواد الدراسية التي تدرس باللغة الأيرلندية في كلية جامعة جولوي (Galway). وعلى الرغم من أن هذا يشير إلى النجاح في التخطيط لتطوير اللغة الأيرلندية، إلا أن كلية جامعة جولوي التي تعتبر أصغر الكليات الجامعية ليست نموذجا للتعليم العالي في البلد. فقد اشترطت كل من كلية جامعة كورك وكلية جامعة جولوي في عام ١٩٧١ أن يعيَّن في بعض وظائف الكلية من يستطيع تدريس المواد باللغة الأيرلندية (ماكنامارا ١٩٧١ : ٧٥). ومع ذلك فقد درِّست "بعض المواد" فقط باللغة الأيرلندية. وكان الشيء نفسه قد طبق في كلية القديس باتريك حسب ما جاء في دراسة ماينوث (أوهوالاتشين ١٩٦٢ : ٧٨) . كان استخدام اللغة الأيرلندية كوسيلة للتعليم في مؤسسات التعليم العالي الأخرى بنسبة ضئيلة تكاد لا تذكر، باستثناء "الكم المحدود من التدريس الذي يتم باللغة الأيرلندية"

في كليات تدريب المعلمين، والتي كما رأينا بالفعل تمثل هبوطا حادا عما كان الحال عليه قبل عشر سنوات. يجد أوهولاتشين (١٩٦٢ : ٧٩) سببا جزئيا للكم البسيط المستخدم للغة الأيرلندية في التعليم العالي في "عدد من الإداريين والأكاديميين الذين يشغلون وظائف ذات تأثير عظيم ويقاومون ثنائية اللغة". ويرى ماكنامارا (١٩٧١ : ٧٥-٧٦) المجموعة التالية من الأسباب: "إن الذي يدهش المرء حين يبحث الواقع التعليمي هو انخفاض جهد استعادة اللغة حين ينتقل الشخص من المستوى الابتدائي إلى الثانوي ، ومن الثانوي إلى التعليم العالي. يمكن عزو الفرق بين المستويات من ناحية إلى مبادىء أصول التدريس لهؤلاء الذين خططوا للتعليم منذ عام ١٩٢٢ ، ومن ناحية إلى زيادة الطلبات على وقت الطلبة حين يكبرون، ومن ناحية لأن الحكومة تمارس سيطرة أكثر في الابتدائية منها في الثانوي، وفي الثانوي أكثر مما في التعليم العالي، ومن ناحية إلى نقص الكتب المنهجية باللغة الأيرلندية حيث يتدرج الطالب صاعدا في سلم التعليم. ويؤكد هذا الوضع بوضوح الاعتقاد بأن وقت تدريس لغة ثانية يكون في شكله الأفضل عندما يكون الأطفال صغار السن . ولو تركنا التفسير جانبا، فإن ذلك يشير إلى أن العبء الأكبر في استعادة اللغة الأيرلندية هو مسؤولية العاملين بالمدارس، وهم القسم الأضعف والأقل قدرة على المقاومة. علاوة على ذلك فإن الشرط التعليمي لاستعادة اللغة يستلزم أن نطرح سؤالا حول مدى جدية هذا المجهود بأكمله لاستعادة اللغة الأيرلندية".

الحكومة

تتمثل إحدى المتناقضات الأخرى مع الوضع في تنزانيا، في أن كل أعمال البرلمان في أيرلندا تجري باللغة الإنجليزية، والقانون التشريعي مطبوع باللغتين الإنجليزية والأيرلندية. وعلى عكس تنزانيا، تتمتع أيرلندا بنظام التعددية الحزبية. وقد

ذكر ماكنامارا في عام ١٩٧١ أن الأحزاب الثلاثة الكبرى كانت تساند جهود استعادة اللغة الأيرلندية ، على الرغم من أن أحد هذه الأحزاب كان أقل حماسا من الاثنين الآخرين. (ماكنامارا ١٩٧١ : ٧٧).[١٧] كما يطلب من عمال الخدمة المدنية والضباط في قوة شرطة الحكومة إظهار معرفة باللغة الأيرلندية عند توظيفهم، ولكن القليل من العمال المدنيين يستخدمون تلك اللغة في عملهم، والشرطة فقط التي تعمل في مناطق تتحدث الأيرلندية تستخدم الأيرلندية. يدرب جيش أيرلندا الصغير ضباطه في الغالب باللغة الأيرلندية، ويحتفظ بسرية تتكون من ١٧٥ جنديا يتحدثون الأيرلندية، ويعطي جميع أوامر التدريب بها. ويجب على المحامين إظهار مقدرتهم باللغة الأيرلندية قبل أن يسمح لهم بممارسة العمل، ولا تجري في المحاكم الموجودة في المناطق التي تتحدث اللغة الإنجليزية أي أعمال باللغة الأيرلندية. وتنفّذ أنشطة الحكومة المحلية باللغة الإنجليزية في المناطق المحلية التي تتحدث الإنجليزية.

تتقيد وسائل البث الحكومية بتقديم برامج باللغة الأيرلندية. هذه البرامج يستقبلها الناس جيدا، وقد بيع من الكتيبات التي تصاحب برامج الراديو والتلفزيون التي نجمت عن البحث الذي قام به أوهولاتشين وزملاؤه نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسخة (من إجمالي عدد السكان الذي يبلغ ثلاثة ملايين نسمة). وقد أظهر بحث أجري على المشاهدين أن ثلاثة من أربعة أشخاص يشاهدون أخبار التلفزيون باللغة الأيرلندية، إذا كانوا في وضع يسمح لهم بمشاهدة البرنامج[١٨].

النجاح

المعايير.

كما ذكرنا في تقييمنا عن نجاح تخطيط اللغة في تنزانيا، فإن درجة النجاح تتوقف على المعايير المستخدمة في حد ذاتها. فإذا قمنا بقياس ما أنجز في مقابل الأهداف

المحددة في وثيقة "ورقة بيضاء" والصادرة في عام ١٩٦٥م، فإننا نستنتج حينئذ أن حركة استعادة اللغة قد فشلت. وفقا لتلك الوثيقة، "الهدف القومي هو استعادة اللغة الأيرلندية كوسيلة اتصال عامة" (أو هوالاتشين ١٩٧٠ : ١٨٠، ماكنامارا ١٩٧١ : ٨٣) وكما سنرى فيما بعد بالتفصيل، أن هذا الهدف بعيد المنال. وفي عام ١٩٦٢، أوضح أوهوالاتشين (١٩٦٢ : ٧٧) "أن ثنائية اللغة هي سمة من سمات المدارس أكثر من كونها سمة من سمات الحياة خارج المدارس." وبعد ثماني سنوات، لا نجد حاجة لتعديل هذه المقولة كما جاء في دراسته (أوهوالاتشين ١٩٧٠ : ١٨٠). إذا كان تأسيس اللغة الأيرلندية كلغة رسمية لتسيير أمور الدولة هو الهدف، فإن تقييمنا سيكون لا أمل فيه كثيرا. على الرغم من إعلان الدستور الأيرلندي اللغة الأيرلندية لغة رسمية رئيسية، إلا أنها مستخدمة بشكل قليل جدا لتنفيذ وظائف الدولة.

على الرغم من هذا يوجد هناك إحساس بأن اللغة الأيرلندية هي بشكل ما اللغة القومية. في تنزانيا، ذكرنا أننا يمكن أن نطلق على اللغة صفة القومية "بالمعنى الكامل للكلمة"، إذا كانت نسبة كبيرة من السكان تتحدث بها. بهذا المعنى الكامل بالطبع، فإن اللغة الأيرلندية ليست قومية. ورغم هذا فإن مناقشتنا للمواقف سوف تظهر أن اللغة الأيرلندية تعمل كلغة رمزية قومية (إن لم تكن تستخدم في الاتصال بين الناس) إلى حد كبير. علاوة على ذلك فقد حقق تخطيط اللغة الأيرلندية الأهداف المتوسطة لتحديد اللهجة وتطور اللغة في مجالات علم الإملاء والتهجئة والتوسع في المفردات والتقييس.

المتحدثون باللغة.

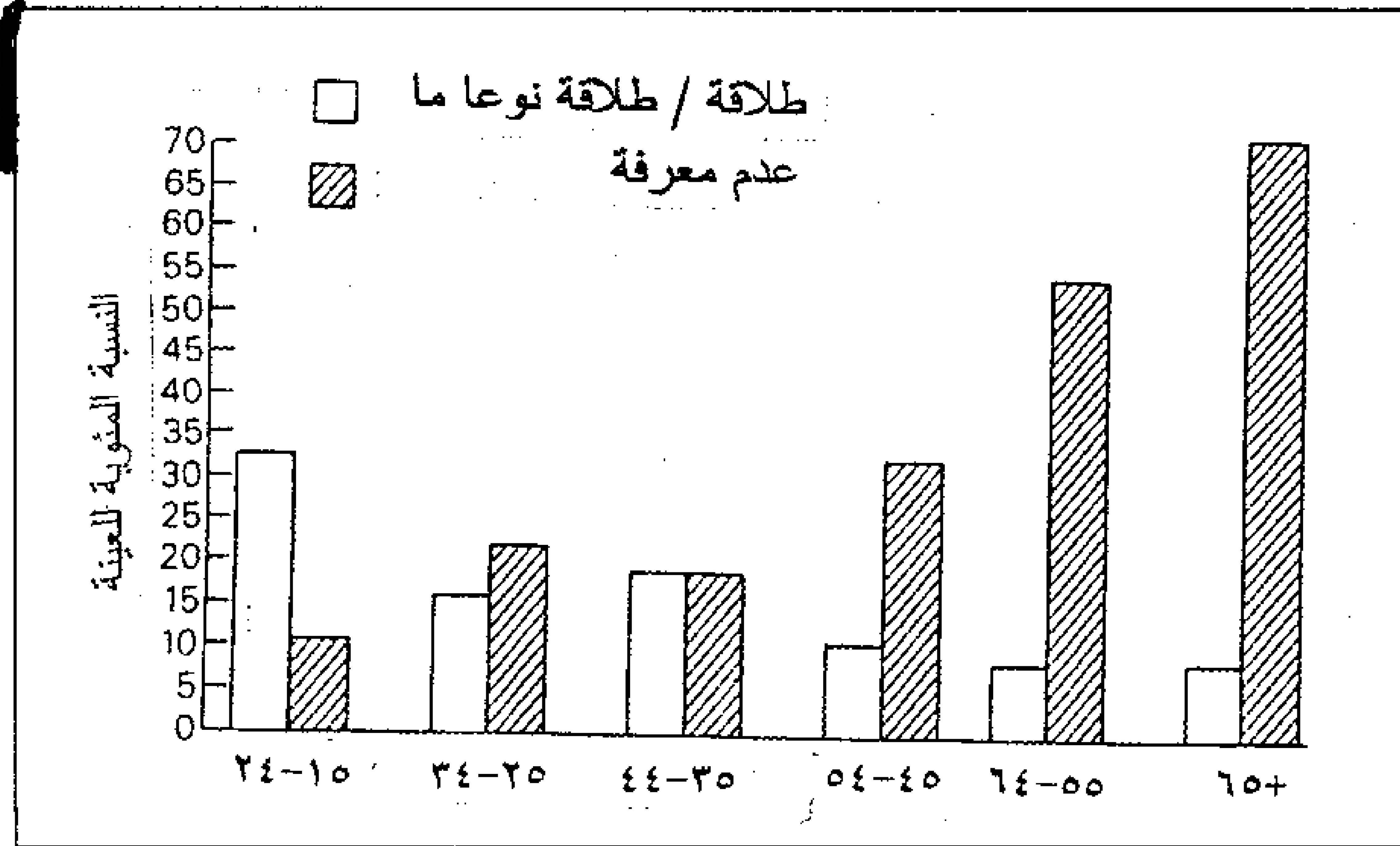
لقد أوضحت سابقا أن ٣٪ من السكان، على الأغلب، يتحدثون اللغة الأيرلندية باعتبارها اللغة الأم، وأن نسبة السكان التي تصرح بأنها تتحدث الأيرلندية

كلغة أولى أو ثانية هي أقل من ٢٥ ٪ (وربما أقرب إلى ١٥ ٪). من العينة العشوائية البالغة ٩٢٤ متحدثا التي قام أوهوالاتشين (١٩٧٠) بتحليلها، نجد أن ٢٪ فقط ذكروا أنهم يستخدمون اللغة في البيت دائما أو في معظم الوقت. و ٥٣٪ فقط من هؤلاء ذكروا أنهم تحدثوا أو قرأوا اللغة الأيرلندية على الأقل في "بعض المناسبات هذه الأيام"، حيث يعتقدون أن المعرفة باللغة ليس لها أي استخدام عملي لهم. وهؤلاء الذين وجدوها مفيدة عموما قدموا أمثلة على الاستخدامات المتعلقة بشكل مباشر بمقاييس التخطيط الرسمي: مساعدة الأطفال في أداء الواجبات، والمساعدة في الحصول على عمل، وقراءة الاستمارات والمستندات الرسمية (والبعض وجد اللغة مفيدة أيضا في التحدث إلى الناس باللغة الأيرلندية "عند الضرورة").

يعطي التقييم الذاتي الخاص بالكفاءة في اللغة الأيرلندية من خلال العينة صورة غير مشجعة عن تأثير التعليم في استعادة اللغة الأيرلندية. فإن نحو ٥٠٪ من أفراد العينة ذكروا أنهم درسوا اللغة الأيرلندية فقط في المرحلة الابتدائية، واعتبر ٩٪ فقط أنفسهم متقنين اللغة، وذكر نحو ٦٣٪ أن لديهم بعض المعرفة، و٢٧ ٪ قالوا: إنه "ليس لديهم أي معرفة" باللغة الأيرلندية. وهذا الرقم مدهش لسبب بسيط هو أن أكثر من ربع أفراد العينة يرغبون في الاعتراف بأنه ليس "لديه معرفة" لشيء قام بدراسته كل عام دراسي حتى سن الرابعة عشرة، حتى عندما كان لديهم اختيار ذكر "بعض المعرفة". وذكر ثلث هؤلاء الذين ذهبوا لدراسة اللغة الأيرلندية في مستوى ما بعد الابتدائية أنهم يتحدثونها بطلاقة، ومعظم الباقين ذكروا "بعض المعرفة باللغة"، ونحو ٦٪ من الذين تابعوا دراستهم باللغة الأيرلندية ادعوا أنه "ليس لديهم معرفة" باللغة.

في تنزانيا كان هناك علاقة بين الجنس والعمر ومستوى التعليم والمعرفة باللغات القومية. وفي أيرلندا لوحظ زيادة في المعرفة باللغة الأيرلندية تتعلق بالمستويات العليا من التعليم، ولكن فقط إذا دُرست اللغة في هذه المستويات العليا. كما لا يوجد فرق فعلي

حسب الجنس سواء بالنسبة للذكر أو الأنثى[١٩]. ومع هذا فإن هناك نموذجا مهما حسب العمر، وهو الموضح في الشكل رقم(١٠,١). يوجد نموذج منتظم نوعا ما يتكون من تصريح متناقض بالطلاقة بتحدث اللغة، وميول متزايد نحو ذكر عدم المعرفة باللغة مع تقدم العمر. وكما هو الحال مع كل نماذج العمر، علينا أن نكون حريصين في تفسيرنا لتلك الظواهر. إذا كان من الممكن تفسير الشكل رقم (١٠,١) كعرض "للوقت الواضح"، فإنه يبدو مشجعا. يبدو أن المعرفة باللغة الأيرلندية تزداد مع مرور كل عقد من الزمان، فإن كل الدلائل تشير إلى أنه يجب تفسير النموذج كظاهرة تتدرج حسب العمر، وهو مماثل لنموذج ثنائية اللغة في مونتريال في الشكل رقم (٨,١) وللسبب نفسه. وفي دراستهم عن المواقف اللغوية في أيرلندا، يذكر برونندر ووايت (١٩٧٩ : ٦٥) "أن نسبة كبيرة من الناس، وعلى الرغم من التفضيل اللغوي الواضح عندهم للغة الأيرلندية، كانت القدرة الخاصة باللغة الأيرلندية تهبط بمرور الوقت، بعد أن يترك الناس المدرسة التي يتعلمون فيها اللغة الأيرلندية".



الشكل رقم (١٠,١). النسبة المئوية لتقارير عينة من السكان الأيرلنديين حول الطلاقة باللغة، وعدم معرفة اللغة الأيرلندية حسب العمر.

المصدر : بيانات من أوهوالاتشين (١٩٧٠ : ١٩١، جدول ٣)

أما في مونتريال، لم يكن نظام التعليم فقط، ولكن كان أيضا نظام المهن هو الذي دعم اللغة الإنجليزية. ونتيجة لذلك، فإن الانخفاض في مستوى المقدرة باللغة الإنجليزية لم يبدأ حتى نهاية العصر الوسيط. في أيرلندا لا يوجد دعم مهني للغة الأيرلندية وذلك بصرف النظر عن المتطلبات البسيطة المتعلقة بالخدمة المدنية. ونتيجة لذلك، بدأ الانخفاض في قدرة اللغة الأيرلندية قبل ذلك بكثير.

المواقف.

في تنزانيا، لم يكن من الصعب إثبات أن اللغة السواحيلية كانت تخدم وظائف الاتصال الخاص باللغة القومية بشكل فعال تماما، وأنها كانت رمزا لهوية الشخص التنزاني. في أيرلندا، كان من الواضح تماما أن وظيفة الاتصال هذه كانت تتحقق إلى حد بعيد عن طريق اللغة الإنجليزية. نادرا ما يظهر في أيرلندا موضوع الانتماء إلى جماعات قومية صغيرة، ورغم هذا، فإن هناك دليلا كافيا على أنه إذا تحدثنا عن لغة قومية بأنها رمزية دون أن تكون أداة اتصال، فإن الأيرلندية هي تلك اللغة.

في دراسة ذات مقياس كبير عن المواقف اللغوية والاستخدام اللغوي، وجد برونلر ووايت (١٩٧٩) أن المواقف تجاه اللغة الأيرلندية كانت إيجابية بشكل عام ومنتظمة بشكل كبير ومتناسقة داخلياً. ومع هذا، وجدا أن المواقف المذكورة هذه لها تأثير قليل على استخدام الشخص للغة الأيرلندية أو عدم استخدامه لها (وهذا اكتشاف لا يجب أن يدهشنا بعد دراستنا عن المواقف اللغوية). وتشير اختباراتهم الإحصائية (في هذه الحالة، التحليل العاملي وهو أسلوب لم يُدرس في الفصل الرابع) إلى وجود علاقة وثيقة بين المواقف نحو الجنسية الأيرلندية، والمتحدثين الأيرلنديين، واللغة الأيرلندية كرمز عرقي. ويستمر برونلر ووايت (١٩٧٩ : ٦٢-٣) بقولهما إنه على الرغم من أن المواقف نحو اللغة الأيرلندية قد لا تنبئ بالسلوك اللغوي الفردي،

لكن ربما تكون لها قيمة في السلوك السياسي (الدعم السياسي ونماذج التصويت) حيث تعتبر اللغة أمرا مهما.

من الواضح أن هناك دعما كبيرا من أجل الاستمرار في المستوى الحالي من الجهود الرامية إلى استعادة اللغة. على الرغم من أن أوهوالاتشين (١٩٦٢ ، ١٩٧٠) يرى أنه لم يعمَل الكثير من أجل نجاح استعادة اللغة ، ويتساءل ماكنمارا (١٩٧١) عن جدية هذه الجهود ، إلا أنه لا يوجد دليل كبير أيضا على أن الناس يرغبون في سياسة علنية تهدف إلى تقليل التركيز على اللغة الأيرلندية. يؤكد ماكنمار أنه عندما يثير الحزب السياسي الوحيد الذي يساند استعادة اللغة مسألة إسقاط السياسة التي تتطلب تدريس اللغة الأيرلندية كمادة دراسية في المستوى الثانوي ، نجده يفشل في اتخاذ هذا الموضوع بجدية (ماكنمارا ١٩٧١ : ٧٧). ويقدم ماكنمارا أيضا بيانات مسح توضح أن ٧٦ ٪ من المستجيبين يرغبون في أن يروا اللغة الأيرلندية يتحدَّث بها على نطاق واسع كلغة ثانية ، و٥٣٪ يعتقدون أن هذا أمر غير واقعي ، و٧٦٪ يوافقون على تدريس اللغة الأيرلندية في المدارس الابتدائية (ماكنمارا ١٩٧١ : ٨٣). عندما نقرر النظر إلى الاستخدامات الرمزية واستخدام الاتصال باللغة القومية بشكل منفصل فإنه لا يبدو لنا واضحا جدا أن اللغة الأيرلندية تمثل ، ولا في أي ناحية من النواحي ، اللغة القومية في أيرلندا.

الأدب.

على العكس تماما من الحالة في تنزانيا ، هناك كم لا بأس به من الأدب باللغة الأيرلندية. إذ لا يوجد فقط أعمال أدبية ترجع إلى آلاف السنين ، ولكن يوجد أيضا شيء ما من الإحياء الأدبي آخذ في التقدم في هذه الأيام. وعلى العكس تماما من كتاب شرق إفريقيا الذين اختاروا حتى الآن الكتابة باللغة الإنجليزية بدلا من اللغة

السواحيلية فإن عددا من أفضل كتاب الرواية وكتّاب القصة القصيرة والشعراء الأيرلنديين يكتبون كل أعمالهم أو جزءا منها باللغة الأيرلندية حتى لو أدى ذلك إلى خفض الجمهور المتلقي لهذا السبب. وهناك أيضا مطبوعات دورية وناد للكتّاب. "وبشكل عام فإن النتاج الأدبي كان قويا ومؤثرا، والآن أصبح على أي شخص يرغب في فهم أيرلندا الحديثة والمدى الكامل لنشاطها الأدبي عليه أن يتعلم اللغة الأيرلندية " (ماكنمارا ١٩٧١ : ٨٢).

التحليل

تأسيس اللغة القومية

من بين الحالتين اللتين درسناهما، اتضح أنه أسِّست اللغة السواحيلية كلغة قومية في تنزانيا بقدر لا بأس به من النجاح، ولكن لا يمكن ذكر الكلام نفسه عن اللغة الأيرلندية في أيرلندا. من الصعب تجنب الاستنتاج الذي توصلنا إليه من أن الفروق في معدلات النجاح ليس لها علاقة بتخطيط اللغة. ربما يمكن لأيرلندا أن تفعل ما هو أكثر من ذلك، ولكن بالمقارنة مع تنزانيا يتضح إلى حد كبير استخدام التقنيات نفسها. فقد استخدمت كلتا الدولتين اللغة القومية المقترحة في نظام التعليم إلى أقصى حد ممكن. وبلا شك فإن العديد من الأطفال في تنزانيا، وخاصة هؤلاء الذين لغتهم الأم ليست لغة البانتو، يتعرضون لممارسة التمييز ضدهم؛ لأنهم لا يستطيعون فهم لغة المدرسة. ومع هذا ومن أجل تأكيد أن اللغة الأيرلندية هي الوسيلة الوحيدة للتعليم في أيرلندا فإن هذا يشكل صعوبة كبيرة على الأغلبية العظمى ممن يذهبون إلى المدارس. يمكن استخدام اللغة السواحيلية كلغة حكومية؛ لأن العديد من القائمين بالأعمال المدنية يتحدثون بها. ولكي نزيد ونقوي من دور اللغة الأيرلندية في الحكومة يجب أن يكون هناك عدد أكبر من المتحدثين بها. باختصار، فإن تأسيس لغة قومية في

تنزانيا كان ناجحا، ولكن ليس، إلى حد كبير، بسبب أن تخطيط اللغة كان ممتازا، ولكن لأن الأسباب التاريخية والاجتماعية مكنت اللغة السواحيلية في النهاية من أن تصبح اللغة القومية. إن الفشل في جعل اللغة الأيرلندية لغة قومية لأيرلندا بالمعنى الكامل للكلمة لا يمكن أن يعزى للفشل في تخطيط اللغة. إنما السبب الأساسي هو أن القوى الاجتماعية كانت قد أجرت تحولا شاملا نحو اللغة الإنجليزية قبل بدء تخطيط اللغة.

وفي رأيي فإنه يوجد اختلاف هائل بين قوة التغيير الاجتماعي "الطبيعي"، الذي يعتبر الإبقاء على اللغة والتحول إلى لغة أخرى نوعا منه، والضعف النسبي للتخطيط الرسمي للغة. يجب على الحكومات ووكالات التخطيط الأخرى مراعاة الاتجاه الذي تتجه نحوه القوى الاجتماعية وتوجه إليه سلوك اللغة، كما يجب مراعاة اتفاق أهداف تخطيط اللغة مع هذه القوى الاجتماعية. وعلى صعيد التغير الاجتماعي القائم بتأسيس اللغة القومية يمكن القول إن القائمين على تخطيط اللغة مثلهم مثل الذين يقومون بالتجديف في قارب في نهر ذي تيارين سريعين. وإذا قرروا التجديف في اتجاه التيار النازل فإن تقدم القارب سيكون سهلا إذا تمكنوا من توجيهه بعيدا عن الصخور والأماكن الضحلة، وإذا قرروا التجديف عكس اتجاه التيار صعودا فإن النهر يكون سريعا بدرجة تجعل القارب يهبط مع التيار ويضيع الكثير من الجهد المبذول في هذه العملية.

على الرغم من أن مبدأ التجديف باتجاه التيار ينطبق أيضا على أنواع ذات نطاق أضيق لتحديد اللغة وتطويرها، فإن فرص النجاح يمكن أن تكون أفضل كلما صغر هذا النطاق. كانت كل من تنزانيا وأيرلندا ناجحتين بالتساوي في تحديد اللهجة وتقييس القواعد اللغوية وتخطيط علم الإملاء[٢٠]. في التخطيط للمفردات تبدو أيرلندا ناجحة أكثر من تنزانيا، ويمكن أن يكون استخدام اللغة الأيرلندية بدرجة محدودة في

التعليم والحكومة بسبب قلة المتحدثين بها وليس بسبب نقص المفردات. يمكننا حتى أن نؤكد أن أيرلندا كانت، إلى حد ما، أقل نجاحا من تنزانيا في تطوير اللغة القومية الرمزية. تبدو اللغة الأيرلندية، إلى حد كبير، رمزا للهوية القومية في أيرلندا، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين لا يتحدثون بها. كما أن الميزة التي تتمتع بها تنزانيا ليست إلا في وظيفة الاتصال في لغتها القومية.

إن تأسيس لغة قومية أمر معقد للغاية، ودائما تكون هناك استثناءات بالنسبة لأي تعميم يعلَن. ورغم هذا فإن هناك كثيرا من التعميمات التي تستحق العرض. أولا، أسهل حالات اللغة القومية هي حالة إعلان قومية اللغة بالنسبة إلى لغة يستخدمها كل فرد تقريبا في المجتمع. اللغة اليابانية في اليابان واللغة البرتغالية في البرتغال هي أمثلة على تلك الحالات "السهلة". الحالة التي تبدو لي الأسهل بعد هذين المثالين ربما تشكل أمرا مدهشا. تلك ستكون حالة أمة مشابهة لتنزانيا يختلط فيها الكثير من التنوعات اللغوية ولا توجد بها مجموعات ثقافية اجتماعية مسيطرة. ففي مثل هذا البلد فإنه بالإمكان نشر اللغة التي لا تعد اللغة الأم لإحدى المجموعات الفرعية الكبيرة كرمز قومي يتجاوز تلك الجماعات القومية الفرعية. وعلى الرغم من أن تلك حالة صعبة للغاية، فإن تأسيس العبرية كلغة قومية في إسرائيل - وهي قصة نجاح أخرى له هذه السمات نفسها. فالمهاجرون إلى إسرائيل جاءوا بمجموعة متنوعة من اللغات الأم، ولم تكن هناك جماعة عرقية لغوية مسيطرة، ولم تكن اللغة العبرية هي اللغة الأم لأي من المجموعات. وهذه السمات ذاتها تنطبق بدرجة أو بأخرى على مثالين آخرين ناجحين نسبيا، هما: تأسيس لغة الباهاسا الماليزية في ماليزيا و الباهاسا الإندونيسية في إندونيسيا.(٢١)

إن الأمر الأكثر صعوبة هو التخطيط للغة قومية في دولة مثل الهند أو الفلبين حيث إن اللغات المحلية المختارة كانت اللغة الأم لجماعات كبيرة. في الفلبين فإن اللغة

القومية المقترحة، وهي اللغة الفلبينية، تعتمد كثيرا على التاجالوج، وهي لغة جماعة عرقية من أكبر ثلاث جماعات عرقية في الدولة، وقد كانت هناك صعوبات حقيقية في نشر استخدامها في البلد ككل. وقد شاهدنا سابقا إلى أي حد كانت المقاومة تواجه انتشار اللغة الهندية في بعض أجزاء من الهند. وعلى الرغم من أن الدول في هذه الفئة تحتاج إلى لغة للاتصال على المستوى القومي، إلا أنه يبدو غالبا أن المواطنين يفضلون أن يواجهوا مشكلات في تواصلهم ببعضهم من أن يتبنوا لغة شخص أخر، خاصة حينما يشعرون أنهم جيدون مثلهم مثل أي شخص آخر. يبدو أنه ليس هناك شيء أصعب من تبني لغة أخرى خاصة عندما تكون اللغة الحالية تفي بكل حاجات الاتصال. وهذا ما تحاول أيرلندا القيام به. في ظل هذه المعوقات التي تواجه تخطيط اللغة في مثل هذا الموقف الذي تمر به أيرلندا يبدو النجاح الذي تحقق أمرا مدهشا.

في الحالات الصعبة، يبدو من الأفضل ألا نحاول أن نجعل اللغة أساسا للهوية القومية. فالايرلنديون لا يعتبرون أنفسهم مطلقا أشخاصا إنجليزيين حتى عندما تحولوا إلى اللغة الإنجليزية. ويبدو الحل نفسه هو البديل الأفضل لبعض الدول مثل الهند. تشير التعليقات التي ذكرها العلماء الهنود في الفصل الأول إلى أن التنوع اللغوي لا يشكل بالضرورة عائقا في طريق القومية في الهند. وليس هناك حاجة ملحة حتى لوجود لغة قومية. يمكن لمتطلبات التواصل أن تتم من خلال إجراء بعض الجمع بين لغة رسمية لا يتظاهر أحد بأنها رمز للغة القومية وثنائية اللغة. في الواقع يبدو أن هذا ما يجري بالفعل في الهند.

توضح الحالتان اللتان نظرنا إليهما أنه يمكن فعل الكثير من خلال تخطيط اللغة. ورغم هذا فإن بعض الأهداف تبدو صعبة المنال بالنسبة للطرق الحالية لتخطيط اللغة.

هوامش لمراجع إضافية

هناك العديد من الكتب والمقالات التي ناقشت حالات التخطيط اللغوي بحيث لا يمكن الاستشهاد بأكثر من عينة منها. وبالإضافة إلى المقالات التي استشهد بها في هذا الفصل، هناك العديد من الحالات التاريخية المدروسة جيدا في روبن جيرنود (١٩٧١) وروبن وشي (١٩٧٣)، وفيشمن (١٩٧٤)، وفيشمن وفيرجسون وداس جوبتا (١٩٦٨)، وحالات أخرى تاريخية عولجت بكتب بأكملها أو أنها متفرقة في المجلات الدورية، وتتضمن دراسات شرق إفريقيا التي لم يستشهد بها في هذا الفصل، منها دراسات لادفوقد وقليك وكريبر Ladfoged, Glick & Cripers (١٩٧٢)، ووايتلي Whiteley (١٩٧١ب، ١٩٧٤)، وهوبكنز Hopkins (١٩٧٧م)، وهاريس Harries (١٩٧٦). أما دراسة بلومي وهيل (١٩٨٠) على الأخص فهي مصدر غني لحالة تنزانيا. وتتضمن دراسات إضافية حول الحالة الأيرلندية وجميعها نشر في أيرلندا دراسة كرونن Cronin (١٩٧٨)، والمقالات في Ocuiv (١٩٦٩) و"مقالة وايت حول استعادة اللغة الأيرلندية White Paper on the Restoration on the Irish Language (١٩٦٥م). وتوجد الحالات التي تخص جنوب شرق آسيا في اليسجهابانا Alisjahbana (١٩٧٢، ١٩٧٦)، ونوس Noss (١٩٧١)، ودي فرنسيس de Frances (١٩٧٧)، وعمر Omar (١٩٧٥)، وكلز kelz (١٩٨١). وكان التخطيط اللغوي في الصين موضوع لي وتومبسون Li & Thomspon (١٩٧٩)، وميلز Mills (١٩٥٦). وعولجت حالات أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي في لنت Lunt (١٩٥٩)، وبيرون Byron (١٩٧٦)، ولويس Lewis (١٩٧٢ ب)، وبرانكو Branko (١٩٨٠) ومن بين القائمة الطويلة للأعمال التي تناولت الحالة المدهشة في إسرائيل ما يلي: كوبر ودانت Cooper & Danet (١٩٨٠)، وفيشمن (١٩٧٥)، وفيشمن وكوبر (١٩٧٦)، وفيشمن وفلمن

(١٩٧٧)، وفيشمن وفيشمن (١٩٧٨)، وبول (١٩٨٠)، وناكير Nakir (١٩٧٨)، ورابن (١٩٧٤)، وفلمن (١٩٧٣)، وموراق Morag (١٩٥٩)، وقولد Gold (١٩٨١)، ونادل وفيشمن وكوبر (١٩٧٧). وورد وصف آخر لحالات التخطيط اللغوي في استراليا في عمل نيوستوبنى Neustupny (١٩٧٧)، وفي اسكندنافيا في عمل هوجن Haugen (١٩٦٦أ ، ١٩٦٨).

هوامش

(١) كان هناك العديد من دراسات التخطيط اللغوي في تنزانيا ومعظم المعلومات متكررة في أكثر من واحد منها، ولهذا السبب سأذكر مصادري هنا وليس في المتن، ما لم يستشهد منها بمعلومة خاصة. ومصادري الرئيسية عن تنزانيا هي (وايتلي ١٩٦٨م، ١٩٦٩، ١٩٧١أ)، وبلومي (١٩٧٥، ١٩٨٠أ ، ١٩٨٠ب ، ١٩٨٢)، وج. أوبار (١٩٧٦أ، ١٩٧٦ب)، وعبدالعزيز مخيلفي (١٩٧٨، ١٩٨٠)، وسكوتن (١٩٧٨)، وهينيبوش (١٩٧٩)، وهيل (١٩٨٠).

(٢) يتفق غياب السؤال الخاص باللغة في الإحصاءات التنزانية مع السياسة القومية التي تؤكد السواحيلية كلغة قومية وتقلل من تأكيد العاميات المختلفة للمجموعات الصغيرة.

(٣) كما قد يبدو واضحا فإن مثل نظام اللغات الثلاث الذي يتكون من اللغة المحلية لمجموعة صغيرة ولغة أصلية للاتصال الأوسع ولغة أوروبية هو نمط شائع في الدول التي كانت في وقت ما مستعمرات للقوى الأوروبية.

(٤) انظر عبد العزيز مخيلفي (١٩٨٠) للوقوف على ملخص بالغ الإيجاز ولكنه كامل لجهود التخطيط اللغوي في تنزانيا أكثر مما أستطيع ذكره هنا.

(٥) انظر هينيبوش (١٩٧٩) لوصف واضح ومقروء لأنواع الاختلافات اللغوية الموجودة بين لهجات السواحيلية بالإضافة إلى مخطط قصير وممتاز للغة بوجه عام.

(٦) تعني السابقة ki في السواحيلية "اللغة" أو "الكلام". وأحيانا تكتب مع جذرها كما عملت هنا، أو بوصلة (ki-mvita)، أو بكتابة الجذر بحروف كبيرة (Ki-Mvita). وتستخدم السابقة ki بكثرة مع كلمة سواحيلي نفسها (Kiswahili) خاصة من قبل الكتاب الأفارقة حتى يؤكدوا أن المقصود من ذلك اللغة وليس متحدثيها. وتستخدم السابقة ki مع كلمات تصف أنواع السواحيلية التي يتحدثها المهاجرون الأوروبيون (kisetita) أو المهاجرون الآسيويون (kihindi). (من الواضح أن kisettle شكل خليط من اللغة) وتستخدم أيضا في كلمات لها أسلوب خاص في اللغة مثل kingua، وهو نوع من الكلام المخادع يستخدم في المجالس التنزانية الريفية (و. أوبار ١٩٧٦ ب) وkigazeti وهو أسلوب سواحيلي موجود في الصحف (هينيبوش ١٩٧٩). والكلمة Kigazeti متأثرة تماما بالإنجليزية لضرورة الترجمة السريعة من وكالات الأنباء المستخدمة للإنجليزية.

(٧) ويشير الاختلاف في طباعة السابقة ki المذكورة في الهامش السابق إلى أن هذا أحد مجالات الممارسة في كتابة الإملاء الذي ما زال يتغير.

(٨) "التوسع" هو إحدى العمليات، وإحدى نتائجها المهمة كلمة "ujamaa" وتعني بالأخص "الأسرية" أو "الأخوة"، وهي مشتقة من jamaa كلمة مقترضة في الأصل من العربية وتعني "عائلة". وتشير الآن إلى نموذج إفريقي معين من الاشتراكية وهي السياسة الرسمية في تنزانيا. وأتت كلمة usoshalisti من الإنجليزية وهي كلمة أعم للاشتراكية.

(٩) هذه المشاكل ليست خاصة بتنزانيا على الإطلاق. وتواجه المشكلة نفسها تقريبا في كل بلد نام يحاول استخدام لغة أصلية في التعليم. وسنواجه هذا الأمر بتفصيل أكثر في الفصل القادم.

(١٠) ذكر وايتلي (١٩٧١ أ، ص١٥١) هذا الفرق على أنه مظهر من مظاهر "الأيديولوجية" مقابل "التقنية" للسياسة اللغوية.

(١١) تغطي هذه الأرقام ٩٧٪ فقط من ٢٧٤ متحدثا. أما بقية المتحدثين فلا تتناسب مع أي من هذه الفئات لأنهم ذكروا أنهم يعرفون العربية.

(١٢) علق معهد ميلز ديلون للدراسات المتقدمة في دبلن على ما ذكره فرجسون (١٩٦٦، ص ٣١٦- ٣١٧) بقوله: "يؤسفني القول بأن تقدير نسبة ٣٪ من المتحدثين الأيرلنديين في رأيي عال جدا، وهي قريبة من ١٪". وأعتقد أيضا وجود متحدثين للأيرلندية في بوسطن يفوق عددهم عدد متحدثيها في دبلن".

(١٣) هناك اختلاف بسيط بين الأرقام التي ذكرها أوهوالاتشين O'Huallachain (١٩٦٢) والأرقام الواردة في تعداد عام ١٩٦١م التي استشهد بها مكنمارا (١٩٧١). وقال: أواهولاتشين: "قد أدلى نصف مليون أنهم متحدثون للأيرلندية، وهي تساوي نسبة ١٧٪ من ٣ ملايين نسمة". واستشهد مكنمارا بالتعداد الذي ذكر أن ٢٧٪ من السكان "قادرون على تحدث الأيرلندية" (مكنمارا ١٩٧١م، ص ٨٧ ، هامش ٤). وفي مقال لاحق ذكر أوهوالاتشين (١٩٧٠) أن ١٥٪ من أفراد عينة عشوائية تكونت من ٩٢٤ مواطنا أيرلنديا قالوا إنهم يتحدثون اللغة "بطلاقة"، "وبطلاقة بعض الشيء".

(١٤) يكمن حل مشكلة اللغة القومية في أيرلندا، والذي دائما ما أراه شخصيا حلا عمليا، في العمل على تقييس الإنجليزية الأيرلندية، أي الإنجليزية المتحدثة في أيرلندا. وسيتطلب هذا جليا الإعلان بأن الطريقة الصحيحة لاستخدام اللغة

هو استخدام سمات أيرلندية مميزة (ويمكن تتبع وجود العديد منها في اللغة الغيلية الأيرلندية). وسيشجع تخطيط المفردات على الاقتراض من الغيلية الأيرلندية مصطلحات لمفاهيم ترتبط بقوة بوجه خاص بالثقافة الأيرلندية، ويبدو هذا الحل غير ممكن في الممارسة العملية؛ لأن (١) هناك تباينا كبيرا داخل الإنجليزية الأيرلندية (أوهوالاتشين ١٩٦٢م، ص ٧٥)، و(٢) يبدو أن بعض المفاهيم الفريدة جدا للغة الأيرلندية في الأيرلندية الإنجليزية موسومة اجتماعيا.

(١٥) اتصل أحد الأسباب بتعلق المنح الدراسية "بخيط". إذا قام الشخص الذي داوم بكلية إعدادية بموجب بعثة دراسية بترك مهنة التدريس فعليه أن يعيد جميع الأموال التي صرفت عليه. ونتيجة لذلك، حكم هذا القرار على جميع طلاب الكليات الإعدادية تقريبا بالبقاء في مهنة التدريس طوال حياتهم. وكان الضغط الأخلاقي الذي أوقعته هذه السياسة على الناس أحد الأسباب في عدم استمرار الكليات الإعدادية. وكانت الرغبة في اختيار مدرسين من شريحة أوسع من المجتمع السبب الآخر (ماكنمارا ١٩٧١م، ص ٧١).

(١٦) لقد دمجت أرقام أوهوالاتشين للنمط في المناطق التي تتحدث فيها الأيرلندية مع أرقام "لنمطه س"، وأعتقد أن هذا يعطي صورة دقيقة، ولكنها ليست واضحة تماما.

(١٧) لم أعثر على أي شيء يدل على اللغة المستخدمة في الحفلات، ولكن ليس هناك أدنى شك في أنها كانت دائما الإنجليزية.

(١٨) أخذت هذه الحقائق من ماكنمارا (١٩٧١م، ص٧٦- ٧٩). وذكر أوهوالاتشين (١٩٧٠م ، ص ١٨٥) أيضا اهتماما فعليا بما يذاع باللغة الأيرلندية.

(١٩) ذكر نحو ١٦٪ من الرجال و١٣٪ من النساء أنهم يتحدثون الأيرلندية "بطلاقة" أو "بطلاقة نوعا ما" (أو هوالاتشين ١٩٧٠ : ١٩١).

(٢٠) في هذا السياق، ليست الدولتان متطابقتين تماما. فالتخطيط في أي من هذه المناطق قد يكون مثيرا للجدل وصعبا للغاية.

(٢١) كلتا اللغتين مبنية على لغة الملاي التي كانت لغة تجارة في بلدين، كما كانت السواحيلية في شرق إفريقيا.

الأهداف

١- أن تكون قادرا على معرفة العدد التقريبي للغات المحكية في تنزانيا، إذا أعطيت العديد من الأعداد.

٢- أن يكون قادرا على معرفة العامل الرئيسي المساهم في أهمية السواحيلية في شرق إفريقيا قبل الاستعمار.

٣- أن يكون قادرا على معرفة العامل المساهم في النجاح المطلق للسواحيلية في تنزانيا وكيف كانت بداياتها خلال فترة الاستعمار.

٤- أن يكون قادرا على معرفة العامل المساهم في نجاح السواحيلية والذي ارتبط بفترة الاستقلال.

٥- أن يكون قادرا على ذكر ثلاثة من الأسباب الخمسة التي جعلت السواحيلية الاختيار الواضح كلغة قومية في تنزانيا.

٦- أن يكون قادرا على معرفة ميزة واحدة لاختيار Kiunguja كلهجة قد تبنى عليها السواحيلية النموذجية، وميزة أخرى تتمتع بها لهجة منافسة.

٧- أن يكون قادرا على ذكر القوة التي كانت لدى جمعية اللغة السواحيلية لما بين القطاعات قبل فترة الاستقلال والتي ساهمت في نجاحها الجزئي في تقييس اللغة المكتوبة.

٨- أن يكون قادرا على معرفة خلاصة هينييوش على تأثير قائمة الكلمات المنشورة رسميا على استخدام الكلمات الجديدة في سواحيلية تنزانيا.

٩- أن يكون قادرا على معرفة لغة التعليم الممارسة في المستويات المختلفة في تنزانيا.

١٠- أن يكون قادرا على معرفة وصف لدرجة كون السواحيلية اللغة الفعالة للحكومة في تنزانيا.

١١- أن يكون قادرا على ملاحظة وصف دقيق لتقييم السواحيلية كلغة قومية في تنزانيا بناءً على معلومات عن متحدثيها.

١٢- أن يكون قادرا على معرفة عبارة دقيقة عن مواقف المواطنين التنزانيين تجاه لغاتهم العرقية وتجاه السواحيلية.

١٣- أن يكون قادرا على معرفة ما إذا كان الأدب في السواحيلية قوة أم ضعفا لمنزلتها كلغة قومية.

١٤- أن يكون قادرا على معرفة السبب الخامس والأخير لعدم النجاح النسبي في ترويج السواحيلية في كينيا مقارنة بالجهود في تنزانيا.

١٥- أن يكون قادرا على معرفة عبارة عن مدى صعوبة مشاكل تحديد اللغة وتحديد اللهجة في أيرلندا.

١٦- إن مسائل التقييس وتخطيط علم الإملاء وتطوير المفردات كان لها جميعا الدرجة نفسها تقريبا من النجاح في أيرلندا. أن يكون قادرا على معرفة مدى ذلك النجاح.

١٧- أن يكون قادرا على القول ما إذا كانت المدارس الابتدائية في أيرلندا تستخدم، بشكل كلي أو جزئي أو إلى درجة محدودة فقط، كأداة في التخطيط اللغوي.

١٨- أن يكون قادرا على معرفة الأنماط الثلاثة من استخدام الأيرلندية في المدارس الابتدائية وأيها تبعها أقل عدد من المدارس، وأيها تبعها مدارس أكثر، وأيها

تبعها معظم المدارس.

١٩- أن يكون قادرا على القول ما إذا كانت الأيرلندية مستخدمة كلغة تدريس في أكثر أو أقل من نصف المدارس الثانوية في أيرلندا، وما إذا كان استخدامها يزداد، أو باقيا على حاله، أو أن استخدامها يتناقص.

٢٠- أن يكون قادرا على ذكر أين قال ماكنمار "العبء" الموضوع على استعادة الأيرلندية كنتيجة لتناقص استخدام الأيرلندية كلما ازداد مستوى التعليم.

٢١- أن يكون قادرا على معرفة ما إذا كان من الممكن وصف استخدام الأيرلندية بدقة لأغراض تسيير أمور الدولة في أيرلندا على أنه كبير، ومتوسط، أو قليل.

٢٢- أن يكون قادرا على معرفة المعايير التي يعتبر فيها التخطيط اللغوي للأيرلندية فاشلا والمعايير التي تعتبره ناجحاً.

٢٣- أن يكون قادرا على إعطاء السبب في عدم إمكانية تفسير البيانات في الشكل رقم (١٠.١) على أنها مؤشر على زيادة معرفة الأيرلندية عبر الوقت.

٢٤- أن يكون قادرا على معرفة ما إذا كانت المواقف المذكورة تجاه الأيرلندية هي في العموم إيجابية أو سلبية.

٢٥- أن يكون قادرا على التعرف على عبارة عن القوة النسبية للتغير الاجتماعي الطبيعي والتخطيط اللغوي الحذر الذي يتضمنه "مبدأ السير مع اتجاه التيار".

٢٦- أن يكون قادرا على ترتيب الحالات الأربع التالية حسب سهولة تحديد اللغة القومية: (١) الأمم ذات مجموعات ثقافية اجتماعية قليلة، ولكنها مسيطرة، (٢)الأمم التي يتحدث فيها الغالبية العظمى لغة واحدة، (٣) الأمم ذات التباين الكبير التي لا يوجد فيها مجموعات ثقافية - اجتماعية مسيطرة واضحة، (٤) الأمم التي تحاول إنشاء لغة قومية جديدة عندما تقوم لغة أخرى قائمة حاليا بخدمة أغراض التواصل.

الفصل الحادي عشر

التعليم باللهجات العامية

يعتبر قرار تحديد اللغة التي ستستخدم كوسيلة للتعليم في المدارس من أهم القرارات وأخطرها في دولة ما. في أيرلندا وتنزانيا، كان تحديد لغة التعليم جزءا من تحديد اللغة القومية. وفي كلتا البلدين كان لا بد من إجراء تسوية ما. ففي أيرلندا، لم تستخدم اللغة الأيرلندية كوسيلة للتعليم في المدارس التي لا يتحدث فيها هذه اللغة إلا بضع من الطلبة. أما في تنزانيا كانت لغة السواحيلي منتشرة بدرجة كافية لكي تصبح لغة الدولة ككل في مجال التعليم الابتدائي. وكما أشرنا سابقا يحدث ذلك بالرغم من احتمال وجود أطفال تنزانيين يجدون صعوبات في البداية؛ لأنهم لا يتحدثون السواحيلي عند دخولهم المدارس. ومن جهة أخرى يتناقص استخدام السواحيلي كلغة أو وسيلة للتعليم في المرحلة الثانوية، ونادرا ما تستخدم في التعليم العالي. والسبب الرئيسي هنا هو أن السواحيلي لا تحتوي على المفردات اللازمة كما تفتقر إلى الكتب المنهجية والآداب والمعلمين المدربين في المستويات العليا. وتستخدم اللغة الأيرلندية بصورة أقل من ذلك كوسيلة للتعليم في المستويات العليا، ولكن يرجع السبب الأساسي في قلة استخدامها لقلة عدد الطلاب الذين يتحدثونها. من الواضح أن مفردات اللغة الأيرلندية كافية تماما ليعمل بها كوسيلة للتعليم في المراحل العليا؛ بالرغم من أنها تعاني أيضا من نقص في الكتب والمعلمين.

من خلال هذه المراجعة السريعة للوضع في كل من أيرلندا وتنزانيا يمكننا

استنباط ثلاثة اعتبارات رئيسية في اختيار لغة التعليم: (١) هل الطلاب المستهدفون يعرفون اللغة بدرجة تكفي لتعليمهم بواسطتها، (٢) هل سيكون الاختيار المقترح متمشيا مع الأهداف القومية العامة، (٣) هل اللغة نفسها والمادة المكتوبة فيها، وعدد الأشخاص القادرون على تعليمها كاف لاستخدامها في المستوى المقترح؟ ومن الضروري أن تنشأ نزاعات عندما لا تصب هذه الاعتبارات الثلاثة في الاتجاه نفسه. يمكن أن تكون لغة السواحيلي هي الاختيار المفضل للتعليم العالي في تنزانيا قياسا على الاعتبارين الأولين، ولكنها لا تنجح مع الاعتبار الثالث، ويمكن أن تكون اللغة الأيرلندية وسيلة شاملة للتعليم في المستوى الابتدائي إذا نظرنا إلى الاعتبارين الثاني والثالث، ولكن لا يمكن استخدامها بشكل شامل نظرا للاعتبار الأول.

تقرير منظمة اليونسكو لعام ١٩٥١

التوصية

في عام ١٩٥١م شكلت منظمة اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) لجنة من الخبراء لدراسة مسألة لغة التعليم على المستوى الدولي. وقد كان لتقريرها (اليونسكو ١٩٥٣، ١٩٦٨) أثر عميق على مناقشة القضايا اللغوية التعليمية.(١) وكان الموقف الذي اتخذته اللجنة هو أن الاعتبار الأول من الاعتبارات الثلاثة الرئيسية السالفة الذكر، ألا وهو اللغة التي يمكن أن يستخدمها الأطفال بفعالية، يجب أن يعطى الأولوية في اختيار وسيلة التعليم. وإذا حدث ذلك يصبح من الواضح حينئذ أن الاختيار في كل حالة تقريبا هو اللغة الأم للطفل:

"من البديهي أن أفضل وسيلة لتعليم الطفل هي لغته الأم. ومن الناحية النفسية تعتبر هي نظام الإشارات التي تحمل معنى وتعمل في عقله تلقائيا للتعبير والفهم. ومن الناحية الاجتماعية، هي وسيلة للتمييز والهوية بين أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه

الفرد. ومن الناحية التربوية، فهو يتعلم أسرع من خلال هذه اللغة أكثر من أي وسيلة لغوية أخرى لا يعرفها." (اليونسكو ١٩٥٣ : ١١).

وقد عرفت لجنة اليونسكو اللغة الأم بأنها "اللغة التي يكتسبها الفرد في مراحل عمره الأولى والتي تصبح تلقائيا وسيلته الطبيعية في التفكير والاتصال". وذكرت اللجنة حينئذ أن اللغة الأم "لا يلزم أن تكون اللغة التي يستخدمها والده ولا يلزم أن تكون أول لغة تعلم التحدث بها، حيث إن بعض الظروف الخاصة قد تضطره لهجر لغته بشكل كامل في عمر مبكر" (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٨٩-٩٠) وعرفت اللجنة اصطلاحا آخر وهو اللغة المحلية: "هي اللغة التي تمثل اللغة الأم لمجموعة ما محكومة اجتماعيا أو سياسيا من قبل مجموعة أخرى تتحدث لغة مختلفة، ونحن لا نعتبر لغة الأقلية في دولة ما لغة محلية إذا كانت هي اللغة الرسمية في دولة أخرى" (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٨٩-٦٩٠)[٢]. إن مفهوم "اللغة المحلية" مهم جدا؛ لأن توصية اليونسكو تصبح مثيرة للجدل إذا كانت اللغة الأم هي اللغة المحلية نفسها.

إن تقرير اليونسكو لا يوصي فقط بأن التعليم الأولي يجب أن يعطى من خلال اللغة الأم، حتى ولو كانت هي اللغة المحلية، ولكنه يوصي أيضا بأن "يمتد استخدام اللغة الأم إلى مرحلة متأخرة في التعليم بقدر الإمكان". (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٩١). في الحقيقة فإن اللجنة على استعداد لتقديم بعض الاستثناءات الخاصة بتلك القاعدة العامة.

الردود على الاعتراضات

توقعت لجنة اليونسكو العديد من الاعتراضات على توصياتها. فيبدو أن بعض اللغات لا تحتوي على قواعد أو ألفبائية (الأحرف الأبجدية)، ويجيب التقرير على هذا بأن جميع اللغات فيها قواعد وإلا لتعذر التحدث بها رغم أن بعض اللغات ليس فيها

قواعد مكتوبة. إن قواعد العديد من اللغات المحلية صعبة ومعقدة كما هو الحال في اللغات العالمية الأخرى. وكذلك، فإن اللغة التي ليس لها نظام كتابة يمكن وضع نظام كتابة لها طالما أن جميع اللغات المنطوقة بدون استثناء محتوية على قواعد للنطق (وبالطبع فإن ذلك يمكن أن يكون غير مكتوب أيضا). أما الاعتراض الثاني فهو أنه من غير المجدي تعليم اللغة الأم طالما أن الطفل يعرفها مسبقا. وهناك قسمان للرد على هذا الاعتراض: الأول، يعرف الأطفال لغتهم الأم جيدا بدرجة تخدم أغراضهم، ولكن إمكانية التصرف فيها يجب أن تزيد، والثاني، هو أن المدرسة لا تعلم الطفل اللغة الأم كما تعلمهم المواد الأخرى باستخدام اللغة الأم. ومن المهم عدم غياب النقطة الثانية عن أذهاننا.

الاعتراض الثالث الذي تعاملت معه اللجنة هو أن التعليم باستخدام اللغة الأم سيجعل تعلم لغة ثانية فيما بعد أمرا أكثر صعوبة. ويعتقد الذين أثاروا هذا الاعتراض أنه لكي تتعلم لغة ثانية جيدا، من المهم أن تستخدم هذه اللغة كوسيلة تعليمية منذ البداية. في الحقيقة، تستخدم بعض المدارس هذه النظرية لتمنع استخدام اللغة الأم في المدرسة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، قد حدث ذلك في إحدى المرات لمتحدثي اللغة "الغيلية" في مرتفعات الهايلاندز الأسكتلندية. والرد على هذا الاعتراض هو "أن التجارب الحالية في أماكن عديدة" تفيد بأن أفضل طريقة لتقديم اللغة الثانية هو أن تُتعلم في البداية كمادة مستقلة، باستخدام اللغة الأم كوسيلة للتعليم (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٩٢). وختاما يبدو لبعض النقاد أن استخدام اللغات المحلية سوف يعوق الوحدة القومية. وبالرغم من أن لجنة اليونسكو تسلم بأنه من الأسهل أن تحكم دولة يتحدث كل من فيها لغة واحدة فإن أعضاء اللجنة يشكون في أن الإصرار على اللغة القومية كوسيلة تعليمية شاملة قد يتمخض بالضرورة عن النتيجة نفسها. على العكس من ذلك، فهم يقترحون أن الإصرار الشديد على اللغة القومية قد يؤدي ببعض

الأقليات إلى الاستياء من حكوماتهم القومية ورفض قبول الهوية القومية. وإنني أعتقد أن ردود اللجنة على الاعتراضات الثلاثة الأولى مقبولة لدى معظم علماء اللغة.[٣] ويعتبر الاعتراض الأخير اعتراضا اجتماعيا سياسيا أكثر من كونه لغويا، ولكنه يبدو وجيها.

وفي القسم الوارد باسم "القيود العملية في استخدام اللغة المحلية في المدرسة" (اليونسكو ١٩٨٦ : ٦٩٣-٧)، يعود التقرير إلى ما يتعلق بمجموعة أخرى من الاعتراضات. وهذه الاعتراضات أكثر جدية من الاعتراضات الأربعة الأولى، وكانت ردود اللجنة عليها أقل نجاحا. إن أربعة من هذه الاعتراضات مرتبطة بمدى استعداد اللغة لاستخدامها في التعليم، وهي (١) نقص الكتب المنهجية والمواد التعليمية الأخرى، (٢) نقص مواد القراءة العامة، (٣) الافتقار إلى المعلمين المدربين، (٤) عدم كفاية المفردات. ويحتوي التقرير على اقتراحين أساسين للرد على الاعتراضات الأربعة مجتمعة: إما التزويد بما هو ناقص، وإما استخدام اللغة المحلية في العملية التعليمية بقدر الإمكان ومن ثم إجراء الانتقال المخطط بعناية إلى لغة ثانية. وقد قدمت التوصية الثانية عن غير رغبة شديدة؛ لأنها تتعارض مع النقطة الأساسية للتقرير. لذلك حثت اللجنة الحكومات على معالجة النواقص في الاستعداد لذلك عن طريق تشجيع طباعة الكتب والمجلات والصحف والإخطارات الرسمية في لغتين، وبتدريب متحدثي اللغة الأم من أهل اللغات المحلية على التعليم بلغاتهم الأصلية، بما في ذلك فرص التعليم العملي باستخدام اللغة المحلية. ويبدو أن التقرير قد تخلى على مضض عن مشكلة اللغات المحلية التي لا يتوافر لها مواد مدرسية (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٩٤):

"تكمن الصعوبة في إيجاد أو تدريب مؤلفين أو مترجمين مؤهلين كما تكمن في الحصول على مؤن من المواد (مثل الأوراق والحروف المطبوعة والآلية) في أيام العجز

العام، وتوزيع المنتجات المنتهية في ظروف بعد المسافات وضعف الاتصالات، والأكثر صعوبة من ذلك هو توفير المال. وهذه المشكلات عملية واقعية، صعبة جدا وفي غاية الأهمية. وإننا لسنا قادرين على تقديم حل لهذه المشكلات ولذا نطلب وبشدة أن تعيد اليونسكو بحث هذه المشكلات".

ومن الغريب أن التقرير لم يوص بالتوسع في المفردات في حالات عدم كفاية المفردات في اللغات المحلية. وبدلا من ذلك، فإنه يقول إن اللغة الثانية يجب أن تقدم في مرحلة مبكرة. وقد صدر هذا الاقتراح بحرص شديد. أولا: يجب أن تدرس اللغة الثانية من خلال اللغة الأولى. ويجب أن يكون الانتقال تدريجيا وليس بالضرورة كاملا. إذا كانت اللغة كافية لدعم الدراسة في بعض المواد الدراسية دون غيرها، عندها يجب الإبقاء على اللغة الأم كوسيلة تعليمية لتلك المواد. وقد قدّم الاقتراح نفسه إذا تعذر معالجة النقص في مواد القراءة التعليمية والعامة.

وهناك مجموعة أخرى من الاعتراضات الواقعية التي تتميز بأنها اجتماعية لغوية في طبيعتها. وتتعلق هذه الاعتراضات بتعدد اللغات في: (١) المحلية، (٢) البلد، (٣) إمكانية استخدام لغات مشتركة، و(٤) الاعتراض الشائع. وإذا كانت المحلية في دولة ما متنوعة جدا لغويا، قد يلزم تعليم بعض الأطفال باستخدام لغة ليست لغتهم الأم. ويجب أن يطبق ذلك فقط بعد بذل جميع الجهود لتنظيم مجموعات تعليمية باللغة الأم، وبالطريقة التي توفر أقل صعوبة لعامة التلاميذ. ويجب أن تتوافر مساعدة خاصة للشباب الذين لا يتكلمون لغة المدرسة. ويقدم الاقتراح نفسه إذا كانت الدولة ككل متنوعة لغويا، ولكن هذا يعتبر حلا مؤقتا. يجب أن تقدم الدولة التعليم بأكثر عدد من لغاتها بالطريقة التي تدعم تلك اللغات، وتعمل باستمرار تجاه التعليم "النموذجي" باللغة الأم للجميع.(٤)

وبالنسبة لموضوع اللغات المشتركة (يذكر التقرير بصراحة لغة السواحيلي في

شرق إفريقيا) فإن اللجنة تبدو متشككة إلى حد ما في استخدامها كوسيلة للتعليم الابتدائي. إن أعضاء اللجنة مستعدون لاعتماد مثل هذا الاستخدام، فقط إذا "كان لدى كل الطلاب تقريبا بعض المعرفة باللغة المشتركة بالإضافة إلى معرفتهم باللغة الأم قبل التحاقهم بالمدرسة". (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٩٦). إذا لم يكن الأطفال على الأقل على دراية باللغة المشتركة، فإن اللجنة لا توصي باستخدامها في المراحل التعليمية الأولى. وحتى في المراحل المتأخرة، فإن استخدام اللغة المشتركة "يجب أن يقاس ويوازن بمطالبات اللغة الدولية" (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٩٧).

وكما يبدو الأمر غريبا، فإن متحدثي بعض اللغات المحلية يعارضون كثيرا استخدام لغاتهم الخاصة في تعليم أطفالهم. وقد يشعرون أن الوسيلة الوحيدة للتطور هي من خلال اعتماد لغة قومية أو عالمية، وأن لغتهم الخاصة ما هي إلا عائق. إذا اعتقدت إحدى المجموعات في هذا الرأي، فإن اللجنة توصي بأن يحاول التربويون كسب ثقة الناس وإقناعهم بمزايا التعليم باللغة الأم. إذا لم يكن البرنامج الكلي في اللغة المحلية مقبولا، ربما يمكن إقناع بعض الآباء قبول برنامج تجريبي، وتعتقد اللجنة أنه سيقنع المتشككين بأن تعليم اللغة المحلية هو سياسة صحيحة. وتقبل اللجنة حق الشعب في دولة ما في اختيار اللغة التي سيعلم بها أطفالهم، ولكن فقط كمحاولة أخيرة" (اليونسكو ١٩٦٨ : ٦٩٦).

والانطباع الذي تركه تقرير اليونسكو هو أنه ينصح الدول بالنظر إلى المدى البعيد لتقديم التعليم باللغة الأم لجميع أطفالها. وبالرغم من عدم كفاية تطور اللغة، ونقص المعلمين والمواد، فإن الاختلاف الشديد والمعارضة الشعبية قد تخلق مشاكلات خطيرة قد يصعب التغلب عليها. وإذا تعذر حل هذه المشكلات فقد يكون من الضروري استخدام لغة ثانية كوسيلة للتعليم، ولكن مع أقل عدد ممكن من الطلاب، وفي مرحلة متأخرة بقدر الإمكان من حياة الطالب التعليمية، وبعد بذل جميع الجهود

لتقليل المصاعب التي يمكن أن يواجهها الطفل.

التقييم

منذ نشر هذه التوصيات من لجنة اليونسكو نجد أنها خضعت للدراسات نقدية عديدة (على سبيل المثال، بول ١٩٥٥، وبيج ١٩٦٤: ١٩-٢٨، وداكين وتيفن، وويدوسون ١٩٦٨: ٢٠-٤٠). بول على وجه الخصوص يتحدى الافتراض الرئيسي بأن المعيار الأساسي يجب أن يكون المنفعة للطفل كفرد (بول ١٩٦٤: ٥٢٨):(٥) "تؤمن اللجنة بوضوح أن ما هو أفضل نفسيا وتعليميا يجب أن يكون النقطة الأولى التي تبدأ منها عملية التخطيط للثقافة الشاملة. ومع ذلك يبدو هذا الافتراض غير واقعي نوعا ما. ما هو أفضل للطفل نفسيا قد لا يكون الأفضل للبالغ اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا، والأكثر أهمية أن ما هو أفضل لكل من الطفل والبالغ قد لا يكون الأفضل أو حتى ممكنا بالنسبة للمجتمع".

ويبدو من المعقول أن نسأل الأسئلة الثلاثة التالية المتعلقة باقتراح اليونسكو، أو بأي اقتراح جديد بخصوص ذلك الموضوع. أولا ، هل هذا ممكن؟ إذا تعذر تنفيذ خطة إجرائية، فلا فائدة من مناقشة المنافع والمشكلات التي يمكن أن تتواجد خاصة إذا كان بالإمكان تنفيذها. ثانيا ، إذا كان الإجراء المقترح ممكنا فهل يكون ذلك ذا فائدة؟ بمعنى، هل سنحصل بالفعل على المزايا التي صمِّم الاقتراح أو العرض لتوفيرها؟ وأخيرا، إذا كان ممكنا ونافعا، فهل يستحق العمل بشأنه؟ إذا أمكن وضع الاقتراح موضع التنفيذ وأعطى النتائج المأمولة، فإن ذلك يبقى مجرد فكرة غير طيبة إذا كان له آثار جانبية أسوأ من عدم تحصيل فوائد على الإطلاق، أو إذا كانت التكلفة والصعوبة في تنفيذ الفكرة لا تتناسب مع النتائج.

هل هذا ممكن؟

إذا كان السؤال هو: "هل من الممكن أن يتلقى كل طفل في العالم تعليمه

الأولي بلغته الأم؟" فستكون الإجابة بصراحة "لا". بعض الدول لديها تعددية لغوية شديدة لدرجة أن تنفيذ اقتراح اليونسكو سيتضمن فعليا تطوير المواد وتدريب المعلمين على مئات اللغات. ومثال ذلك في دولة مثل الهند التي يوجد بها نحو ٢٠٠ لغة أو ما يقارب ذلك. ولن يكون الوضع أفضل في تنزانيا ذات الـ ١٣٥ لغة. وهناك العديد من الدول الأخرى ستواجه مشكلات مشابهة. ولسوء الحظ فإن الحقيقة التي لا مفر منها هي أن الدول ذات التعددية اللغوية هي في غالبيتها من الدول الفقيرة. ومن تعليقات بول (١٩٦٤: ٥٢٩)(٦):

"من الواضح أن المشاريع العملاقة اللازمة لغرض توفير تعليم حديث وإبقاء وضع متطور تبقى مشاريع صعبة التنفيذ في مجتمعات متعددة اللغات. المكسيك، على سبيل المثال، التي لا تملك نظاما مدرسيا ذا كفاءة حتى لسكانها متحدثي اللغة الإسبانية، لا يمكنها دعم ٤٩ مشروعا آخر على غرار تجربة تاراسكان".

وبغض النظر عن الجهود المذهلة التي تحتاجها عملية تأسيس مرافق التعليم الابتدائي لمئات اللغات، فهناك مشكلة تطوير اللغة ذاتها. يتفق معظم علماء اللغة على أنه لا يوجد مبرر لئلا تقوم قواعد وصوتيات أي لغة في العالم بدعم مناقشة أي موضوع كان سواء يتعلق بالبذور أم باستكشاف الفضاء. لا يمكننا أن نتجنب حقيقة أن مفردات العديد من المفاهيم الحديثة والأجهزة الحديثة توجد فقط في حفنة من اللغات "العالمية"، ولكن في اللغة المحلية فإنه يجب نحت المفردات أو اقتراضها. وعملية تطوير المفردات حسب مشاريع تخطيط اللغة ليست من الأمور الصعبة جدا، ولكنها في الوقت نفسه ليست أمرا بتلك السهولة. علاوة على ذلك، فإن الآداب أو الكتب المنهجية في كثير من المواد لا توجد إلا في بعض اللغات ولا بد من ابتداعها أو ترجمتها إلى جميع اللغات الأخرى قبل أن تصبح ذات جدوى لاستخدامها فيما بعد الأشهر الأولى من التعليم الابتدائي. وقد قامت تنزانيا بخطوات واسعة لتطوير السواحيلية

كلغة للتعليم وذلك بفضل العلم الدؤوب والتفاني في ذلك بالإضافة إلى الحظ الجيد. ولا يمكن تصور أن تقوم الدولة بتكرار هذا الإنجاز ١٣٥ مرة.

ومع ذلك، فإن القول بأنه لا يمكن تقديم تعليم باللغة المحلية في كل لغة على حدة في العالم لا يعني بالضرورة أن لا قيمة للجهود التي ستبذل في هذا الاتجاه. بالنسبة للهند التي يوجد بها نحو ٢٠٠ لغة، فإن ١٤ لغة منها، والمذكورة في الجدول الثامن من الدستور، تمثل نحو ٩٠٪ من السكان (تعتبر ١٣ لغة فقط إذا استبعدنا القلة من المتحدثين الأصليين باللغة السنسكريتية، و١٢ فقط إذا اعتبرنا فعليا اللغتين الهندية والأوردو لغة واحدة). وهذا نموذج مثالي للدول متعددة اللغات، بالرغم من احتمال وجود عدد كبير من اللغات ، فإن قسما صغيرا منها تمثل اللغة الأم للأغلبية العظمى من السكان. إن استخدام هذه اللغات المحلية في التعليم قد يكون من الممكن تحقيقه. ومع ذلك إذا لم نستطع تحقيق تقرير اليونسكو فإن تحقيق نصفه أفضل من لا شيء.

هل يكون ذلك مفيدا؟

قالت لجنة اليونسكو: إنه من "البديهي" أن أفضل لغة يتلقى بها الطفل تعليمه هي لغته الأم. ويبدو مما لا شك فيه ظاهرياً أن الطفل سيجد التعلم أسهل إذا فهم تماما اللغة التي يتحدثها معلّمه واللغة الموجودة في الكتب التي عليه تعلم قراءتها. من الصعب أن نختلف مع شهادة سبولسكي (١٩٧٧ب: ٢٠) الذي قال فيها: " يجب أن يكون من الواضح للجميع أن التعليم غير المفهوم هو تعليم لا أخلاقي، بمعنى أنه لا يمكن تبرير أن الأطفال سيكتسبون لغة المدرسة من تلقاء أنفسهم، ولا يوجد تبرير لعدم تطوير بعض البرامج التي تجعل تحقيق ذلك ممكنا للأطفال ليتعلموا اللغة النموذجية ويستمروا في تعلمهم طوال الوقت." وبتعبير آخر فإن كلمة "بديهي" لا تبدو وكأنها مبالغة فيها.

يجب أن تأخذ في اعتبارك أن اجتماع لجنة اليونسكو كان في عام ١٩٥١ ، أي قبل نحو ثلاثين عاما. ويمكنك أن تتوقع أنه خلال هذه الفترة الزمنية خضعت مزايا تعليم اللغة المحلية للاختبار مرات عديدة وأثبتت دون شك قيمتها للأطفال. في الحقيقة خضعت الفكرة للعديد من التجارب والأبحاث. ويتعذر في هذه المقدمة مراجعة جميع هذه التجارب بالتفصيل ، ولكننا سوف نبحث نتائج أربعة أبحاث ، قام من خلالها كل باحث بمراجعة عدد من هذه التجارب. وفيما يلي نتائج هذه الأبحاث :

- نظرا لعدم وجود أدلة مقنعة ، فإن أفضل نصيحة يمكن اتباعها في الوقت الحاضر هي أن نقول : إن الآثار اللغوية للتعليم بلغة ثانية غير معلومة. (مكنامارا ١٩٦٦ : ١٣٣ ، بعد مراجعة خمس دراسات ، بما فيها دراسة مكنامارا نفسه).

- إن دليل وجود مشكلات لاستخدام وسيلة تعليم أجنبية في مراحل المدرسة يبدو غير مؤكد. كما لم تظهر أولوية اللغة الأم في كل مكان... (داكين ، تيفين ووبدوسون ١٩٦٨ : ٢٧ بعد مراجعة أربع دراسات).

- لقد تنوعت الدراسات أو التقارير الأربع والعشرون التي قمت بتلخيصها بكل الطرق ، ومعظمها لم يقدم دليلا مؤكدا على أفضل الطرق. (انجل ١٩٧٥ : ٢٦ ، مراجعة ٢٤ دراسة).

- حصل ولسنوات عديدة أن قَبِل رجال التربية بديهية الفكرة القائلة بأن أفضل وسيلة لتعليم الأطفال هي لغتهم الأم. لكن هل توجد بيانات تجريبية مؤكدة تدعم هذا الموقف بشكل مطلق؟ والإجابة تبدو واضحة بـ "لا". هل يعني ذلك أن هذا الموقف أو الاتجاه غير مقبول؟ مرة أخرى ستكون الإجابة بـ "لا". (توكر ١٩٧٧ : ٣٧-٣٨ ، بعد مراجعة ثلاث دراسات).

فبعد مرور ثلاثين عاما حدث خلالها العديد من الدراسات ، ومنذ صدور تقرير اليونسكو يمكن القول إن إجماع الآراء يشير إلى أن : لا أحد يعرف إذا كان

استخدام اللغة الأم كوسيلة للتعليم أفضل من استخدام لغة ثانية أم لا. إن هذه نتيجة مذهلة لفكرة "بديهية". ولكي نفهم مدى تأثير هذه الفكرة البديهية، تخيلوا معنا حقيقة بديهية أصلية مثل بديهية إقليدس: "إذا أضفت أعدادا متساوية إلى أعداد متساوية أخرى فإن النتيجة هي عدد متساو". من هذه البديهية يتبع ما يلي إذا كان س= ص فإن س + ع سوف تساوي ص + ع. إن هذا القانون صحيح بكل وضوح بحيث يبدو من غير الضروري أبدا "محاولة تأكيده". وبالطبع لو اختبرنا هذا القانون بتبديل أرقام مختلفة لـ س، و ص، و ع فالنتيجة ستكون صحيحة في كل مرة إلا إذا كان هناك خطأ في الحساب. تخيل لو أن علماء الرياضيات قد حاولوا لثلاثين عاما إثبات أن قانون إقليدس البديهي قد يكون قانونا صحيحا من خلال تجربته على أعداد مختلفة، ثم استنتجوا في النهاية أنهم لا يعرفون ما إذا كان هذا القانون صحيحا أم لا! إن مثل هذا السيناريو لا يمكن حتى التفكير به. فطالما أن استخدام لجنة اليونسكو لمصطلح "بديهي" يبدو نوعا من الاستعارة أو المجاز، وحتى لو كان كذلك وكان هذا المجاز مناسبا على الإطلاق لكان من الممكن إثبات تفوق التعليم باللغة بعد مرور كل هذا الوقت.

من الواضح أن هناك خطأ ما. ولاكتشاف كنه هذا الخطأ، يلزم أن نعرف أنواع التجارب التي أجريت لاختبار توصيات لجنة اليونسكو. هذه التجارب تنقسم أساسا إلى نوعين: نوع يختبر استخدام اللغة الأم كوسيلة للتعليم، وهذه الطريقة يسميها إيجل (١٩٧٥) طريقة "اللغة الأصلية". والنوع الآخر من التجارب يختبر استخدام اللغة التي ليست اللغة الأم للطلاب، ويسميها إيجل "الطريقة المباشرة". ولإجراء تجربة ذات تصميم جيد لاختبار الطريقة المباشرة يحتاج ذلك إلى مجموعة "تجريبية" أو أكثر - تلك المجموعة التي سيتعلم أفرادها من خلال وسيلة اللغة التي لا يتحدثونها. وكذلك سيكون هناك مجموعات "الضبط"، وهم الطلاب الذين سيتعلمون باستخدام وسائل أخرى. عادة، تستخدم مجموعة ضبط واحدة تتكون من طلاب يتحدثون اللغة الأم

نفسها كمجموعة تجريبية، ويُعلَّمون بهذه اللغة. أما المجموعة الأخرى فتتكون من طلاب يتحدثون اللغة الأم التي تستخدمها المجموعة التجريبية كوسيلة للتعليم، ولكنهم يستخدمون لغتهم الخاصة كوسيلة للتعليم. وبعد البدء في البرنامج لفترة من الزمن، تختبر المجموعة التجريبية ومجموعة الضبط للإنجازات التعليمية في القراءة والمهارات اللغوية في كلتا اللغتين وفي ما أحرزوه من تعليم عام. وهناك مثال معروف جيدا على هذا النوع من الأبحاث، وهو تجربة سانت لامبرت (انظر توكر، همايان، وجينيس ١٩٧٦ والمراجع المذكورة عندهم). وفي هذه التجربة وضع المتحدثون الأصليون للغة الإنجليزية في برنامج تطوعي تعلموا فيه الفرنسية من بداية حياتهم التعليمية. وقد قورنت إنجازاتهم مع إنجازات كل من المتحدثين الأصليين للغة الفرنسية والإنجليزية الذين تعلموا بلغاتهم الخاصة.

أجريت اختبارات عديدة على الأطفال في مشروع سانت لامبرت ومشاريع مشابهة في كندا. كانت النتيجة العامة هي أن المجموعات التجريبية يمكن أن تعمل باللغة الإنجليزية ويشمل ذلك القراءة والكتابة، وكذلك الطلاب الكنديين الذين يتحدثون الإنجليزية، والذين تعلموا باللغة الإنجليزية، وأدوا الاختبارات مثلهم في ذلك مثل الطلاب المتعلمين اللغة الإنجليزية في المواد الدراسية والاختبارات المعرفية. وكانوا أكثر تفوقا في قدرات اللغة الفرنسية من الطلاب الكنديين الذين يتحدثون الإنجليزية، لكنهم درسوا اللغة الفرنسية في برامج الدراسة كلغة ثانية. ومع ذلك فلم يكونوا بالكفاءة نفسها في اللغة الفرنسية مثل مجموعات الضبط المتحدثة بالفرنسية.

وعادة ما تضم التجارب التي تجرى على اللغة الأم مجموعات ضابطة تعلَّم أو يُدرَّس لها باستخدام الطريقة المباشرة. وبعبارة أخرى فإن معظم الدراسات التي تتناول اللغة الأم تقارنها بالطريقة المباشرة. وعادة ما تُختار مجموعتان من الطلاب تتحدثان اللغة الأم نفسها ليقارن فيما بينها. وتتعلم إحدى المجموعتين باستخدام لغتها

الأم، بينما تتعلم المجموعة الأخرى باستخدام اللغة القومية أو أي لغة تكون هي أداة التعليم بالمنطقة. وتختَبر المجموعتان في نهاية التجربة من أجل تحديد قدرتيهما في كلتا اللغتين وفي موضوعات أخرى.

وثمة مثال يستشهد به دائما عن مثل هذا النوع من التجارب، وهو مشروع أوليلو في الفلبين (راموس وآخرون ١٩٦٧، إنجل ١٩٧٥). كانت المجموعة التجريبية تتعلم باستخدام لغتها الأم الهيلاغينونية طوال الصفين الأولين من الدراسة، ثم تحولت المجموعة إلى استخدام اللغة الإنجليزية كأداة للتعليم بعد ذلك. وأما المجموعة الضابطة فكانت تتعلم باستخدام اللغة الإنجليزية طوال السنوات الست وبالطريقة التقليدية. وفي ختام السنوات الست أعطيت المجموعتان مجموعة متماثلة من الاختبارات في اللغة الإنجليزية. ووجد أن المجموعة التجريبية قد سجلت درجات أعلى بشكل ملحوظ في تحصيل الدراسات الاجتماعية عما هو الحال لدى المجموعة الضابطة. ولم تكن هناك أي نتائج اختبارات تحصيل أخرى ذات أهمية بالرغم من أن المجموعة التجريبية سجلت درجات أعلى قليلا في الحساب والقراءة في حين سجلت المجموعة الضابطة درجات بشكل ملحوظ في اللغة. كما سجلت المجموعة التجريبية درجات أعلى بشكل ملحوظ في أجزاء معينة من "بيانات الشخصية".

فمن الواضح أنه لكي نجري بحوثا على أي من المجموعتين، فلا بد من قيام أو وجود برنامجين تعليميين على الأقل، برنامج تجريبي وبرنامج ضابط. ومن غير المرجح إعداد هذه البرامج لتفي بمتطلبات أبحاث العلوم الاجتماعية. ونتيجة لذلك يستحيل في معظم الأحوال ضبط كافة المتغيرات. ونتذكر هنا أنه في مناقشتنا الإحصاءات استخدمنا مثالا يتعلق بزرع الطماطم باستخدام نوعين من السماد. ومن خلال الطريقة التي أعدت بها هذه التجربة الافتراضية أمكن لنا أن نستنتج أن أحد نوعي السماد كان أفضل من الآخر، هذا لو نمت طماطم أكبر حجما عند استخدام ذلك

النوع مقارنة بالنوع الآخر. بيد أن هـذه النتيجة لا تكون صحيحة إلا *إذا كان السماد هو الفارق الوحيد بين المزرعتين*. إن المثال الذي قدمناه عن هذا الشرط في حالة انتهاكه كان صحيحا لو أن المزارع قد زرع أيضا نوعا مختلفا من الطماطم بالإضافة إلى استخدام سماد آخر. فإذا كانت ثمار الطماطم بإحدى المزرعتين أكبر من الأخرى فإننا في هذه الحالة لا نعلم ما إذا كان ذلك يرجع إلى اختلاف نوع الطماطم أو نوع السماد أو كليهما معا.

إن في بحوث التدريس باستخدام اللغة الأم قد تختلف جوانب أخرى لها علاقة بخبرة المجموعة التجريبية وبالمجموعة الضابطة فضلا عن الاختلاف في لغة التدريس. ومن المتغيرات التي لا يمكن السيطرة عليها التي أدت إلى عدم توصل الدراسات في هذه القضية إلى نتائج حاسمة نجد متغيرات مثل الطبقة الاجتماعية للأطفال ونوعية المدرسين وموقع المدارس سواء كان في الريف أو الحضر، وإضافة إلى "تأثير هوثورن". أما تأثير هوثورن فهو عامل يعمل لصالح أي طريقة تجريبية أيا كانت مزاياها الداخلية. ومثال ذلك أنني لو استطعت إقناع نظام مدرسي بأن الأطفال سيتعلمون القراءة على نحو أفضل إذا وضعوا في فصول دراسية ذات جدران خضراء وسمح لهم بخلع النعال، خاصة إذا كان المدرسون الذين يدرسون بهذه الفصول الخضراء يؤمنون حقا بالبرنامج واعتبر الأطفال أن لهم منزلة خاصة، فإنهم على الأرجح سيتعلمون القراءة على نحو أفضل بشكل ملحوظ. وليس هناك بالطبع مبرر للاعتقاد بأن خلع النعال والجلوس في فصول ذات جدران خضراء أثناء حصة القراءة لهما علاقة بعملية تدريس القراءة وتعلمها، ولذلك فإن المكاسب من وراء هذا النوع يكون مصدرها الهالة المثيرة المرتبطة بالتجربة. وأفضل طريقة للتغلب على تأثير هوثورن هو اختبار نتائج التجربة بعد تطبيقها عدة سنوات. وفي ذلك الحين تكون "الخصوصية" قد انقشعت وتكون أية مكاسب تظهرها المجموعة التجريبية هي على الأرجح نتيجة

للظروف التجريبية. إن كثيرا من بحوث اللغة الأم يختبر بعد عام واحد فقط. وقد يؤدي ذلك إلى تحقيق هدفين، هما: أن أثر هوثورن قد يتسبب في تضخيم الفوائد لدى المجموعة التجريبية، أو أن طول الفترة قد يكون قصيرا على نحو لا يؤدي إلى ظهور الفوائد في حينها المتوقع.

وهناك متغير غير مضبوط شائع الانتشار وهو نوعية المدرس. لقد كانت نوعية التدريس التي تلقتها المجموعة الضابطة في أحد الاختبارات الشهيرة الخاصة ببحوث اللغة الأم سيئة جدا على نحو أدى بأنجل إلى الاستنتاج بأن الدراسة "أيدت بوضوح استخدام اللغة الأم للتغلب على ضعف التدريس (وهي ليست الطريقة المباشرة حسب الوصف المذكور بها)" (أنجل ١٩٧٥: ١٤). وفي دراسة أخرى وصفها أنجل (١٩٧٥: ١١) لم يتبين وجود فروق في تحصيل الطلاب الأوغنديين الذين بدأوا تعليمهم بلغاتهم الأم مقارنة بالذين بدأوا باللغة الإنجليزية. غير أن متغيرات المدرس دلت على نسبة ٨٣٪ من التباين في درجات اختبار أفراد العينة وذلك عند إجراء تحليل انكفائي لها.

يبدو أن النجاح الذي يثبت الطريقة المباشرة إلا في تجارب الانغماس الكندية، لا يمكن مع ذلك أخذه كدليل قاطع على أفضلية هذه الطريقة.(٧) إن كل هذه الحالات تتضمن متحدثين باللغة السائدة قوميا (الإنجليزية) ويتعلمون باستخدام لغة قومية أخرى ذات سيادة محلية (اللغة الفرنسية). إضافة إلى ذلك نجد أن الطلاب الذين يشاركون في هذه التجارب هم في الغالب من أبناء الطبقة الوسطى، وهم يدخلون البرنامج طوعا ويكدح آباؤهم من أجل إنجاح البرنامج. ولا يمكن الافتراض بأن التجربة نفسها يمكن أن تنجح في بلد يكون فيه متحدثو اللغة الدارجة المنتشرة بين فئة ريفية صغيرة "مغمسين" في لغة قومية أو عالمية.

إن جزءا من سبب عدم إثبات اقتراح اليونسكو "البديهي" بصورة متلازمة

ومقنعة يرجع إلى صعوبة ضبط المتغيرات الأخرى واستبعاد عوامل غير منطقية مثل أثر هوثورن. ولعل سلسلة من ثلاث أو أربع تجارب محكمة في مناطق مختلفة بالعالم ستظهر بالتأكيد أفضلية التعليم والتدريس باللغة الأم. ويصعب من جانب آخر تجنب الإحساس بأنه قد ظهر بعد ثلاثين عاما اتجاه واضح يؤيد استخدام اللغة الأم في التعليم رغم المخططات البحثية التي لا تصل إلى حد الكمال. غير أن هذا الاتجاه غير واضح.

ولعله من الضروري أن ننظر إلى الاحتمالية بأن التعليم باللغة الأم ربما لا يكون بالأهمية ذاتها التي يشير إليها "الرأي العام البديهي". ولا تنسى حقيقة أن أغلب باحثي هذه المسألة من أمريكا الشمالية أو أوروبا الغربية. والكثير منهم لم يكن لديهم أدنى تجربة بالتنوع اللغوي الهائل الذي يعد من حقائق الحياة اليومية لدى كثير من سكان العالم. ومن الشائع في أماكن التنوع اللغوي أن يتكلم الناس لغتين أو أكثر دون تعليم رسمي. وحتى إذا سلمنا بأن اكتساب لغة ثانية أو ثالثة قد لا يحدث في سن مبكرة لدى الأطفال، إلا أن الصغير يتوقع أن يتعلم لغة جديدة كجزء من عملية النمو. ولا شك في أن الطفل الأمريكي أو الألماني سيصاب بصدمة إذا وجد نفسه تحت سلطة شخص بالغ ليس بإمكانه حتى أن يفهمه عندما يدخل إلى الدراسة إذا كان عمليا كل من التقى به من قبل لا يتحدث إلا الإنجليزية أو الألمانية. غير أن الشيء نفسه لا ينطبق بالضرورة على الأطفال الهنود أو التنزانيين الذين يعتبرون أن من علامات النضج والرشد وجودهم في موقف يخاطبهم الآخرون فيه بلغة لم يتعلموها بعد. ومن المؤكد أن ذلك لا يساعدهم على الفهم بشكل أفضل ولكنه يحدث اختلافا كبيرا من الناحية النفسية.

ومن ناحية أخرى قد يتعلم الطفل لغة ثانية في سن مبكرة. ويبدو أن ذلك ينطبق على هنود التيوا الذين ذكرناهم في الباب الثامن. وعندما سئل هؤلاء عن رأيهم

في لغة التدريس أيدوا بقوة التدريس بلغتين، وقالوا بوجوب أن يشرح المدرسون بلغتين، غير أنهم لم يؤيدوا كثيراً التدريس بلغة التيوا، ولو حتى في المدرسة الابتدائية. ومن أولئك الذين سُئلوا: "هل تريد أن يكون التدريس لك أو لأطفالك من قبل مدرسين يتحدثون بلغة التيوا فقط على الأقل في المدرسة الابتدائية، أو من قبل مدرسين يتكلمون كلا من التيوا والإنجليزية؟" أجاب ٩١,٧٪ بأنهم يختارون التيوا والإنجليزية، و٨,٣٪ فقط أجابوا بأنهم يختارون التيوا فقط. إن أفراد جماعة الأيمش البدائية يتعلمون اللغة الألمانية بلهجة بنسلفانيا في بيوتهم، ولكنهم يكتسبون الإنجليزية في سن مبكرة. ويدرس أطفال هذه الجماعة في مدارس كنسية تحت رقابة تلك الجماعة، بيد أن لغة التعليم كانت دائما هي اللغة الإنجليزية. وأكثر من ذلك أن هذه الحقيقة فيما يبدو ليس لها آثار ضارة أو سلبية على مستويات التحصيل (هوفنز ١٩٨٠). وتوجد حالات كثيرة كهذه في العديد من دول العالم. وفي هذه الحالات لا يتمتع التدريس باللغة الأم بوضع مميز على الإطلاق.(٨)

وثمة عامل آخر هو مسألة القرابة اللغوية. إذ نجد في كثير من أنحاء العالم، على سبيل المثال، التشاكو في براغوي وشمال الهند، أن ضروب اللغة قد تكون متشابهة أو مختلفة إلى حد ما بحيث يصبح من العسير فعليا القول بأنها لغتان منفصلتان، أم أن من الأفضل وصفها كلهجتين للغة نفسها. وفي شرق إفريقيا نجد أن لغات البانتو متشابهة في التركيب العام على نحو يسهل الانتقال من القدرة الخاصة باللغة الأم في أي منها إلى التعليم والتدريس باللغة السواحيلية، رغم أن هذه اللغات ليست بوضوح لهجات للغة السواحيلية. إن التشابه اللغوي العام قد يجعل التدريس بلغة ثانية أقل كراهية مما لو كان هناك اختلاف لغوي عام، ونلاحظ ذلك في الحالات التي تكون فيها لغة التعليم هي اللغة الأصلية حتى ولو لم تكن اللغة الأم.

أما الإجابة على السؤال: هل تنجح اللغة الثانية في ذلك؟ فهي غامضة

غموض الاقتباسات التي وردت في بداية هذا الجزء. ورغم أن نتائج التجارب قد لا تكون حاسمة إلا أن التجارب لم تكن مضبوطة فعليا بدرجة كافية. ومن ناحية أخرى من المحتمل أن لا يكون التدريس باللغة الأم ميزة أساسية في الحياة الواقعية عند الأطفال. وهناك كثير من المواقع في العالم حيث لا تكون اللغة الأم ذات ميزة في التدريس.

هل اللغة الأم جديرة بذلك؟

من الصحيح – كما يقول توكر (١٩٧٧) – أننا لا نستطيع أن نبرهن بشكل لا لبس فيه على أن التعليم باللغة الأم هو الأفضل، إلا أننا أيضا لا نعلم على نحو متيقن أنه ليس الأفضل. أي بعبارة أخرى من الممكن أن نستنتج أنه ناجح بالفعل. وهنا ينبغي لنا أن نتساءل عن جدارة اللغة الأم وذلك بافتراض أنه من الممكن استخدام قدر معين من التعليم باللغة الأم حتى ولو كانت "عامية" إضافة إلى افتراض أنها مفيدة. ولا بد هنا أن ندخل حسابات التكلفة والمنفعة كما هو الحال في قرارات التخطيط اللغوي الأخرى حتى ولو لم يجرى تحليل رسمي للتكلفة والمنفعة.[٩] وهنا من المفيد التفكير في تعليق بول بخصوص مصلحة المجتمع مقارنة بمصلحة الفرد الطفل، وهنا يبدو واضحا احتمال تعارض المصلحتين. وأعتقد أن تحديد المصلحة ذات الأولوية يعتمد على نظام القيمة المحدد الخاص بالأمة وكذلك مواردها. كما أنه من الواضح أن تحديد لغة عامية لكي تستخدم كوسيط تعليمي هي عملية مكلفة، ولا بد أن تكون الفوائد الكبيرة على نحو يبرر التكلفة.

اللغات العالمية والقومية ولغات المجموعات الصغيرة.

تعد فكرة تقسيم اللغات إلى ثلاث طبقات مفهوما دائم الظهور في الدراسات

الميدانية في البلدان النامية. ويبدو أن للغات ثلاثة مستويات وظيفية كما هي الحال في العديد من دول العالم، رغم أن المثالين المشهورين الوحيدين هما الهند وتنزانيا. وفي أحد طرفي المتصل نجد لغات تخدم حاجات التفاعل بين مجموعات محلية صغيرة من المتحدثين باللغة الأم. ونجد أن هذه اللغات في الهند هي اللغات القبلية إضافة إلى اللغات الأخرى غير المذكورة في الجدول الثامن بالدستور. أما في تنزانيا فقد ذكرنا في الفصل الماضي أنها نحو١٣٥ لغة.(١٠) وهي في معظمها لغات لا تتمتع بقدر كبير من التقييس في أفضل الأحوال، وربما كان لها أبجدية ومعجم صغير وبعض المبادىء الأساسية. ويسمى كلوس (١٩٦٨) هذه اللغات بلغات "قبكتابية" (أي ما قبل الكتابة) أو "غير نموذجية" أو لغات "أبجدية"، رغم أن بعضها قد يكون في فئة "النموذجية المستحدثة" عنده. وبعض الدول تحتوي على بضع لغات ضمن هذه الفئة التي تعد لغات كاملة النموذجية وقد يكون لها تراث أدبي كبير، ولكن ليس لديها إلا عدد قليل من المتحدثين بحيث لا تتوافر لديها فرصة للعمل على المستوى القومي أو الدولي. وتتكون هذه الفئة الفرعية الأخيرة من لغات يسميها كلوس "اللغات النموذجية للمجموعات الصغيرة".

ونجد في المستوى التالي لغات أسمّيها اللغات القومية، وهي في أحد معانيها تختلف إلى حد ما عن المعنى الذي أعطي لهذا المصطلح حتى الآن. في هذا السياق الحالي تقوم اللغة "القومية" بوظيفة قومية ليس فقط للدول ولكن أيضا للجنسيات الراسخة تحت القومية الأكبر، وذلك حسبما يراه فشمان. وقد يكون لهذه اللغات دور اللغة القومية في بعض البلدان كاللغة السواحيلية أو قوارني. وقد تكون هذه اللغات معلنة رسميا كلغات قومية مثل اللغة الهندية في الهند أو الفلبينية (التاغالوج) في الفلبين، ولكنها لا تقوم في الواقع بدور الوظيفة القومية لكافة أنحاء البلاد بالمعنى الكامل. كما قد تكون هذه اللغات إحدى اللغات الأصلية المتعددة، وتعتبر لغات

منافسة فعليا لوضع اللغة القومية كما هو الحال مع لغة كيكويو في كينيا أو لغة إغبو في نيجيريا. وأخيرا قد تكون لغات يتكلمها عدد كبير من الناس ومتطورة تطورا لا بأس به، ولكنها لا تجد فرصة حقيقية لإعلانها لغة قومية في بلادها مثل لغة تيلينو في الهند. ولو كان التاريخ السياسي الطبيعي قد اتخذ مناحي مختلفة لربما كانت بعض لغات هذه المجموعة الأخيرة هي اللغات القومية ببعض الدول التي لا توجد، ولكن ربما كان من الممكن وجودها. وينطبق على معظم هذه اللغات وصف كلوس لفئة لغات "النموذجية المستحدثة" رغم أن بعضها يدخل بصعوبة فيما يبدو في فئة اللغات "النموذجية للمجموعات الصغيرة".

أما اللغات العالمية فقد أصبحت بمرور الزمن، ولسبب أو لآخر، وسيلة لمعظم تقنيات العالم وتجارته وعلاقاته الدبلوماسية، وجزءا كبيرا من أدبه المعترف به دوليا. ولم تتأهل لذلك إلا حفنة من لغات العالم. ويستشهد ستيرن (١٩٦٣، ص١٣) برأي العالم البريطاني ج. ل. ويليامز بأن هناك خمس لغات فقط (لم يسم ستيرن هذه اللغات الخمس) تأهلت إلى هذا المستوى. ورغم أن اللغات العالمية غالبا ما تكون لغات استعمارية، إلا أن وضعها يجعل من المستحيل على الدول المستقلة حديثا استبعادها من المجالات الرسمية والتعليمية ذلك على الرغم من ارتباط هذه اللغات بالقوة الاستعمارية التي رحلت عن البلاد. بيد أن هناك دولاً لم تطأها قدم الاستعمار، ولكنها ترى أنه من المفيد أن يعرف مواطنوها لغة عالمية ومثال ذلك انتشار اللغة الإنجليزية في تايلاند.

الواقع أن مسألة وسيلة التعليم غالبا ما تطرح على أنها اختيار بين اللغة الموجودة فعليا في المكان، وهي عادة ما تكون لغة عالمية، ولغة أو أكثر من اللغات الدراجة للمجموعات الصغيرة. وربما يكون هدف الوصول إلى حل وسط معقول هو إعطاء أفضلية خاصة للغات القومية على اللغات العالمية الدارجة للمجموعات

الصغيرة، وذلك كوسيلة للتعليم، حيث تكون الحاجة ماسة إلى بديل عن لغة عالمية. للغات القومية بالمعني الذي استخدمه هنا عدة مزايا كبرى تميزها عن اللغات الدارجة للمجموعات الصغيرة. وأول هذه المزايا أنه تتكلمها كلغة أم مجموعات كبيرة جدا من السكان أكثر مما هو الحال مع اللغات الدارجة المحلية للمجموعات الصغيرة (ويستثنى من ذلك لغة السواحيلية في تنزانيا). وثانيا أنها لا تكون عادة متخلفة جدا (بالنسبة لأغراض التعليم) كما هو الحال مع اللغات الدارجة المحلية للمجموعات الصغيرة. وأخيرا تكون اللغات القومية في حالات كثيرة قد تُعلِّمت كلغة ثانية من قبل طلاب المدارس، أو سيتم تعلمها في غمار أحداث الحياة الطبيعية ولو لم يذهب الأطفال أبدا إلى المدرسة.

إن كثيرا من زعماء الدول النامية متعددة اللغات يؤيدون مسار العمل هذا. وفيما يلي مقطع من خطاب ألقاه راجندرا براسات الذي كان رئيسا للهند في عام ١٩٦١ (داكين، تيفين، و ويدوسون ١٩٦٨ : ٣٤):

"إن سياسة اللغة الأم لا تكون مجدية إلا إذا كانت الفئة اللغوية ذات حجم معقول وتشكل منطقة متماسكة. ولا يمكن أن يطلبها بمعقولية فئة صغيرة العدد جدا متناثرة في أجزاء متفرقة بالمناطق اللغوية الأخرى، ومن السهل إدراك المضامين المالية وغيرها المتعلقة بقبول مثل هذا الطلب".

ويقترح بوكامبا وتلو (١٩٧٧، صفحة ٤٧) السياسة اللغوية التالية كسياسة ممكنة التطبيق في إفريقيا:

"نقترح أن تختار كل دولة في جنوب الصحراء الإفريقية لغة قومية من وعاء لغاتها المشتركة، وذلك على أساس مسح لغوي إحصائي متعلق بالمواقف اللغوية، كما نقترح أن تستخدم الدولة هذه اللغة في التعليم."

من الواضح أن بوكامبا وتلولا يدافعان عن التعليم باللغة الأم، ولكنهما

يسعيان إلى إحلال لغة إفريقية واحدة في كل بلد محل اللغة الاستعمارية. ورغم أنهما أفرطا فيما يبدو في التفاؤل بإمكانية اختيار لغة أصلية واحدة لتكون اللغة الوحيدة للتعليم إلا أنه من الضروري ملاحظة أن "اللغات المشتركة"، وهي اللغات القومية بالمعنى الواسع الذي استخدمه في هذا السياق، هي اللغات الوحيدة المرشحة لذلك. ويدافع أنسري (١٩٧٨) عن "استخدام اللغات الأصلية" في التعليم في إفريقيا، إلا أن ذلك فيما يبدو لا يعني بالضرورة التعليم باللغة الأم.

إذ يستشهد أنسري (١٩٧٨ : ٢٩٢) بتنزانيا كأحد مثالين للدول الإفريقية "الملتزمة تماما باستخدام اللغات الأصلية" علما بأننا نعرف أن السواحيلية هي اللغة الأم لأقلية صغيرة من التنزانيين.

بعض المعايير المقترحة.

ببساطة يعتبر استخدام اللغة العامية الأم في التعليم في الغالبية العظمى لبلدان العالم أمرا خارج نطاق الممكن إلا أنه في كثير من المواقع يكون من المرغوب تزايد استخدام اللغات المحلية الأصلية بدلا من اللغات العالمية. ويعني ذلك حتمية اتخاذ قرارات لتحديد اللغات المحلية الأصلية التي ستستخدم وتلك التي لن تستخدم في المدارس. وأقترح المعايير الخمسة التالية اللازمة لاتخاذ هذه القرارات.

(١) الاستخدام كلغة اتصال على نطاق واسع. إذا كانت اللغة هي بالفعل إحدى اللغات المستخدمة كوسيلة للاتصال بين فئات ثانوية غير مشاركة في اللغات الأم، فإن هذه اللغة يجب أن تكون مفضلة على اللغات التي ليس لها هذا الاستخدام. ومن سبل تحديد ذلك ملاحظة عدد الأفراد الذين يتعلمون تلك اللغة كلغة ثانية بالنسبة إلى حجمها. وقد طور واينرايخ (١٩٧٥) صيغة تسمح بقيمة رقمية تخصص لهذا العامل، وسمى هذه الصيغة مقياس الأهمية الوظيفية.

(٢) عدد المتحدثين. ينبغي تفضيل اللغات التي يستعملها عدد كبير من المتحدثين الأصليين على اللغات التي تتكلمها مجموعات صغيرة. وهذا المعيار يتضمن دون جدل التمييز ضد الأطفال الذين تصادف أن ولدوا في فئات عرقية لغوية صغيرة، ولكنه يعني أيضا أن الموارد التي ستستخدم في تثبيت لغة ما في النظام التعليمي ستفيد أعدادا كبيرة من الناس. إن معنى عبارة "أعداد كبيرة من المتحدثين الأصليين "تختلف من بلد إلى بلد، ولكني أعتقد أن اللغة التي يتكلمها ١٠٪ أو أكثر من السكان أو مليون نسمة على الأقل تعتبر لغة مرشحة بقدر معقول لأن تكون لغة للتعليم. وينبغي على الأرجح إهمال اللغات التي يتكلمها أقل من مائة ألف نسمة، اللهم فيما عدا حالات الدول الغنية.

(٣) تطور اللغة. ينبغي تفضيل اللغة المجهزة للقيام بدور لغة المدرسة، دون أن يجري عليها تخطيطات لغوية موسعة، على اللغات التي تحتاج إلى جهود كبيرة لتطويرها. فبالإضافة إلى حجم المفردات وطبيعتها فإن التطوير يعني أن اللغة تمتلك نظاما كتابيا ومدى ملاءمة النظام الكتابي للتقنية أو الطباعة، إضافة إلى درجة نموذجية اللغة فيما وراء كتابتها، ومدى توافر تراث أدبي لهذه اللغة، ومدى وجود مواد تعليمية مكتوبة بها (مثل المواد التي أعدتها البعثات التبشيرية أو المجتمعات المحلية ذاتها) وأخيرا مدى سهولة توظيف المعلمين القادرين وتدريسهم على التدريس بهذه اللغة.

(٤) تفضيل المجموعة. يذكر تقرير اليونسكو احتمال عدم رغبة بعض المجتمعات في استخدام لغتها في التعليم. ولعل أحد أنواع القوى الاجتماعية اللغوية كان قد أحدث اتجاها مؤداه أن اللغة الأم هي الأفضل في البيت والمجتمع، ولكن استخدامها في المدرسة يمكن أن يكون غير ملائم. وتقترح لجنة اليونسكو قيام الحكومات بمحاولة إقناع هذه المجتمعات بمزايا استخدام اللغة الأم في التعليم. ويبدو لي

أن جهود الإقناع، وهي على رأس ما ينبغي فعله لاستخدام لغة ما في النظام التعليمي، ستكون هائلة إلى درجة أن اللغة التي لا يقبلها متحدثوها أنفسهم يجب ألا ينظر فيها على الإطلاق كوسيلة محتملة للتعليم.

(٥) عامل التسرب. من الدلائل المهمة لسوء أداء النظم التعليمية وجود نسبة كبيرة للتسرب في سنوات التعليم الأولى. ولاشك في أن عدد المنسحبين (المتسربين) يعد مشكلة خطيرة في دول كثيرة. وقد رأينا في الباب الأول أن براغوي من بين هذه الدول، وأن استخدام اللغة الإسبانية في التعليم في مناطق لا توجد فيها إلا اللغة القورانية يبدو سببا رئيسيا لارتفاع نسبة التسرب (روبن ١٩٦٨ أ). ويذكر بوكامبا وتلو (١٩٧٧ : ٤٥) أن نسبة ٥٪ فقط من الأولاد المتخرجين من المدرسة الابتدائية في غانا يتابعون دراستهم في المدرسة الثانوية. وفي زائير، ٣٠٪ فقط من الأولاد الذين يدخلون المدرسة الابتدائية يتابعون حتى نهاية المراحل الأربع الأولى. ويعزي الكتاب ذلك إلى "عدم القدرة على إجادة لغة التعليم." وحيث تتواجد مثل هذه الحالات، يجب الإشارة إلى ضرورة تغيير وسيلة التعليم: "هناك حالات عديدة مع ذلك حيث لا يبقى الأطفال ولسبب من الأسباب في المدرسة بعد المرحلة الثالثة أو الرابعة. وفي مثل هذه الحالات يبدو من المعقول تماما ومن المفضل أن يبدأ الأطفال تعليمهم الرسمي ويتدربوا على تعلم القراءة والكتابة باللغة الأم" (توكر ١٩٧٧ : ٣٩). ومن ناحية أخرى، إذا كان النظام التعليمي يعمل بشكل جيد بحيث يبقى الأولاد في المدرسة حتى ولو اضطروا إلى التعلم بلغة ثانية، فإنه على الأرجح أن لا يكون هناك مبرر تربوي لبذل جهود من أجل التحول إلى اللغة الأم. وفي هذه الحالة ينصح توكر "بضرورة بذل تركيز كبير على التعليم في اللغة المستهدفة يصحبه أنشطة مساندة باللغة الأم." وبعبارة أخرى لا تستخدم علاجا باهظ الثمن إذا لم تكن هناك مشكلة خطيرة.

حالة لغة فريجان

تناولنا حتى الآن مسألة تعليم اللغة العامية باعتبارها صراعا بين المصلحة التعليمية وندرة الموارد. واستنتجنا أنه إذا أثبتت استفادة الأطفال من التعليم باللغة الأم في البلاد وكان بوسع الدولة تحمل التكاليف المترتبة عليها فإنه ينصح باستخدامها في التعليم. ولكن على العكس، إذا تبين عدم استفادة الأطفال أو إذا كانت التكاليف باهظة جدا فإنه ينصح بعدم استخدام اللغة الأم في التعليم. ومع ذلك، فإن الحسنات التعليمية لوسيلة تعليمية ما أو غيرها في الغالب ما تكون اعتبارات ثانوية عند اتخاذ القرارات فعليا. وتتضح هذه النقطة كثيرا في حالة لغة فريجان في هولندا باعتبارها لغة الأقلية.

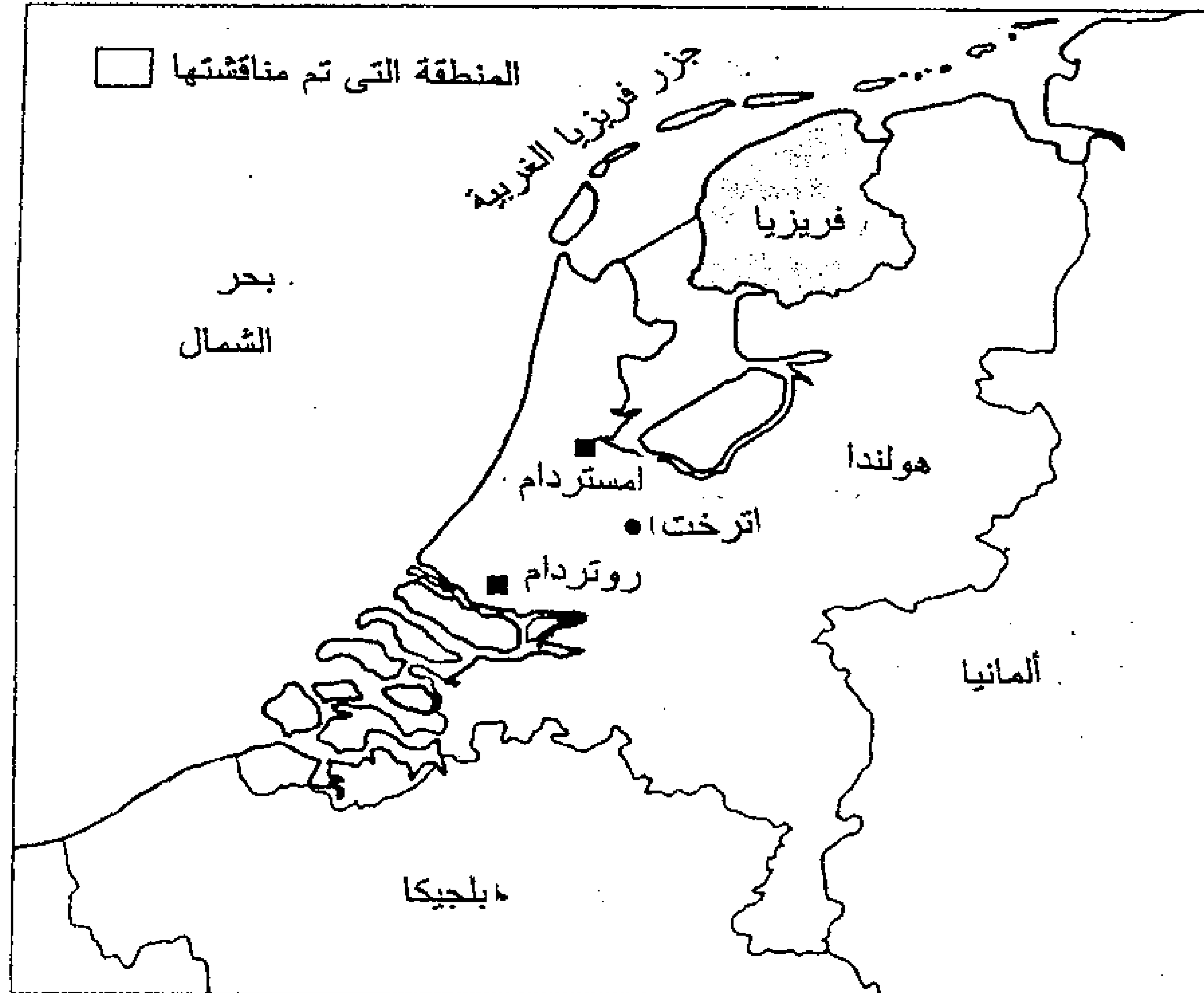
الخلفية

إن لغة فريجان هي لغة جرمانية يتكلمها أساسا أهل فريزلاند، وهي مقاطعة في شمال شرق هولندا، برغم انتشار لهجات أخرى من لغة فريجان في أجزاء أخرى من ألمانيا (انظر الخريطة رقم ١١،١).(١١) ترتبط لغة فريجان باللغة الهولندية ارتباطا بسيطا، واللغتان ليستا مفهومتين بشكل مشترك مع بعضهما. يبلغ تعداد سكان فريزلاند نحو ٥٥٠،٠٠٠ نسمة، أي نحو ٤٪ من سكان هولندا (بيترسن ١٩٧٨ صفحة ٣٥٤)، وهي منطقة ثنائية اللغة تماما إذ يتحدث جميع سكان فريزلاند اللغة الهولندية ويعرف معظمهم لغة فريجان.

ظلت اللغة الهولندية لغة المهام والوظائف اللغوية العليا طوال قرون عديدة بيد أن اللغة أصبحت نقطة خلاف في فريزلاند في القرن التاسع عشر. بدأت في ذلك الوقت حركة نشيطة للغة فريجان. والدليل على مدى قدرة الحركة على الإقناع ومهارتها السياسية يمكن أن تلمسه في حقيقة أنها حققت قائمة لا بأس بها من

الأهداف التي وضعتها لنفسها في هذا القرن. وقد أقيمت أول الطقوس الكنسية بلغة فريجان عام ١٩١٥، كما نشر الإنجيل بلغة فريجان عام ١٩٤٣ (وإبان السبعينيات كانت تعد ترجمة عالمية جديدة له). وأنشأت أكاديمية فريجانية في عام ١٩٣٨، وسمح باستخدام اللغة الفريجانية المحكية (وليس المكتوبة) في المحاكم في فيريزلاند منذ عام ١٩٥٥.

واللغة الهولندية هي لغة التعليم التقليدية في فريزلاند كما هو الحال في كافة أنحاء هولندا. وفي عام ١٩٠٧ سمح بدراسة لغة فريجان، ولكنها كانت اختيارية، وكان لا بد من دراستها خارج نطاق المناهج العادية.



الخريطة رقم (١١،١). خريطة هولندا تظهر فريزلاند.

وفي عام ١٩٣٧ أدرجت مادة في قانون المدارس الابتدائية الهولندية أصبح بموجبها من الممكن إدخال لغة فريجان كمادة دراسية. وحسب ويجنسترا (١٩٧٨) فإنه في غضون عام واحد بدأت ١٠٠ مدرسة في دراسات بلغة فريجان. وأقيمت تجربة عام ١٩٥٠ عن استخدام لغة فريجان كلغة تعليم في الصفين الأولين في تسع مدارس.

وكانت النتائج مرضية لأنه أصدر قانون عام ١٩٥٥ الذي يسمح شرعيا باستخدام اللغات الإقليمية مثل لغة فريجان كوسيط للتعليم في الصفوف الثلاثة الأولى. وتزايد عدد المدارس التي اختارت استخدام لغة فريجان كلغة للتعليم حتى وصلت عام ١٩٦٨ إلى ٨٤ مدرسة رغم أنها تناقصت منذ ذلك الحين إلى حد ما (ويجنسترا ١٩٧٨). وفي عام ١٩٧٢ أصدر قانون يجعل لغة فريجان مادة دراسية إجبارية في فريزلاند ابتداءً من عام ١٩٨٠.(١٢)

وتشير البيانات التي جُمعت عن طريق مسح قامت برعايته الأكاديمية الفريجانية عام ١٩٦٩ إلى أن لغة فريجان هي لغة راسخة الجذور في المقاطعة. كما أوضحت البيانات أن ٨٣٪ من سكان فريزلاند يتكلمون لغة فريجان، وأن ٩٧٪ منهم يفهمونها "بشكل جيد" على الأقل. وتبين الإجابات على أسئلة المسح وجود نمط تقليدي نوعا ما من الازدواجية اللغوية بين الهولندية ولغة فريجان. ويبين الجدول رقم (١١.١) المأخوذ عن جدول ٢ عند بيترسن (١٩٧٨ : ٣٦٥) التوزيع حسب الفئات المهنية وحسب المجال الأعلى والمجال الأدنى.(١٣) وقد ذكرت كافة الفئات أنها تستخدم لغة فريجان في المجالات الدنيا وتستخدم اللغة الهولندية في المجالات العليا. ومن الصحيح أيضا بصفة عامة أن الأفراد ذوي المهن العليا يستخدمون اللغة الهولندية بشكل كامل أكثر من الأفراد ذوي المهن الدنيا. ويبدو أن استخدام لغة فريجان كبير على نحو خاص في المهن الزراعية مما يبين احتمال انتشارها في الريف، وهذا انطباع دقيق جدا. يذكر ٨١٪ من أفراد العينة الذين يعيشون في الريف واستجابوا إلى المسح أنهم يستخدمون

لغة فريجان في البيوت، بينما يستخدمها في البيوت ٤٩٪ فقط من قاطني المدن. إن لغة فريجان هي لغة مكتوبة وهناك كتب منشورة بها، غير أنها تستخدم في الغالب في أغراض التخاطب إذ ذكر ٨٣٪ من العينة أنهم يتكلمون لغة فريجان، في حين أن ٦٩٪ فقط ذكروا أنهم يستطيعون قراءتها "بشكل جيد" نوعا ما، وذكر ١١٪ فقط أنهم يستطيعون الكتابة بها على نحو كاف للتعبير عما يريدون (بيترسون ١٩٧٨).

جدول رقم (١١.١). النسب المئوية لاستخدام لغة فريجان واللغة الهولندية في فريزلاند عام ١٩٦٩م من قبل أصحاب المهن الوضيعة والوجهاء.

المجموعات	اللغة المستخدمة في المنازل		لغة المهن الرفيعة	
المهنية	الهولندية	فريجان	الهولندية	فريجان
الزعماء/ الأثرياء	٦٤	٢٨	٨١	١٩
الطبقات الوسطى العاملة	٢٧	٥١	٧٤	٢١
صغار التجار	٧	٦٨	٥٢	٣٩
العمال	٧	٧٧	٥٢	٤٤
العمال المزارعون	صفر	٨٤	٣٦	٥٦
الفلاحون	١	٩٦	٣٣	٦٦

❖ الوجهاء: هم أصحاب المهن ذات المستوى الاجتماعي الرفيع كالأطباء والوزراء.

المصدر: البيانات من بيترسن (١٩٧٨ : ٣٦٥)

ولا يبدو أن من يتكلمون لغة فريجان هم في مرحلة من التحول إلى اللغة الهولندية. ورغم أن بيترسن (١٩٧٨ : ٣٨٥) يذكر أن "كبار السن يرتبطون أكثر من الصغار بأيدلوجية اللغة"، إلا أن مسحا جديدا أشرفت عليه أكاديمية فريجان وصحيفة يومية عام ١٩٧٩م يظهر أن الأرقام الإجمالية نفسها كانت قد وردت عام ١٩٦٩ (كما جاء في جريدة أخبار فريجان Frisian News Items ، المجلد ٣٥، العدد ٢ لسنة ١٩٧٩م).[١٤] ويستطيع ٩٦٪ تحديدا (مقارنة بـ ٩٧٪ عام ١٩٦٩) أن يفهموا لغة

فريجان، كما يتكلمها ٧٧٪ (مقارنة بـ ٨٣٪). كما نعلم إن فترة عشر سنوات هي فترة قصيرة جدا لكي يبدأ تحوّل بين جيلين في الظهور. ومع ذلك فإن المسح الجديد يبين أن لا فرق في معرفة لغة فريجان بين الكبار والصغار. إن المواقف المذكورة نحو لغة فريجان كانت إيجابية للغاية حيث قيِّمت لغة فريجان على مستوى أعلى من اللغة الهولندية في مقياس "اللطف". وعندما طُلب من أفراد العينة تقييم وضع لغة فريجان واللغة الهولندية ولهجتين هولنديتين أخريين (هما لهجة أهل ليمبورغ ولهجة أهل جرواننغ)، وثلاث لغات عالمية (الإنجليزية والألمانية والفرنسية) باعتبارها لغات من المتوقع بقاؤها، حصلت اللغة الهولندية على تقدير أعلى من لغة فريجان بيد أن لغة فريجان تفوقت على اللغات العالمية، وكذلك على اللهجتين الهولنديتين (بيترس ١٩٧٨: ٣٧٦).

آثار استخدام فريجان لغةً للتعليم

في بداية السبعينيات كان هناك مشروع بحث كان قد بدأه ويجنستر (١٩٧٨) لاختبار الحسنات التعليمية للمدارس ثنائية اللغة بلغتي فريجان والهولندية. وركزت الدراسة على ثلاث مجموعات من المدارس الفريجانية ومجموعة ضابطة من متكلمي الهولندية فقط من الذين ينحدرون من منطقة ريفية قرب "أوترخت". وكانت مجموعات المدارس الفريجانية الثلاث في مناطق تجمعات كبرى للأسر التي تتكلم اللغة الفريجانية (بلغت أكثر من ٩٠٪ طبقا لأرقام عام ١٩٥٦م). وقد اختلفت المجموعات الثلاث في الجوانب التالية:

المجموعة ١: اللغة السائدة في رياض الأطفال هي لغة فريجان. أما المراحل الثلاث الأولى من التعليم فكانت تدرس بكلتا اللغتين فريجان والهولندية.

المجموعة ٢: اللغة السائدة في رياض الأطفال هي لغة فريجان، بينما تدرس

المراحل الثلاث الأولى باللغة الهولندية فقط.

المجموعة ٣: اللغة السائدة في رياض الأطفال هي الهولندية، وتدرس المراحل الثلاث الأولى باللغة الهولندية.

كانت المجموعة الأولى هي الأقرب إلى النموذج الذي وضعته اليونسكو للتعليم المبكر باللغة الأم، ولذلك فإن النتائج التي حققتها الدراسة كانت مثيرة للاهتمام بشكل خاص. أما مجموعة أوترخت، مثل المجموعة الثالثة، فاستخدمت جميعها اللغة الهولندية.

كانت المجموعات الأربع متقاربة عند مقارنة مقاييس الذكاء قبل بدء الدراسة، ولم يطرأ تغيير على هذه العلاقة. في نهاية كل عام، اختُبرت المواد في المفردات والقواعد الهولندية والكفاءة الشفهية في اللغة الهولندية.وسرعة القراءة ومدى الفهم والاستيعاب في اللغة الهولندية واستخدام اللغة والإنشاء (أيضا باللغة الهولندية) والحساب. حلّلت النتائج إحصائيا عن طريق تحليل المتغيرات، واعتبرت درجات الاختبار كمتغير تابع، كما اعتبرت العضوية في إحدى المجموعات الأربع كمتغير مستقل. في اختبارات الجوانب العديدة من قواعد ومفردات اللغة الهولندية التي أجريت في نهاية مرحلة الروضة والصف الأول، كانت درجات المجموعة الأولى هي الأقل بشكل متكرر. وفي الاختبارات المتعددة كانت درجاتهم أقل بشكل ملحوظ من درجات أي مجموعة أخرى. إن هذا الأمر ليس مستغربا جدا؛ لأن تعرضهم الرسمي للغة الهولندية كان الأقل بالمقارنة مع أي مجموعة أخرى. وبحلول نهاية الصف الثاني، نقص معدل الضعف في الاختبارات التي حققوا فيها من قبل أقل الدرجات، وبنهاية الصف الثالث لم تكن درجات المجموعة الأولى أقل بشكل ملحوظ من درجات أي من المجموعات الأخرى. وفي اختبارين من الاختبارات التي قدم عنهما ويجنسترا بيانات تفصيلية (أحدهما في الكفاءة الشفهية في اللغة الهولندية، والآخر في استخدام

اللغة) فقد حقق طلاب المجموعة الأولى في الصف الثالث درجات أعلى من أي من مجموعات لغة فريجان الأخرى، وفي المرة الثانية حققوا درجات أعلى من مجموعة أوترخت (الضابطة أيضا)، لكن لم تكن الدرجات أعلى بشكل كبير. وفي الواقع، وبنهاية الصف الثالث، لم تكن هناك أية فروق بارزة بين المجموعات على الإطلاق.(١٥) فلم يرد أي فرق بارز على الإطلاق بين المجموعة الأولى ومجموعتي لغة فريجان الأخريين.

في التحليل النهائي يبدو أن التعليم باللغة الأم لأطفال الفريجان يبطيء من كفاءتهم في الاستخدامات المدرسية للغة الهولندية لفترة قصيرة، ولكن نجد أنه بحلول نهاية الصف الثالث لا يعتبر عيبا أو حسنة. ويرجع جزء كبير من أسباب ذلك إلى أن أطفال الفريجان ثنائيو اللغة باللغة الهولندية على أية حال، كما لا توجد هناك إلا فروق ثقافية قليلة بينهم وبين بقية السكان الهولنديين. إذا كان التأثير التعليمي هو الاعتبار الوحيد، فإن التعليم بلغة الفريجان لا يستحق هذا العناء. إنه يتطلب تخطيطا خاصا وتدريبا ومواد ويبدو أنه لا يعطي أية فوائد تعليمية ذات قيمة.

المنافع السياسية

ومع ذلك لم تكن المنافع التعليمية هي الاعتبار الوحيد مطلقا كما أنها لا تشكل أهم الاعتبارات. تذكر أنه كان هناك حركة ذات نفوذ مؤثر في جزر فريزلاند في صالح الحفاظ على لغة فريجان. ويرى كثير من أهل فريزلاند أنفسهم "كشعب قديم محب للحرية"، وهم في انشغال دائم "لانتزاع فريد من التنازلات من الحكومة المركزية العليا وخاصته الأجنبية" (جريدة أخبار فريجان المجلد ٣٥، العدد ١ عام ١٩٧٩). ويرون أن الإنفاق على الاختيار المحلي للتعليم باللغة الأم (أو التعليم الازدواجي اللغة) أثبت أنه ثمن سياسي رخيص يدفع لمنع المزيد من عزلة شعب الفريجان. وهناك

إشارة إلى ما كان عليه المناخ السياسي قد وردت في مقالات جريدة "فريزيان نيوز أيتمز" (٣٥، ٢ ، ١٩٧٩م) وتناولت مشروع قانون صدر من البرلمان الهولندي في أكتوبر ١٩٧٩. وتضمن مشروع القانون إضافة لغة فريجان على المنهاج المعد لكليات تدريب المعلمين في فريزلاند. وحسب المقال فقد وافق على هذا القانون الأغلبية العظمى. إضافة إلى ذلك ألقى عددٌ قليل من أعضاء البرلمان من غير الفريجان، بمن فيهم وزير التعليم، كلمات بلغة الفريجان في صالح مشروع القانون. ويبدو أن تبني موقف معتدل ومتوافق مع مؤيدي لغة الفريجان كان من أفضل المواقف. لأسباب اجتماعية وسياسية، فإن سياسة لغة الفريجان الأم مبررة تماما، خاصة عندما ندرك ما يلي:

١ - بالرغم من أن استخدام الفريجان كوسيلة للتعليم لا تثمر منافع تعليمية مباشرة فهو لا يضر أيضا.

٢ - إن لغة الفريجان هي لغة "نموذجية للمجموعة الصغيرة"، وهي متطورة إلى حد ما.

إن الحالة الخاصة بلغة الفريجان ليست الوحيدة في هذا الجانب. ففي الفلبين ما زالت كلتا اللغتين الإنجليزية والفلبينية لغة رسمية في التعليم، ذلك على الرغم من الأبحاث التي فشلت في إظهار الفوائد التعليمية لتفضيل التعليم باللغة الفلبينية على الإنجليزية (توكر ١٩٧٧ : ٣٤). إن قرار تنزانيا باستخدام اللغة السواحيلية في نظامها التعليمي لا يحظى بدعم المبادىء التي أقرتها لجنة اليونسكو. كما أن سياسة التعليم باللغة الأيرلندية في أيرلندا هي أقل علاقة بنمط التفكير السائد في تقرير اليونسكو.

الخلاصة

يعد استخدام اللغة كوسيلة للتعليم أحد أهم قرارات تخطيط اللغة التي يمكن اتخاذها. عبرت لجنة خبراء اليونسكو في اجتماعها عام ١٩٥١م عن وجهة النظر القائلة بأن مصلحة الأطفال الصغار هي الاعتبار الأهم الذي يجب النظر إليه عند اتخاذ مثل هذا القرار. وقد أدى هذا بهم إلى التوصية بأنه يجب استخدام اللغات الأم للمتعلمين كوسيلة للتعليم في بداية الدراسة كما أوصوا باستمرار استخدامها إلى أقصى حد ممكن. وقد توقعت اللجنة أربعة اعتراضات أولية على هذه التوصية وتعاملت معها بطريقة معقولة. والاعتراضات الأخرى، والتي يسميها التقرير (القيود العملية)، كانت أكثر صعوبة في التعامل معها على الرغم من أن التقرير له وجهة نظر معينة تجاه هذه الاعتراضات.

بقيت منذ ذلك الحين توصيات اليونسكو مثارا للجدل. ومن أجل تقييم اقترحته اللجنة، يبدو من المعقول أن نسأل ما إذا كان من الممكن متابعة تنفيذ هذا الاقتراح، وما إذا كان هذا التنفيذ الخاص بالتوصيات سوف ينجح، وهل تستحق الفوائد التي سنجنيها كل هذا العناء. يبدو أنه من غير الممكن تنفيذ هذه التوصيات على كل جماعة لغوية عرقية في العالم؛ إذ إنه يمكن تطبيق هذا المثال الخاص باليونسكو فقط في معظم حالات الدول ذات اللغات المتعددة. وعلى الرغم من حقيقة أن الرأي العام البديهي يشير إلى أن الأطفال يتعلمون بصورة أفضل إذا درِّس لهم بلغتهم الأم، إلا أن البحث الذي نفِّذ في الثلاثين عاما الأخيرة لم يكن حاسما بشكل يدعو للدهشة. ويعود جزء كبير من هذا السبب إلى الصعوبات التي تنطوي عليها الأبحاث العلمية للمجتمعات الكبرى مما يجعل إمكانية السيطرة على كافة المتغيرات المتداخلة والداحضة أمرا أشبه بالمستحيل، وغالبا ما تترك كل مشروعات الأبحاث متغيرات مهمة لا يمكن السيطرة عليها. ومع ذلك فإنه يمكن توقع اتجاه معتدل على الأقل

لصالح تعليم اللغة الأم حتى في مجال البحث المنفذ بشكل غير تام. ومع هذا يبدو أنه في مقابل كل بحث يشير إلى أن التعليم باللغة الأم هو أمر فعال، هناك بحث آخر يشير إلى النقيض. وإجماع الآراء حول السؤال عن مدى جدوى هذا الأمر ونجاحه هو "نحن لا نعلم وحسب".

إذا استنتجت إحدى وكالات تخطيط اللغة أن توصية اليونسكو يمكن أن تنجح في بيئة ما، فإنه لا يزال أمامنا السؤال الخاص، وهو ما إذا كانت المنافع المكتسبة تستحق كل هذا العناء. يعطينا التصنيف اللغوي الاجتماعي الثلاثي للغات العالم أساسا لمحاولة الإجابة على هذا السؤال. والأقسام الثلاثة هي: (١) لغات الجماعات الصغيرة، (٢) اللغات القومية (بمعنى تعريفي خاص) و(٣) اللغات العالمية. غالبا ما يُعرض هذا القرار كاختيار بين لغة الجماعة الصغيرة واللغة العالمية. هناك حلول وسط معقولة في بعض البيئات التي تستخدم اللغة القومية في التعليم كبديل للغة العالمية وكبديل لمحاولة استخدام لغات محلية متعددة. يدل الواقع على أن القادة السياسيين والعلماء في عديد من الدول ذات اللغات المتعددة يدافعون عن هذا الحل المطروح. هناك خمسة معايير يمكن استخدامها للمساعدة في اتخاذ القرار الخاص باللغة أو باللغات التي يجب استخدامها في التعليم، وهي: (١) الاستخدام كوسيلة للتواصل الأوسع، (٢) عدد المتحدثين بها، (٣) تطور اللغة، (٤) أفضلية الجماعة، و(٥)عامل التسرب. وتطبيق هذه المعايير يشير بقوة إلى اللغات "القومية".

في الواقع العملي نجد أن الفائدة التعليمية لأطفال المدارس ليست العامل الرئيسي الذي يؤثر على القرار الخاص باستخدام لغة أو أخرى في التعليم. والدليل على هذه الحقيقة هو التاريخ الحديث الخاص بإدخال لغة الفريجان، وهي لغة إقليمية في هولندا، إلى المدارس الإقليمية في فريزلاند. لقد استخدمت خلال العقود القليلة الماضية لغة الفريجان كوسيلة تعليم في برنامج ثنائي اللغة في بعض مدارس منطقة

الفريزلاند. وتشير نتائج البحث إلى أن استخدام لغة الفريجان في التعليم الأولي لم يساعد، كما أنه لم يعق، الطلبة على التحصيل العلمي المدرسي. إذا كانت نتائج البحث التعليمي هي الوحيدة التي تستحوذ على الاهتمام، يبدو لنا أن اللغة الهولندية يمكن أيضا أن تخدم كلغة تعليم وحيدة كما هو الحال في باقي أرجاء الدولة. ورغم هذا فقد استمر استخدام لغة الفريجان في مدارس منطقة الفريزلاند حتى أنه توسع في عام ١٩٨٠م. وتعود أسباب هذا الإجراء في الواقع إلى أسباب سياسية واجتماعية أكثر من كونها أسبابا تعليمية، ولكن تلك هي السياسة الصحيحة على ما يبدو. وفي هذا الخصوص يتضح أن حالة لغة الفريجان هي حالة نموذجية لتخطيط اللغة التعليمي.

هوامش لمراجع إضافية

تتضمن الأعمال التي ناقشت بشكل عام التعليم بلغتين، والتي ناقش معظمها إلى حد ما سؤال اللغة المستخدمة في التدريس، ما كتبه فيشمن (١٩٧٧م)، وسبولسكي (١٩٧٢م)، وكلوس (١٩٧٧)، ولويس (١٩٧٧م). وفي توسي (١٩٧٩م) مراجعة الدراسات حول تعليم المهاجرين باللغة الأم وفي الكتاب مراجع مفيدة جدا. وتشمل أعمال حديثة لدراسات ميدانية عمل سبولسكي وكوبر (١٩٧٨م) (مجموعة من المقالات)، وكوهين (١٩٧٥م) (ردودسيتي في كاليفورنيا)، وماكي وبيبي (١٩٧٧م) (المهاجرون الكوبيون في ميامي: فلوريدا)، وسيبيسان (١٩٧٨م) (الفلبين)، وبيري (١٩٧٦م) (حالات تضمنت لغات هجين)، وسبولسكي (١٩٧٧ ب) وروزير وفارلي (١٩٧٦م) (وكلتا الدراستين حول الهنود الأمريكيين)، ويمقابوس (١٩٧٦م) (غرب إفريقيا). وتتضمن القائمة الطويلة عن دراسات برامج الانغماس باللغة الفرنسية في كندا دراسة ماكدوغال وبروك

(١٩٧٨)، وسترن (١٩٧٨م)، وبتس (١٩٧٨م)، وسواين (١٩٧٨م)، وجنيسي وآخرين (١٩٧٨)، وبروك ولامبرت وتوكر (١٩٧٧م) (انظر أيضا إلى توكر وهامايان وجنيسي (١٩٧٦م) والمراجع التي وردت فيها).

هوامش

(١) الاستشهاد بما ورد في تقرير اليونسكو سيكون من المقاطع الأسهل تداولاً في فيشمن (١٩٦٨ج) وليس من المطبوعة الأصلية.

(٢) لاحظ أن تعريف اليونسكو يختلف عن التعريف الذي استخدمه فرجسون (١٩٦٦م) في نقاشه حول الصيغ الجانبية. استخدم فرجسون التقييس كمعيار أساسي، واللغات العامية غير قياسية رغم وجود متحدثين أصليين لها. وقد أحلت اليونسكو منزلة الرسمية مكان التقييس في بعض بلدان العالم. وفي رأيي فإن معيار فرجسون أرقى. خذ على سبيل المثال، اللغات المذكورة في الفقرة الثامنة من الدستور الهندي. فمعظم هذه اللغات قياسية بالدرجة نفسها تقريبا. ولكن لن تعتبر الهندي مثلا لغة عامية طبقا لتعريف اليونسكو بسبب منزلتها كلغة رسمية في الهند، وكذلك لن تعتبر الأردو عامية؛ لأنها اللغة الرسمية في باكستان. وستعتبر التاميل لغة عامية؛ لأنها ليست اللغة الرسمية لأي دولة (لها صبغة رسمية في بعض الأقاليم لسيرلانكا). ولكن التاميل على الدرجة نفسها تقريبا من تطور الهندي أو الأردو. ويعترف تقرير اليونسكو (١٩٦٨م، ص ٦٨٩) في أحد الهوامش أن تعريفها قد لا يكون قابلا للتطبيق عالمياً. وعلى أية حال، سيعطي كلا التعريفين اللغات نفسها في معظم الحالات.

(٣) فيما يتعلق بمعارضة استخدام اللغة الأم والقول بأنه يمنع التعلم المتأخر للغة

الثانية لا يتفق جميع اللغويين على أن تدريس اللغة الثانية من خلال اللغة الأولى هو بالضرورة أفضل طريقة. وسنرى أن هناك دليلا لا بأس به على أن استخدام اللغة كوسيلة للتعليم قد يكون أسلوبا فعالا في بعض الظروف في نقل تلك اللغة. ولكن أشك في أن أي لغوي سوف يود القول إن استخدام اللغة الأم كوسيلة تعليم يمنع اكتساب لغة أخرى.

(٤) وعند هذه النقطة بالذات يصعب قليلا تتبع التقرير. فقد يقود التنوع المحلي للتدريس بلغة ليست اللغة الأم لبعض الأطفال، ويبدو أن اللجنة تقبل هذا على مضض كحل دائم. وقدم الحل نفسه على المستوى القومي كحل مؤقت، وينقص قليلا عن كونه مثاليا. وبالطبع فالدول مكونة من مجتمعات محلية. وقد تكون الفكرة المبطنة هي أن مجموعات اللغة الأم الصغيرة قد لا تحصل على تعليم باللغة العامية، ولكن يجب على الدول أن لا تتوقف عن محاولة استخدام لغات المجموعات الكبيرة والمتوسطة في التعليم.

(٥) أخذت المتقبسات عن مقال بول من المقال المعاد طباعته في هايمز (١٩٦٤م).

(٦) تجربة تراسكان التي أشار إليها بول هي مشروع تعليم باللغة العامية استشهد به وأثنى عليه في تقرير اليونسكو.

(٧) تسمى الطريقة المستخدمة في هذه التجارب "بالانغماس"؛ لأن الطلاب "ينغمسون" باللغة الفرنسية من خلال اليوم المدرسي.

(٨) ناقش لي بيج (١٩٦٤م، ص ص ٢١ - ٢٨) و داكين وتيفن ودوسون (١٩٦٨م، ص ص٣٣-٣٥) ما يتضمنه انتشار ثنائية اللغة بالنسبة للتعليم باستخدام اللغة الأم كوسيلة تعليمية.

(٩) قاده تحليل تاداجيو (١٩٧٧) والفوائد إلى استنتاج أن التعليم باللغة الدارجة يستحق في جوهره العناء من أجله في العديد من الدول الإفريقية.

(١٠) سوكوما، وهي لغة تنزانية لها أكبر عدد من المتحدثين بها كلغة أم، هي لغة قومية هامشية طبقا للتعريف الذي أنا في طريقي لوضعه.

(١١) يعتمد وصفي لحالة لغة فريجان أساسا على بيترسون (١٩٧٨م).

(١٢) إن هدف عام ١٩٨٠م كان ما يزال ساري المفعول حتى يناير من عام ١٩٧٩م Frisian New Items جريدة أخبار فريجان المجلد ٣٥، العدد ١، عام ١٩٧٩م.

(١٣) لا يصل مجموع النسبة المئوية إلى ١٠٠٪ لأن بعض من أجابوا ذكروا، بالإضافة إلى اللغة الهولندية والفريجانية، أنهم يتحدثون "لهجة" من لغة فريجان أو لغة فريجان في المدينة، وهي شكل لغوي يعتمد كثيرا على الهولندية في مفرداته ويستخدم قواعد لغة فريجان وطريقة نطقها (بيترسن ١٩٧٨ : ٣٥٧).

(١٤) أنا ممتن لفلورنس كويبرز Florence Kuipers لتوفير نسختين من إصدارين لجريدة أخبار فريجان Frisian New Items بالإضافة إلى نسخة من ويجنسترا (١٩٧٨). إن جريدة أخبار فريجان هي نشرة يصدرها مكتب معلومات فريجان في كراند رابيلز في ميشيجان.

(١٥) إحدى النتائج التي وجدها ويجنسترا محيرة، وهي أن مجموعة أوترخت قد حصلت على درجات أعلى بشكل ملحوظ من المجموعات الثلاث الفريجانية في الحساب بالرغم من أنهم لم يظهروا أي مزايا أفضل من الأطفال الفريجان في القراءة والاستيعاب السمعي بالهولندية.

الأهداف

١- أن يكون قادرا على ذكر المتطلبات الرئيسية الثلاثة لنجاح وسيلة التعليم.

٢- أن يكون قادرا على ذكر الاقتراح الرئيسي للجنة اليونسكو بما يخص التعليم الابتدائي.

٣- أن يكون قادرا على ذكر ردود تقرير اليونسكو على الاعتراضات الأربعة التي توقعتها لمقترحاتها.

٤- أن يكون قادرا على معرفة اقتراح تقرير اليونسكو للتعامل مع "القيود العملية" المتعلقة بمواد التعليم غير المناسبة في بعض اللغات وقلة المعلمين المتوافرين للتدريس بتلك اللغات.

٥- أن يكون قادرا على معرفة اقتراح اليونسكو للتعامل مع الحالات التي تكون فيها مفردات العامية غير مناسبة لاحتياجات المنهج.

٦- أن يكون قادرا على معرفة اقتراحات اليونسكو للتعامل مع تعدد اللغات في المجتمعات المحلية وبلدان بأكملها (تأكد من معرفة الفرق الدقيق بين حالات "المجتمعات المحلية" و"الدول ككل").

٧- أن يكون قادرا على معرفة اقتراح اليونسكو للتعامل مع مشكلة المعارضة الشعبية.

٨- أن يكون قادرا على معرفة فحوى إجابة فاسولد على السؤال "هل هذا ممكن؟".

٩- أن يكون قادرا على معرفة فحوى إجابة فاسولد على السؤال "هل يتحقق هذا؟".

١٠- معظم التجارب التي حاولت الإجابة على التساؤل "هل يحقق هذا الهدف" أخفقت في ضبط جميع المتغيرات. والهدف أن يكون قادرا على معرفة تعريف مصطلح "المتغيرات غير المضبوطة".

١١- أن يكون قادرا على معرفة "متغير شائع مضبوط".

١٢- أن يستطيع تسمية الحالة التي يكون فيها التعليم باللغة الأم" لا يتمتع بمزايا حسنة على الإطلاق".

١٣- أن يستطيع معرفة فحوى إجابة فاسولد على السؤال "هل يستحق كل هذا؟".

١٤- أن يكون قادرا على معرفة تعاريف لغة المجموعة الصغيرة واللغة القومية واللغة العالمية.

١٥- أن يكون قادرا على معرفة الأسباب الثلاثة التي تجعل اللغات القومية بديلا معقولا لكل من لغة المجتمع الصغير واللغة العالمية كلغات تعليم في العديد من الدول النامية.

١٦- أن يكون قادرا على معرفة المعايير الخمسة المقترحة لتقرير أي لغة ستستخدم في المدارس.

١٧- أن يكون قادرا على التعرف على السبب الممكن جدا لتبرير التعليم باستخدام لغة فريجان في فريزلاند.